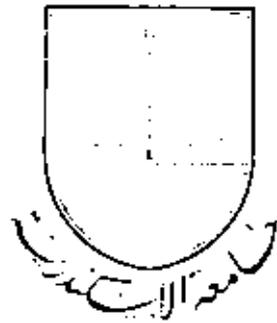


# مجلة كلية الآداب



المجلد السادس عشر

١٩٦٢

تعددت هذه المجلة عن كلية الآداب جامعة الإسكندرية  
بالتشجيع والتوجيه للكتابة الخاصة لتساهل مساهمة إلى  
هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الإسكندرية

١٩٦٢



## هيئة التحرير

- الأستاذ الدكتور محمد ثابت المندي ... .. ( عميد كلية الآداب )  
الأستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر ... .. ( وكيل كلية الآداب )  
الأستاذة الدكتورة نور شريف ... .. ( مساعدة اللغة الانجليزية وآدابها )



# فهرس

مرفعة

فوح العرب أمغرب بين الحقبة التاريخية

مكتوب عبد الحيد ... ..

فربلس الشام

مكتوب عبد العزيز ... ..

اختلاف العرافين والمذنبين في تقدير الصاع النبوي

مكتوب عبد عبد الحيد ... ..

الدافع الشخصي في قيام الحركة الضالعية

مكتوب جيزع عبد يوسف ... ..

خدمات الاسكندرية الرومانية

مكتوب فوزي بن محمد ... ..

التقمة : أصولها وتطورها

مكتوب كمال الحوي ... ..

تاريخ بناء القرويين

مكتوب عبد الحيد ... ..

مساجد القاهرة ومدارسها

عوض رندة ... ..

وعند بالمور وانواعها التي ساعدت على انتشاره

مكتوب محمد حمزة ... ..



# فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية

دراسة ونقد لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية »  
من مخطوطات الواقدي بالمتحف البريطاني

للككتور محمد زغلول عبد الحميد

ما زالت قصة الفتح العربي للمغرب بحاجة الى المزيد من البحث والدراسة أو بالأحرى بحاجة الى ظهور المزيد من المعلومات الأكيدة أو الوثائق الحديدية . فالغموض يكتنف كثيراً من جوانبها ، والفراغ والشغرات تقطع كثيراً من أوصالها ، وفوق هذا وذلك عمرت الأسطورة والحرافة أطرافها من بدايتها الى نهايتها . وهذا الأمر ليس غريباً بالنسبة لتاريخ الفترة الأولى من صدر الدولة الإسلامية على العموم . فأخبار هذا العصر كانت تتداول - في البداية - شفاهاً . والرواية الشفوية عرضة للتحوير والتغيير ، وخاصة اذا بقيت مدة طويلة دون تسجيل . وهذا التحوير والتغيير قد يتناول قليلاً ضئيلاً من الخبر انذى يظل محتفظاً بكيانه وجوهره ، وقد يتناول الخبر جميعه ليمسحه ويبدله وهنا ينتهى الأمر - مع مرور الوقت - الى أحد تقيضين : إما أن تنقب الحقيقة التاريخية الى أسطورة : وإما أن تتحول الحرافة الى حقيقة تاريخية .

والعوامل التي تؤدي الى التغيير الضئيل في الخبر أو المسخ الشامل له كثيرة . أولها حتمى مصادر من طبيعة الرواية الشفوية اذ يصعب ضبطها والتحكم في صحة دقائقها عندما تنتقل من راو الى آخر . وثانيها أناني قبل نابع من طبيعة تنظيم العرب انقبيل - حينذاك - اذ تأخذ كل جماعة بالرواية التي ترضى نزعتها العصبية أو نعرتها القبلية بل وتغير فيها حتى تلائم مزعها هذا .

وثالثها سياسى يظهر بعد انتهاء فترة التكلل الأولى ، وقيام الفتنة بين العرب ، وظهور الفرق والمذاهب التى زادت فى التشتيت وأشعلت لهيب الخصومة بين الأطراف المتنازعة ، مما جعل كل فريق يبحث عن الأسانيد التى يؤكد بها أطباعه السياسية ، ويخترع لنفسه الأجداد والمفاخر ، وينسب الى خصومه الصفات والمخازى . وذهب البعض فى هذا السبيل الى حد انتحال الأحاديث النبوية -- كما نعرف . وأما رابعها فعاطفى أو إنسانى يرجع الى الوضع الحديد الذى وجد العرب أنفسهم فيه بعد أن تحققت تلك الفتوح الكبرى فى ذلك الوقت القصير اذ استبدلوا ببلادهم الفقيرة البخيلة أقطاراً غنية كريمة ، وسكنوا المدن العظمى بعد أن كان كثير منهم لا يعرف الا قرى الحجاز أو واحات نجد ، ونخالطوا شعوبا وجماعات تعيش عيشة مدنية تختلف تمام الاختلاف عن حياة البادية ، وتمارس عادات وتقاليد لا يفهمها أهل الصحراء . كل هذا كان يثير -- بطبيعة الحال -- مشاعر القوم واحاسانهم ويطلق العنان لخيال كتابهم الحصب وتصوراتهم الخيالية .

هكذا ظهرت الأسطورة فى تاريخ الفترة الأولى لدولة الاسلام فى المشرق وفى المغرب على السواء . وسجلها الكتاب عندما بدأ التدوين ، وأصبحت شيئاً تقليدياً لا تخلو منه كتب المتأخرين حتى أولئك الذين عرفوا النقد التاريخى واعتنوا بصحة الأخبار . وبلغ الأمر الى أن اعتنى عدد من الكتاب بالفرائب والعجائب فكرسوا لها المصنفات . ولهذا يجد المؤرخ الحديث صعوبة كبيرة فى نقله للمراجع من وجهين : أولهما عندما يحاول التفرقة بين الأسطورة وبين الحقيقة التاريخية ، وثانيهما عندما يحاول نقد الاخبار ذات الطابع التاريخى العلمى ، والتى كثيراً ما تتضارب فى تنصيلاتهما مثل الاختلاف فى توقيت الأحداث الهامة : كالوقائع أو تأسيس العواصم المشهورة . ونكتفى هنا بالإشارة الى الاختلاف فى تحديد تاريخ وقعة القادسية

الفاصلة (١) أو وقعة أجنادين أو اليرموك (٢) وكذلك ما يروى عن فتح مصر وهل تم بعلم الخليفة أو بعز علمه (٣). وتظهر هذه الصعوبات بوضوح في التاريخ لعصر الفتح العربية في المغرب الذي يشغل القرن الهجري الأول تقريباً ، وهو موضوع بحثنا .

والمؤرخ ينزع عادة الى أحد منهجين : اما أن يضرب صفحا عن الروايات ذات الطابع الخرافي فيحطها ولا يصبح أمامه الا مهمة نقد الروايات التاريخية وترتيبها ، واما أن يهتم بالكتابين جميعاً فيحاول أيضاً نقد الأسطورة وردها الى أصلها التاريخي - ان كان لها أصل تاريخي . وهنا تصح مهمته شاقة عميرة ، وطريقه مليئة بالعقبات والمزالق . ولقد أشار الأستاذ ليفي بروفسال في دراسته لأحد النصوص التي عثر عليها والتي تعالج فتوح العرب في المغرب في القرن الأول الهجري الى الصعوبات التي يعانيها المؤرخ نتيجة لنقص المعلومات وتضاربها ثم ليلها الى الحرافقة في كثير من الأحيان (٤). وأشاد بروفسال ببعض الدراسات التي قام بها عدد من العلماء الفرنسيين

(١) أنظر المعهود ، مروج الذهب (طبعة التجارية ١٣٦٧/١٩٤٨) ، ج ٢ ، ص ٢٢٨ حيث يعرض اختلافات الرواة في أمر القادسية : فإلماثي (توفي ٢٥٥/٨٣٩ م) يقول أنه في سنة ١٤ هـ ، وابن اسحق (توفي ١٥١/٧٦٨) يقول أنها في سنة ١٥ هـ ، والواقدي (ت ٢٠٧/٨٢٣) يقول أنها في سنة ١٦ هـ . ونشأ عن ذلك الاختلاف في تحديد وقت بناء البصرة والكوفة اللتين بنتها عقب القادسية .

(٢) يبلغ الاختلاف في توقيت اجنادين واليرموك الى حد أن الكتاب لا يصفون عن أيهما وقعت قبل الأخرى : انظر ابن خلدون ، طبة فاس ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ حيث يرجح رواية سيف بن عمر (توفي ١٧٠ هـ/٧٨٦) التي أخذها تطبري والتي تجعل اليرموك سنة ١٣ هـ ثم يشير الى رواية الواقدي التي تقول ان اليرموك كانت سنة ١٥ هـ . وبين ابن خلدون (ج ٢ ص ٣٣٦) اختلاف الكتاب في اجنادين واليرموك أيهما قبل الأخرى ، وازاء الاختلاف هذا اضطر الى أن يرتب الأحداث حسب القولين جميعاً .

(٣) انظر ابن عبد الحكم (طبعة ليدن) ، ص ٤٣ ، ٥٦ ، ٥٧ ، البلاذري ، طبة ليدن ص ٢١٢ حيث يقول « ورضي (عمرو) الى مصر من تلقاه نفسه في ثلاثة آلاف وخمسة مئتين عمر لذلك .. »

(٤) أنظر صحيفة المهدي المصري بمفريد ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٣ .

الذين اهتموا بتاريخ المغرب مثل وليم مارسيه (Marçais) وجورج مارسيه وبيرونشفيج (Brunchvig) وجاتو (Gateau) كما أشار الى المقدمة التاريخية الخاصة بفتح المغرب في كتاب رياض النفوس الذي حققه الدكتور حسين مؤنس . ويخلص بروفنسال الى أنه من الصعب كتابة تاريخ فتح العرب للمغرب بالتفصيل ، وأن بعض الكتابات القيمة هي التي حددت معالم هذه الفترة على وجه الاحمال أو عالجت بعض النقاط فقط (١) . وربما كان هذا الرأي صحيحاً الى حد كبير اذ هو ينطبق عندما على بحث الدكتور حسين مؤنس عن « فتح العرب للمغرب » فقد تعرض مؤنس للموضوع بشكل مستفيض ، ونظر في مراجعه ، وحاول نقد كل الروايات ونجح في ذلك ولكن انعمرت الخطوط العريضة للموضوع وسط سيل التخصيلات التي تتناقض في كثير الأحيان (٢) . وعلى العكس من ذلك ظهرت هذه الخطوط واضحة جلية عندما لخص هذا البحث في صفحات قليلة جعلها مقدمة لفتح الأندلس في كتابه عن « فجر الأندلس » (٣) .

ونريد أن نخرج من هذا بالتماس العذر للدكتور حسن أحمد محمود الذي تعرض في بحثه القيم عن « قيام دولة المرابطين » لفتح العربي للمغرب فوقع في حيرة أمام اختلاف الروايات فروى ما يفهم منه أن عقبة بن نافع استشهد في المغرب الأقصى اذ يقول بعد مقتله : « ورحف كسيلة الى الشرق متجاوزا المغرب الأقصى وانقض على افريقية » (٤) . ومنها الحيرة في ترتيب المراحل الكبيرة للفتح ، والحيرة أمام اختلاف الروايات عن أعمال كبار القادة : فهو يقدم حسان بن النعمان على زهير بن قيس البلوي ، وينسب اليه أنه « لم يستطع أن يهزم كسيلة نهائياً ، إنما أقصاه عن الصروان » . وهو لا يذكر ما كان من أمر حسان

(١) أنظر صحيفة المعهد العربي بمقريه ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مجلد الثاني ، ١٩٥٤ ، ص ١٩٤ - ١٩٥

(٢) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ، ١٩٤٧

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٣١ - ٤٩

(٤) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٦٣

والكاهنة (١) . ثم يقول بعد ذلك ان زهيراً قتل كسيلة عند ممس ، ولكنه يذكر أن « العرب أمعنوا في تعقب البربر المهزومين حتى وادى ملوية بل أوغلو حتى طنجة » (٢) . والمعروف أن زهيراً عاد ادراجة نحو المشرق بعد قتله لكسيلة وأنه استشهد على سواحل برقة (٣) . والسبب فيما وقع فيه الدكتور حسن محمود هو أنه أخذ من بعض المصادر المهمة - رغم أنها متأخرة بعض الشيء - مثل بيان ابن عذاري ورياض المالكى التي يذكرها في الهوامش ، ولكن دون أن يقابلها ببعضها البعض أو يعرضها للنقد . والحقيقة أن الرجوع مباشرة الى مصادر فتح المغرب - ولانستى من ذلك أمهات هذه المصادر مثل كتاب ابن عبد الحكم الذى يقدم حسان بن النعمان في بعض أبوابه على زهير بن قيس (٤) - دون الاستفادة من الدراسات النقدية الحديثة يعتبر مغامرة قد لا تحمد مغبتها : وذلك للأسباب التي ذكرناها ابتداء من نقص المعلومات وتضاربها وكثرة الأساطير .

وهذه الأسباب هي التي جعلتنا نختار « فتح المغرب بين الأسطورة والحقيقة التاريخية » موضوعاً لهذا البحث . أما عن مادة البحث الأولى فمخطوط اطلعنا عليه بالمتحف البريطانى يحمل عنوان « فتوح مدينة أفريقية » ولا يحمل اسم المؤلف وهو منسوب في فهرس المتحف (القسم العربى ، رقم Add.9572) للواقدي . وهذه النسخة ليست وحيدة فهناك نسخ أخرى يذكرها بروكلمان في مكنتيات ليدن وباريز وكامبريدج والجزائر وفاس (٥) . وأكثر من ذلك أن « فتوح أفريقية » هذه طبعت في تونس منذ حوالى

(١) نفس المصدر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٢٨ ، بروفسان ، صحيفة المهدي انصرى بمغريد ، ٩٥٤ ، ص ٢١١ والهوامش .

(٤) انظر ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٢ حيث يروى قصة مقتل زهير بن قيس في انطابلس (برقة) بعد أن روى من قبل قصة انتصارات حسان على الكاهنة (ص ٢٠٠ - ٢٠١) . وهو يحدد مقتل زهير على هذا الأساس بسنة ٧٦ هـ (ص ٢٠٣) أي أيام حسان بن النعمان .

(٥) أنظر : Brockelmann, G. A. L., supp. I p. 208 .

خمة وستين عاما (١٣١٥ هـ) بمعرفة عبد الرحمن الصنادل تحت عنوان «فتوح إفريقية للامام العلامة الخبير الفهامة سيدي محمد الواقدي رحمه الله تعالى». وطبعة تونس هذه في جزئين كل منهما في حوالي ١٥٠ صفحة، والمخطوط يعادل الجزء الأول منها. وهذه الطبعة نادرة الآن فهي لا توجد في دار الكتب أو في مكتبة جامعة القاهرة، وعلى ذلك يمكن القول إنها أشبه بالمخطوط. وهي في الحقيقة كذلك: فناشرها لا يذكر الأصل الذي نقل عنه كما أنه لا يحققها ولا يزودها بمقدمة من عنده ولا بالهوامش اللازمة حتى ظلت بكرة على حالتها الأولى. ونحن نلتصم العذر للصنادل فتحقيق مثل هذا المخطوط أمر صعب إن لم يكن مستحيلا، وذلك أن القصص والأماطير تغلب فيه على التاريخ الحقيقي. وربما كان هذا هو السبب الذي دعا المهتمين بتاريخ المغرب من المستشرقين والعرب إلى إهمال هذا الكتاب إهمالا تاما، فلم يشيروا إليه في تقديم للمصادر بل ولم يذكروه فيها ذيلوا به أمثالهم من ثبت للمراجع. فدوزي وبيروفنسك وماوسيه وبرونشفج ومونس وغيرهم لا يذكرونه في المراجع وإن كان مؤنس يشير إليه في فصل المصادر عندما يتقد التويري (ص ٣١٠) وفي أحد الهوامش الخاصة بحملة ابن أبي سرح (ص ٩٠ هامش ٣). وهذا يدعو إلى التساؤل عما إذا كانوا يعرفونه أم لا. ونظن أن بعضهم على الأقل كان يعرف «فتوح إفريقية»، ويجوز أن طبيعة الرواية الأسطورية وصعوبة تحقيقها هي التي زهدتهم في التعرض له.

ونحن لا ندعي أننا سنحقق الكتاب - فهذا أمر صعب - ولكننا سنحاول أن نتعرض له بالدراسة والنقد في محاولة تهدف إلى تبيان أصوله التاريخية، وكيف تحولت الحقائق التاريخية في هذه الرواية إلى أماطير أو العكس. وتحديد عملنا بهذا الشكل يفسر كيف أننا اقتصرنا على دراسة مخطوط المتحف البريطاني مع مقابله بطبعة تونس. ولكننا لم نكتف بهذا التحديد إذ لما كان فتح المغرب استمرارا لفتح مصر فقد رأينا أن نتعرض لفتح مصر للواقدي وهو القسم الثاني من مخطوط «فتوح الشام ومصر» بالمتحف البريطاني أيضا (القسم العربي رقم Add. 7361) وهذا القسم نشر سنة ١٨٢٥ في ليدن بمعرفة هنريك آرنه همبر تحت عنوان «كتاب فتوح مصر والاسكندرية

المنسوبة الى المؤلف الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن واقد الواقدي المدني . وطبعة لندن أكثر تمصيلا من مخطوط المتحف البريطاني ، وينطبق عليها ما قلناه على طبعة « فتوح افريقية » من حيث الندرة وبقاء النص على حاله الأولى كالمخطوط تماما . هذا ونظرنا في « فتح البهجة وفيوم من أرض مصر » للواقدي كذلك ، وهو مخطوط بمدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بلندن ، وملحق بمخطوط لتاريخ أبي النداء (النجم العربي رقم ٢٦٣٨٦) . ولقد طبع هذا الكتاب سنة ١٢٨٠ هـ بالقاهرة تحت عنوان « فتوح البهجة وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها من مصحابة » بمعرفة حسين الخشاب . ويذكر أنه للشيخ محمد بن المعز . والظاهر أن صحة الاسم الأخير هذا هو « محمد بن محمد المقرئ » كما هو مذكور في المخطوط (١) . ونظن أنه واقدي آخر غير صاحب المغازي اذ يلقبه المصنف أو الناسخ « بالواقدي المحدث المصري » (٢) كما في المطبوع أيضاً (٣) . والمطبوع هنا لا يختلف عن المخطوط من حيث عدم التحقيق وبقاء النص دون نقد أو تعريف .

والحقيقة أن القرابة قريبة بين المخطوطات والكتب الثلاث كما سنرى . وسنشير الى فتوح الأندلس التي هي استمرار لفتوح المغرب ، ونكتفي بذكر عنوان كتاب ابن عبد الحكم « فتوح مصر والمغرب والأندلس » لتبديل على ما بين قصة فتوح البلدان الثلاثة من علاقة وثيقة .

ورواية ابن عبد الحكم (توفي في مصر سنة ٢٥٧/٨٧١) هي أقدم رواية كاملة وصلت اليها عن فتح المغرب . . وهي تمثل الرواية الشرقية لقصة الفتح رغم أن ابن عبد الحكم مصري ، ومصر كانت قاعدة فتح المغرب كما كانت عاصمته عقب الفتح . وكانت الفسطاط تنخر بالرسائل

(١) فتح البهجة وفيوم ، مخطوط مدرسة الدراسات الشرقية بلندن ، انجم العربي ٢٦٣٨٦ ص ١٠٢ ، وأنظر : Brockelmann, G. A. L., I, P. 142  
(٢) نفس المخطوط ، ص ١٠٨ .  
(٣) فتوح البهجة وما فيها من العجائب ، طبعة ١٢٨٠ هـ ، ص ١٩ وفتح .

والسجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب . فضل بن عبد الحكم عن كثير من المشايخ الذين رأوا هذه السجلات أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطنطينية (١) . وإلى جانب ذلك دون بعض المعلومات المأخوذة من الروايات الشعبية التي تداولها أهل مصر . وعلى الجملة كان ابن عبد الحكم . . بفضل أسرته التي شاركت في أحداث مصر مشاركة فعلية - في موقف يسمح له بالكتابة المفصلة عن فتح مصر والمغرب والاندلس ، وعن الخطط والتنظيم الإداري في مصر ، بشكل لم يسبقه إليه أحد من الكتاب . وهو هنا له حتى الأولوية على المقرئ صاحب الخطط .

والواقدي أقدم من ابن عبد الحكم بحوالي جيلين (توفى ببغداد سنة ٢٠٦/٨٢١) ، وله عدد من المؤلفات في الفتوح والمغازي مثل مغازي الرسول ، وفتوح الشام ، وفتوح مصر ، وفتوح إفريقية . . الخ . وعلى ذلك يمكن اعتباره ممثل ذلك النوع من الأدب التاريخي الذي بدأه ابن إسحق (توفى ١٥١/٧٦٨) صاحب السيرة . ولكن مؤلفات الواقدي لم تصل إلينا جميعاً ، والذي ثبت نسبه إليه هي «مغازي الرسول» بينما يشك في أن تكون «فتوح الشام» له . وما عدا ذلك مما وصل إلينا مستقلاً أو منقولاً في كتب التأخرين فيشك في أصالته ، بل وفي صحة نسبه إليه . وإلى جانب الواقدي وابن عبد الحكم يأتي البلاذري (توفى سنة ٢٧٩/٨٩٢) وهو محدث مؤرخ في روايته مثلها .

ويقع مخطوط «فتوح مدينة إفريقية» الذي اتخذناه محور البحث في ٨٦ (ست وثمانين) ورقة من القطع المتوسط (4 in) ، وهو بخط مغربي جميل ، مكتوب بالخط الأسود بينما العنوان والكلمات الواقعة في أوائل الجمل مكتوبة بالخط الأحمر . وتبدأ خطبة الكتاب هكذا :

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ . ويلاحظ هنا أن طبعة ليدن تقول : «ذكر بعض المشايخ المتقدمين أنه نظر في بعض الدواوين بالقسطنطينية وقرأه قبل أن يتحرق فإذا هو يحفظ منه . .» فأثبت الناشر كلمة يتحرق بدلاً من يحرق التي قرأناها في مخطوط المتحف البريطاني (القسم العربي) رقم (Stoue, or. 6.) ، ص ٧٢ وجه . هذا وأثبت الناشر أن مخطوط لندن يحمل كلمة يحرق ولكنه لم يقرأها يحرق .

« الحمد لله المنعم فضلا من عنده . المحسن بما لا يحصى .. أما بعد فحمد  
(حمد؟) الله على فضله والصلوة والسلام على سيدنا محمد ، فإني قصدت  
في هذا المختصر [وجه الله؟] والبركة بفضل الله وحسن عونه ، فتوح  
أفريقية من المدينة (المهدية؟) إلى أقصا المغرب - انشاء الله تعالى - بما استفتحه  
أبناء أولادهم (أولادهم ونظن أن المقصود الصحابة؟) - رضى الله عنهم  
أجمعين في زمان عثمان بن عفان - رضى الله عنه - ، وأمر عليهم عقبة بن عامر  
صحب (صاحب) رسول الله - صلى الله عليه وسلم ... »

قال المؤلف - رحمه الله تعالى ورضى الله تعالى عنه - : لما خرج عقبه  
بن عامر (١) ... الخ . وينتهي الكتاب هكذا :

« انتهى كتب (كتاب) الغزوات . اللهم (اللهم) بجاه أهله (بجاهك؟)  
وبمحمد الجليل تمح (تمحو) عن كاتبه السيئات وتضعف (وتضاعف؟)  
له الحسنات (الحسنات) بحق هذه السادات (السادات) . . . وهو لا يحمل تاريخ  
النسخ ولا اسم الناسخ ، ونظن أنه حديث (٢) .

وتكثر الأخطاء اللغوية والاملائية بالمخطوط - كما نرى - ؛ والظاهر  
أن مرجع ذلك إلى الناسخ أو النساخ المتعاقبين الذين لم يكونوا متمكنين من  
اللغة العربية . ويحتوى الكتاب المخطوط على الفصول العشرة الآتية :

(١) تختلف نسخة طبعة تونس (ج ١ ص ١٠) عن هذه النسخة تبدأ هكذا : « الحمد لله  
المزده عن الظير والقرين ، المقدس عن الوزير والمعين ، المبرأ عن الزوج والبنات واليهين ...  
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له والنبي هداانا إلى الانسلام والدين ، وأشهد أن سيدنا  
محمد عبده ورسوله .. الخ ... »

(٢) وتنتهى طبعة تونس (ج ٢ ص ١٤٨) هكذا : « انتهى الحمد لله الذى أيد دينه وبعد فقد  
تم بمون العناية الالهية طبع فتوح أفريقية المنسوب للإمام الراقدي أحد الجهابذة الاعلام .. قدونك  
سفرنا أسفرت الكواكب مياثيه وأينمت الحدائق معانيه .. أماط اقتناع عن محاسن تلك الافتوحات  
الشريفة وأذاض الاعلام على عجائب هاتيك الغزوات المنيفة .. وقد كان قبلا لا يوجد منه اسمه ولا ينال  
ناشده رحمه حتى يسر الله له باعانة الأعران وأصدقائه الجلان - لا عدت غيرهم الأوطان -  
جمع ما تشئت من نسخه في أدنى وأقصى البلدان .. (ولكنه لم يذكر النسخ التي استعملها) .

- ١ - - بناء القيروان : ص ٢ وجه - ٢ خلف  
(طبعة تونس - ج ١ ص ٣)
- ٢ - فتح المهديّة : ص ٢ خلف - ٢١ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٣)
- ٣ - فتح مدينة موسى : ص ٢١ خلف - ٢٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٢٩)
- ٤ - فتوح مدينة سببية : ص ٢٩ وجه - ٥٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٤١)
- ٥ - فتوح مدينة شقينار [ب] : ص ٦٠ خلف - ٦٣ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٠)
- ٦ - فتوح مدينة حيدرة ٢ : ص ٦٣ خلف - ٦٩ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ٩٦)
- ٧ - فتوح مدينة قسطنطينية (١) : ص ٦٩ وجه - ٧١ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٤)
- ٨ - فتوح مدينة نيسة (٢) : ص ٧١ خلف - ٧٥ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٠٦)
- ٩ - فتوح مدينة قسنطينة (٣) : ص ٥٧ خلف - ٧٧ وجه  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١١٤)
- ١٠ - فتح المعلقة ؟ : ص ٧٧ وجه - ٨٦ خلف  
(طبعة تونس ، ج ١ ص ١٢٠).

(١) المخرط : قسطنطينية ؛ طبعة تونس : قسطنطينية .

(٢) المخرط : نيس .

(٣) المخرط : قسنطينة .

وينبغي أن نسرّع بتسجيل أول ملاحظة وهي أن الناظر في هذا الكتاب ليس بحاجة إلى كثير تأمل لكي يقرر أن الصفة العلمية تكاد تسمى منه : فالأسطورة هي الغالبة عليه ، وهي تحمل في ثناياها في كثير من الأحيان نواة حقيقية تاريخية ، أو تعبيراً عن اتجاه سياسي أو فكري معين ، وقد تكون في آخر الأمر من ذلك النصوص الشعبي ( الفلكلور ) الذي له مغزاه الخاص . وهذا ما نأمل أن نوضحه في هذا البحث إلى جانب الإشارة إلى بعض ما يحتويه الكتاب من النصوص ذات الأهمية العلمية الحالية .

ومخطوط «فتح البهنة» فيوم من إقليم مصر» المنسوب للواقدي «المصري» له أهمية خاصة في هذا المقام . فهو يبين مرحلة متوسطة من مراحل تطور الخبر التاريخي إلى رواية قصصية أو أسطورة شعبية . فالكتاب يذكر - بعد اسم المؤلف وصفة البهنة وتاريخها القديم (١) - مصادر أخرى لروايته مثل المسعودي والطبري والواقدي وابن أسحق وابن هشام وأصحاب السير والتفسير (٢) وابن خلكان (٣) . ثم تبدأ رواية الواقدي «المصري» متأخرة بعد ذلك ، فيقول :

« انني اطلعت على فتوحات كثيرة فوجدت فيها زيادة ونقصان ، ولكن آخذ ما هو الصدق . وقد قررت فضائل البهنة قرأيت أن من زار جبانها تمحى عنه الذنوب ، وتكشف عنه الكروب .. لما فيها من السادات والشهداء ممن باعوا أرواحهم ابتغاء مرضات (مرضاه) الله ، وقتلوا في سبيله .. قال فخرجت ناويا زيارتها في بعض الأيام أنا وبعض من الأصحاب (٤) .. فسألني بعض الأحاب عن سبب فتح مدينة البهنة لندفع البؤس والأسا . فحرك لذلك خاطرى حتى أسهرت ناظرى ، وطلعت تلك التواريخ والفتوحات حتى انتخبت هذا الكتاب . فهو كالدرة القيمة التي لا يعرف لها قيمة ، تترأس عند جماعه النفوس ، ويزول الهم والعكوس ، ويشجع على الجهاد ، ويعين على إقامة العدل في البلاد » .

(١) المخطوط ، ص ١٠٢ رجه .

(٢) المخطوط ، ص ١٠٤ خلف .

(٣) المخطوط ، ص ١٠٨ خلف .

(٤) هذه الجملة توضح أن مؤلف الكتاب مصرى وأنه سكن البهنة أوزارها على الأقل . وهذا ما لم يعرف عن الواقدي صاحب المغازي .

وخطبة الواقدى هذه تبين أن الغرض من تأليف الكتاب هو ذكر مناقب الهنسة بذكر أبطال الصحابة وأبنائهم الذين فتحوها غزواتهم صاروا المثل الأعلى لأهل الورع والتقوى . ولهذا يحتم المؤلف الكتاب بقوله إن الهنسة صارت محجة كبار الصوفية من المشرق مثل : بشر الخاقى (١) والبرى السقطى (٢) ، ومالك بن دينار (٣) ، والحفيد (٤) ، ومن المغرب مثل : سيدى أبى مدين شعيب (٥) ، وسيدى أبى الحجاج الأقمصرى (٦) . فالغاية إذن هي العمل على نشر روح الجهاد ، والحث على إقامة سلطان العدل .

وضع فاتحة الكتاب في موضعها المتأخر هذا يبين كيف تصرف الناقل في الكتاب فأضاف إليه ، وربما حذف منه مع احتفاظه بنسبته الى «الواقدى» . والناقل أو صاحب الكتاب في شكله الجديد لا يذكر اسمه ولا يعرفنا بنفسه .

---

(١) أبو نصر بشر بن الحادث المعروف بالحاقى ، الروزى الأصل والمتوفى ببغداد سنة ٢٢٧ هـ ٨٤٢ م . وهو من كبار الصالحين . كان له اتصال بالواقدى وروى عنه (أنظر ابن خلكان ، الواقدى ؛ أنظر طبقات الشعراء ، طبعة ١٣٤٢ ، بشر الخاقى ، ج ١ ص ٦٢) .

(٢) أبو الحسن البرى المنلى السقطى ، خال الحفيد وأستاذه . من أشهر أهل الورع ببغداد ومن أصحاب معروف الكرخى . مات ببغداد سنة ٢٥١ هـ / ٨٦٥ م . من مبادئه عدم قبول الصدقة (أنظر طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٦٣ - ٦٤) .

(٣) أبو جوى مالك بن دينار البصرى ، الزاهد المشهور . عرف بالورع والزهد وكان يتكسب من كتابة المصاحف ، وكان لا يأكل الا من عمل يده . توفى بالبصرة سنة ١٣١ هـ / ٧٤٨ م (ابن خلكان ، مالك بن ابى دينار ، طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٣٢) .

(٤) أبو القاسم الحفيد بن محمد يعرف بالزجاج وبالقواريرى ، أشهر صوفية بغداد ولذلك يلتقب بسيد الطائفة . أصله من هبارند ولكنه ولد ونشأ بالعراق ، وصحب بحاله البرى السقطى . توفى ببغداد سنة ٢٩٧ هـ / ٩١٠ م (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ٧٢) .

(٥) أبو مدين شعيب صوفى المغرب المشهور ، ودفن بلمسان بالجزائر سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ١٣٣) .

(٦) أبو الحجاج الأقمصرى ، شيخ مدينة الأقمصر ودفن فيها . من أجل أصحاب طريقة سيدى أبى مدين ، وتلميذ سيدى عبد الرزاق الاسكندرى - توفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ (طبقات الشعراء ، ج ١ ص ١٣٦) .

وكل ما عرفناه - كما في الخطبة - أنه كان بالهينة مقبياً أو زائراً ، وأنه مصري كما يلقب . والظاهر أنه أعطى نفسه لقب الراوى : فكثير من الأخبار تبدأ بكلمتي « قال الراوى » (١) . ويتأكد ذلك عندما يذكر « قال الراوى » : « أنا ما أخذت في هذا الفتح الذي لا يجمع مثله الاعلى قاعدة الصدق » (٢) . هذا رغم ما يظهر « الراوى » في بعض الأحيان ، وكأنه شخص قديم عاش بعد الفتح بقليل كما نقرأ : « قال الراوى عن زيد بن غانم ، وكان ممن حضر الفتح » (٣) . وهذا يرجع الى حذف بقية الاسناد والاكتفاء بالتمن منسوباً الى راويه الأول .

أما عن « الواقدي » فالى جانب ذكره بصفته المؤلف في الخطبة ، فان كلمتي « قال الواقدي » لم تردا الا مرات معدودات (٤) . ويتضح من سياق الكلام أن الواقدي المقصود حيثك هو محمد بن عمر صاحب المغازي ، وليس « الواقدي » المحدث المصري . والى جانب « الراوى » و « الواقدي » نجد كثيراً من الأخبار مسبوقه برواتها القدماء على طريقة المحدثين وقدامى المؤرخين - دون ذكر المرجع الذي نقل عنه . ومن هؤلاء زيد بن غانم وابن سلعة الانصاري (٥) ، وقيس بن الحارث (٦) . ومنهم عبد الله

(١) انظر المخطوط من ١٠٣ وجه ١١٠٠ وجه ، ١١٢ خلف ، ١٢٠ وجه ، ١٢١ وجه ١٢٢ وجه ... الخ .

(٢) المخطوط ، من ١٢١ وجه .

(٣) المخطوط ، من ١١٢ خلف .

(٤) المخطوط ، من ١٠٨ خلف ، ١١٤ خلف ، ١٤١ وجه .

(٥) محمد بن سلعة بن سلبة .. الأنصاري ، الصحابي المشهور . شهده بدرًا واشترك في فتح مصر . توفي سنة ٤٦/٤٦٦ . وابن عبد الحكم يذكره كثيراً ، ولكنه لا يضعه ضمن رواياته (تتوج مصر ، طبعة ايدن ، ص ٦٤ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٤٦) ، وانظر الاصابة لمسقلاني ، رقم ٧٨٠٦ .

(٦) ربما كان المقصود هو قيس بن الحارث بن يزيد بن شبل بن حبان الذي يذكره ابن سعد من الواقدي (الاصابة لمسقلاني ، رقم ٧١٥١) وربما كان المقصود قيس بن حارث صاحب عمرو الذي ينسب اليه فتح القيوم ، كما نسب قرية القيس اليه (ابن عبد الحكم ، ص ١٦٩) .

بن زيد (١) الذي يروى عن أبي أمامة الانصاري (٢) . وهذان الأخيران من رواية الواقدي كما ينص على ذلك فيما بعد (٣) . ومنهم سعيد ٢ (٤) ، وحصان بن ثابت (٥) ، ورافع بن مالك (٦) ، وغنم البربوعي (٧) ، وأوس بن

(١) نقل أنه عبد الله بن زيد بن ثعلبة الانصاري ، المتوفى سنة ٣٢ هـ . وابنه محمد يروى عنه (الاصابة ، رقم ٤٦٨٦) . ويمكن أن يكون عبد الله بن زيد بن عاصم المازني المتوفى سنة ٩٣ هـ (الاصابة ، رقم ٤٦٨٨) شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، طبعة القاهرة ١٣٥٠ ، ج ١ ص ٧١) .  
(٢) أبو أمامة أسعد بن زراره الصحابي المشهور ، أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة . توفي قبل بدر (ابن هشام ، السيرة ، ج ٢ ص ٧٧ ، ص ١٠٠) . وهو غير أبي أمامة اليافعي واسمه صدى بن عجلان ، الذي عاش إلى أيام التوليد بن عبد الملك (ابن هشام ، ج ٢ ص ٢٩٥ ، الأخبار الطوال لديتروي ، طبعة ادارة الثقافة ، ص ٣٢٨)

(٣) المخطوط ، ص ١٤١ وجه .

(٤) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . ولا تعرف أي سعيد المقصود : سعيد بن يزيد بن عمرو بن قنبل الذي يذكره الواقدي في مغازيه (طبعة كلكتة ، ص ١٢ ، البشاري ، طبعة القاهرة ١٣١١ هـ ، كتاب الصلاة ، ج ١ ص ٨٦) أو سعيد بن المسيب الذي يذكره الواقدي أيضا (ص ٩٨ ، ٣٩٢) ، أو غيرهما ممن يذكرهم البخاري مثل سعيد بن جبير (باب منه الوحي ، ج ١ ص ٨) ، أو سعيد بن يحيى بن سعيد القرشي (باب أي الاسلام أفضل ، ج ١ ص ١١) ، أو سعيد بن عمرو (باب غزوة بدر ج ٥ ص ٧٦) ، أو سعيد بن عفيرة روية من الذي يروى عن الليث بن سعد نقيه مصر وروايتها المتوفى ، سنة ١٧٥ هـ (ج ٥ ص ١٥٣) ، أو غير هؤلاء جميعا ممن يذكرهم الكتاب .

(٥) المخطوط ص ١٢٤ خلف . حصان بن ثابت شاعر الذي انضم للمسلمين سنة ٦٧٤/٥٤ هـ . كان روية هو وابنه عبد الرحمن بن حصان بن ثابت ، وامرأته سيرين (أنظر ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٤٧) .

(٦) المخطوط ، ص ١٢١ خلف . نعتقد أنه رافع بن مالك بن النجاشي الخوارجي الانصاري وكان من تلقاها. الأثر عشر بعد بيعة العقبة (ابن هشام ، السيرة ، طبعة القاهرة ١٩٣٦ ، ج ٢ ص ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٨) ، وأنظر الاصابة لمسلك ، رقم ٢٥٤٤) . وهو وابنه وقاعة بن رافع بن مالك ، وحفيده معاذ بن رفاعة معدودون من رواة البخاري (كتاب الصلاة ، ج ٥ ص ٨١) .

(٧) المخطوط ، ص ١٢٤ خلف ولم نجد في منزه الواقدي الا محمد بن عثمان انيربومر (ص ١٤٠) .

المقداد (١) ، وعلقمة بن سنان ، وزيد بن رافع (٢) ، وهيار بن سفيان (٣) وكثيرون غير هؤلاء (٤) . وآخرهم جعفر بن مسعود البدرى الذى أخذ رواية الشيخ أبى عبد الله المدنى ، الذى كان يقرئ هذا الفتح بالجامع الغربى العمري بشفر الاسكندرية (٥) .

ولا يذنبى أن نمدح بتلك الأسانيد ، وهؤلاء الرواة . فالمصنف لم يبق عليها الا يعطى روايته - التى غلبت عليها الأسطورة - نوعاً من الأصالة ، وظلاً من الحقيقة التاريخية .

وقصة فتح اقليم الفيوم هنا تقع فى حوالى مائة صفحة من الحجم الكبير (فى كل صفحة ٢٦ سطراً وفى كل سطر حوالى ١٧ كلمة) . فإذا ما علمنا أن فتح الفيوم يعتبر من النقاط الغامضة فى فتح مصر حتى قال ابن عبدالحكم - ونقل

---

(١) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه . لم نعر على أوس بن المقداد . ولا نعرف ان كان المقصود بالمقداد هنا هو المقداد ابن الأسود بطل بدر المشهور المتوفى سنة ٣٣ هـ (البخارى ، باب بدر ، ج ٥ ص ٧٣) ، أو المقداد بن عمر الكنى (ج ٥ ص ٨٥) .

(٢) المخطوط ، ص ١٢٦ وجه ، لم نستطع التعرف على شخصيهما . وربما فى الإصابة لمسفلاني ، زيد بن عاصب ابن أمية بن رافع الأنصارى وربما كان هو المقصود اذ يذكر ابن حجر أن التواترى قال أنه شهد أحداً ويرجح (الإصابة رقم ٢٨٩١) .

(٣) هيار بن سفيان (المخطوط : ابن ابن سفيان) بن عبد الأسد بن هلال الخزوي ، شهيد اجنادين أو اليرموك على ما يظن (أنظر ابن حجر ، الإصابة ، رقم ٨٩٣٠) .

(٤) مثل مسلمة بن هشام الخزوي (١٢٩ وجه) ، وأمر محمد البدرى ، وأبو العلاء المحمدي وشداد بن أوس (ص ١٣٧ وجه ، ١٤٤ وجه) . والآخر منهم معروف وهو شداد بن أوس الأنصارى وهو ابن أسى - سان بن ثابت . فزل بيت المقدس ، وتوفى سنة ٥٨ هـ فى نفس السنة التى توفى فيها عقبة بن عامر الجهني الصحابي (شذرات الذهب ، ج ١ ص ٦٤ ، ابن حجر ، الإصابة رقم ٣٨٤٧) . ومنهم جابر بن سنان ونظن أنه جابر بن عبد الله بن رقيب بن السنان بن سنان... الأنصارى أحد الستة الذين شهدوا الحجة الأولى مع رافع بن مالك وعقبة بن عامر بن زيد (الإصابة لمسفلاني ، رقم ١٠٢٥) وعمر بن عقبة نظن أن المقصود به عقبة بن عامر سابق الذكر ، وربما كان المقصود هو عقبة ابن عامر الجهني الذى دخل مصر مع عمرو ، وتآلت فيه ولايتها أيام معاوية (ابن حجر ، الإصابة رقم ٥٦٠١) .

(٥) المخطوط ، ص ١٤٤ وجه .

عنه الكتاب فيما بعد - إن العرب ظلوا ما يقرب من العام وهم لا يعرفون موضع الفيوم . وإذا ما عرفنا أن ابن عبد الحكم - على استفاضة وكثرة رواياته - لم يخصص لفتح الاقليم الا أقل من الصفحة الواحدة (١) ، تؤكد لنا اصطناع هذه الرواية الغربية ، وحق لنا أن نتساءل متى ومن أين أتت؟ والخطوط العريضة لهذه الرواية العجيبة تتلخص في أن بطل الفتح هو خالد بن الوليد - اذ تزعم أنه كان شريك عمرو بن العاص في قيادة القوات العربية عصر (٢) . وأن الهاشميين - وخاصة الفضل بن العباس ، وعبد الله وجعفر ومسلم وعلى أولاد عقيل - قاموا ببلور أساسى في هذا الفتح (٣) ، وكذلك الزبير (٤) ، وعبد الرحمن بن أبى بكر (٥) ، ومالك الأشتر (٦) . والرواية تقصد هنا الطالبين أو العلويين وأنصارهم ثم عبد الله بن عمر (٧) ، وسليمان ابن خالد بن الوليد (٨) .

والى جانب هؤلاء هناك ذكر لعقبة بن عامر الجهنى (٩) ، وعقبة بن نافع النهري (١٠) ، والمغيرة بن شعبة - وله دور أشبه بدوره الذى قام به أيام فتح فارس عندما سار سفيراً عن العرب لدى رسم كما تزعم هذه القصة (١١) . وسنترك الاشارة الى الأدوار المدهشة التى قاموا بها الى حين الكلام عن فتح المغرب .

- 
- (١) ابن عبد الحكم ، توح مصر والمغرب (فتح الفيوم) ، ص ١٦٩ .  
(٢) مخطوط فتح الهند ، ص ١٠٩ خلف ص ١١٥ وجه وخلف ، ص ١١٣ وجه وفى ص ١١٥ خلف (عمرو هو متولى الأمور وخاله قائد الجيوش) ؛ انظر طبعة القاهرة ، ص ٢٥ وتابع .  
(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف ، ص ١١٣ وجه ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٣٣ وجه ، ص ١٣٥ ، ص ١٤٦ .  
(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٥ وجه ، ص ١٢١ خلف .  
(٥) نفس المخطوط ، ص ١١٦ وجه وخلف .  
(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٧ وجه .  
(٧) نفس المخطوط ، ص ١٢٢ خلف .  
(٨) نفس المخطوط ، ص ١٢٦ وجه .  
(٩) نفس المخطوط ، ص ١٢٤ وجه ، ص ١٤١ وجه .  
(١٠) نفس المخطوط ، ص ١٢٨ وجه ، ص ١٣٨ خلف ، ص ١٤٢ وجه .  
(١١) نفس المخطوط ، ص ١٣١ وجه ، ص ١٣٣ خلف .

أما عن الأعداء فهناك صاحب أهنامس ، وحفناؤه من ملوك النوبة  
والبحار والبربر (١) ، والبطلوس ملك الهنة (٢) ، والبطارقة معهم  
القبيلة (٣) أي كما حدث في فتح العراق وقارس . وأما عسكرهم فعليهم  
الدروع المدهبة ، ولهم أقيّة الدياج والسيجان المكلفة بالآلئ والجوهر (٤) .

والى جانب الأعمال العجيبة والحوارق المدهشة ، هناك معلومات لها  
قيمتها العلمية مثل إقامة الفسطاط التي يسميها "المصر" (٥) كما سميت الكوفة  
والبصرة «المصران» . وهناك تعداد دقيق للقتلى من كبار المسلمين وعانئهم  
في المواقع المختلفة (٦) مما يجعلنا نتذكر دقة أصحاب السيرة وأهل الحديث  
عندما يصفون غزوات الرسول . كما أن هناك ربط مهم بين فتح الفيوم  
وفتح الواحات وبرقة على يدي عقبة بن نافع (٧) يمكن أن يتخلص  
منها أن فتوح الأقاليم الجنوبية من برقة بدأت فعلا من ناحية الفيوم .

ومقارنة مخطوط فتح الهنة والفيوم بمخطوط فتوح مصر للواقدي  
تمكنا ملاحظة أن فتح مصر يمثل مرحلة أولى من مراحل تطور الرواية  
التاريخية الى أسطورة أو قصة شعبية . ووجه الشبه كبير بين الروائين :  
فكما أن ناقل فتح الهنة تصرف في الكتاب فأضاف إليه إضافات كثيرة  
ربما غلبت على رواية الواقدي المصري ، كذلك فعل ناقل فتوح مصر  
للواقدي البغدادي ، وربما كان نفس «الراوي» . فبعض أبواب الكتاب  
تبدأ بكلمتي «قال الراوي» (٨) ، ولكن ذلك نادر عكس ما في فتوح

(١) نفس المخطوط ، ص ١١٢ وجه .

(٢) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١١٥ خلف ، ص ١١٦ وجه وخلف ، ص ١٢٠ وجه .

(٤) نفس المخطوط ، ص ١١٢ خلف .

(٥) المخطوط (فتح الفيوم) ، ص ١١٠ وجه .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٩ خلف ، ١٢١ وجه .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٤٣ خلف .

(٨) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٠ خلف ، ٤٤ خلف ، ٤٧ وجه . وهنا نلاحظ أن المخطوط  
يقول عن ابن اسحق أنه «الراوي لغزاري رسول الله (ص ٢٢ وجه) . ولكننا لا نستطيع أن نفكر  
في أن المقصود بالراوي هنا هو ابن اسحق إذ يذكر باسمه في كثير من الأحيان . أما طبعة ليدن  
فتعمل مكان كلمتي قال الراوي كلمتي «قال صاحب الحديث» (أنظر ص ٢٠ ، ٣٢ ،  
٣٨ ، ٤١ ، ٨٨) .

الهنئة (١) . وهذا يفسر كثرة الروايات المنسوبة لغير الواقدي في المخطوط الأخير . أما في فتوح مصر فأشهر الرواة وأكثرهم ذكراً هو ابن اسحق ، ويذكر الى جانبه جعفر بن محمد (٢) ، والليث بن سعد ومن نقل عنه مثل نوفل بن عامر ويحيى بن شاعر المدني (٣) ، وذلك في مناسبات قليلة نسبياً .

أما أوجه الشبه من حيث الموضوع فتتلخص في أن بطل الفتح هو خالد ابن الوليد اذ يظن ذكره على ذكر عمرو (٤) . وهناك ذكر ليزيد بن أبي سفيان (٥) وكان يزيد كما نعرف قد توفي في طاعون الشام . هذا ولو أن الاسم ورد في مخطوط فتح الهنئة في شكل زياد بن أبي سفيان (٦) ، وزياد بن أبي سفيان بن عبد المطلب (٧) . وفي جانب الأعداء هناك ذكر للأرمانومة بنت المقوقس (٨) ، ولأختي المقوقس المسمى أرجانوس (أرمانوس) (٩) ، وابن أخيه رسطوبس (١٠) ، وزينى أخت مارية القبطية في دمياط (١١) ، وروبييل أوكمانوس بن روبيل ملك برقة (١٢) . ولكل من هؤلاء دورة الغريب في قصة الفتح العجيبة .

- 
- (١) أنظر فيما سبق ، ص ١٣ هامش ١  
(٢) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٢ وجه ، ٣٦ خلف ، وقارن طبعة ليدن ، ص ١٢ ، ١٨ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٧ ، ٧٣ ، ٨١ .. الخ . جعفر بن محمد هو جعفر الصادق ابن محمد الباقر سادس الأئمة الاثني عشر . كان من اجلاء التابعين وله منزلة رفيعة في العلم أخذ منه جماعة من المشاهير منهم أبوحنيفة ومالك وجابر بن حيان ، توفي جعفر الصادق في سنة ١٤٨ = ٧٦٥  
(٣) مخطوط فتوح مصر ، ص ٢٠ خلف ، ليدن ، ص ٣  
(٤) نفس المخطوط ، ص ٣٢ خلف وتابع ، ٣٦ خلف ، ٤١ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٦٢ وتابع ، ص ٨١ ، ٨٩ ، ٩٣ .. الخ ..  
(٥) نفس المخطوط ، ص ٢٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٤٤ ، ٣٢ ، ٣٩ ، ٧٦  
(٦) نفس المخطوط ، ص ١١٠ خلف .  
(٧) نفس المخطوط ، ص ١١٤ خلف .  
(٨) نفس المخطوط ، ص ٢٤ وجه ، ٢٦ وجه ، طبعة ليدن ، ص ٢٠ ، ٣١ ، ٣٢  
(٩) نفس المخطوط ، ص ٣٦ وجه وخلف ، طبعة ليدن ، ص ٧٩ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣  
(١٠) مخطوط فتوح مصر ، ص ٣٧ خلف ، طبعة ليدن ، ص ٨٦ (ريتا) .  
(١١) مخطوط فتوح مصر ، ص ٤٠ وجه ، ٤١ خلف

وبعد هذا التعريف السريع بالخطوط الثلاث نرجع الى « فتوح مدينة افريقية » . ونبدأ بأول ملاحظة على العنوان ، فنرى أن المصنف يذكر في خطبة الكتاب أنه مختصر في فتوح افريقية من المهديّة الى أقصى المغرب . وهذا يعنى أن العنوان يذمى أن يكون « فتوح افريقية » أى نفس عنوان الكتاب الذى ينسب الى الواقدي وكما فى طبعة تونس ، أو أن يكون « فتوح مدن إفريقيا » فهو يتناول فتح عدد من المدن كما بينا فى محتويات الكتاب . هذا ولو أن المؤلف يذكر أن موضع القيروان هو المهديّة (١) . وهذا يعنى أنه قصد بفتح مدينة افريقية فتح عاصمة البلاد التى هى القيروان أو المهديّة حسب روايته . ووضع القيروان الى جانب المهديّة أو الخلط بين المدينتين يمكن أن يفسر تفسيراً معقولاً : فالقيروان كانت عاصمة المغرب منذ اتساقها سنة ٥٠ / ٦٧٠ الى أواخر العهد الأموي وعلى أيام عبد الرحمن ابن حبيب الفهري وبنه ثم على أيام ولاة بغداد الى آخر أيام الأغالية - رغم أن الأغالية بنوا مدناً ملكية بالقرب منها مثل العباسة ورفادة . وبعد قيام الفاطميين فى إفريقيا اتخذوا لأنفسهم عاصمة جديدة على ساحل البحر هى المهديّة ابتداء من سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م . وأصبحت المهديّة رمزاً لاستقرار الفاطميين فى المغرب كما كانت القيروان رمزاً لاستقرار المسلمين فى البلاد فى أوائل الفتح . وهذا يفسر كيف أن المهديّة ظلت فى بعض الروايات المغربية المحلية رمزاً لاستقرار المسلمين فى المغرب - وخاصة فى أوساط أولئك الذين يحملون فى نفوسهم ميولاً واتجاهات شيعية - وعن هذا الطريق أمكن الخلط بين القيروان والمهديّة رغم ما بين المدينتين من اختلافات كبيرة .

وفىما يتعلق ببناء القيروان نجد أسطورة الوحوش والهوام التى هربت من الموضع بدعاء عقبة بن نافع ، وهى القصة التى يجعلها الكتاب كرامة من كرامات عقبة المستجاب . ورغم أن « فتوح افريقية » يورد هذه المعجزة إلا أنه يعطى ما يفسرها تفسيراً معقولاً نظن أنه أصل مبدئها التاريخي .

(١) خطوط فتوح افريقية ، ص ٢ و٤ ، قارن طبعة تونس ، ص ٣

فالموضع عندما اختير لبناء مدينة عربية كان كثير الأشجار والشعراء (١) .  
 فاقترح أصحاب عقبة احراقها أى الشعراء ، ولكن عقبة أشفق على دواب  
 الأرض الساكنة به أن تحترق فيحاسبهم الله فتنادى : « أيها الوحوش ارتحلوا  
 عندما انشاء الله تعلق ... ارتحلوا اننا أردنا أن نحرقها بالنار نريد ملجأ فيها ويسكنها  
 أصحاب عمدة - صلى الله عليه وسلم . فا تم كلامه حتى رفعت الوحوش  
 أولادها في أفواهاها مثل الغزلان والذئاب (٢) . وبناء على ذلك يمكن تفسير  
 خروج الوحوش والحوام فرقة من الشعراء كنتيجة للحريق الذي أطلق  
 في الموضع لتنظيفه قبل البناء . وهذا أمر طبيعي يحدث عندما تلتهم النيران  
 بعض الغابات فتفرغ حيواناتها ، وقد يفر بعضها وهو مشتعل فيتسبب  
 في زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق . وهذا ما نظنه تفسيراً مقبولاً لأصل  
 الأسطورة (٣) .

أما الملاحظة الثانية فخاصة بصاحب هذا الفتح . والنص يقول :  
 « بما استنتجته أبناء أولادهم (أى الصحابة) - رضى الله عنهم أجمعين -  
 في زمان عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وأمر عليهم عقبة بن عامر ،  
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . فينب الكتاب الفتح الى عقبة بن  
 عامر الصحابي ، وهو أبو حماد عقبة بن عامر الجهني الذي حضر فتح مصر  
 مع عمرو بن العاص (٤) ، والذي كان نائباً لعبد الله بن سعد بن أبي سرح  
 في ولاية مصر سنة ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، عندما قامت الفتنة ضد عثمان والذي  
 آلت اليه ولاية مصر أيام معاوية من سنة ٤٤ الى ٤٧ / ٦٦٥ - ٦٦٧ (٥) .  
 وعقبة بن عامر الصحابي لا تعرف له غزوات في بلاد المغرب ، وإنما بطل

(١) مخطوط تشرح افريقية ، ص ٢ وجه (التقراءة في النص : الشام والكلمة غير موجودة  
 في طبعة تونس ، ص ٣) .

(٢) نفس المصدر .

(٣) قارن حسين مؤنس (فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٤) الذي يفسر اضطراب الضواري  
 كنتيجة لخلية الجيش العربي الذي عسكر الى جوارها .

(٤) أنظر ابن عبد الحكم ، ص ٩٤ ، ١٠٠ ، ١٧٨

(٥) الكندي ، الولاية والقضاة ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٣ ، ٣٦ - ٣٨

فتوح المغرب هو عقبة بن نافع الفهري . ولصاحب الكتاب العذر كما لغيره من الكتاب الذين يخلطون بين عقبة الجهني وعقبة الفهري (١) . والسبب في ذلك أنهم يريدون لفتح المغرب أن يكون صحابياً — وهو في الحقيقة تابعي — بعد أن أضفوا عليه صفة الولاية حتى أصبح عقبة المستجاب (٢) .

ومسألة عقبة لا تنتهي هنا ، فالمؤلف يحدد وقت ذلك الفتح « في زمان عثمان بن عفان » وربما كان المقصود إذن هو عبد الله بن سعد بن أبي مروح ، واني مصر في ذلك الوقت ، وصاحب أول فتح في إفريقيا عندما انتصر على البطريق « جرجير » في سيظلة غير بعيد من موضع القروان في سنة ٢٧ هـ ٦٤٨ م . وكل هذا يعني أحد أمرين : إما أن الكاتب يقصد عبد الله ابن سعد بسبب التحديد الزمني للغزوة ، وإما أنه يقصد عقبة بن نافع بسبب موضوعها وهذا ما سنحاول تقريره فيما بعد . ولا بأس من البدء بالإشارة إلى أن الرواية تحتوي في تفصيلاتها على أحداث مبكرة ، وقعت في أول الفتح ، وأخرى متأخرة وقعت في القرون التالية .

ومع أن عقبة — ابن نافع أو ابن عامر إذا ساعنا الكاتب في مثل هذا الخطأ — هو صاحب الفتح إلا أننا نجد بطلاً روائياً يحجب عقبة تماماً ، وهو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (٣) . وخلف عبد الله بن جعفر يوجد الهاشميون آل بيته الذين يشا ركونه الحمد (٤) ، ثم سليمان بن خالد بن الوليد (٥) رغم أن مخطوط فتح الهند يذكر أنه استشهد قبل ذلك في اليوم بعد أن قام

(١) أنظر أبو العرب طبقات ، علماء إفريقية ، طبعة الجزائر ١٩١٤ ، ص ٩ .

(٢) أنظر البكري ، ص ٧٣ ، كتاب الاستبصار ، طبعة اسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٧٤ .

(٣) مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٣ . وجه وخلف ٤ ، وجه وخلف .. الخ ، طبعة تونس ، ص ٦٤٥٤٤ .

(٤) أنظر مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٧ خلف (عمر بن حمزة — تونس ص ١١) ، ص ٣٧ خلف (الفصل بن العباس — تونس ، ص ٥٥) ، ص ٣٩ وجه وخلف (عبد الله بن العباس — تونس ، ص ٥٧) .

(٥) مخطوط فتوح إفريقية ، ص ٣ وجه ، ٥ وجه ، ٧ وجه .. الخ ، طبعة تونس ، ص ٦٤٧٤٧٤٤ . الخ .

بضروب من البطولة (١). وخلف سليمان ابن خالد قبيلته من بني مخزوم (٢)، وعلى رأسهم بطل آخر منهم هو رافع بن الحارث (٣). أما عن الأمويين فيظهرون في دور سلبي في هذا الفتح، والزراع قائم بينهم وبين المخزوميين والهاشميين (٤). أما عن قوات الأعداء فنجد صاحب المهديّة - وهو ابن الملك صاحب المعلقة وكبير ملوك المغرب - زوج ابنة صاحب رومة (٥). وبنت الملك لما دور منهم في الفتح (٦)، وكذلك ابن عم الملك (٧)، وزوجة الملك الكبير (٨).

ويسير الأمر على هذا المنوال في فتوحات المدن الأخرى من سوسة إلى سيبة وشقبارية وحيدرة وقعليلية وثبسة إلى قسنطينة وأخيراً المعلقة، ويكون للأميرات الروميات أدوارهن المثيرة مع فرسان العرب. وهنا تتحرف القصة بعيداً عن مجال الحقائق التاريخية، وتوغل في آفاق بعيدة من الأساطير والخرافات. وسنحاول أن نجد تعليقات لبعض هذه الانحرافات كما سنحاول أن نوضح مفاهيم بعض هذه الأساطير.

ونبدأ بأبطال قصة الفتح من الهاشميين فنجد معظمهم علويين، وعلى رأسهم عبد الله بن جعفر بن أبي طالب. وهذا يدل على أن صاحب الكتاب له نزعة شيعية معادية للأمويين وذلك معروف عن الواقدي. وتؤكد بعض التفاصيل الصريحة هذه النزعة. «فعقبه» عندما أراد أن يقسم الهاشميون وبنو مخزوم أنفسهم على القبائل في حرب سيبيّة -- ليوجد نوعاً من الترابط

(١) فتوح ابنة، المخطوط، ص ١٢٦ وجه (تلمث بين سليمان فتون الحيف يساره واستمر في القتال ..).

(٢) مخطوط نوح افرقية، ص ٥ خلف، ص ٨ خلف، ص ١٠ وجه .. الخ، تونس، ص ٨، ١٣، ١٤ .. الخ.

(٣) نفس المخطوط، ص ٨ وجه، ٨ خلف، ١١ وجه؛ تونس، ص ١٢، ١٣، ١٦.

(٤) نفس المخطوط، ص ٥ وجه، ٤٣ خلف، ٤٨ خلف؛ تونس، ص ٧، ٦٤، ٧٢.

(٥) نفس المخطوط، ص ٢ خلف، قازن طبة تونس، ص ٣.

(٦) نفس المخطوط، ص ٣ خلف، تونس، ص ٥.

(٧) نفس المخطوط، ص ٩ وجه؛ تونس، ص ١٣.

(٨) نفس المخطوط، ص ١٦ خلف؛ تونس، ص ١٢.

بين القبائل - رفض الفضل بن العباس وقال له : « أنت أمير على الجيش ولا لك أمر علينا ، نحن أهل الخلافة ، ونحن وهبنا أنفسنا لله ورسوله ولعثمان بن عفان » (١). فرغم عدم صحة هذه التفضيلات فيما يتعلق بالأشخاص فإنها تعبر عن حالة التذمر التي وقعت أيام عثمان ، والتي تلخصت في نقد ومعارضة عماله ، والدعوة إلى أحقية علي في الخلافة . وهي هنا تنطبق على عبد الله بن سعد بن أبي مروح الذي ينسب إليه الكتاب الفتور وعدم الحماس للإسلام في أول أمره (٢) . ويتضح هذا الاتجاه العلوي أو الشيعي بعد ذلك بصراحة دون تمويه . فالنص يقول : إن «عقبة» عندما كتب إلى عثمان يطلب منه المشورة في وجهة الفتوح أكد له أن عبد الله بن جعفر هو صاحب الفتوح ، وأنه «مفتاح جيش المسلمين ، وكلنا صعب على المسلمين بتولاه بنفسه ، ولا يسير المسلمون إلا به ، فقله دره عماد الجيش» (٣) . ويقول إن عبد الله بن جعفر كتب هو الآخر ، ولكن إلى علي بن أبي طالب فأخبره بالفتح ، ووجه إليه الخطاب قائلاً : «وتعلم ياسيدي أن زوجة صاحب سببية قد أسلمت ، وهي بنت صاحب رومة ، وهي - سبحان الله ما خلق فيها من الحماة والكماة - وهي قد وهبت نفسها لك » (٤) . وبينما يرد عثمان على «عقبة» فينصحها بالأفعال شيئاً أو يبرم أمراً إلا بعد استشارته عبد الله

(١) تروح أفريقية ، المخطوط ، ص ٣٩ خلف - والنص يختلف بعض الشيء في طبعة تونس (ص ٥٨) : « نحن أهل الخلافة ونحن وهبناها لثمان بن عفان - رضي الله عنه - وهبنا أنفسنا ورسوله فوالله ما لك علينا يد ولا نقاتل إلا منتمين » . والنص هنا يشير صراحة إلى شرعية مطالبة العلويين بالخلافة .

(٢) أنظر ابن عداري ، البيان المغرب ، طبعة ليدن ، ١٩٤٨ ، ص ٩ .

(٣) مخطوط تروح أفريقية ، ص ٦٦ وجه ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠٠ حيث تقرأ : « وهو عماد جيش المسلمين وكل ما صعب على المسلمين تولاه بنفسه ولا تبيض الوجوه إلا به فقله دره » .

(٤) مخطوط تروح أفريقية ، ص ٦٦ خلف (سبق إن تأملت الرواية أن زوجة صاحب المهدي هي ابنة ملك رومة - انظر فيما سبق ص ٢٢ وهامش ه ) ، وقارن طبعة تونس ، ص ١٠١ حيث يختلف النص بعض الشيء : « وهي حل غاية من الحسن والجمال سبحان الله أنشأها وصورها ، وقد آلت حل نفسها أن لا ينظر لوجهها أحد غيرك ، والسلام عليك ورحمة الله » .

بن جعفر (١) ، يصل كتاب علي بن أبي طالب بحمل أوامره الى « عقبه »  
 بوجهة الفتوح (٢) ، وكذلك الى عبد الله بن جعفر . وهو مخاطب هذا الأخير  
 فيسميه : « الولد المطيع ، الفارس المحلى ؟ ملة الاسلام من بني عبد المطلب  
 ويقول : « والمرأة التي ذكرت لا يزوجها (بزوجها) أحد غيري ، فأنت  
 الوكيل عليها الى أن تبلغها لنا » . وفي آخر الخطاب يطلب علي من عبد الله  
 بن جعفر - وهذا أمر غريب - كسوة لأقاربه ، ويغتمه بقوله « وابعث  
 لنا مائة دينار والسلام » (٣) .

هذه الكتب المنسوبة الى علي بن أبي طالب تعبر عن فكرة شعور علي  
 بأحقية في الخلافة - دون عثمان - بصفته عميد الأسرة الهاشمية ، كما تعبر  
 عن أنه مارس هذه الأحقية ، وخاصة بعد أن اضطرب أمر عثمان في أواخر  
 أيامه . أما النص الخاص ببنة صاحب سبيبة التي وهبت نفسها له فقد يعبر  
 عن موقف الشيعة المتساهل بالنسبة لذلك النوع من الزواج المؤقت ، المعروف  
 بـ « زواج المتعة » ، والذي يتم دون التمسك تماما بالشروط التقليدية المعروفة  
 للزواج . أما الملاحظة الأخيرة التي تسترعى الانتباه ، فهي تلقيب علي لعبدالله  
 بن جعفر - في المخطوط - بـ « الولد المطيع » : وذلك أننا نعرف أن كلمة  
 « الولد » كانت لقباً لولي العهد عند الأمويين في الأندلس (٤) . وهذا  
 يعني شيئين : أن الأثر الأندلسي أو المغربي واضح في الرواية - المشرقية  
 الأصل - كما أن توقيتها يرجع الى ما بعد عصر الفتوح بوقت طويل .

(١) فتوح أفريقية ، المخطوط ، ص ٦٨ وجه ٤ طبعة تونس ، ص ١٠٣ .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف . وهذا الخطاب غير موجود في طبعة تونس (أنظر  
 ص ١٠٣) .

(٣) نفس المخطوط ، ص ٦٨ خلف - ٦٩ وجه . ونص الخطاب في طبعة تونس (ص ١٠٣)  
 يختلف تماماً فهو يبدأ بـ : الى ابن أخي عبد الله بن جعفر سلام عليك ورحمة الله وبركاته أما بعد ..  
 أمرك بتقوى الله وطاعته وإيائك ومواقف النفس .. أما عن القملة الأخيرة الخاصة بإرسال الكسوة  
 والنقود فهي لا توجد فيه .

(٤) أنظر ليفي بروفنسال ، تاريخ أسبانيا الإسلامية (بالفرنسية) ، طبعة ١٩٤٤ ، ص ١١٣ ،  
 ١٢٨ .

وعبد الله بن جعفر يمثل المحارب البطل والغازي الذي يفتن النساء . هكذا افتنت به ابنة الملك الحميلة الأديبة - التي رفضت الزواج من كل امراء افريقية حتى « حلف أبوها على نفسه لا يزوجه الا من شئت » - وذلك عندما دخل عبد الله الى قصر الملك والدها رمولا عن عقبة (١) . وأنخفت بنت الملك فاتنها ثم خرجت معه من القصر سراً ، ووهبت نفسها له أمام أصحابه . وخرجت خيل الملك في طلبهم ، « ودارت بهم كدوران الرحي وهم في وسطهم كالشامة البيضاء في جنب البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجئون فيه الا الله عز وجل » (٢) . ونادى سليمان بن خالد: « الجنة ترخربتنا ، وهي تحت ظلال السيوف » . وعندئذ لم يتخذ الموقف الا عمر بن حمزة بن عبد المطلب « فاتبعهم كالسباع في أثر الغنم » (٣) . وتقول هذه القصة إن كل هذا حدث وبنو أمية يرجون ألا يرجع من الهاشمين والمخزوميين أحد ، وعقبة - رضي الله عنه - لا يعلم من الأمر شيئاً ، ومع ذلك فانه قبل عذر جماعة المغامرین بعد عودتهم ، وأسلمت بنت الملك (٤) . وغضب ابن الملك وقال : « كيف يجرحكم زعاليك (صماليك) العرب ، أخرجوا اليهم وقتلواهم على الدين القديم ودينهم محدث » (٥) . ويقف الجيش الاسلامي في هيئة القتال ، ومع بني هاشم ١٢٠ راية ، ومع بني مخزوم ١٠٠ راية ،

(١) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٣ خلف ، قارن طبعة تونس (ص ٥) حيث يختلف النص بعض الشيء وهو : « وآلى أبوها على نفسه الا يزوجه الا من ارادت »

(٢) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٧ وجه ؛ وقارن طبعة تونس (ص ١١) حيث انص : رداروا بأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم دوران الرحي وهم في وسطهم كالشامة البيضاء في جنب البعير الأسود ، فلم يجدوا ملجأ يلجأون اليه . ونلاحظ ان اصطلاح « فأصبحوا كالشامة لبيضاء في البعير الأسود » يرد أيضاً في فتح البصرة والفيوم (مخطوط فتح البصرة ، ص ١٣٥) .

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٧ خلف . وحلقة : فاتبعهم كالسباع في أثر الغنم « غير موجودة في طبعة تونس (أنظر ص ١١) .

(٤) فتوح افريقية ، المخطوط ، ص ٨ وجه ، طبعة تونس ، ص ١٢ .

(٥) المخطوط ، ص ٨ خلف ؛ وقارن النص في طبعة تونس (ص ١٢) : « قال لهم : كيف يحاصرکم صماليك العرب ، اخرجوا اليهم وقتلواهم عن دين آبائكم ودين عيسى بن مريم »

بينما تتكون قوات حقبة من قبائل طيء ولخم وجذام وحير وغان (١) .  
أما جيش ابن الملك ففيه ألف طبل تضرب ، و ٣٠ صفا في مقدمتهم الصليان ،  
وبين أيديهم الأناجيل (٢) .

وقبل التقاء الجيشين بدأ النزاع بين الفرسان . وخرج ابن عم الملك  
وأسمه سباطور يطلب مبارزاً ، و « كان في جيبه مائة الف دينار ذهباً ، وبيده  
حجفة تساوي ألف دينار ، وحلة جواده كلها ذهب يتوقده » (٣) . ووقفت  
زوجة ابن الملك الأكبر هي وبنت الملك صاحب مدينة حيدرة في صف  
التصارى تعرض فارسهم على مبارزة عبد الله بن جعفر ، بينما وقفت زوجة  
هذا الأخير الرومية (بنت الملك الأكبر وأخت صاحب المهديّة) في صف  
المسلمين (٤) . وخرج كل من كان في المهديّة ، كبيرهم وصغيرهم ، ذكورهم  
وإناثهم ، حرهم وعبدهم ، ينظرون الى عبد الله مع صاحبهم . وخرج  
ابن جعفر وعليه « درعين داوديين ولامة حسنة لم يكن أحسن منها » (٥) .  
وضرب عبد الله خصمه « ضربة هاشمية » فقتله (٦) ، وثني بتأند آخر  
اسمه « ديلاق » ، ولم يزل يطلب منهم واحداً بعد واحد الى أن قتل منهم  
٨٠ فارساً (٧) .

(١) المخطوط ، ص ٨ خلف ، طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٢) المخطوط ، ص ٨ خلف ، وقارن طبعة تونس ، ص ٣ (ثلاثون صفا ناقصة) .

(٣) المخطوط ، ص ٩ وجه ، وقارن طبعة تونس (ص ١٣) حيث يختلف النص ففيه :  
« وكان فارساً شديداً .. ركباً جواداً أصفر اللون ، وعليه حلة عجيبة ثمينة ، وكل ما حل جواده  
من الذهب والرواح » . فليس هناك ذكر لما كان يحمله من الثور ، ولا للحجفة (وهي الدرقة) الثمينة .

(٤) مخطوط شرح إفريقية ، ص ٩ وجه ، قارن طبعة تونس ، ص ١٣ .

(٥) نفس المخطوط ، ص ٩ خلف . والدروع الداودية المذكورة في فروع البهنة (المخطوط ،  
ص ١١٠ خلف ، ١٢٥ وجه) ولكنها لا تذكر في طبعة تونس إذ يقول النص : « وركب  
عبد الله جواداً أبيض ، وليس ثياباً بيضا ، وجعل ثوب رسول الله صل الله عليه في قلب جسده ،  
وليس درعا كان جلده أي طالبه » .

(٦) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه ، وقارن طبعة تونس (ص ١٤) حيث تقرأ : « فحمل  
عبد الله عليه حلة هاشمية ، وطمع على حياتها فقصها نصفين ، فخر في الأرض ميتا » .

(٧) نفس المخطوط ، ص ١٠ وجه وخلف ؛ طبعة تونس ، ص ١٥ .

أما فارس بنى مخزوم : وهو رافع بن الحارث فقتل ١٢٠ فارسا ، وأخذ  
 لباسهم (١) . ولم يفعل بنو أمية شيئا رغم ما تكلم الناس به ، وما قالوه لهم :  
 « انتم المداد والأصل .. أخرجوا واحداً منكم يطلب البراز » وطلب عبد الله  
 ابن جعفر مبارزة ابن الملك الذي وافق رغم ما قاله أصحابه : « كيف تخرج  
 الى عربي راعي الأبل : ماله قدر ولا مروعة ولا حسب ، ولا هو معروف  
 بالامارة ولا بالملكية » (٢) . وأسر عبد الله ابن الملك الذي فكت أخته  
 وثاقه ، وصحبه الى المدينة : فأرجعها الى معسكر المسلمين محملة بالهدايا  
 العجيبة : « الف مطية محمولة بالخيز والحزير ، وعلى كل مطية الف دينار  
 ذهباً ، وألف خادم ، وألف أوقية من المسك ، وألف خاتم ذهب ، وألف  
 خاتم فضة » (٣) .

وتبدأ معادلات بين ابن الملك والمسلمين ويكون الدين موضوعاً من  
 موضوعاتها . ويخرج ابن الملك الأنجيل فاذا فيه صفات النبي ، فيدخل في  
 الاسلام سراً ، ولكن أهل المدينة عرّفوا أمره فلم يدخلوه (٤) .  
 وينتهي أمر المهديّة بدخول العرب ، ولكن عن طريق مؤامرة  
 حريم . فقد أرسلت زوجة الملك الأكبر عندما تحققت من صحة  
 الاسلام من القيس الأكبر . وأرسلت ١٥٠ امرأة رومية الى العرب بحجة  
 ارجاع ابنتها وأخيها ، وكانت تضمّر أن يعود المسلمون في لباس الفتيات .  
 وفعلاً نجحت الحيلة ودخل المسلمون المدينة وهم في زي الروميات ثم فتحوا

(١) نفس المخطوط ، ص ١١ رجه ٤ وقارن طبعة تونس (ص ١٦) وآخر النص فيها  
 « وأخذ عليهم » ، وهذا أصح من المخطوط .

(٢) نفس المخطوط ، ص ١١ خلف ٤ وقارن طبعة تونس (ص ١٧) والنص فيها مختلف  
 بعض الاختلاف فيه : « كيف تخرج الى عربي راعي ابل لا شرف له ولا امانة ، ولا حسب  
 ولا نسب ، ولا هو معروف بملكية » .

(٣) نفس المخطوط ، ص ١٢ خلف ٤ وقارن طبعة تونس (ص ١٨) حيث نجد : « الف  
 مطية محمولة بالخيز » بدلاً من الخيز كما في المخطوط ، وهذا أرفق .

(٤) نفس المخطوط ، ص ١٥ خلف ٤ طبعة تونس ، ص ٢١

الأبواب ، ودخل عقبه المدينة ، ومع ابن الملك ، وبنى بها مسجداً (١) .  
وهكذا انتهت قصة فتح المهديّة بحمد الله وحسن عونه كما يقول المصنف (٢) .

والذي نخرج به من هذه القصة هو أن شرف الفتح جميعاً يرجع الى  
عبد الله بن جعفر الذي حجب قائد الحملة عقبه (ابن عامر) . وبطولة  
ابن جعفر في هذه الرواية العجيبة لا يوجد لها قرين في المصادر الأصيلة للفتح  
الا قصة عبد الله بن الزبير عند هزيمة جرجير أمير إفريقية الرومي وفتح  
سببيلة سنة ٢٧ / ٦٤٨ . اذ تنسب هذه المصادر الى عبد الله بن الزبير  
وضع الخطة الحربية للمعركة النهائية – بأن أعد كميناً فاجأ العدو بعد أن  
أجهده القتال (٣) – ونضفى عليه من الأهمية ما لا تضفيه على قائد الحملة  
عبد الله بن سعد . والى جانب ذلك تظهر في هذا الموضوع – في المراجع  
الموثوق بها في تاريخ المغرب – مغامرة نساية غريبة : هي قصة أسر بنت  
جرجير الشابة الرومية التي كانت تتطلع الى ميدان القتال من فوق أسوار  
القلعة تحيط بها وصيفاتها . وقصة ابنة جرجير هذه أول قصص الحرم  
في أحداث الفتح العربية . فلقد أوردها ابن عبد الحكم مقتضبة فقال إن  
«ابنة جرجير كانت قد صارت لرجل من الأنصار في سهمه فأقبل منصورفا  
قد حملها على بعير له ...» وانتهى أمرها بأنه ألقى نفسها عن البعير فلدت  
عنتها فانت» (٤) . ولقد أشار ابن عبد الحكم بسرعة الى الدور الذي قام

(١) مخطوط فتح إفريقية ، ص ١٦ – ٢١ ؛ وقارن طبعة تونس (ص ٢٢ – ٢٩)  
التي تختلف في الألفاظ والتعبيرات كما هي عادة .

(٢) نفس المخطوط ، ص ٢١ خلف ؛ قارن طبعة تونس (ص ٢٩) حيث لا توجد هذه  
العبارة . ولكن طبعة تونس تزيد عن المخطوط أن المسلمين أقاموا سبعة أيام حتى احتفلوا بدمشك  
عبد الله بن جعفر بابنة الملك ، وعلسوا الذين أسلروا أمور دينهم ، ثم تقم هذا بدعاء لعقبة  
ابن نافع يقول فيه : « اللهم يامن لا يمانله موجود ويامن ليس له والد ولا مولود ، ويامن  
كل شيء عنده بأجل محدود نسألك وترجيه إليك ان تصل على سيدنا محمد وعلى آله عدد ما ذكره  
الذاكرون » .

(٣) بعض الروايات تنسب هذه الخطة الى رجل من القبط نصح بها عبد الله بن سعد  
(رياض النفوس للملكي ، ص ١١) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٥ .

به عبد الله بن الزبير ، فقال عن جرجير : « وكان الذى ولى قتله فيما يزعمون عبد الله بن الزبير (١) . واستعمال ابن عبد الحكم كلمتى « فيما يزعمون » ثم عدم اشارته الى مصدر الرواية . على غير عادته - مما يشكك فى أصالة كل من الروایتين .

ونحن نرى أن الزبيرين هم الذين عملوا على اذاعة هذه الأجداد عن أسرهم فنسبوا الى عميد الأسرة الأول - الزبير بن العوام - فخر الانتصار في بابلون في مصر : كما نسبوا الى ابنه عبد الله - الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها - شرف الانتصار في سبيلته بأفريقية . وكثير من روايات ابن عبد الحكم وكذلك روايات الواقدي التى ينقلها البلاذرى وغيره من الكتاب ، وهى الروايات الخاصة بالزبيرين ، مستقاه من عروة بن الزبير الذى يأخذ عن طريقه ابن لميعة راوية ابن عبد الحكم (٢) ، ومن هشام بن عروة ، وهو من أشهر رواة الزبيرين أيام المنصور العباسى (٣) ، وكذلك من نافع مولى آل الزبير الذى ينقل عنه أسامه بن زيد بن أسلم ثم الواقدي (٤) . وهكذا ذاعت قصة عبد الله بن الزبير وأعماله البطولية ، كما ذاعت قصة ابنة جرجير : ووجد الكتاب فيهما موضوعاً خصياً للإثارة فجعلوهما موضوعاً واحداً ، وأضافوا اليهما التفاصيل الغربية : فبعد الله بن سعد أعلن أن من قتل جرجير فله ابنته . وبعد أن قتل عبد الله ابن الزبير جرجير أمسك عن اعلان ذلك تواضعاً أو ترفعاً حتى آلت الشابة الاغريقية الى بدوى من أهل المدينة حسب احدى الروايات والى عبد الله ابن الزبير - بعد أن دلت التتاة على أنه قاتل أبيها الذى فتنها بشجاعته - حسب رواية أخرى (٥) .

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٣ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٩ ، ١٦٤ ، ١٦٦ .

(٣) أنظر ابن عبد الحكم ، طيبة ليدن ، ص ١١٤ ، ١٨٥ .

(٤) البلاذرى ، طيبة ليدن ، ص ٢٢٦ .

(٥) أنظر المالكي رياض النفوس ، طيبة مؤنس ، ص ١٠ - ١٥ .

وهكذا بدأت الحقيقة التاريخية تتطور شيئاً فشيئاً الى أسطورة . فالزبير ابن العوام وابنه عبد الله كانا من أبطال الفتح وكانت لها أطرافهما من غير شك ، ووجود ابنة الأمير البيزنطي ووصيفاتها في القلعة أو القصر أمر يندفي ألا نشك فيه أيضاً . ولكننا نلاحظ أن قصة ابنة جرجير غير موجوده في روايات الواقدي التي ينقلها ابن عبد الحكم والبلاذري ، والمالكي صاحب رياض النفوس . وعندما تكلم ابن عبد الحكم والبلاذري عن مفاخر ابن الزبير ذكراها بشيء من الاختصار دون سند أو عن طريق الزبيريين أنفسهم . ثم تنفخ الرواة القصة وزخرفوها وزادوا في أجماد بظلمها الى أن بلغت الشكل الذي ذكرناه ، وذلك عند ابن الأثير (أوائل القرن السابع الهجري) ثم من نقل عنه من المؤرخين مثل النويري وابن عدي (١) . وإلى هذه المرحلة ظلت الرواية تحتفظ بشكلها التاريخي المقبول ، ثم إنها وصلت الى المرحلة التي غلبت فيها الأسطورة على الحقيقة التاريخية كما في فتوح إفريقية في قصة عبد الله بن جعفر وابنة الملك مع تغيير في الأشخاص - كما ذكرنا وكما سند كر - وذلك قبل أن تصبح مادة للاساطير الشعبية - التي يعرفها الغريون بالفلكلور كما في القصة الشعبية الشهيرة : ملحمة العرب الهلالية في المغرب أو قصة « أبو زيد الهلالى » .

وإذا وجدنا من يضحخم أجماد بنى الزبير كان من الطبيعي أن نجد من يتغنى بأجماد الأسرة العلوية ، ويخترع لآل البيت البطولات الشخصية . فعلى بن أبي طالب عرف بأنه فارس مغوار كما اشتهر بشجاعة تكاد تكون أسطورية ، وكذلك بنوه . فالحسين وهو مغلوب على أمره في كربلاء لم يفقد شجاعته فكان يشد على مهاجيه - الذين تداعوا أمامه - كما يشد الذئب في الغم ، كما يريد بعض الكتاب (٢) . وكان من الطبيعي أن تظهر أجماد الأسرة منذ وقت مبكر بفضل الكتاب من أصحاب الميول الشيعة مثل الواقدي والمعويدي وغيرهما ثم تجسست هذه الأجماد بعد أن نجح الشيعة في تكوين

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢ وهامش ٢ .

(٢) أنظر ابن الأثير ، أحداث سنة ٩١ هـ .

دول لهم في المشرق وفي المغرب . ولقد كان للفاطميين أثرهم الدائم في المغرب الذي تمثل بصفة خاصة في مدينة المهدية عاصمتهم الأولى . فأصبحت المهدية رمز استقرار الشيعة في المغرب كما كانت القيروان شاهد استقرار المسلمين في البلاد . ونظر أصحاب الميول الشيعية الى قيام الدولة الفاطمية على أنه قيام للدولة الاسلام في المغرب وأذاعوه ، فاختلطت في أذهانهم مهدية عيد الله بقيروان عقبة . ثم نسبوا شرف الجهاد الى أبطال العلويين بدلا من من أبطاله الحقيقيين . فأصبح بطل الفتح عبد الله بن جعفر بدلا من عقبة (بن عامر) وهي تفصل في الحقيقة بدلا من عبد الله بن سعد . وهكذا تطورت قصة أول فتح عربي في افريقية وهي غزوة عبد الله بن سعد بن أبي مرزوق الى قصة خيالية رغم احتفاظها بمعالمها التاريخية . فأصبح فتح سيظلة هو فتح المهدية - والمقصود القيروان - ، وأصبح عبد الله بن الزبير هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وأصبح عبد الله بن سعد هو عقبة بن عامر - والمقصود عقبة بن نافع . أما ابنة جرجير التي فضلت الانتحار على الأسر فصارت بنت الملك التي فتت بعبد الله بن جعفر وعملت ووالدها الملكة على ادخال العرب الى المدينة .

وإذا لم يكن من الصعب تفسير تلك المفاهيم التي نسبت الى الهاشمين - وخاصة أن بعض رجالهم اشترك فعلا في غزاة عبد الله بن سعد مثل معبد بن العباس بن عبد المطلب الذي توفي بافريقية والذي يؤيد الواقدي الرواية التي تقول انه استشهد هناك (١) - فانه ليس من السهل تفسير ذلك الدور الذي نسب الى بني مخزوم ، وعلى رأسهم سليمان بن خالد بن الوليد ، ورافع بن الخارث . فليمان بن خالد سار نجدة لعبد الله بن جعفر عندما خرج من القصر مع بنت الملك (٢) . ولما لحقت الجماعة بهما اصططبت الاميرة الى قسطنطين رافع بن الخارث لأنه كان يصحب زوجته معه (٣) .

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٨

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٤ خلف ، ٥ وجه ، قارن طبعة تونس ، ص ٦ - ٧

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٨ وجه ، طبعة تونس ، ص ١٢

ورافع هو الذي بارز ابن عم الملك (١) ، وفلك بمائة وعشرين فارساً من فرمان العدو (٢) ، وهو الذي راسل ابن الملك يعرض عليه الاسلام أو الجزية أو القتال (٣) . وأخيراً تزوج رافع بنت ملك سيبية بأمر عبد الله بن جعفر (٤) .

ونستطيع أن نجد بداية تاريخية لأسطورة بني مخزوم هذه في قصة خالد بن الوليد زعيم المخزوميين . فخالد نموذج للفارس العربي في الجاهلية والاسلام . فهو بطل أحد ، وهو « سيف الله » في مؤتة ، وهو صاحب حرب الردة وهو صاحب الانتصارات الأولى في العراق ، ثم هو بطل اجنادين . وعلى ذلك فتاريخ جهاد خالد يمثل قصة مثيرة ، وخاصة بعد أن لقي شيئاً من العنت أو نكران الخميل من جانب عمر الذي ربما كان يحده أو يخشاه . وبينما جنى أصحابه وأبنائهم ثمرة كدهم وكفاحهم في شكل مكاسب سياسية ومنافع مادية ، انتهى خالد نهاية شبه مغمورة سنة ٦٤٢ / ٢٢ حتى أنه لا يعرف إن كان قد مات بحمص أو بالمدينة (٥) - وهي نهاية لا تتناسب مع أجماده وحسن بلائه . ولم يرث أبنائه عنه الا تلك السمعة وذلك الصيت الذي يثير شكوك أولى الأمر ويبعث الاشفاق في قلوبهم حتى أنه يقال إن معاوية دس السم لأبن خالد ، وهو عبد الرحمن عند عودته من حرب الروم سنة ٤٦ / ٦٦٦ (٦) .

وبطبيعة الحال لم يكن بنو مخزوم ليرضوا عن ذلك الجزاء القريب . ويعبر عن ذلك ما قاله عمر بن الخطاب لعمر بن حفص بن المغيرة عندما احتج على عزل خالد : « انك قريب القرابة ، حديث السن ، مفضلاً

(١) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٩ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٣

(٢) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١١ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٦

(٣) مخطوط فتوح افريقية ، ص ١٣ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ١٩

(٤) مخطوط فتوح افريقية ، ص ٢٩ وجه ٤ ؛ طبعة تونس ، ص ٤٠

(٥) أنظر مقال خالد بن الوليد في دائرة المعارف الاسلامية .

(٦) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٦

لاين عمك» (١) . ولم يكن أولئك الرجال الذين طالما قادهم خالد الى النصر ليرضوا عن ذلك . وهنا ربما التقى الهاشميون والخزرميون - عن غير قصد - من حيث الشعور بالغين ، والعداء لأولى الأمر من الأمويين . ولم يعد أولئك وهؤلاء الأتباع والأنصار الذين يتغنون بأمجادهم ويعرضون بخصومهم . وهناك نص يهنا في فتوح مصر والاسكندرية المنسوب للواقدي ، يبين كيف أن ابن اسحق - أقدم أصحاب المغازي والفتوح - أخذ وقائع عن فتح الشام ومصر « عن مشايخ ثقات وثق بهم من آل مخزوم » . ومن هؤلاء نوفل بن مشاجع الخزومي ، ابن عم خالد بن الوليد ، وكان من المعمرين ، ومنهم فهد بن عاصم بن عمرو بن سهيل بن عمر الخزومي (٢) . كما يذكر لنا « فتوح الهند » أن من رواه سلمة بن هشام الخزومي ، وكان ممن حضر الفتح (٣) . وعن طريق هؤلاء كما نظن نسب مخطوط فتح الهند والقبوم شرف الفتح الى خالد بن الوليد - الذي كان حينئذ بالشام - وجعله تحت قيادة عمرو ، كما جعل للهاشميين دورهم الى جانب خالد . أما في إفريقية فتعكس الآية ، ويصبح الهاشميون هم الأصل والخزرميون هم انفرع وكذلك الزبير وابنه عبد الله .

وبذلك يشترك في قصة الفتح أربعة أطراف :

١ - الولاة أو القواد ، وهم الموظفون الرسميون ويظهرون بمظهر الخالدين ، والى جانبهم العصبية الأموية صاحبة الدولة . وموقف الأمويين شبه سلبي .

٢ - الهاشميون .

٣ - الخزرميون ولم موقفهم الايجابي في الفتح

(١) ابن حجر ، الاصابة في تمييز الصحابة ج ١ ، ص ٤١٤ ، حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الاسلام ، ج ١ ص ٢٢٨

(٢) أنظر طبعة ليدن ، ص ١٨ ، ١٩

(٣) المخطوط ، ص ١٢٩ وجه .

وهذا يعنى أن النزاع الياسى - أولا وقبل كل شئ - بين هذه الأسر الكبيرة، هو الذى أمل تطور الحقيقة التاريخية في ذلك الاتجاه الاسطورى المصطنع الذى أشرنا اليه ، وهو الذى أدى الى ظهور هؤلاء الأبطال الخرافيين في تلك المواقف المدهشة .

ومثل هذا الاتجاه يظهر أيضاً بالنسبة للمعلومات الخاصة بجمهرة المقاومة من العرب . ف « فتوح مدينة افريقية » يذكر أن القبائل التى كانت مع عقبة - من غير العصابات الكبرى السابقة - هي حبروغان ولخم وجذام وطيء (١) . وهذا يعنى أن القبائل اليمنية هي التى قامت بالنصيب الأكبر في تلك الفتوح . ونرى فعلاً أن قبائل حبر تحبل مركز الصدارة في هذا النص : فقوة عقبة التى كان عليها حماية النساء والأموال عند سبيته بلغ عددها الف رجل جلهم من « أخلاط العرب الا حبر » (٢) . وحبر هي التى حققت المغنم العظيمة - بينما كان النزاع على أشده بين الهاشميين والأمويين - من الذهب والحريير والمسك والفلفل . ولم يتأثر الحميريون بهذه المغنم بل قاسموا الهاشميين وأشركوهم معهم فيما غنموا (٣) .

والإصرار هنا على أن حبر هي صاحبة كل هذه الأفضال له مغزاه . فالمعروف أن عرب الشمال من العدنانية أو الزراوية هم الذين كان لهم مركز الصدارة في الفتوح الاسلامية الأولى بحكم أن الدعوة الاسلامية قامت في الحجاز ونجد أى في مواطنهم ، ومنهم قبائل قريش التى هي فرغ من مضر . أما اليمنية ومنهم حبر فكان لهم دور ثانوى . ومع أن أهل المدينة من الأوس والخزرج ينتسبون الى اليمن إلا أنهم كانوا أنصاراً أولاً وقبل كل شئ ، وكان لهم كيانهم الخاص . ولقد تغير هذا الموقف بعض الشيء عندما انتقلت الخلافة مع معاوية الى الشام : فاهتم معاوية بقبائل كلب اليمنية وصاهرهم ،

(١) المخطوط ، ص ٢ وجه ، ص ٢٨ خلف ، ص ٤٥ خلف ، ص ٧٦ وجه ، ص ٨٤

خلف ، طبة تونس ، ص ٥٥ ، ٥٧ ، ١١٤ ، ١٣١

(٢) نفس المخطوط ص ٣٠ وجه ؛ طبة تونس ، ص ٤٢ ( هنا يختلف النص بعض الشيء .

اذ يقول : « ومعهم ٣٠ ألفاً من أخلاط العرب ، وعرب حبر كلهم معه الا أيوهم حزام بن ضرار . » )

(٣) للس المخطوط ، ص ٤٩ خلف ، طبة تونس ، ص ٧٢ - ٧٤ .

ومال اليهم ابنه يزيد بصفتهم أخواله ، وقام اليمينيون بدور ميامي هام عندنا هزموا القيسية في مرج راهط سنة ٦٥ هـ وأكدوا ملك المروانيين . ولكنه رغم ذلك ظل الضوق للقيسية أى للعدنانية في معظم الأوقات ، فكان منهم كبار العمال من رجال الحرب والادارة أمثال يزيد بن أبيه والحجاج وموسى بن نصير وقتيبة بن مسلم ونصر بن سيار . ولم تظهر اليمينية الا في أوقات قليلة كما حدث أيام سليمان بن عبد الملك بفضل المهليين . ولهذا وقفت اليمينية موقف الحزب المعارض من الدولة الأموية على أواخر أيامها ، واشتركوا في التآمر على الوليد بن يزيد وقتلوه كما تحالفوا مع دعاة العباسيين .

وهنا نجد تشابها بين موقف اليمينية وبين موقف الهاشميين من الدولة الأموية من حيث أن كلا من الجماعتين وقف موقف المعارضة . ولما كان من الطبيعي أن كلا من الطرفين لم يتم بدور رئيسي في تأسيس الدولة العربية الكبرى وإدارة أمورها ، لم يكن من الغريب أن يلجأ الى تعويض ما كانا يتمنيانه وأفتقدها في واقع الأمر ، عن طريق تحقيقه في عالم الخيال . وهكذا فعل اليميني وأنصارهم - كما فعل الهاشميون وأشباعهم - ففسبوا لأنفسهم الأجداد وعظائم الأعمال في العصر الاسلامي الأول . واستغل اليميني ما كان لهم من المنك والشهرة قديماً ، ووسعوا رقعة هذه الأجداد بشكل عجيب في عصور ما قبل الاسلام وخاصة عصور مملكة حبر (١) . وامتلاً تاريخ اليميني القديم بالأساطير التي تناقلها الكتاب فيما بعد والتي تنسب الى اليمينية القيام بأعمال خارقة . فاذا كان العرب وخاصة العدنانية منهم قد قاموا بفضل الاسلام بتلك الفتوح الكبرى من حدود الصين الى حدود الفرنج ، فان اليميني حققوا في القديم فتوحاً لا تقل عنها ان لم تزد . فهم فتحوا العراق وفارس وخراسان والهند والصين شرقاً ثم مصر والمغرب والأندلس وأرض الفرنج غرباً (٢) ؛

(١) أنظر جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ١ ص ٤٣ - ٤٤ ؛ سيدة الكاشف

مصادر لتاريخ الاسلام ، ص ٢٧ ، ٢٨

(٢) أنظر أبو حنيفة الدينوري ، الأخبار الطوال ، طبعة القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢١ - ٢٤

وهذا ما كان موضع نقد ابن خلدون في مقدمته (١) . وكان من الطبيعي ألا يقف اليمن بأجدادهم عند عصور الجاهلية . فواصلوا نسبة أمثال هذه الأجداد لهم في الإسلام ، كما في «فتوح إفريقية» . فلقد نسب فخر فتح المغرب فيه إلى قبائل اليمن ، واختصت حير منها - وهي قبيلة الملوك القحطاني - بدور البطولة . وهذا قد يفسر أيضاً كيف انتسبت بعض الجماعات المغربية الكبيرة إلى حير مثل قبائل صهاجة القوية التي غلبت على المغرب لمدد طويلة . فالنصوص تشير إلى أن الصهاجيين كانوا يفخرون بأنهم ، ورثوا ملكهم عن آبائهم حير (٢) . وإذا ما عرفنا أنه لا يوجد ذكر هام لقبائل اليمن ولا لحير في الحملات الأولى على المغرب ، مثل حملة عبد الله بن سعد بن أبي سرح التي يمدنا الكتاب بتفصيلات دقيقة عن تكوينها (٣) ، أدركنا أن أجداد اليمن والحيريين هذه من صنع مؤرخيهم وروايتهم ودعواتهم . والحقيقة أنه كان في ذلك تعويض لليمن عن بعض ما فاتهم في صدر الإسلام ، كما كان فيه لإرضاء لشعورهم بأنهم أعرق العرب وأكثرهم أصالة .

وبذلك تكاملت عناصر قصة فتح إفريقية المنسوبة للواقدي ، وتتكون من القائد (عقبه) وله دور غير فعال في الجهاد ، وإلى جانبه الأمويون أصحاب الدولة وموقفهم سلبي أيضاً . أما أبطال الفتح فهم الهاشميون والمخروميون والزبيريون ، وإلى جانبهم الحميريون وهم جبهة المقاومة . وفي الجانب المعادي هناك ملوك البلدان المختلفة برؤسائهم وكنوزهم العجيبة ، ومنهم من آمن برسالة الإسلام ومنهم من لم يؤمن ، وإلى جانبهم بناتهم ومنهن من افتتن بشباب العرب وسهلن لهم الفتح ، ومنهن من وقفن معاديات كيداً لقاتن الأجنبيات . واقد وجدنا أن قصة فتح مصر والامكندرية وكذلك فتح الهندسة والنيوم تحتويان على نفس العناصر ، وتشتركان في نفس الصور ، ونفس «السيناريو» مع تغييرات طفيفة امتلزمها الموقف . ويمكن أن نستخرج من ذلك أن الروايات

(١) ابن خلدون ، المقدمة طبعة التجارية . باب فضل علم التاريخ وتحقيق مآذبه ، ص ١٢

(٢) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٤ ؛ ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٤٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ وتابع ؛ وأنظر مؤنس ، فتوح العرب في المغرب ، ص ٨١

الثلاث نابعة من مصدر واحد . ونسبة هذه الكتب . في شكلها الراهن - الى الواقدي أمر يشوبه الشك ، وهذا متفق عليه . فالواقدي مؤرخ محدث ، من ذلك الرعيل الأول الذي أقام علم السيرة والحديث مثله مثل ابن اسحق وابن هشام ، رغم ما يرى به من ضعف الأحاديث ، وهذا أمر يشترك فيه مع ابن اسحق . وتقدير قيمة الواقدي الصحيحة - كثورخ ومحدث - تأتي عن طريق تقدير كتابه في معازي الرسول الذي وصل إلينا سليماً ، وكذلك فيما نقله عنه من الروايات ثقات كتاب السيرة والأحاديث مثل كاتبه ابن سعد صاحب الطبقات ، وما نقله المؤرخون الأوائل مثل ابن عبد الحكم والبلاذري والطبري ، وهي روايات تنسب بالطابع العلمي الصادق . هذا ولو أن بعض المؤرخين يضعف من روايات الواقدي التاريخية - كما ضعف المحدثون أحاديثه : فالطبري يسبق الروايات التي ينقلها عنه بكلمة « وزعم الواقدي » في أحيان كثيرة (١) . ولكن إذا كانت فتوح إفريقية وفتوح مصر وفتوح الهند ، تنصف بتلك الصفة الأسطورية التي لا تتفق مع روايات الواقدي المعروفة ، فهذا لا يعني أنها ليست له أصلاً . فالمعروف أن الواقدي كتب في معازي هذه البلاد وفتوحها ، وينقل عنه معظم الكتاب . ونرى أن هذه الكتب للواقدي أصلاً ولكنها تطورت الى الشكل الذي أصبحت عليه في الظروف التي حاولنا تفسيرها . أما عن توقيت ذلك التطور فأمر صعب يتطلب الى جانب النظر في كل المخطوطات ومعرفة تواريخ نسخها الصحيحة ، وجود نسخ منها من فترات متتالية مختلفة حتى يمكن معرفة الزيادات والحذف الذي كان بطراً عليها .

ونستطيع أن نقرر ابتداءً أن روايات الواقدي أخذت شكلها الأسطوري هذا في وقت متأخر نسبياً بعد القرن السابع الهجري (١٣ م) . والدليل على ذلك تلك الشخصيات التي يذكرها مخطوط فتح الهند مثل «سيدى أبو مدين»

(١) أنظر الطبري على سبيل المثال ، أحداث الصراع بين العرب والروم : سنة ٥٢ (زعم الواقدي ..) : سنة ٩٢ عن نوح الأندلس (زعم الواقدي) وهذه الرواية لها طابع المبالغة وعدم الدقة : فلك الأندلس اسمه الأندلسي ، وهو من أصهبان ، وزحف للعرب في سرير الملك وعليه تاجه وتمارزه .. الخ ..

الذي توفي في أواخر القرن السادس الهجري، و«سيدى أبو الحجاج الأتصري» المتوفى في منتصف القرن السابع. وهنا نعتقد أن انتشار حركة الطرق الصوفية، واهتمام الناس والكتاب بحياة الزهاد والصالحين، وعنايتهم بكراماتهم ومعجزاتهم - وهي سمة عصور الضعف والأضمحلال التي نقلت الناس من عالم الحاضر المؤلم إلى عالم الخيال السحري -، كانت لها آثارها في تطور الروايات التاريخية وحشوها بالخرافات والكرامات. ولما كان كبار الزهاد والصالحين هم النماذج المثالية في أعين أهل هذه العصور، وجب إدخال كثير من أبطال صدر الإسلام في نفس «الطريق». وهكذا نجد حشداً منهم من رجال السياسة والحرب والإدارة في كتب طبقات الصوفية. والمثل لذلك على بن أبي طالب وبنوه، والزيبر بن العوام وابناه عبد الله وعروه، وطلحة بن عبد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيد بن الجراح، وعبد الله بن عباس وغيرهم (١). ولما دخلوا في «الطريق» وجب أن تكون لهم أعمالهم المخارقة وكراماتهم كما تصورها الخيال الشعبي في الروايات التي رأيناها.

والى جانب الأثر الصوفي الشعبي المتأخر، تأثرت الرواية التاريخية هنا بأحداث تاريخية متأخرة كانت لها آثارها العميقة، في خيال الناس. ففي قصة فتوح إفريقية نجد مراحل الفتح تسير من المهديّة (سيطة) إلى سوسة وسيبة وسقنارية وحيدرة وقسطيلية وثبسة وقطنية وتنتهي عند المعلقة. وتلاحظ أن كثيراً من هذه المدن ليس لها ذكر ذو بال في الفتوح الأولى، أو ليس لها ذكر إطلاقاً. فسوسة ليس لها ذكر إلا في حلة معاوية بن حديج الذي سير إليها عبد الله بن الزبير فاستولى عليها (٢). وفي مخطوط فتوح إفريقية استبدل بابن الزبير - كما رأينا - عبد الله بن جعفر. ولكننا لا نجد أية إشارة إلى مغامرات نسائية كذلك التي حدثت في سيطة. هذا ولو أن هناك ذكراً لامرأة من العجم اتقت بعد الملك بن مروان، عندما شد

(١) أنظر تراجم هؤلاء في كتاب الطبقات لشعراى.

(٢) أنظر حسين مؤنس، فتح العرب شمرو، ص ١٢١ والمرامش.

عن الجيش في غزوة ابن حديج - ولكن في بنزرت وليس في سوسة -  
فقرته وأكرمت منواه ، فرد جميلها عندما ولي الخلافة (١) .

أما عن سببية فلا ذكر لما اطلاقا في الفتوح الأولى رغم أنها كانت من  
القلاع القريبة من القيروان مثل جاولاء التي استولى عليها عبد الملك بن مروان.  
ولكن فتوح افريقية يجعل من فتح سببية قصة جهاد طويلة أنجز العرب فيها  
كثيراً من الأعمال ، ولقوا فيها كثيراً من المتاعب : فالقوات المعادية التي  
بلغت ١٨٠ ألفاً اصطدمت بقوات العرب التي بلغت ٤٠ ألفاً بقيادة ابن جعفر  
بينما كان عقبة في الخطوط الخلفية يقوم بحراسة النساء والبنات والأموال  
ومعه ٣٠ ألفاً من أنحلاط العرب . وعلى غير العادة أصيب العرب بصدمة  
عنيفة عندما فاجأ الأعداء عقبة «وأخذوا النسوة عن آخرهم وملكوهم» (٢) .  
والحقيقة أن أهم الأحداث التي عرفتها سببية في تاريخ المغرب العربي ،  
هي الوقعة الكبيرة التي حدثت في سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م بين العرب الحلالية  
من بني رياح وبين الصهاجيين من بني حماد ، والتي انتصر فيها الحلالية .  
وكانت وقعة سببية هذه حاسمة إذ أكدت استمرار الحلالية بالمغرب ، وجعلت  
بني حماد يتقلون عاصمتهم من القلعة الى مدينة بجاية . والحقيقة هنا تخالف  
ما في القصة إذ انتصر العرب على خصومهم . أما الوقعة التي تذكرنا  
بهزيمة العرب في سببية وتركهم ناسهم وذرائعهم أسرى بين أيدي الأعداء  
كما في القصة فهي الوقعة التي انهزم فيها العرب الحلالية أمام قوات الموحدين  
بقيادة عبد المؤمن بن علي في سنة ١١٥٥ هـ / ١١٥١ م ، ولكن في سطيف  
من أرض الجزائر وكيس في سببية من أرض تونس . ولقد قسم عبد المؤمن  
بن علي أموال الحلالية على رجاله ونقل نساءهم وذرائعهم الى المغرب الأقصى  
ولم يرددهم الى ذويهم الا بعد أن قيل هؤلاء الاستيطان في البلاد المراكشية (٣).

(١) أنظر حسين طونس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٥ والملاحز ١

(٢) مخلوط نوح افريقية ، ص ٣٠ خلف .

(٣) ابن الأثير ، أحداث سنة ٥٥٤ ، ج ١١ ص ١١٠ - ١١١ - وأنظر

G. Marçais, Les Arabes en Berbérie du XI<sup>e</sup> au XIV<sup>e</sup> ss., pp. 148 - 150.

وبناء على ذلك نعتقد أن قصة فتوح سيبية تحوى بذوراً من ملحمة الهلالية في المغرب ، وكذلك الأمر بالنسبة لفتح حيدرة ، والمعلقة . فمبياً يختص بحيدرة لا نجد مدينة في المغرب تعرف بهذا الاسم . ولكننا نعرف جيلاً يقع على مسيرة يوم من القيروان يعرف بجبل حيدران . ونظن أن اسمه تغير في قصتنا الى حيدرة - وهذا أمر ليس بغريب ففي كتاب ابن الأثير نقرأ الاسم جندران (١) . وجبل حيدران هذا شهد أول الأحداث الهامة في ملحمة الهلالية . وذلك أن العرب من بني رياح حققوا بجزائره انتصارين هامين على الصنهاجين أصحاب القيروان ، رغم قلة عدد العرب وكثرة خصومهم . ولقد تغنى شاعر بني هلال بهذا النصر فقال :

ثلاثة آلاف لنا غلبت لهم ثلاثين ألفاً أن ذالكال (٢) .

وفيما يتعلق بالمعلقة لا نجد بلداً يحمل هذا الاسم في المغرب . والذي عرفناه هو أنه بعد انهزام بني حماد أمام الهلالية في وقعة سيبية نقل الحماديون عاصمتهم من القلعة - الموجودة في الداخل والتي كانت تحت رحمة الهلالية - الى مدينة بحماية الساحلية . وبحماية في منطقة جبلية وعرة يصعب الوصول إليها ، ولهذا السبب عرفت بأنها معلقة (٣) ، ونعتقد أنها المقصودة فعلاً رغم وجود قصر من قصور قرطاجنة يعرف بالمعلقة (٤) .

كل هذه قرائن يمكن أن تؤيد ما نريد أن نذهب إليه من أن قصة «فتوح أفريقية» - في آخر أشكالها وكما رأيناها - تحوى أيضاً بذور قصة الهجرة الهلالية الى المغرب التي دارت خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين . والحقيقة أن ملحمة الهلالية التاريخية في المغرب حوت عناصر شبيهة بعناصر فتوح أفريقية . ففيها العرب الهلالية ومنهم بنو سليم ، وهؤلاء اشتركوا في أول

(١) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٤٢ ج ٩ ص ٢٣٦

(٢) نفس المصدر .

(٣) أنظر كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، طبعة جامعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص

١٣٠ (وبحماية معلقة في جبل وقد دخل في البحر يسمى سيون) .

(٤) كتاب الاستبصار ، طبعة الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ١٢٢ والمناش ١

فتح لافريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وكان لهم ٤٠٠ رجل في غزوة سيطة (١) . وفيها الحميريون رغم أنهم كانوا في صفوف الخصوم أي الصنهاجيين الذين انتسبوا الى ملوك حمير من اليمن ، وفيها الروم أو الفرنج وهم الصقليون الذين كانوا يهددون سواحل المغرب في ذلك الوقت والذين حاربهم الهلالية في أكثر من موقعة كما حدث في المهديّة (٢) . وفيها بنات الملوك من الأميرات الصنهاجيات اللاتي قمن بأدوار سياسية هامة مثل السيدة أم ملال عمة المعز بن باديس (٣) أو اللاتي أعطين كزوجات لزعماء بني هلال اكتسابا لودهم ودفعاً لشركهم (٤) . أما عن كنوز المغرب على أيام الصنهاجيين فلا شك أنها بهرت الهلالية كما سبق أن بهرت خيرات وكنوز البلاد عرب التفتح الأولى ، فالكتاب يبالغون في وصف ثراء المغرب وغنى الصنهاجيين الى درجة كبيرة : فالأمراء كانت لهم عمائم مرصعة كالتيجان ، وجهاز عرس بعض الأميرات بلغت قيمته ألف دينار ... الخ (٥) .

وبطبيعة الحال هناك أحداث أخرى في «فتح افريقية» يستلزمها الإشارة الى أحداث هامة وقعت في تاريخ المغرب خلال العصور المختلفة . ولكن أهم خاصتها هي الخاصة بفتح العرب الأولى التي امتزجت بفتح عرب الدفعة الثانية الكبرى ، وهم عرب بني هلال . ولقد امتزجت عناصر الحداث التاريخية الهامين اللذين أثارا الخيال الشعبي ، واتخذتا شكلهما الأسطوري في الظروف التي حاولنا تفسيرها . وآخر ما نريد أن نشير اليه هو أننا نرى أن هذه الرواية الأسطورية كانت مرحلة هامة في تطور أحداث المغرب التاريخية الى أسطورة شعبية لحما ودما هي ملحمة الهلالية المعروفة بقصة

(١) أنظر حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٨١ هامش ٢

(٢) ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٨١ ، ج ١٠ ص ٦٨

(٣) ابن عذاري ، طيبة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٢

(٤) ابن خلدون ، الجبر عن دخول العرب من بني هلال وسليم المغرب ، ج ٦

ص ١٤ - ١٥ ؛ والترجمة الفرنسية ، ج ١ ص ٣٤ ، ج ٢ ص ٢١ والهاشمي .

(٥) الاستبصار ، ص ١٢٩ ، ابن عذاري طيبة ليدن ١٩٤٨ ، ج ١ ص ٢٧٢

ابن الأثير ، أحداث سنة ٤٧٠ ، ج ١٠ ص ٤٤

« أبو زيد الهلالي » (١) . فالحقيقة أن عناصر القصة الشعبية تشترك مع قصتنا في كثير من أوجه الشبه : ففى صفوف العرب اخلالية نجد رئيسهم السلطان حسن يقف موقفاً شبيهاً سليبي ، بينما البطل الأكبر هو أبو زيد سلامة وائى جانبه عدد من فوارس زغبة ورياح وسليم . أما العرب الحميريون فهم الزناتية وزعيمهم الزناتى خليفة بن سميح بن حمر وعدد من الأبطال ، وأما بنات الملوك فهن فى الجانبين جميعاً بدلاً من الجانب المعادى فقط : فنجد الخازية أخت السلطان حسن فى جانب الهلالية ومعها بنات العرب الحميلات فى ملابس الحرير وحلى الذهب والفضة ، وفى جانب الزناتية نجد سعدة بنت ملك العرب التى فتنها مرعى الالى ، وهو فى سجن أبها . وأخيراً هناك اليهود والنصارى أيضاً فى صفو الخصوم (٢) .

هذا فيما يتعلق بالعناصر الرئيسية أما عن التفاصيل فهناك أوجه شبه أيضاً . فالسند فى قصة اخلالية هو « الراوى » الذى يتكرر ذكره كل فقرة أو مقطوعة شعرية . ثم نلاحظ عنصر التهويل كوصف الفارس بالحيل ومقارنة ارتطام الفارسين بارتطام جبلين ، وضربات السيوف والرمح التى تشق الخنوب وتخرق الصدور والظهور ، ثم المغامرات النسائية التى سهلت فتح أبواب الحصون الموصدة .

هذه العناصر وتلك التفاصيل التى تتوالى وتتكرر فى شكل رتيب ، وتكون عناصر ملحمة اخلالية الشعبية نجد أشباهها فى فنوح افريقية والهنسة ومصر التى كانت موضوع بحثنا ، وهذا يؤيد ما أردنا أن نذهب اليه من أن كتب الواقدي العلمية أخذت تتطور مع مرور الوقت حتى انتهى بها الأمر الى الشكل الذى وجدناه عليها الآن ، وأن هذا الشكل هو الذى استمد منه أصحاب الملحمة الهلالية الشعبية عناصر قصتهم .

(١) من السيرة الهلالية أنظر درامة الدكتور عبد الحميد يونس ( الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى ) القاهرة سنة ١٩٥٦ . ومناقشة عن السيرة بنى هلال . فى سلسلة تراث الانسانى ، المجلد الأول ، ص ٣١٧ - ٣١٩ .

(٢) أنظر سيرة العرب المجازية (وهو مختصر لقصة الهلالية) ، طبع الإسكندرية (الشمس) بعون تاريخ : عن السلطان حسن أنظر على سبين أمثال ص ٥ - ٦ - ١٦ ، وعن ابى زيد الهلالي ص ٥٠ - ٦٠ ، ٧٠ ، ٢٣ ، وعن الحميريين لزناتية ص ٣٩ ، ٢٩ ، ٥٦ ، وعن الخازية أخت السلطان حسن وبنات العرب ص ٩ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٣ ، وعن سعدة بنت ملك العرب وبنات زفاته ص ١٤ ، ١٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٥١ ، ٨٩ ، ٩١ ، وعن سب الأهل والدة سعدة ص ١٠٣ - ١٠٤ ، وعن اليهود والنصارى أعداء الهلالية ص ٤١ ، ٤٣ .

## طرابلس الشام

### تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي

للكاتب السيد عبد العزيز سالم

أتيحت لي فرصة زيارة مدينة طرابلس الشام ، في الوقت الذي كنت فيه معاراً بجامعة بيروت العربية للعام الجامعي ١٩٦١ - ١٩٦٢ ، فبحثت عن تاريخ هذه المدينة فلم أجده ، ثم زرت آثارها ، ولم يكن معي غير دليل صغير عن أهم معالمها ، وذهلت لكثرة الآثار الاسلامية التي تحتفظ بها المدينة ، ووجدت نفسي منساقاً الى الكتابة عن هذه الآثار ، فأعدت زيارتي لطرابلس مرة بعد مرة ، وأخيراً أقمت بالمدينة فترة من الزمن قمت خلالها بدراسة أهم آثارها الاسلامية . واتصلت في أثناء هذه الفترة بالعالم الكبير الأمير موريس شهاب ، مدير الآثار ببلدان والأستاذ بالجامعة اللبنانية ، الذي أتم هذه الفرصة لأقدم له جزيل شكرى على ارشاداته وتوجيهاته ومعاونته الصادقة ..

تقع مدينة طرابلس الشام على منتصف الساحل الشرقى لخوض البحر الأبيض المتوسط تقريباً ، وتبعد عن مدينة بيروت عاصمة لبنان بنحو تسعين كيلو متراً ، ويحشى طرابلس من الرياح الجنوبية الغربية السائدة عدة جزر صخرية صغيرة ، تتوزع أمام رأس الميناء . وقد ساعد هذا الموقع الرائع لمدينة طرابلس ، بالإضافة الى امكانياتها الاقتصادية المتوفرة ، على ازدهار الحياة الاقتصادية في المدينة ، وتقدمها تقدماً محسوساً ، بحيث أصبحت مدينة طرابلس لهذا السبب بحق العاصمة الثانية للجمهورية اللبنانية .

وتتألف مدينة طرابلس من الناحية العمرانية من قسمين أساسيين :  
 المدينة والميناء تفصل بينهما مساحات واسعة من الحدائق والبساتين .  
 أما المدينة فتمتد على بعد ثلاثة كيلو مترات تقريباً شرق الميناء ، على ضفتي  
 نهر قاديشا المعروف بنهر أبي علي ، في الموضع الذي يصل فيه هذا النهر  
 الى السهل بعد أن يجتاز المنطقة المرتفعة من سفح جبل لبنان . ويقوم  
 على الضفة اليسرى من هذا النهر نثر أو تل يشرف على مدينة طرابلس  
 الرابضة أدناه، ويرتفع على هذا التل قلعة أثرية من أيام الصليبيين والمماليك  
 تعرف اليوم بقلعة صنجيل نسبة الى منشأ ريموند دي سان جيل ، كونت  
 دي تولوز ، الذي أقامها سنة ١١٠٣م أثناء حصاره لمدينة طرابلس القديمة  
 المطلقة على البحر ، وسماها قلعة الحجاج نسبة للتل الذي أطلق عليه في ذلك  
 العصر اسم تل الحجاج Mons Peregrinus (١) .

وأخذ العمران ينمو منذ ذلك التاريخ أدنى هذه القلعة مكوناً مركزاً  
 عمرانياً ، اختاره المنصور قلاوون لبناء مدينة طرابلس بعد أن هدم المدينة  
 القديمة (المينا) ، وقدر لهذه المدينة القلاونية أن تصبح من أعظم مدن الشام  
 في عصر دولتي المماليك البحرية والشراكية ، وما زالت هذه المدينة بآثارها  
 الاسلامية العديدة من مدارس ومساجد وقياب وخانات وحمامات وأسواق  
 تؤلف القسم الأعظم من طرابلس الحالية . ويمتد هذا القسم على جبل أبي  
 سمراء (تل الحجاج) وعلى النثر الواقع شرق نهر أبي علي وهو المسمى بتلة  
 القبة ، وعلى جانبي الطرق المؤدية الى بيروت جنوبي والى اللاذقية شمالياً ،  
 وفي السهل الفاصل بين طرابلس المدينة وطرابلس الميناء (٢) .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طرابلس .

فليب حني ، لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة والدكتور فقولا زيادة ،  
 بيروت ١٩٥٩ ص ٣٥٢

(٢) أنظر تقرير بعثة ايرنيسكو الى لبنان منذ ١٥ نيسان حتى آخر آيار سنة ١٩٥٣

أما طرابلس المينا فتقع في نهاية السهل الخصب الممتد من مدينة طرابلس « القلاونية » الى الساحل والذي ينتهي بشبه جزيرة تحيط بها مياه البحر من الشمال والجنوب والغرب . وتكمل منطقة الميناء المذكورة بأربع جزر صخرية أشرنا إليها فيما سبق ، وأهمها الجزيرة المعروفة عند أهل طرابلس بجزيرة الأراتب ، ويقصدونها بالسفن للتزود ، وطرابلس المينا الحالية هي الموضع الذي كانت تقوم فيه مدينة طرابلس في العصور القديمة الى أن أمر قلاوون بهدمها تماما سنة ١٢٨٩ م .

### (أولا) تاريخ طرابلس في العصر الاسلامي

#### تاريخ طرابلس القديم :

طرابلس الشام مدينة فينيقية الانشاء ، فقد أسسها الفينيقيون على امتداد الشاطئ الشمالي الشرقي لشبه جزيرة المينا ، وأطلقوا عليها اسم «أثر» Athar . ولا نعرف تاريخ تأسيس «أثر» على وجه التحديد ، وكل ما نعرفه في هذا السيل أنها كانت تشتمل في عصر السيادة الفارسية في القرن الرابع ق. م . وبالذات في سنة ٣٥٩ ق. م وهي السنة الأولى من عهد الملك ارتخشستا الثالث أو كوس Artaxerxes III Ochus (٣٥٩ ق. م - ٣٣٨ ق. م) من ثلاثة أحياء تمثل المدن الفينيقية الثلاثة : صور وصيدا وأرود ، فكانت تشتمل على حي للصوريين وحي للصيداويين وحي للارواديين ، أي أنها كانت مركزاً لاتحاد فينيقي يضم المدن الثلاثة المذكورة ، أو عاصمة لهذا الاتحاد الثلاثي . وكان يحيط بكل من أحياء «أثر» الثلاثة سور قائم بذاته (١) وكانت هذه المدينة باعتبارها عاصمة للاتحاد الفينيقي ، مقرا لاجتماع المؤتمر الفينيقي العام ، وهو مؤتمر سنوي كان يشترك فيه نحو ثلاثمائة عضو يمثلون المدن الفينيقية الثلاثة . وكان للتدخل المتواصل الذي يقوم به ارتخشستا في شؤون هذا المؤتمر أثر كبير في أشغال نيران الثورة في «أثر» ضد السيادة الفارسية ، وبدأت هذه الثورة في الحى الصيداوى من «أثر»

(١) Bruce Condé, Tripoli of Lebanon, Beirut, 1961, p. 9

سنة ٣٥١ ق . م ، ثم انتشرت من هذا القطاع الى مدينة صيدا نفسها ، ثم اجتاحت بعد ذلك الساحل الفيديقي كله ، وكان نتيجة لهذه الثورة أن تمكنت تسع مدن فينيقية من طرد ممثلي الفرس فيها وأعلنت بذلك استقلالها ، فاضطر ارتحشنا ازاء هذه الحركة الى الخروج من بابل على رأس جيش كثيف قوامه ٣٠٠ ألف من المشاة و٣٠ ألف من الفرسان ، قاصدا صيدا ، وتمكن من استرجاع المدينة ، بعد أن أبدى أهلها مقاومة شديدة واستبلوا في الدفاع عن مدينتهم ، وكان انتقامه منهم هائلا ، اذ نقل سكانها الذين نجوا من الموت الى عاصمته بابل ، وأضرم النار في أبنية المدينة . وخافت المدن الأخرى النائرة أن تنهى الى هذا المصير ، فاستسلمت للفرس بعد سقوط صيدا مباشرة (١) .

ثم رحبت « أثر » بالاسكندر المقدوني كمحرر لها من نير الفرس ، فاستلمت لعاكره سنة ٣٣٣ ق . م شأنها في ذلك شأن غيرها من مدن الساحل الفيديقي مثل ماراثوس ، وأرواد ، وجيل ، وصيدا . أما صور فقد ظلت وحدها تقاوم جيوش الاسكندر حتى تمكن من فتحها سنة ٣٣٢ ق . م بعد حصار بحري وبري دام نحو سبعة شهور . وانتقم منها بأن تركها وراءه خرابا تلثمه النيران .

ثم تمزقت امبراطورية الاسكندر بعد وفاته ، وكانت سرورية من نصيب سلوقس الأول (٣١٢ - ٢٨٠ ق . م) الذي ضمها الى أملاكه سنة ٣١٢ ق . م واتخذ أنطاكية التي أسما على الضفة اليسرى من نهر العاصي وسماها باسم أبيه أنطيوخس ، حاضرة له سنة ٣٠٠ ق . م . وفي هذا العصر السلوقي تحولت بعض المدن ذات الأسماء السامية القديمة الى مدن هلنستية في الاسم وفي العمران : فمدينة بريتوس (بيروت) أصبحت تسمى لاوديسة ، ومدينة حماه سميت أيقانية ، وأثر أصبحت تسمى تريبوليس أي المدينة الثلاثية ،

(١) فيليب حنّ ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول ، ترجمة الدكتور جورج حداد : بيروت ١٩٥٨ ص ٢٤١ - ٢٤٨  
Bruce Condé, op. cit. p.9.

ومع أن أغلب هذه المدن السورية القديمة التي تأخرت قد فقدت صفتها الهلنسية في العصور التالية ، واستردت بالتدريج شخصيتها السامية ، فإن مدينة تريبوليس تعتبر الاستثناء الوحيد لهذه المدن ، فقد ظلت تحتفظ باسمها الاغريقي ، الذي عربيه المسلمون الى طرابلس (١) .

ثم دخلت تريبوليس في فلك الامبراطورية الرومانية . وعلى الرغم من أن هذه المدينة لم تلعب في العصر الروماني دوراً تاريخياً هاماً ، ولم تظفر بالمكانة السامية التي ظفرت بها بعض مدن لبنان مثل بيروت التي أصبحت تؤلف المركز الثقافي للرومان ، ولاوديسة (الملاذقية) ، وأقامية ، وحمص ، ودمشق وهليوبوليس (بعلبك) التي أصبحت المركز الديني ، فقد اهتم الرومان بمدينة تريبوليس ، فجمارها بالمباني الرائعة والعمائر الفخمة للالهة عشرتوت (الهة السماء) وللاله أدونيس اله الجمال ، وللاله ديوسكوريدس (ابن جويتر) . وللأسف لم يصل الينا اليوم شيء من هذه الأبنية في موضعه اللهم الا ما استخدم من أعمدتها الحرائيقية والأرخامية وبعض أحجارها المنقرشة في بناء المساجد والمدارس الطرابلسية .

#### الفتح العربي :

أصبحت تريبوليس في القرن السادس الميلادي بزلازل عنيف أدى الى تخريب عدد كبير من آثارها القديمة الا أن المقاومة الشديدة التي قابلت بها هذه المدينة ، الجيوش العربية سنة ٦٣٥ م تدل دلالة واضحة على أنه أعيد بناؤها من جديد قبيل الفتح العربي (٢) .

كانت حصون مدينة طرابلس عند الفتح العربي في غاية الوثاقه والاحكام ، ولكن المدينة كانت مهددة بقطع الاتصال برها مع غيرها من المدن ، لأن المدينة كانت تمتد على شبه جزيرة المينا ، وكان في إمكان

(١) فيليب حتى ، تاريخ سورية ولبنان وقلطين ج ١ ص ٢٧٨

(٢) M. Sobenheim, Corpus Inscriptionum Arabicarum, t. II. 1909, p. 38 - Bruce

تقرير لجنة انيونسكو الى لبنان ص ١٠ Condé, op. cit. p. 10.

الفاتحين أن يعزلوها عن المناطق والثواحي المجاورة ويقطعوا عنها المياه التي يزودها بها نهر قاديشا (أبو علي) . وقد حدث هذا بالفعل عندما فتحها معاوية بن أبي سفيان في خلافة عثمان بن عفان . وأغلب الظن أن العرب افتتحوا مدن الساحل اللبناني بعد أن افتتحوا دمشق مباشرة سنة ٦٣٥ م . فقد ذكر البلاذري نقلا عن أبي حفص الدمشقي عن سعيد بن عبد العزيز عن الوضين ، أن يزيد بن أبي سفيان « أتى بعد فتح دمشق صيدا وعرقه وجليل وبيروت ، وهي سواحل ، وعلى مقدمته أخره معاوية ، ففتحها فتحا يسيراً ، وجلا كثيراً من أهلها ، وتولى فتح عرقه معاوية نفسه في ولاية يزيد ، ثم إن الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان بن عفان ، فقصدهم معاوية حتى فتحها ، ثم رمها وشحنها بالمقاتلة ، وأعطاهم القطنع » (١) . ونفهم من ذلك أن معاوية افتتح عرقه ، وهي مدينة ساحلية تقع شمال طرابلس مباشرة ، ولا تبعد عنها كثيراً . ويبدو أن معاوية حاصر طرابلس ، ولكنها استعصت عليه لحصانة أسوارها ، والظاهر أنه افتتحها فتحاً يسيراً بدليل ما ذكره البلاذري من أن معاوية « كان يقيم على حصنها يومين والأيام اليسيرة فرمها قوتل قتالا غير شديد ، وربما رمى ففتحها » (٢) . ثم انتفضت طرابلس في آخر خلافة عمر بن الخطاب (٣) ويضيف البلاذري أنه لما « استخلف عثمان وولى معاوية الشام ، وجه معاوية سفيان بن مجيب الأزدي إلى طرابلس ، وهي ثلاث مدن مجتمعة ، فبنى في مرج (٤) على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان ، وقطع المادة عن أهلها من البحر وغيره ، وحاصرهم ، فلما اشتد عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة ، وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدهم أو يبعث إليهم

(١) البلاذري ، فحج البلدان ، انقسم لأول نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ،

القاهرة ١٩٥٦ ص ١٥٠

(٢) نفس المرجع ص ١٥٢

(٣) كذلك انتفضت مدينة الاسكندرية في أول خلافة عثمان بن عفان بعد أن وسلها الأسطول

البيزنطي بقيادة منويل ، واحتلتها القوات البيزنطية بمساعدة أهلها .

(٤) يقصد بذلك سهل الحصب الممتد من نهر أبي علي حتى الميت .

بمراكب يهربون فيها الى ما قبله ، فرجحه اليهم بمراكب كثيرة ، فركبوا ليلًا وهربوا ، ، فلما أصبح سفيان - وكان يبيت كل ليلة في حصه ويحصن المسلمين فيه ، ثم يغدو على العدو - وجد الحصن الذي كانوا فيه خاليا ، فدخله ، وكشب بالفتح الى معاوية ، فأسكنه معاوية جماعة كبيرة من اليهود ، وهراندئى فيه المينا البرم ، (١) .

### طرابلس في عصر بني امية :

أصبحت طرابلس بعد ذلك قاعدة بحرية ودار صناعة ، لتوافر أخشاب شجر الأرز اللبناني ، وذلك في خلافة معاوية ومن خلفه من بعده ومن بني مروان . وكان معاوية يوجه اليها كل عام جماعة كثيفة من الجند ، يشحنها بهم للدفاع عنها اذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر ، كما كان يولى عليها عاملا من قبله . وكانت حامية طرابلس تقيم بالمدينة فترة الصيف ، ثم يتقل الجند عن طرابلس الى دمشق عندما ينغلق البحر ، وتصعب الملاحة فيه بسبب الأنزاء والعراصف ، فيبقى العامل في قصره لا يفارقه مع عدد قليل من الجند ، وتغلق أبواب المدينة . وظل الأمر على هذا الحال حتى كانت أيام الخليفة عبد الملك بن مروان ، الذى أعاد بناء حصن طرابلس القديم . ويذكر البلاذرى أنه قدم في أيامه « بطريق من بطارقة الروم ومعه بشر منهم كثير ، فآل أن يعطى الأمان على أن يقيم بها ، ويؤدى الخراج ، فأجيب الى مسئلته فلم يلبث الا سنتين أو أكثر منهما بأشهر حتى تخين قفول الجند عن المدينة ثم أغلق بابها ، وقتل عاملها ، وأمر من معه من الجند وعدة من اليهود ولحق وأصحابه بأرض الروم . تقدر المسلمون بعد ذلك عليه في البحر وهر متوجه الى ساحل للمسلمين في مراكب كثيرة ، فقتلوه ، ويقال بل أسروه

(١) البلاذرى ١٥١ ، وقد ذكر البقرى في كتابه البلدان أن معاوية نقل الى طرابلس جماعة من الفرس (أنظر البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٢٧)

وبعثوا به الى عبد الملك فقتله وصلبه ه (١) . وقيل أن عبد الملك بعث اليه من حاصره بطرابلس ، ثم أخذه سلماً ، وحمله اليه ، فقتله . وقيل أيضاً أن طرابلس انتقضت أيام عبد الملك ثم افتتحها الوليد بن عبد الملك في زمانه (٢) .

وظلت طرابلس طوال العصر الأموي أحد ثغور الشام الحصينة التي تهتم بها الخلفاء الأمويون ، فرموا قلاعها وأسوارها ، وشحنتها بالأجناد والمقاتلة ، وأقاموا الخرس على مناظرها ، واتخذوا المواقيد بها (٣) ويبدو أنهم فعلوا ذلك احتياطاً لأي غزو بحري يقوم به الروم . كما فعلوا سنة ٢٥ هـ عندما غزوا الاسكندرية وساحل الشام (٤) ، وكما فعلوا بعد ذلك عندما أغاروا على ساحل اللاذقية سنة ١٠٠ هـ ، في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فهدموا مدينتها ، وسبوا أهلها (٥) .

طرابلس تحت ظل الفاطميين :

ولما قامت الدولة العباسية ، أصبحت طرابلس تابعة لولاية دمشق ، وظلت كذلك الى أن خضعت مع غيرها من مدن الشام لتفوذ أحمد بن طولون ٢٦٤ هـ ، وابنه حمارويه من بعده (٦) . ثم عادت طرابلس مرة ثانية الى تفوذ العباسيين ٢٨٧ هـ . ثم خضعت طرابلس مرة ثانية لمصر في عهد محمد بن طنجج الأخشيد سنة ٣٣٠ هـ . وظلت طرابلس الشام تابعة لمصر الأخشيدية الى أن استولى الفاطميون على الشام سنة ٣٦١ هـ ، ففصلت حكومة طرابلس عن إقليم دمشق ، وأصبحت مدينة طرابلس يتولاها عامل من قبل الخليفة الفاطمي في القاهرة .

(١) البلاذري ص ١٥١

(٢) نفس المرجع .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابراهيم أحمد العمري ، الدولة الاسلامية وابطراطورية الروم ، القاهرة ١٩٥٨ ص ٦٢

(٥) البلاذري ص ١٥٧

(٦) حسن أحمد محمود ، مصر في عصر الطولونيين ، القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٧ - ٦٢

تألفت طرابلس في عهد الفاطميين تألفاً يشهد به من كتب عنها في ذلك العصر من الرحالة والمؤرخين . فقد وصفها الاصطخرى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في كتابه «مسالك الممالك» بأنها «مدينة على بحر الروم عامرة ذات نخل وقصب سكر وخصب» (١) وكذلك وصفها المقدسي من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بأنها أجل من صيدا وبيروت وهما مدينتان على الساحل حصينتان (٢) .

وقد تعرضت طرابلس لغارات بحرية قام بها البيزنطيون الذين كانوا دائمى التطلع لاسترداد الشام ، ففي سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) غزا الروم الساحل السوري، وافتتحوا حصن عرقة، واكنسحروا نواحي طرابلس ، ثم أعادوا الكرة سنة ٣٦١ هـ، وانتهبوا بيروت وجبيل، وفي سنة ٣٨٥ هـ قام البيزنطيون بحملتين فاشلتين ضد طرابلس ، اذ تصدى لهم أهل المدينة ودافعوهم دفاعاً مجيداً ، وأرغموا الامبراطور بازيلوس على رفع الحصار . وكان السلاجقة قد ثبتوا أقدامهم في شمال الشام ، فاستولوا على حلب ودمشق ، ولم يبق من أملاك الفاطميين في الشام غير مدن الساحل اللباني ابتداء من طرابلس في الشمال . وكانت طرابلس في النصف الأول من القرن الخامس الهجري مدينة عامرة كثيرة الخيرات ، وصفها الرحالة الفارسي ناصر خسرو سنة ٤٣ هـ (١٠٤٦ م) بقوله : «وحرول المدينة المزارع والبساتين وكثير من قصب السكر وأشجار النارج والترنج والموز والليمون والتمر . وكان عمل السكر يجمع حينذاك» ثم وصف المدينة وذكر أهم معالمها في العصر الفاطمي فقال : «ومدينة طرابلس مشيدة بحيث تكون ثلاثة من جدرانها مطلية على البحر ، فاذا ماج علت أمواجه السور، أما الجانب المظل على اليابس فيه خندق عظيم ، عليه باب حديدي محكم ، وفي الجانب الشرق من المدينة قلعة من

(١) الاصطخرى (أبو اسحق الفارسي) : مسالك الممالك ، الجزء الأول من المكتبة الجغرافية العربية ليدن ١٩٢٧ ، ص ٦١

(٢) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦ ، ص ١٦٠

الحجر المصقون عليها شرفات ومقانات من الحجر نفسه ، وعلى قتها عرادات لرقابتها من الروم . فهم يخافون أن يغير هؤلاء علمها بالسفن . مساحة المدينة ألف ذراع مربع ، وأرابطها أربع أو خمس طبقات ، ومنها ما هو ست طبقات أيضاً . وشرارعتها وأسواقها جميلة ونظيفة حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين . وقد رأيت بطرابلس ما رأيت في بلاد العجم من الأطعمة والفواكه ، بل أحسن منه مائة مرة » . وأخيراً يصف المسجد الجامع فيقول : « وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتمل حوض من الرخام في وسطه فواره من النحاس الأصفر » (١) .

### طرابلس حاضرة بني عمار :

ظلت طرابلس تحت السيادة الفاطمية الى أن استقل بها أبو طالب بن عمار ، قاضي طرابلس واستبد بأمرها ، فلما ترقى في رجب سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧١ م) قام مكانه ابن أخيه الملك أبو الحسن بن عمار الذي تلقب بجلال الملك (٢) . وكان أمراء بني عمار يشجعون العلماء والأدباء بالعطايا والهدايا وأسسوا مدرسة سموها دار العلم ، وكانت مكتبة طرابلس في عهدهم تضم مائة ألف مجلد . وفي عهدهم بلغت طرابلس ذروة مجدها وعظمتها (٣) واكتمل ازدهارها الاقتصادي والفني ، وأهم ما اشتهرت به طرابلس في هذا العهد صناعة الورق الذي يفوق ورق سمرقند من حيث الجودة . ولكن لم يتح لهذا الرخاء أن يستمر طويلاً ، ففي الوقت الذي تولى فيه الأمير فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار آخر أمراء بني عمار امدارة طرابلس سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) ، كانت الحملة الصليبية الأولى في طريقها الى بلاد الشام ، وتمكن بلدوين من الاستيلاء على الرها في نفس هذا

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ، القاهرة ١٩٤٥ ص ١٣

(٢) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بولاق ١٢٩٠ هـ ج ١٠ ص ٢٦

أبو القدا ، المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ ج ٢ ص ١٩٨

(٣) ابن الأثير ، المرجع السابق ج ١٠ ص ٢٦

العام، وأسس فيها أولى الإمارات اللاتينية ، كما تمكن بوهمند من الاستيلاء على أنطاكية في العام نفسه ، وأسس فيها إمارة صليبية . واستمرت جيوش الصليبيين في تقدمها جنوباً نحو بيت المقدس مشبعة طريقتين ، أحدهما جوفياً والآخر ساحلياً ، وتمكن ريموند دي سان جيل Raymond de Saint Gilles كونت دي تولوز من الاستيلاء على حصن الأكراد، ثم هاجم عرقة، فقاومه طويلاً مما أضره الرفع الحصار عنها أملاً في الاستيلاء على بيت المقدس . وقيل ان فخر الملك بن عمار بعث إليه هدايا قيمة وأمر الالاطائلة حتى يصرفه عن دولته . وبالفعل تابعت جيوش الصليبيين سيرها جنوباً، فاستولت على بيت المقدس ١٠٩٩ ، وتولى إمارتها جود فروى، ثم خلفه أخوه بلدوين بعد عام واحد . وكان ريموند دي سان جيل أو صنجيل حسب المصادر العربية يزعم العودة لمهاجمة طرابلس أملاً في الاستيلاء عليها وجعلها مركزاً لإمارة بهذا الاسم ، بعد أن فشل في الظفر بإمارة بيت المقدس ، فاقبل إليها مع فرقة من فرسانه ، وهاجمها ، ولكنه لم يوفق في افتتاحها لحصانها ووثاقه أسرارها ، فاضطر إلى محاصرتها ٤٩٢ هـ (١٠٩٩ م) ، ولما طال عليه الحصار أقام على التل المشرف على نهر قاديشا قلعة عرفت باسمه، وكان ذلك في ٤٩٥ هـ (١١٠٢ م) وفي ذلك يقول ابن الأثير « وأقام على طرابلس بحصرها ، فحيث لم يقدر أن يملكها بنى بالقرب منها حصناً وبني تحته ريبضاً، وأقام مراصداً لها ومتظراً وجرد فرصة منها .. (١) وكان الأمير فخر الملك يغير على هذا الحصن لضعاف خصومه ، ففي سنة ٤٩٧ هـ (١١٠٤ م) خرج فخر الملك ابن عمار في عسكره مع عدد كبير من أهل طرابلس وهاجموا «الحصن الذي بناه صنجيل عليهم، وأنهم هجموا عليه على غرة ممن فيه ، فقتل من به ونهب ما فيه وأحرق وأخرب وأخذ منه السلاح والمال والديبايح والفضة الشيء الكثير وعاد إلى طرابلس سالماً » (٢) . وهاجم الأمير فخر الملك هذا الحصن مرة ثانية في طلعة سنة ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) « فأحرق ريبضه

(١) نفس المرجع ص ١٥٤

(٢) ابن القلائس ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨ ص ١٤٦

ووقف صنجيل على بعض سفوفه المحترقة ، ومع جماعة من القمامة والفرسان ، فأنحسف بهم ، فأرض صنجيل من ذلك عشرة أيام ومات وحمل الى القدس فدفن فيه . ثم أن ملك الروم أمر أصحابه باللاذقية ليحملوا الميرة الى هؤلاء الفرنج الذين على طرابلس ، فحملوها في البحر ، فأخرج اليها فخر الملك بن عمار أسطولا فجرى بينهم وبين الروم قتال شديد ، فظفر المسلمون بقطعة من الروم فأخذوها وأسروا من كان بها وعادوا (١) .

### سقوط طرابلس في ايدي الصليبيين :

اشتد حصار الفرنج لمدينة طرابلس وكان الأسطول الخنوي يتقطع الأقرات على المدينة من البحر ، بينما كانت قوات الفرنج تحاصر الميناء براء بعد أن انتسفت الزروع والبساتين الراقعة على نهر قاديشاء ، وطال الحصار ، وانقطعت الأقرات عن طرابلس ، واشتدت المحنة على سكان طرابلس « فقدمت الأقرات به ، وخاف أهله على نفوسهم وأولادهم وحرهمهم ، فجلا الفقراء ، وانضى الأغنياء وظهر من ابن عمار صبر عظيم وشجاعة ورأى سديد » (٢) .

وفي سنة ٥٠٠ هـ ( ١١٠٦ م ) تابعت المكاتبات بين فخر الملك بن عمار الى السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملكشاه السلجوقي ، ووصف له فخر الدين عظم « ما ارتكبه الأفرنج من الفساد في البلاد وتملك المعافل والحصرن بالشام والساحل والفتك في المسلمين ومضايقة ثغر طرابلس والاستغاثة اليه والاستصراخ والحض على تدارك الناس بالمعونة » (٣) .

ولما اشتد الأمر بفخر الملك من حصار الأفرنج وتجاوز أيامه ، (٤) ، وقتل عنده الأموال ، وقامى أهل طرابلس الفقراء ، اضطروا الى الحجر

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن القلائس ، ص ١٥٦

(٤) كان السبب في استمرار مقاومة أهل طرابلس للصليبيين أنهم غفروا سنة ٥٠٠ هـ بمركب

تحمل مؤناً وأتواناً من جزيرة قبرص وأنطاكية ، « فاشتدت قلوبهم وغفروا على سخط ايند

بعد أن كانوا استسلموا ، ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٠

على أمراء الأغنياء ووزعها على الفقراء متبعا في ذلك النظام الاشتراكي الاسلامي ، وفي ذلك يقول ابن الأثير ، وأجرى ابن عمار الخرايات على الخند والضعفاء ، فلما قلت الأمراء عنده شرع يقسط على الناس ما يخرجهم في باب الجهاد ، فأخذ من رجلين من الأغنياء مالا مع غيرهما ، فخرج الرجلان إلى الفرنج وقالوا أن صاحبتنا صادرتنا ، فخرجتا إليكم لتكون معكم ، وذكروا له أنه تأتيه الميزة من عرقة والحليل ، فجعل الفرنج جمعا على ذلك الجانب بحفظه من دخول شيء إلى البلدة ، فأرسل ابن عمار ، وبذل للفرنج مالا كثيرا ليسلموا الرجلين إليه ، فلم يفعلوا ، فوضع عليهما من قلعهما غيلة . وكانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام وأكثرها تجملا وثروة ، فباع أهلها من الخلى والأواني الفريفة مالا حثيثا عليه ، حتى بيع كل مائة درهم نقرة بدينار (١) .

وطال ترقب فخر الملك لوصول الامدادات من بغداد دون جدوى ، فعزم على الخروج بنفسه لمقابلة السلطان السلجوقي والانتصار به ، فاستناب عنه بطرابلس ابن عمه أبي المناقب ، ووجه أصحابه ، وأمره بالمقام بالمدينة وورثب معه الأجناد برا وبحرا ، وأعطاهم جامكية ستة أشهر سلفا ، وجعل كل موضع إلى من يقرم بحفظه بحيث أن ابن عمه لا يحتاج إلى فعل شيء من ذلك (٢) . وخرج الأمير فخر الملك قاصدا بغداد في رمضان سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) . وسار إلى دمشق . فأكاد يصل هناك حتى بلغه خروج ابن عمه عليه ومناذاته لشعار الأفضل شاهنشاه بن بنو الحمال . وزير الخليفة الأمر بأحكام الله القاطن (٣) . فكتب فخر الملك إلى أصحابه يأمرهم بالتبض على أبي المناقب وحمله إلى حصن الخرايات من حصون طرابلس ، ففعلوا ما أمرهم .

(١) ابن الأثير ، ج ١٠ ص ١٥٤

هذا النص يدلنا على أن النظام الاشتراكي طين على طرابلس عند انصروفة ، فموردت أموال الأغنياء ووزعت على الفقراء ، وكان هناك فريق من الرجميين الذين لم يرضهم مصادرة أموالهم في سبيل الوطن ، فخاروا مع الأعداء ودلواهم على عورات المسلمين ، ولاشك أن هذا النص على جانب كبير من الأهمية لأنه يكشف لنا عن دور هام قامت به مدينة طرابلس ، قلعة العروبة في العصر الاسلامي ، وقلعتها في العصر الحاضر .

(٢) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧٠

(٣) ابن القلانسي ص ١٦٠ - ابن الأثير ص ١٧٠

ولكن أهل طرابلس كانوا الأفضل يلمون منة واليا يقيم بطرابلس ،  
كما طلبوا منه أن يرسل اليهم الميرة في البحر « فير اليهم شرف الدولة  
ابن أبي الطيب واليا ومعه الغلة وغيرها مما يحتاج اليه البلاد في الحصار » (١)  
وما كاد هذا الوالي يصل الى المدينة حتى قبض على جماعة من أسرة  
ابن عمار وأتباعه وصادر أموالهم وعقاراتهم ، ونفاهم الى مصر .

عاد فخر الملك بن عمار من بغداد في منتصف المحرم سنة ٥٠٢ هـ .  
فأقام بها عدة أيام وتوجه منها مع بعض عسكره الى جبيل ، فدخلها واستقر  
بها ، وظل هناك الى أن استولى الصليبيون عليها بعد ذلك .

أما الفاطميون فقد كانوا أقل كفاية من بني عمار في الدفاع عن آخر  
معقل عربي على الساحل السوري ، فقد أحكم الأسطول الحنوي والفرنجي  
الحصار البحري على الميناء . وفي أول شعبان سنة ٥٠٣ هـ ( ١١٠٩ م )  
وصل الى ميناء طرابلس أسطول حربي كبير شدد الحصار على الميناء وقطع  
عن المدينة كل اتصال خارجي مع مصر ، وفي نفس الوقت هاجم برتران  
دي تولوز Bertrand de Toulouse ابن ريموند دي سان جيل ، ويسميه  
المؤرخون العرب ريموند بن صنجيل أسوار مدينة طرابلس وانضم اليه في الهجوم  
عدد كبير من المقاتلين الأفرنج ، وألصقوا أبراجهم بسور طرابلس ، وشد  
الأفرنج القتال على طرابلس من الأبراج فافتحموا السور ، ودخلوا المدينة عنزة  
يوم الاثنين ١١ ذي الحجة سنة ٥٠٣ هـ ( ٢٦ يونيو ١١٠٩ م ) ونهبوا  
ما فيها وأسروا الرجال ، وسبوا النساء والأطفال ، ونهبوا الأمراء ،  
وغنموا من أهلها من الأمراء والأمتعة وكب دور العلم الموقوفة مالا يحد  
ولا يحصى ، فان أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالا وتجارة (٢) .

(١) ابن الأثير ج ١٠ ص ١٧١

(٢) ابن القلانسي ، ص ١٦٣ - ابن الأثير ج ١٠ ص ١٨٠

## طرابلس امارة صليبية :

أصبحت طرابلس مركزا لامارة لاتينية تولاهما بيت فولرز ، وكانت تضم جبيل وعرقه وطرابلس ، واستمرت هذه الامارة في خلفاء هذا البيت التيرازي الى أن خضعت لأمراء أنطاكية ، ثم أعلنت جمهورية مستقلة تحت حماية جمهورية جنوة سنة ١٢٨٨ م .

وعلى الرغم من التكتبات الحسام التي منيت بها مدينة طرابلس منذ أن استولى عليها الصليبيون سنة ١١٠٩ الى أن حررها المنصور قلاوون سنة ١٢٨٩ م (١) (أى سنة ١٨٠ سنة) فقد أعيد بناؤها من جديد في هذا العصر وأطلق عليها اسم Triplo ، وأصبحت مركزاً أسقفياً لاتينياً ، وأقيمت فيها الكنائس والأديرة والمستشفيات ، وازدهرت من الناحية الاقتصادية ازدهاراً لم تشهد من قبل ، فكانت تصدر الحرير والمنتجات الشرقية (٢) .

وتمت مدينة طرابلس الجديدة ، وامتدت أرياضها من البحر حتى جبل الحجاج حيث تقم قلعة صنجيل ، التي استطاعت أن تصمد طويلاً أمام جيوش صلاح الدين .

لقد حاول صلاح الدين الأيوبي أن يحرر سواحل الشام من الصليبيين وكان هؤلاء يشهرون انقرص المواتية للابقاع بين المسلمين وبث بذور الفتنة بين أمرائهم حتى لا يتمكن هذا البطل من تحقيق هدفه ، وهو توحيد الشام ومصر في جبهة اسلامية واحدة يمكنها أن تصمد أمام الصليبيين وتقضي على ملكهم (٣) . فعندما أراد صلاح الدين دخول حلب سنة ٥٧٠ هـ

(١) أصيبت طرابلس باضرار فادحة نتيجة لزلازل عام ١١٥٨ م وهو الزلزال الذي أشار اليه أبو الفداء ، بأنه حدث في رجب سنة ٥٥٢ هـ (أنظر أبو الفداء ، المختصر ج ٣ ص ٣٢) وكذلك تعرضت لزلازل آخر حدث سنة ١١٧٠ م أشار اليه بفيامين انعطيل بقوله « حدث زلزال في طرابلس سبب موت عدد كبير من الناس واليهود إذ سقطت عليهم الدور والجدران » أنظر :  
Viage de Benjamin de Tudela, P. 67

Sobernheim, C. I. A. P. 43

(٢) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٠ و

(٣) جمال الدين الشياح : وحدة مصر وسورية في النصر الاسلامي ، الاسكندرية

(١١٧٤ م) استنجد أمراء الجيش فيها بأعداء صلاح الدين ، وأولهم ملك طرابلس الصليبي الذي خرج من طرابلس الى حمص وحاول الاستيلاء عليها ليقطع طريق العودة على صلاح الدين وجيشه ، ولكنه فشل في خطته ، وسقطت حمص في أيدي المسلمين . وفي ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ (٤ يوليو ١١٨٧) حدثت أكبر موقعة في تاريخ الحروب الصليبية بين قوات صلاح الدين وبين جيوش الصليبيين مجتمعة ، موقعة حطين الشهيرة ، وفيها انهزم الصليبيون هزيمة نكراء ، وأسر صلاح الدين ملك بيت المقدس وصاحب الكرك وصاحب جبيل وصاحب تينين ومقدم الداوية وأعوانه .

وفتح انتصار صلاح الدين في حطين الطريق أمامه للاستيلاء على مدن الساحل اللبناني والفلسطيني ، فقد تبع انتصار المسلمين في الموقعة المذكورة استيلائهم على طبرية وعكا ، وبذلك تمهد السبيل أمام الجيش الاسلامي لغزو المدن الساحلية من طرابلس شمالا حتى عسقلان وغزة والداروم ، لقد افتتح قيادارية بالسيف سنة ٥٨٣ هـ (١) ، وأتبعها نجينا وأرسوف ونابلس ، كما افتتح حصن القولة وحصن تينين ، وتم فتح صيدا في ٢١ جمادى الأولى . ثم افتتحت بيروت في ٢٩ جمادى الأولى ، وتلتها جبيل في ٢٧ جمادى الأولى (٢)

ثم توج فتوحاته بفتح بيت المقدس بعد عسقلان فدخلها في ٢٧ رجب (٣) من نفس السنة . وهكذا استكمل صلاح الدين فتح بلاد الشام جميعا باستثناء صور وطرابلس والمرقب وأنطاكية ويعمل صالح بن يحيى ذلك بأن صور صعب أخذها « لاجتماع الفرنج وأما طرابلس فكان قد استولى عليها صاحب أنطاكية وكان من جهة السلطان ، وأما المرقب فلأنه كان حصنا منها لم يتعرض السلطان اليه » (٤)

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٢٠ - ٢٢١

(٢) عماد الدين الاصفهاني : كتاب الفتح القس في الفتح القدي ، نشره كازلو دي لانديج

تحت عنوان Conquête de la Syrie et de la Palestine ليدن ١٨٨٨ ص ٢٣ - ٤٣

(٣) ابن الأثير ج ١١ ص ٢٢٥ - ٢٢٦ - أبو شامة ، الروضتين في أخبار الموحدين

منبعة مصر ١٢٨٨ ج ٢ ص ٨٧

(٤) صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٨ ص ٢٦

أحدث سقوط بيت المقدس في أيدي المسلمين رد فعل شديد في أوروبا ، وكان ذلك هو السبب المباشر في قدوم الحملة الصليبية الثالثة ، التي اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا المسيحية بأسماء ، وهم فردريك بربروسه ملك ألمانيا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا ، وكانت عكا مسرح أحداث هذه الحملة التي انتهت باسترداد الصليبيين لعكا في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧ هـ وعقلان والرملة . وتم الصلح سنة ٥٨٧ هـ (١١٩٢) على أن يكون الساحل من صور الى يافا في أيدي الأفرنج ، وأن يكون داخل البلاد في أيدي المسلمين ، بشرط أن يسمح للمسيحيين بالهجرة الى بيت المقدس ، وأن تضم طرابلس وأنطاكية للفرنج .

ولما مات صلاح الدين في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) تمزقت مملكته بين بنيها واخوته ، واشتد النزاع بينهم وانتهز الصليبيون هذه الفرصة فاستولوا على صيدا ثم استولوا على بيروت سنة ٥٩٤ هـ (١) ، ثم سقطت جبيل في نفس هذا العام ، وسقطت تبين وبيت المقدس سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩م) وسقطت صغد سنة ٦٣٧ هـ (١٢٤٠م) وطبرية سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤م) أما طرابلس فقد كانت مركزا لشن الغارات على الأراضي الاسلامية ، ففي ذي القعدة سنة ٦٠٠ هـ أغار فرنج طرابلس على جبله واللاذقية وكنوا لقوات المسلمين فقتلوا منهم عددا كبيرا (٢) وحاول الملك العادل أن يحاصرها فلم ينل منها الا مهادنة صاحبها سنة ٦١٤ هـ (٣) .

• • •

أحدث سقوط بغداد في أيدي التتار في ١٠ محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢ فبراير سنة ١٢٥٨) دويا هائلا في سائر أنحاء العالم الإسلامي . ونبه المسلمين في مصر والشام الى ضرورة التكامل وتوحيد الصفوف أمام خطر التتار المدمر ، ولذلك

(١) ابن رامل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال القاهرة ١٩٦٠ ص ٧٤

(٢) نفس المرجع ص ١٦٦ - ١٦٧

(٣) نفس المرجع ص ١٧٥ - دائرة معارف البستاني ، مادة طرابلس .

حرص سلاطين المماليك بعد انتصار المسلمين في عين جالوت في ٢٥ رمضان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠م) على توحيد سورية بعد تحريرها من الصليبيين ، فلم ينس المماليك تقارب الصليبيين من التار للقضاء على الاسلام ممثلا في قرة مصر المملوكية . ولذلك كان على سلاطين المماليك في مصر أن يذهبوا سبيل صلاح الدين الذي كان له الفضل الأعظم في اخراج الصليبيين من بيت المقدس . وذلك بالقضاء على اماراتهم الباقية في أنطاكية وطرابلس وعكا(١).

ويعتبر بيبرس بحق خليفة صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين ، ففي ٦٦٣ هـ (١٢٦٥م) تمكن من الاستيلاء على قيصرية وعثايت وحيفا وأرسوف ، وفي ٦٦٤ هـ جهز عسكره الى ساحل طرابلس ، ففتح انطاكية وأحلبا وعرقة وازل على صفد وفتحها في ١٩ شعبان . ثم استولى على ياقا في سنة ٦٦٦ هـ وشقيف أرتون في نفس هذا العام ، وتوج فتوحاته في رمضان من هذا العام بالاستيلاء على أنطاكية أقدم دولة لاتينية في الشام ، وعاصمة أقوى الامارات الصليبية الباقية .

ثم هاجم قلاع الصليبيين ، سنة ٦٦٩ هـ فاستولى على مصياف وعكار وحصن الأكراد . وفي فتحه لعكار يقول يحيى الدين بن عبد الظاهر :

ياملك الأرض بشراك فقد نلت الارادة  
ان عكار يقينا هر عكا وزيادة (٢)

وأدى استيلاء بيبرس على أنطاكية وحصن الأكراد الى اضعاف المراكز الدفاعية المتوزعة حول طرابلس نفسها ، وساعد على ذلك الفتن والحلافات الداخلية التي نشبت بعد وفاة بوهند السابع كونت طرابلس في شوال سنة ٦٨٦ هـ (نوفمبر ١٢٨٧م) ، تاركا امارة طرابلس دون وريث

(١) سيد عاشور ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٥١

(٢) أهر الفدا ، ج ٤ ص ٦

نلاحظ أن الظاهر بيبرس فاضل الفرنج أيضاً على المرقب وبنياس وأنطربوس ( أنظر صالح بن يحيى ص ٤١ )

فورثته أخيه لوسيا على طرابلس ، وبينما كان النزاع على أشده بين لوستا وبين بارتلميو امبراسيو (١) صاحب جيبيل ، وقائد الخيالة في طرابلس ، بعد موت بوهند ، بسبب عزله ، وكانت قوات المايك بقيادة السلطان الملك المنصور قلاوون تحتاح امارة طرابلس ، وتضرب الحصار على المدينة .

#### تهريب طرابلس على يدى قلاوون :

في أول ربيع الآخر ٦٨٨ هـ (٢٦ أبريل سنة ١٢٨٩ م) دخلت قوات المايك بقيادة السلطان قلاوون مدينة طرابلس بعد حصار دام ٣٨ يوماً . وتفصيل الفتح وفقاً لرواية أبي الفداء ، وكان يشهد هذا الحدث الكبير ، وأن السلطان الملك المنصور خرج بالعاكر المصرية في المحرم من هذه السنة ، وصار الى الشام . ثم سار بالعاكر المصرية الشامية ، ونازل مدينة طرابلس الشام يوم الجمعة منهل ربيع الأول من هذه السنة ، ويحيط البحر بغالب هذه المدينة ، وليس عليها قتال في البر الا من جهة الشرق ، وهو مقدار قليل ، ولما نازها السلطان نصب عليها عدة كثيرة من الحانق الكبار والصغار ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من هذه السنة بالسيف ، ودخلها العسكر عنوة ، فهرب أهلها الى الميناء ، فنجأ أغلبهم في المراكب ، وقتل غالب رجالها ، وسويت ذراريهم وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة . وحصار طرابلس هو أيضاً مما شاهدته ، وكنت حاضراً مع والدى الملك الأفضل وابن عمى الملك المظفر صاحب حماة ، ولما فرغ المسلمون من قتل أهل طرابلس ومنهم ، أمر السلطان فهدمت ودكت الى الأرض ، وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة سبطاس ، وبينها وبين طرابلس المينا ، فلما أخذت طرابلس ، هرب الى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فافتحم العسكر الاسلامى البحر ، وعبروا بجيولهم سباحة الى الجزيرة المذكورة

(١) يسميه أبو الحسن ميرتليه الفرنجى (النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ١٩٢٨

ج ٧ ص ٢٢٠) .

فقتلوا جميع من فيها من الرجال ، وغنموا ما بها من النساء والصغار .  
وهذه الجزيرة بعد فراغ الناس من النهب ، عبرت إليها في مركب ، فوجدتها  
ملاى من القتل بحيث لا يستطيع الانسان الوقوف فيها من ثن القتل .  
ولما قرع السلطان من فتح طرابلس وهدمها عاد الى الديار المصرية « (١)

وفي فتح طرابلس يقول الشاعر شهاب الدين أبو التاء محمود يمدح  
قلاوون :

نهضت الى عليا طرابلس التي      أقل عنها أن خندقها البحر (٢)

كذلك مدحه الشاعر نجم الدين الخيمي بقصيدة جاء فيها :-

هنيئاً أيها الملك الممام	بنصر لا ينال ولا يرام
نزلت على طرابلس بجيش	فدار لشعرها منه لثام
وكان الدوح خيم في حماها	فزال وخيمت فيها الخيام
ولو علموا بأخذ كها سريعا	لقاموا للفرار وما أقاموا
وظنوا أنهم فيها عظام	فهام في جوانبها عظام (٣)

هدم قلاوون مدينة طرابلس وخربها ، وعمد الى بناء مدينة أخرى  
لطرابلس تقع بعيدا عن الساحل حتى يحمي ذكرى المدينة الصليبية ، وحتى  
تتجنب المدينة الحديدية ما قد يصيبها من غارات الفرنجة ، الذين تكتلوا  
بعد ذلك في عكا وقبرص . واختار لذلك الغرض الرض الزايق أعلى قلعة  
صنجيل ، في موضع يقال له وادي الكنائس ، وأقام في موضع  
المدينة الخربة عددا من الأبراج على طول الساحل الشرقى والشمالى من المينا .  
وكانت الأبنية الحديدية تقام من بقايا أبنية المدينة الخربة ، وفي بناء مدينة

(١) أبو الفدا ، المختصر ج ٤ ص ٢٤

(٢) أبو الحسن ج ٧ ص ٣٢٢

(٣) هذه القصيدة أوردها الشيخ كامل البابا في حديثه بمجلة الإرشاد الاجتماعى العدد ٢٧ ،  
نيسان سنة ١٩٦٢ ص ٨

طرابلس الجديدة يقول ابن تغري بردى « أما طرابلس القديمة ، كانت من أحسن المدن وأطيبها ، ثم بعد ذلك اتخذوا مكانا على ميل من البلدة ، وبذره مدينة صغيرة بالاسور ، فجاء مكانا ردىء الهواء والمزاج من الوحمة (١) .

وما زلنا نرى بقايا الأبنية الصليبية مستخدما من جديد في العقود التي تعلق الأرواب وفي عقد مدخل حمام عز الدين أيك الموصلى وإلى طرابلس ( ٦٩٤ - ٦٩٨هـ ) ، وفي عقد المدخل إلى الجامع المنصوري الكبير ، وغير ذلك من آثار الكنائس كما سنوضحه فيما بعد عند دراستنا لآثار طرابلس في العصر الاسلامي .

### طرابلس في ظل المماليك :

لما هدمت طرابلس ، استقر الحند محصن الأكراد ، فلما عمرت المدينة بالهاجرة للهر ، اختلفت اليها الأجناد ، وعمرها فيها الحمامات والقياسر والمساجد والمدارس ، وأجريت المياه في دورها بقساكل ، وعمرت دار السلطنة لتزول نائب السلطنة لطرابلس ، وكانت هذه الدار تقع على مرتفع بالقرب من حصن صنجيل بحيث تشرف على المدينة (٢) .

وكان أول من تولى نيابة السلطنة في طرابلس الأمير سيف الدين بلان التتباخي المنصوري وظل في منصبه إلى أن نقل إلى حلب في دولة الأشرف خليل بن المنصور قلاوون سنة ٦٩١ هـ . وخلفه في النيابة الطرابلسية الأمير سيف الدين طغريل الايغاني وأقام بها أياما واستعفى ، فأعفاه الأشرف خليل ثم ولى نيابة طرابلس بعد ذلك الأمير عز الدين أيك الخازندار المنصوري فظل بها حتى عزله عنها السلطان العادل زين الدين كتبغا المنصوري سنة ٦٩٤ هـ ، وفرض نيابتها إلى الأمير عز الدين أيك الموصلى ، قولها حتى وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ونلاحظ أن المسجد الجامع افتتح في عهد الملك الأشرف خليل ( ٦٨٩ - ٦٩٣ هـ ) في ولاية عز الدين أيك الخازندار وإلى الأمير سيف الدين استدمر بنسب عدد كبير من أبنية طرابلس في عصر دولة المماليك

(١) أبو الحسن ج ٧ ص ٢٢٢

(٢) أنظر نص التبرير الذي أورده سورنهام في C. I. A ص ٢٦

البحرية فقد أسس حماما وقيصرية وطاحونا ومساكن لمالكه كما أعاد بناء جزء كبير من قلعة صنعيل، وشيد أبراجا بطرابلس (١). وبلغت طرابلس في منتصف القرن الثامن الهجري ذروة عظمتها وازدهارها العمراني ، واتسعت أعمالها حتى صارت أعظم من نيابة حماة . وهكذا تهيم سلاطين المماليك البحرية بتوسيع العمران في المدينة ، فشمسها برعايتهم وأولوها جانبا كبيرا من اهتمامهم وعنايتهم وحلوا بالمباني الفخمة التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا . وبالإضافة الى هذه الحركة العمرانية الزاهرة ، استعادت طرابلس رخاءها الاقتصادي ، فكثرت أسواقها ومرافقها ، واتسعت تجارتها ، وكثرت خاناتها التي تأوى التجار من سائر بلاد العالم بحيث أصبحت مدينة طرابلس في عصر المماليك صورة مصغرة لمدينة القاهرة ، من حيث كثرة المساجد والمدارس بقبائها ومآذنها وبواباتها ، ومن حيث نشاط سوقها الاقتصادي بسبب الصادرات والواردات . وقد لاحظ غرس الدين خليل الظاهري ذلك فقال : « وهي مدينة حسنة بها جوامع ومدارس وأسواق وحمامات وعمائر حسنة ، وهي على شاطئ البحر المحيط ، يقال انها شامية مصرية لحسن هيئتها » (٢) .

ونلاحظ أن أهم ما كانت تمتاز به طرابلس تجارة الحرير المصنوع فيها وفي بعض أعمالها مثل القدمرس والكهف والحراي والعليقة ، وكذلك صناعة الصابون والمواد الكيماوية كالصردا والبرتاس . وما زال بطرابلس حتى اليوم خانان يعرف أحدهما بخان الخياطين والآخر خان الصابون . ومن بين الرحالة المسلمين الذين وصفوها في هذا العصر ، الرحالة ابن بطرطة ، فقد زارها أيام الناصر محمد بن قلاوون ووصفها بقوله : « وهي إحدى قواعد الشام وبلداتها الضخام ، تحترقها الأنهار ، وتحفها البساتين والأشجار ويكسفها البحر عرفقه العميمة ، والبر بخيراته المقيمة ، ولها الأسواق العجيبة

(١) النسخ السابق من ٤٧

(٢) غرس الدين خليل بن شاميين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك نشره بول رافيس ، باريس : ١٨٩٤ ص ٤٨ .

والسارح الحصينة ، والبحر على ميلين منها ، وهي حديثة البناء . وأما طرابلس القديمة ، فكانت على ضفة البحر ، وتملكها الروم زماناً ، فلما استرجعها الملك الظاهر (١) ، خربت ، واتخذت هذه الحديثة . وهذه المدينة نحو أربعين من أمراء الأتراك ، وأميرها طيلان الحاجب المعروف بملك الأمراء (٢) ، وصكته منه بالدار المعروفة بدار معادة . وهذه المدينة حمامات حسان منها : حمام القاضي انقري ، وحمام سنديور (٣) ، وكان سنديور أمير هذه المدينة ويذكر عنه أخبار كثيرة في الشدة على أهل الحنات (٤) .

وظلت طرابلس تحتفظ بمكانتها السامية من بين نيابات الشام ، حتى أصبحت منذ سنة ٧٥٠ هـ (١٣٤٩ م) ثالث نيابة سورية . وتعرضت سنة ٨٧٤ (١٣٦٣ م) لغارة قام بها بطرس دي لوزنيان صاحب قبرص ، فافتحها وأحرقها ، ولكنه اضطر إلى الجلاء عنها (٥) ، ثم أغار عليها لوزنيان مرة أخرى في يناير وسبتمبر سنة ١٣٦٧ م .

وفي عصر دولة المماليك الشراكسة حظيت طرابلس بعناية السلاطين ، فأمروها بالأبنية الفخمة من مدارس ومساجد ، وعمل بعض السلاطين على إبطال المظالم المحدثه على أهل طرابلس ، كالمؤيد شيخ (سنة ٨١٧ هـ (١٤١٤ م) أو أبطلوا بعض الرسوم المفروضة على الأتوال وخراج الكروم ، كالظاهر جقمق سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) أو الغوا الرسوم المفروضة على مذبح طرابلس كالأشرف قايتباي سنة ٨٧٢ هـ .

(١) لترجمتها المنصور تولاون لا الظاهر بيبرس .

(٢) تهرت من طينك وهو الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري الحاجب تولى نيابة طرابلس في جمادى الآخرة سنة ٧٢٦ ثم نقل في ربيع الأول سنة ٧٢٣ إلى نيابة غزة ، ثم أعيد إلى نيابة طرابلس سنة ٧٣٥ ، وعمر بظهيرها مسجداً ثم عزل في محرم سنة ٧٤١ ثم عاد إلى نيابة طرابلس زمن فتنة الناصر أحمد فظفر بها إلى صفر سنة ٧٤١ وتوفي في ربيع الأول .

(٣) نسبة إلى الأمير سيف الدين أئندركرجي المنصوري الذي ذكرناه آنفاً .

(٤) أين بطرقة ، الرحلة طبة دار صادر - بيروت ، بيروت ١٩٦٠ ص ٦٤ - ٦٥ .

(٥) دائرة معارف البستاني - مادة طرابلس .

واحتفظت طرابلس بازدهارها الاقتصادي في القرن السادس عشر ،  
ثم انحط هذا الاقتصاد بالتدريج بسبب سوء الإدارة العثمانية ، وبسبب  
العلاقات الداخلية بين الباشوات الأتراك . ولم تلبث طرابلس أن تنازلت  
عن مكانتها الأولى لمدينة بيروت التي أصبحت العاصمة الفعلية للإقليم عقب  
الاستقلال .

### (ثانياً) آثار طرابلس الإسلامية

#### (١) المساجد :

##### ١ - المسجد الكبير :

عندما زار الرحالة الفارسي ناصر خسرو مدينة طرابلس في النصف  
الأول من القرن الخامس الهجري ، وصف مسجدها الجامع بقوله  
« وفي وسط المدينة جامع عظيم نظيف ، جميل النقش حصين ، وفي ساحته  
قبة كبيرة تحبها حروض من الرخام في وسطه فواره من النحاس الأصفر » (١)  
هذا الجامع لم يعد له وجود بطبيعة الحال لأن مدينة طرابلس التي وصفها ناصر  
خسرو تهدمت تماما سنة ٦٨٨ هـ بعد أن افتتحها المنصور قلاوون . أما الجامع  
الكبير الحالي فقد أقيم بعد ذلك في المدينة الجديدة ، على الضفة اليسرى  
من نهر قاديشا (أبي علي) ، وكان موضع هذا الجامع كنيسته أقيمت في أوائل  
القرن الثاني عشر الميلادي ، في الأرقم الذي كان فيه ريموندي سان جيل  
يحاصر مدينة طرابلس العربية من حصنه الواقع على تل الحجاج . ولكن  
هذه الكنيسته هدمت عقب زلزال سنة ١١٧٠ م ، أي سقوط أسرة تولوز  
وقيام أسرة أنطاكية الإيطالية بسنوات قليلة . وعمل الأمير بوهند على ترميم  
الكنيسته التي رنجحة الخربة ، وقد ترك مهندسه الإيطاليون طابع بلادهم  
على البرج اللومباردي القائم حاليا بأعلى المدخل الشمالي للجامع . ويبدو أن هذه  
الكنيسته تأثرت بزلزال سنة ١٢٨٧ م الذي أحدث فيها أضرارا جسيمة ،

(١) ناصر خسرو ، سفرنامه ص ١٢

ثم تهدمت على أثر دخول جيوش المماليك الظاهرة في مدينة طرابلس سنة ١٢٨٩ م . وبقيت منها أجزاء استغلها مهندس الجامع في إنشائه . ولاستبعد أن يكون المنصور قلاوون قد قنع ببناء بيت للصلاة في نطاق الكنيسة ، دون أن يهدم برجها اللومباردى ، أو جدرانها الخارجية ، أي أنه استغل الجدران القديمة وبناها الرقيسى وبرجها بعد أن انزع منه النواويس . غير أن ابنه وخليفته السلطان الملك الأشرف خليل حول البوابة القزطية الطراز ، التي تتوسط جدار الجامع الشمالى الى باب اسلامى الأملرب (١) . والبوابة بصورتها الحالية على شكل عقد مدبب ، سنجانه يتناوب فيها اللزنان الأبيض والأسود ، ويحتضن العقد صفان من دالات متصلة على شكل زجراج ويبرز أعلى هذين الصفيين عن الآخر . وأغلب الظن أنهما اسلاميان ، وذلك لشوع هذا النوع من الزخرفة في عمارة طرابلس الاسلامية . ويعلو الصف العلوى من هذين الصفيين أفاريز منبججة بارزة عددها ثلاثة تستند على أفريز أفقى يمتد على شكل رف ، تحت صفى الدالات من كلا جانبيهما . ويقوم هذا الأفريز على عمودين صغيرين ، تاجاهما من الطراز القوطى (٢) .

هذا الاطار البارز ذو الطابع اللاتينى يحيط بباب اسلامى الطابع ، فان عقده المدبب يمتد جانبا الى أدنى البوابة بحيث يؤلفان عضادى البوابة ، ويستمر تناوب اللونين الأسود والأبيض في صفوف أحجاره . أما عتبه وهو قطعة واحدة من الحجر فيستند على مسندين محدبين ، وطبلة العقد يكسوها ملاط خشن المظهر ، تدرسطه زخرفة نباتية من العصر العثمانى مكتوب تحتها عبارة «لا إله الا الله محمد رسول الله» .

(١) Sobernheim, op. cit. p. 51.

يحتل أن تكون هذه البوابة قد حلت من الكنيسة القديمة ووضعت في مدخل المسجد كشاهد صدق على انتصار المسلمين ، كما فعل الأشرف خليل ببوابة كنيسة سان جان بمسكا التي انزعها من الكنيسة المذكورة وحملها الى القاهرة حيث نصب أخوه الناصر محمد عن بوابة مدرسته بالنعامين

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 51.

أما النقش التاريخي فسجل على لوحة من الخشب ، مثبتة على عتب الباب ، مساحتها ٢٥٠ × ٣٩ سم ٢ . ويتألف النقش من ثلاثة أسطر من الخط النسخي ، يفصل بين كل منها شريط . ويرجع هذا النقش الكتابي بناء الجامع الى الأشرف خليل سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤م) أي بعد سقرط طرابلس في بدي أبيه المنصور قلاوون بأربع سنوات (١) . وتقرأ في هذا النقش النص التالي (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الأعظم ، سيد ملوك العرب والعجم ، فاتح الأمصار ، ومبيد الكفار ، الملك الأشرف ، صلاح الدنيا والدين خليل ، تسم أمير المؤمنين ، ابن مولانا السلطان الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون الصالحى خلد الله ملكه ، في نيابة المشرى العالى الأميرى الكبرى العزى عز الدين أيبك الخزندار الأشرفى المنصورى نائب الساطنة بالفتوحات والسراجل المحروسة ، عفا الله عنه ، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، والحمد لله وحده ) (٢) وبأعلى العضادة اليسرى للباب ، وتحت نهاية النص السابق ، نقش تاريخي بالخط النسخي الصغير ، ومن نفس الأسلوب نصه : (تولا عمارة هذا الجامع المبارك العبد الفقير لله (٣) تعالى سالم الصهيونى ابن ناصر الدين العجمى عفا الله عنه ) .

والجامع بناء اسلامي لا أثر فيه للتأثيرات المسيحية مما يدل على أنه بى بناء جديداً وأنه لم يبن داخل كنيسة ، وتخطيط الجامع يتبع النظام القديم للمساجد الجامعة فيشتمل على ثلاث محبتات تحيط بصحن مستطيل وعلى بيت للصلاة . وتعلو هذه المحبتات قنوات متعارضة ، وتطل المحبتات على الصحن بعقود منكسرة مثلكة الرؤوس تقويم على دعائم ضخمة مربعة القاعدة . وتتألف المحبة الشمالية من سبعة عقود ، أما كل من المحبتين الشرقية

(١) Max Van Berchem, et Edmond Fatio, Voyage en Syrie, dans, Mémoires de l'Institut français d'Archéologie orientale du Caire, t. XXXVII le Caire, 1914, p. 118.

(٢) أنظر : Sobernheim, op. cit. p. 52.

(٣) وردت في نص سورب نيام « الى الله »

والغربية فمن خمسة عقود أكثر اتساعاً من عقود المحبة الشمالية . ومجانبات الصحن أقيمت في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٥ هـ (١٣١٥ م) في نيابة المقر السيفي كسناى الناصري ، وعهد بأعمال البناء إلى أحمد بن حسن البعلبكي . وقد سجل ذلك كله في لوحة مندمجة في الجدار الشمالي المطل على الصحن ، ونص الكتابة ما يلي : ( بسم الله الرحمن الرحيم ، أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر أمر بإنشاء هذه الرواقات تكفلة الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد المظفر المنصور ناصر الدنيا والدين محمد ابن قلاوون خلد الله ملكه في نيابة المقر الشريف العالى السيفي كسناى (١) الناصري كافل المملكة الشريفة الطرابلسية أعز الله أنصاره بإشارة المقر العالى البدرى محمد ابن أبى بكر شاد الدواوين المعمورة أدام الله نعمته . وكان الفراغ منه في شهور سنة خمس عشر وسبعائة وصلى الله على سيدنا محمد . تولا عمارته العبد الفقير الى الله تعالى أحمد ابن حسن البعلبكي ) (٢) .

وواجهة بيت الصلاة تطل على الصحن بسبعة عقود أكثر اتساعاً من عقود المحبة الشمالية ويشتمل بيت الصلاة على بلاطين موازيين لجدار القبلة ، يتجهان إلى ١٤ أسطواناً ، ويعلو كل أسطوان قبوة متعارضة فيما عدا أسطوان المحراب فتعلوه قبة على مقرنصات مقوسة . ويفصل البلاطين صف من الدعائم الضخمة عددها ستة ، ويستند العقد الأخير من الجهة الغربية على دعامة ملتصقة بالجدار الغربى .

والى يمين المحراب منبر من الخشب يزدان بزخارف ملونة ، أقامه نائب طرابلس الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله المنصورى المتوفى سنة ٧٣٤ هـ ويعلو مصراعى باب المنبر تحت صف المقرنصات الأعلى مباشرة نقش كتابى بالخط النسخى نصه ( أمر بإنشاء هذا المنبر المبارك

(١) سيف الدين كسناى تولى نيابة طرابلس من ٧١٥ إلى ٧١٦ هـ

(٢) Sobernheim, op. cit, p. 53

العبد الفقير الى الله تعالى قرطاي بن عبد الله الناصري أثنى الله ، فأقام به من ماله بكتوان بن عبد الله الشهبلي ، تقبل الله منه ، وذلك في شهر ذو القعدة سنة ستة وعشرين وسبعمية (١) .

والمظهر العام للجامع لا يدل على العناية بالبناء ، فجدران الجامع كلها مغطاة بطبقة بيضاء من الجير ، والمسجد كله عاطل من الزخرفة . ويتوسط الصحن بناء يتكون من أسطوانتين : الشمالي منهما تتوسطه نافورة للرضوء ، بأعلاها قبة . والجنوبي ينتهي بمحراب عليه لوحة رخامية نقش عليها النص التالي : ( أمر بترخيم هذا المحراب المبارك العبد الفقير الى الله تعالى ، ازدمر الأشرفي ، كافل الملكة الشريفة الطرابلسية المحروسة أعز الله أنصاره في أيام مولانا وسيدنا قاضي القضاة الشافعي الامام في مستهل ربيع الآخرة سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة بمباشرة محمد الشاذ ) (٢) .

ويعد المدخل الجنوبي الشرق للمسجد لوحة عليها النص الآتي : ( الحمد لله رسم بالأمر العالي السلطاني الملكي المؤيدني أبي النصر شيخ أعلاه الله تعالى وشرفه وأنته وصرفه بإبطال المظالم المحدثات على أهل طرابلس من التحجير على قوت العباد من القمح واللحم والخبز والطرح وغير ذلك بحيث لا يعود ، ويبطل ذلك جميعه في هذه الأيام الزاهرة ، خلده الله سلطانها ، وأدام قدرته على المسلمين بتاريخ خامس عشر شهر ربيع الأول سنة سبعة عشر وثمانمائة والحمد لله ) (٣) .

وعلى عتب العقد نصف الدائري بالباب الشرق للمسجد المؤدى الى الصحن نقش كتابي نصه ( برسم الدخان ومايتأديه من يكون متكلماً في ديوان الحجورية الكبرى واستادارية الديوان الديوان الشريف من سكر وشغل وغير ذلك (٤) ) وبأعقابها من ذلك جميعه ومن طرح الصابون والزيت

(١) أنظر : Sobernheim, op. cit. p.55

(٢) نفس المرجع ص ٥٧

(٣) نفس المرجع ص ٥٦

(٤) خطأ في الكتابة

والبلس ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها من جميع الكلف والتخادم البخارية بها العادة قديما والحادثة مستقبلا ومنع خازن دار الكافل من التعرض الى ذلك ، وأخذ شئ منه ، واستقرارها في حماية سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على حكم المربع الشريف وأن ينقش ذلك في رخام جامع الكبير بطرابلس بأمر الكافل المشار اليه بالمملكة الشريفة ، وأن يسطر ذلك بتاريخ ثاني شهر الله الحرام سنة (١) ثمان وتسعمائة والحمد لله (٢) .

## ٢ - مسجد عبد الواحد الكناسي :

يعتبر من أقدم مساجد طرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ، وهو مسجد صغير يقع خلف سوق الصاغة بناه الشيخ عبد الواحد الكناسي أحد الأولياء الذين نزلوا مدينة طرابلس بعد أن حررها قلاوون من الصليبيين وكان مشهورا بالفضل والتقوى والزهد ، ويشتمر هذا المسجد ببساطته الناعمة . وعقود بيت الصلاة فيه تقوم على دعائم ضخمة مربعة الشكل وهي أقرب الى عقود مساجد المغرب الاسلامي منها الى عقود مساجد سريرية . ويترسط صحن الجامع نافرة صغيرة يحيط بها حوض نقش بأعلاه النص الآتي : (أنشأ هذا المكان المبارك العبد الفقير الى الله تعالى عبد الواحد الكناسي غفر الله له ولوالديه ولئن كان السبب فيه ، وذلك في تاريخ سنة خمس وسبعمائة ) (٣) .

ويحيط بصحن المسجد ثلاث محبات تعلوها أسقف مائلة من الآجر على نحو النظام الشائع في مساجد المغرب ، وتستند هذه الأسقف على أعمدة وأوتار من الخشب . وقبة المسجد مضلعة من الخارج ، وترتكز على رقبة من طابقيين ، الأدنى منهما تفتح فيه أربع نوافذ معقودة ، والأعلى مزود بثان نوافذ . أما من الداخل فالقبة مفصصة من ١٦ فصاً ، وترتكز هذه

(١) خطأ في الكتابة

(٢) Sobernheim, op. cit p. 59.

(٣) Sobernheim, op. cit. p. 85

المحرزة المفصصة على طابق مشمن في أركانه الثمانية جوفات مثلثة مزدانة بمقرنصات ، والطابق الأدنى مربع في أركانه جوفات مقرسة . وتذكرنا هذه القبة بصفة عامة بالقباب الترسية القديمة .

أما المئذنة فطابعها يختلف عن بقية مآذن طرابلس ، إذ تتكرر من ساق مشعة الشكل تنهى من أعلى بقبة نصف كروية ، ويفتح في جدران المئذنة من أعلى ثمان نوافذ .

### ٣ - مسجد الأمير طينال :

يطلق عليه حالياً مسجد الأمير طيلان (١) ، وهو تحريف ظاهر من اسم طينال . ويعتبر هذا المسجد أهم مساجد طرابلس وأجملها على الإطلاق بعد المسجد الكبير ، وتذكرنا زخارفه وعناصره المعمارية بمساجد القاهرة أكثر مما تذكرنا بآثار دمشق . ويقع هذا الجامع بظاهر مدينة طرابلس ، قريباً من باب طيلان . وكان هذا المسجد في الأصل كنيسة كرملية من عصر الصليبيين ، هجرت طويلاً بعد أن استولى قلاوون على مدينة طرابلس سنة ٦٨٨ هـ ، ثم استخلمها الأمير سيف الدين طينال الأشرفي الناصري نائب طرابلس في إقامة هذا المسجد سنة ٧٣٦ هـ . وتاريخ انشاء هذا المسجد مسجل في النقش الكتابي الذي يعلو باب المسجد ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك المقر الأشرفي العالي المولوي الأميري الناصري نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحرومة اتماماً ، في أيام الملك الناصر في شهر رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة) (٢) .

وهناك نقش كتابي آخر بالقرب من النقش السابق ، عبارة عن وقفية مسجلة فيها اسم نائب السلطنة ثم حدود الوقفية .

(١) وقع ابن بطوطة في نفس هذا الخطأ إذ سمى الأمير باسم طيلان الحاجب بدلان من طيدال .

(٢) Sobornheim, op. cit. p. 87

والمسجد يتألف من قسمين منفصلين ، الشمالي منهما بيت للصلاة ،  
يشتمل على ثلاثة بلاطات الأوسط ، تمسح من البلاطين الجانبيين ، ويقسم  
هذا البلاط الأوسط الى اسطوانتين تعلوهما قبتان .

أما القسم الجنوبي من المسجد فضريح دقن فيه طينال يشتمل على تسعة  
أساطين ، ويتوسط هذا الضريح قبة كبرى تقوم على رقبة مشتملة ، ويكتنف  
الضريح شرقا سلم وفي الجزء الشمالي قاعة جنازية تحتوي على قبرين (١) .

ونلاحظ أن بالمسجد عمودين مركزيين يقرم عليهما عقدان من النوع  
الرابط الشائع في العمائر القوطية ، ويغلب على الظن أن هذين العمودين  
وتأجهما من الكنيسة القديمة ، ويعتقد الأستاذ فان برشم أنه لوصح  
ذلك أي أنه لرببت انهاء هذه الآثار الى الكنيسة لحاز تحديد الرواق الأوسط  
والرواقين الجانبيين لها ، وعندئذ تكون رأس الكنيسة مكان الضريح (٢)  
أما الأستاذ بروس كندى فيرى أن هذين العمودين والعمودين الآخرين  
الذين تقوم عليهما القبة الجنوبية بالمسجد ، كانت مركز الكنيسة الكرملية القديمة  
لأن مجاز هذه الكنيسة كان يتجه من الشرق الى الغرب أي بعكس اتجاه البلاط  
الأوسط في المسجد ، كما يرى احتمال كون الأسطوان الذي تعلوه القبة  
الشمالية بالمسجد جزءا من الرواق الشمالي للكنيسة ، بينما يرجح تهديم المهندس  
فرواق الجنوبي تمكينا لاقامة البوابة الفسحة المؤدية الى ضريح سيف الدين  
طينال (٣) .

أما هذه البوابة المنتصقة بقاعدة القبة القبلي بالمسجد ، والمؤدية الى  
ضريح طينال ، فتعتبر من أحمل البوابات المملوكية ، وهي عبارة عن قطاع  
مستطيل الشكل مجوف ينتهي من أعلى بعقد منكر ، ويشغل ركني القطاع  
مقرنصان ينتهيان من أعلى - بعد أربع حطات متراكبة - بجوفة نصف كروية  
يحيط بها العقد المذكور . وتردان واجهة البوابة بزخرفة تقوم على تناوب

Van Berchem, op. cit. p. 120 (١)  
Ibid. P. 120 (٢)  
Bruce Condé, op. cit. p. 48 (٣)

مداميك الحجارة البيضاء مع المداميك السوداء ، ويحيط البوابة من أعلى  
ومن الجانبين إقريز من الدالات المتصلة على شكل زجاج .

والمئذنة مربعة الشكل ، تزدان جرابها بعقود صماء ذات وسائد، وتمتاز  
هذه المئذنة بوجود درج مزدوج في الداخل (١) ، أحدهما يؤدي إلى خارج المسجد  
والآخر يفضي إلى الداخل . وتنتهي المئذنة من أعلى بشرفة بارزة عن الجدار  
تفتح في كل وجه منها نافذة مستطيلة الشكل ، ويعبر الشرفة جرسق مستدير  
ويعتقد بعض الأثريين أن هذه المئذنة كانت في الأصل برج الأجراس  
التابع للكنيسة الكرملية (٢) ، ومجموع القباب التي يضمها المسجد والضريح  
أربعة ، أصغرها قبة المحراب ، وهي قبة صغيرة متعددة الفصوص (٢٤ فصاً)  
تقوم على قاعدة مربعة في أركانها جوفات مقوسة تؤلف حطة أولى من  
المقرنصات ، وتعلو هذه الجوفات حطة ثانية ثم تعلوها بدورها حطة ثالثة  
من المقرنصات المسطحة على شكل عقود متصلة يتخللها نوافذ . وللضريح  
منبر بأعلاه لرحمة من الخشب نقش عليها بالخط النسخي النص الآتي :  
(بسم الله الرحمن الرحيم ، أما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر  
وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا  
من المهتدين ، تكمل هذه المنبر في شهر ذي القعدة سنة ست وثلاثين  
وسبعمائة ) (٣) . وفي أدنى المنبر بأعلى الباب منظر من الكتابة النسخية  
نصه ( عمل المعلم محمد الصفدي رحم الله من ترحم عليه ) .

#### ٤ - مسجد العطار :

يقع هذا المسجد في قلب مدينة طرابلس على الضفة اليسرى من نهر  
قاديشا ، بالقرب من خان المصريين وخان الحياطين في شارع سوق الصاغة  
أهم شوارع المدينة . ويعتبر هذا المسجد ثالث مساجد طرابلس أهمية ، أسسه  
أحد العطارين الأثرياء سنة ٧٥١ هـ على نفقته الخاصة ولذلك نسب إليه ،

(١) محمد كرد عل ، خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨ ص ٥٢

(٢) Bruce Conté, op. cit. p. 50

(٣) Sobenheim, op. cit. p. 93.

وجعل له أربع صفوف ، لكل صفة لها معلم له معلوم يتناوله من وقف الجامع (١) . وتاريخ انشاء هذا الجامع مسجل بأعلى عتب المدخل في لوحة نصها : (بسم الله الرحمن الرحيم - هذا الباب المبارك والمبخر عمل المعلم محمد ابن ابراهيم المهندسين سنة أحد وخمسين وسبعمائة ) (٢) .

وبوابة هذا المسجد تشبه في زخارفها بوابة المدرسة القرطابية المجاورة للجامع الكبير ، فهي عبارة عن قطاع مفرغ مستطيل الشكل تعلوه حنية نصف كروية قائمة على أربع حطات من المقرنصات الشائعة في مباني الماليك . ويتوسط الواجهة فيما بين عتب الباب والمقرنصات تربيعة الغيفاء في وسطها جامة تحشد حولها تكوينات هندسية من فروع متقاطعة ومجدولة تتخللها زهرة الزنبق . وعتب الباب مزئف من سنجات على شكل زهرة الزنبق ، يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، على مثال سنجات سائر الآثار المملوكية بطرابلس . أما المثانة فتعتبر من أفخم مآذن طرابلس في عصر الماليك ، فهي برج مربع الشكل يدور حوله عند منتصفه أفريز أفقي بارز ومسطح ، وتنتهي المثانة من أعلى بشرفة مكعبة الشكل بارزة عن بناء برج المثانة ، وترتكز هذه الشرفة على صف من المقرنصات الجميلة ، القائمة على أربعة أعمدة في الأركان ، تيجانها من النوع الإسلامي المقرنص . ويتوسط كل وجه من وجوه الشرفة العليا نافذة توأمية يقرم عقداها على عمود مركزي مشترك . ويتوج هذا الطابق جوسق مشتمل الشكل يكتفئه في الأركان الأربعة قبيبات زخرفية جميلة . وينتهي الجوسق من أعلاه بغطاء مخروطي .

وعلى الجدار الواقع يمين فتحة الباب نقش مسجل فيه مرسوم ، أصدره السلطان المريني شيخ سنة ٨٢١ هـ .

#### ٥ - مسجد الدباغين :

هو مسجد صغير يقع على الضفة اليسرى من نهر قاديشا بجزر الجسر الحديد ، ويميز هذا المسجد بمثنته الممتدة التي تنتهي من أعلى بالطابق المربع

(١) عبد الفتى القابلي ، الرحلة الطرابلسية ، عن سورتهام من ١٠٥

(٢) Sobernheim, op. cit. p. 105

البارز ، وبقبته المضلعة . ويعلم مدخل هذا المسجد لوحتان من الحجر عليهما  
نقش كتابي عبارة عن مرسوم صادر من السلطان قايتباي في ٢٣ جمادى الآخرة  
سنة ٨٨٢ هـ ( ١٤٤٧ م ) عند زيارته لطرابلس قادما من بعلبك ، يأمر فيه  
بابضال المكرم المفروضة على جماعة الدباغين (١) . ولقد جدد هذا المسجد  
سنة ٩١٢ هـ في عهد السلطان قانصوه الغوري ، جدهه شيخ الدباغين بطرابلس

#### ٦ - زاوية أرغون شاه :

يطلق عليها أهل طرابلس زاوية الغنشا ، ويقع قريبا من المدرسة السقرية  
والخانونية في الطرف الغربي من طرابلس . ولا نعرف تاريخ بناء هذا المسجد  
على وجه التحديد ، ولكن أسلوب البناء يدل على أنه أقيم قرب نهاية  
دولة المماليك الشراكسة ، أي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر  
الميلادي . ونلاحظ في مثدنة هذا المسجد بدء ظهور التأثيرات المعمارية  
التركية ، فهي مثدنة أسطوانية الشكل تنحني في أعلاها بست محطات من  
المفرنصات تحمل شرفة ذات عشرة ضلوع تزدان بزخارف هندسية ونوريقات  
رائعة . وتختلف كل حشرة عن غيرها في هذه الضلوع العشرة للشرفة .  
وعلى مدخل هذا المسجد نقش كتابي يتضمن مرسوما صادرا من السلطان  
قايتباي في ١٥ جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ ( ١١ أكتوبر سنة ١٤٧٥ م )  
في نيابة أزدمر الأشرقي ، يأمر فيه بحماية زراع أراضي الوقف للمسجد المذكور  
وتسليمها الى السيد نور الدين الأدهمي الحسيني . وقد جدد بناء هذا المسجد  
بعد أن تهدم الجانب الجنوبي منه ، ولكن هذا التجديد لم يمس الواجهة  
الشرقية على الاطلاق .

#### ٧ - مسجد الأويصة :

يقع بالقرب من مسجد عبد الواحد المكناسي ، بناه عبد الحى الأويصي  
سنة ٨٦٥ هـ ويتميز هذا المسجد بقبته الوسطى الكبرى التي تمهد لظهور

(١) ارجع الى نص هذا النقش في كتاب Sobernheim, op. cit. p. 131

القباب التركية .. وقد جددت مثذنة هذا المسجد في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني سنة ٩٤١ هـ (١) .

(ب) المدارس :

١ - المدرسة القرطائية :

يحيط بالمسجد الجامع المنصوري عدد من المدارس المملوكية لا يقل عددها عن ست مدارس أهمها وأجلها المدرسة القرطائية ، أما الخمسة الأخرى فمجموعة حول البوابة الشمالية للجامع المذكور باستثناء المدرسة النورية التي تقع على مسافة قصيرة شرقي المسجد .

وتعتبر المدرسة القرطائية أهم آثار طرابلس الاسلامية على الإطلاق ، وتقع لصق الجامع الكبير من الجهة الجنوبية الشرقية . وينسب بناؤها الى الأمير سيف الدين قرطاي بن عبد الله الناصري الذي أقام منبر الجامع الكبير سنة ٧٢٦ هـ ، على الرغم من اختفاء الكتابة التاريخية التي كانت منحوتة على جدارها القبلي (٢) .

وينكر الأستاذ سوبر نهام وجود آثار لهذه المدرسة في الوقت الحاضر فيقول « L'école qu'il y a fondée n'existe plus » (٣) ويسمى البناء القائم لصق الجدار الشرقي للجامع المنصوري بالمدرسة الشمسية (٤) ، ويخلط بين هذه المدرسة والمدرسة القرطائية ، إذ ينسب الى المدرسة الشمسية المنشورات والمراسيم السلطانية المنقوشة على الجدار القبلي للمدرسة القرطائية .

(١) الى جانب المساجد المذكورة يوجد عدد كبير من المساجد التي أنشئت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة وأهمها مسجد التوبة الذي أنشئ في هذا العصر ووجد في عهد السلطان عثمان أحمد الأول سنة ١٠٢١ هـ ، ويمتاز بقبته المنقوشة ، ومنها مسجد الخيام الذي أنشئ على ما يظهر في أواخر القرن العاشر الهجري ، وتاريخ بنائه غير معروف على وجه الدقة ، ومنها المسجد المعلق الذي أنشئ في عصر السلطان سليمان القانوني سنة ٩٦٧

(٢) محمد كرد علي نعلط الشام ج ٦ ص ١٢٨

(٣) Sobornheim, op. cit p. 55

(٤) نفس المرجع ص ٦١ - ٦٢

والواقع أن المدرسة المسماة بالشمسية هي التي تقع الى يسار المدخل الى المسجد الكبير ، وتعتبر من ملحقات هذا الجامع ، وإن كانت قد أقيمت ضريحاً لمنشئها شمس الدين المرادى ، سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) تقريباً ، ولهذا المدرسة منظره تطل على المدخل الى الجامع المنصوري الكبير ، يعلوها عقد ذو وسائل متصلة ، وقد رأينا مثل هذا العقد في مثذبة جامع سيف الدين طينال بطرابلس ، وفي مصر نماذج من هذه العقود نراها ممثلة في أحد عقود بوابة الفتوح بالقاهرة وفي عقد مدخل مسجد الظاهر بيبرس وفي عقد مدخل خانقاه بيبرس الخاشنكير وفي نافذة مثذبة سنجر الخاولي كما نجدتها أيضاً في أحد العقود المنسوبة إلى الظاهر بيبرس بقلعة صيدا البحرية ، وهناك من الأثريين من يرجع هذا النوع من العقود الى الصليبيين (١) ، وهو افتراء واضح .

ومدخل هذه المدرسة الشمسية سد بالبناء واتخذت فيها مخازن ومرافق أخرى ، ولم يبق من واجهتها سوى النافذة المعقودة ذات الوسائل التي تحدثنا عنها .

وتعود مرة ثانية الى الحديث عن المدرسة القرطابية ، وبوابتها تعتبر من أروع أمثلة البرابيات المملوكية ، إذ تنطق خطوطها بما تتميز به من جمال ودقة لا نظير لها ، فهي حلقة متصلة متزنة الأجزاء ، وتعتبر عن ارتفاع وتوازن . ويتوسط عتب الباب لوحة عليها نقش كتابي نصه ( بسم الله الرحمن الرحيم ، ان المتقين في جنات وعيون ، أدخلوها بسلام آمنين ، ونزعنا ما في صدورهم من غل اخرانا على سرر متقابلين ) (٢) .

ويعلو هذا الباب عقد مخفف للضغط تتعاشق فيه منجيات من الرخام سرداء وبيضاء على التعاقب . ويعلو هذا العقد تربيعة من النسيفساء تتوسطها جامدة سوداء تخرج منها أشرطة أربعة مجدولة ، تمتد حول التربيعة . ثم يعلو ذلك ثلاثة طوابق من المقرنصات ، تنتهي من أعلى بجوفه نصف كروية عقدها

(١) تقرير بعثة اليونسكو الى لبنان ص ١٥ ، Bruce Candé op, cit. p. 34,49

(٢) لم يرد هذا النص بين النصوص التي نشرها سورنهام في كتابه عن نقش طرابلس .

منكسر : يحيط بها عقد بارز يلور به صفان من دالات متصلة على شكل زجاج . وعلى جانبي المدخل عمودان يعتقد الأستاذ بروس كندى أنهما من النوع الأفريقي (١) ، ويفتح في الجدار الشمالي للمدرسة نوافذ ، تكسرها زخارف متشابكة . أما محراب المدرسة فينطق بوضوح عن الفكرة الزخرفية والهندسية التي طبقها المهندس : إذ يعبر عن تناسب تام في تكرير العناصر الزخرفية مما يحتويه من فسيفساء ملونة . ويكسر النصف الأدنى من جدار المحراب وزرات من الرخام الملون ، وأرضية المدرسة من الفسيفساء الموزن تؤلف تكوينات هندسية رائعة تشبه إلى حد كبير الفسيفساء التي تكسو محسن جامع السلطان حسن بالقاهرة وغيره من المساجد والمدارس المملوكية .

وتنقسم المدرسة من حيث التصميم إلى قسمين : الرواق الشمالي وأرضيته أقل ارتفاعاً من أرضية المصلى . ويتوسط هذا الرواق الشمالي حوض مربع ، يقابل مدخل المدرسة ، بداخله نافورة . ويحيط بالحوض قناة تجري فيها المياه الحارية من الحوض ، وبأعلى هذا الحوض قبة . أما الرواق الآخر فتعلاه أمام المحراب قبة قائمة على مقرنصات مثلثة ، وتفتح في الجدار القبلي أربع نوافذ متشابكة ، عتب كل منها من الخارج يحتوي على ثلاث لوحات ، تعشدها زخارف هندسية بارزة برونزا ظفياً ، ويعلو الأعتاب عقود مخمفة للضغط سنجاتها متعاشقة سرداء وبضياء على التعاقب . وطبقات هذه العقود تزخر بالكتابات القرآنية . وتتصل المدرسة القرطانية بالجامع الكبير عن طريق قنطرة صلتها معقود بقبوات متعارضة ، ويعلو مدخل الباب المؤدى للجامع نافذتان مرتفعتان وظيفتهما ادخال الضوء إلى الطريق الضيق الواقع خلف المدرسة . ويزدان الجدار القبلي للمدرسة بمراسم سلطانية منحورة في لوحات مرصعة في الجدران ، أولها نقش كتابي يقع بين النافذة الأولى والثانية من هذا الجدار . وهو عبارة عن مرسوم أصدره الأشرف برسباي في سبيل رمضان سنة ٨٢٦ هـ يأمر فيه بإبطال المكوس الخاصة بحمل البريد . والمنشور الثاني منقوش على لوح حجري يرصع جدار بيت حديث البناء ، قبالة مدخل

Bruce Condé, op. cit. p. 38. (1)

الجامع من الجهة الشرقية ، وهو مرسوم صادر من ديوان الحياوش بتاريخ  
سبتمبر شعبان ٨٥١ هـ ، بإبطال الضرائب المفروضة على اثياب والدخان .  
وهناك غير هذين النقشين نقوش أخرى كثيرة يكتظ بها الحدار القبلي  
للمدرسة القرطائية ، نشرها الأستاذ سيربرنهام (١) .

## ٢ - المدارس المحيطة بالجامع :

ذكرنا فيما سبق أنه يحيط بالجامع المنصوري ست مدارس ، وقد تحدثنا  
عن مدرستين احدهما القرطائية والثانية الشمسية . والمدرسة الثالثة تقع  
الى يمين الداخل الى الجامع المنصوري من جهة الشمال ، وهي مدرسة  
مجهولة الاسم ولكن أسلوب بنائها يبين أنها من مدارس عصر دولة  
المالئك الشراكسة وواجهه المدخل عبارة عن قطاع فسيح مجوف على شكل  
مستطيل ينتهي من أعلى بجوفه مقوسة مكررة بالفيضاء الرخامية الملمنة ،  
وتزدان بزخرفة هندسية أساسها نجمة ذات عشرة رؤوس ، تتشعب من رؤوسها  
خطوط متقاطعة فيما بينها ، وهذه الحرفة تشبه الحرفات التي تعلو محاريب  
الماجد المملوكية . وتقوم هذه الحرفة على مقرنصات غاية في الروعة  
والجمال ، ويعلم البوابة افريز أفقى من دالات متصلة على شكل زجاج  
بارز يحيط بها من أعلى ، ثم يدور على جانبي البوابة الى أن يصل الى الأرض .  
ويود الواجهة مظهر زخرفى بسيط ناشئ من تناوب المداميك السوداء  
مع المداميك البيضاء (٢) .

ومن بين المدارس الثلاثة الأخرى المحيطة بالجامع الكبير مدرستان  
تقعان قبالة الباب الشمال للجامع المنصوري على الصنف الأيسر من الطريق ،  
الشرقية منهما هي المدرسة الناصرية ، وهي مدرسة صغيرة نسبياً ، وبنائها  
قطاع مستطيل مفرغ في الحدار ، ينتهي من أعلى بجوفه مقوسة نصف كروية  
عاطلة من الزخرفة ، تقزم على صف من المقرنصات ، تحته دائرة مستديرة

(١) Sobenheim, op. cit. p. 62-69

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 44.

بداخلها نقش كتابي نصه (عز لمولانا السلطان الملك الناصر) ، وتردان الواجهة  
بأفريز بارز من الدالات المتصلة كما تردان بالمداميك الملونة وتاريخ بناء  
هذه المدرسة يتراوح بين عامي ٦٩٣ و ٧٤١ هـ (١٢٩٣ - ١٣٤٠ م) .

أما المدرسة المجاورة لها من الغرب فهي المعروفة بمدرسة الخيرية حسن ،  
وقد أخطأ سوبرنهايم في تحديد موقعها على خريطته (١) . ويرجع تاريخ  
بنائها الى أوائل القرن الثامن الهجري (بعد سنة ٧٠٩ هـ) . وبوابتها عبارة عن  
قطاع مستطيل الشكل مجوف ، ينتهي من أعلى بعقد منكسر يتناوب في  
سجاته المتعاشقة اللون الأبيض والأسود . ويحيط بالبوابة من أعلى ومن  
الجانبين حتى مستوى الأرض أفريز من الزخرفة على شكل مقرنصات  
مسطحة متصلة ، ويتوسط كل من الجدار الأيمن والأيسر للبوابة نافذتان ،  
عقداهما نصف دائريان ، يتناوب في سجاتهما اللونان التقليديان الأبيض والأسود  
ويتوسط البوابة ، بين العقد والباب ، لوحة مربعة مسجل عليها وقية نصها  
(بسم الله الرحمن الرحيم ، وقفت جهة المرحوم قطلو المصنبة والمعصرة  
والربع فرق المعصرة ، وخمس قراريط وربع بطاحون الداودية والسندرية ،  
بأرض كفر قاهل ، والبستان ظاهر طرابلس وثلاث قراريط ونصف بسوق  
أسنمر ، وثلاث الدير يعرف بأرض أصنون ، ومسكبة زيتون والتاعة  
والبحرة والطبقة جوار المدرسة ونصف طاحون الحديدية بعردات ، وكرم  
زيتون في بطرام ، وطبقة ومخزن بقيسارية الأفرنج) (٢) .

أما المدرسة السادسة من مجموعة مدارس الجامع فهي المدرسة النورية ،  
وتقع شرق المدرسة الناصرية على الناصية الأخرى من الشارع المؤدي الى  
السوق الرئيسي بطرابلس ، أسسها نائب طرابلس الأمير نور الدين سنة ٨٧٣٣ هـ  
وبوابة هذه المدرسة من أحمل بوابات المدارس المملوكية في طرابلس .

(١) Sobernheim, op. cit. p. 37.

(٢) نفس المرجع ص ١٣٦

تقع على الضفة اليسرى من نهر قاديشا بالقرب من الحصر العتيق ، وامم منشىء هذه المدرسة مسجل على شريط من الكتابة النسخية بقطع واجهة المدرسة أفقيا ، على ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف . ويمتد هذا الشريط في مدماك قائم بذاته من يمين القطاع المحورف للبوابة الى يساره . ونقرأ في هذا الشريط النص الآتي : (بسم الله الرحمن الرحيم ، أوقف هذه المدرسة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى عيسى بن عمر البرطاسى عفا الله عنه ، على المشتغلين بالعلم الشريف على مذهب الامام الشافعى ، واقامة الجمع والصلوات المكتوبة ، وشرط أن لا يرسم فيها على أحد ولا يسكنه من لا له (الحق في ذلك) (١) . وأما تاريخ الإنشاء فلم يرد ذكره ، ويظهر من أسلوب بنائها وزخارفها أنها أقيمت في أواخر عصر دولة المماليك البحرية .

وأهم ما تتميز به هذه المدرسة واجهتها المبنيء بحجارة داكنة اللون ، والجوافة العليا القائمة على المقرنصات والتي تعد من أجمل ما أبدعه الفنانون في عصر المماليك . ونلاحظ التشابه الكبير بين هذه الواجهة وواجهة المدرسة القرطائية . ويعلو العتب أربع حشوات من الزخرفة الهندسية القائمة على الخطوط المتقاطعة في زوايا قائمة . ويبدو أن المدرسة كانت قد تعرضت لأضرار جسيمة بسبب سيل جارف حدث سنة ١٩٥٥ . وطلى على طابقها الثاني وقد قامت ادارة الآثار اللبنانية بترميمها تحت اشراف الأمير موريس شهاب . وتمتاز المدرسة بقبابها الثلاثة نصف الكروية ، وأعمها القبة الوسطى القائمة على جوافات مثثة تغطيها ست حطات من المقرنصات . ويغلب على الظن أن هذه القبة أضيفت في أواخر عصر دولة المماليك الشراكسة لشبهها الكبير بالقباب العثمانية . ومحراب المدرسة يعتبر أجمل محاريب المدارس المملوكية في لبنان على الاطلاق ، اذ تكسوه فيفساء مذهبة قائمة على تكوينات زخرفية من العناصر النباتية والهندسية ذات لرن فيروزى على أرضية مذهبة (٢) والمثلثة مربعة الشكل شأنها في ذلك شأن المآذن الأطرابلسية التي ترجع الى عصر

(١) نسر المرجع ص ١٢٨

(٢) Bruce Condé, op. cit p. 124

الماليك . وتزدان واجهتها الغربية بنافذة توأمية ذات عقدين متجاوزين منكسرين عند الرأس ، يستند جانبها المشترك على منكب قائم على عمود صغير ، وتتناوب في هذين العقدين السنجات البيضاء والسوداء ، ويذكرنا هذان العقدان بالعمود الخلافة بقرطبة وطليطة . ومحيط بالعقدين اطار مستطيل يحصر النافذة في نطاق غائر . ويغلب على الظن أن مهندس هذه المثانة أندلسي الأصل ، هاجر من محقظ رأسه الى طرابلس وساهم في بناء آثارها ، وسجل أصله الأندلسي المغربي على زخرفة هذين العقدين التوأمين ، اذ جمع فيها بين التقاليد الأموية الأندلسية الشائعة في الأندلس وهي العمود المتجاوزة والتي تشبه حدود الفرس والتي تتناوب فيها السنجات الملونة ، وبين التقاليد المغربية الشائعة في الطراز الموحدى ، وقوامها العمود المتجاوزة المنكسرة والثرافد التوئية التي تحيط بها طرر مستطيلة غائرة في البناء . والواقع أن عصر الماليك هو العصر الذي تسربت فيه التأثيرات الأندلسية الى مصر والشام ذلك لأنه العصر الذي توثقت فيه عرى الصداقة بين دولة الماليك في مصر ودول أسبانيا المسيحية ، على أثر انتصار الماليك على التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨ هـ ، وانتصار الأشرف خليل على بقايا الصليبيين في الشام وطرده لهم منها الى قبرص ورودس ، وقد أكسب هذان الانتصاران سلاطين مصر هبة دول أوروبا واسبانيا بالذات ، وهنا بدأت علاقات الصداقة بين مصر وأسبانيا تعمل عملها ، فقد تبادلت الدولتان السفارات والرسائل الودية والهدايا السنية . كذلك كانت العلاقة طيبة بين ملوك بني الأحمر بغرناطة وسلاطين مصر ، وكان من نتائج ذلك أن زار بلاد الشام ومصر عدد كبير من أهل غرناطة سواء للتعلم أو للتدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الإقامة ، ومن أمثال هؤلاء عبد الواحد المكناسي الذي أقام مسجدا بطرابلس ، وسيدى أحمد بن عمر أبو العباس المرسي نزيل الاسكندرية وغيرهما . وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير في نفاذ التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية والشامية في عصر الماليك (١) . وسرى في طرابلس تأثيرا أندلسيا ثالثا في المدرسة المعروفة بالطريشية .

(١) أنظر مقال : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة العدد ١٢ ، ديسمبر ١٩٥٧ ، ص ٨٨ - ٩٩ وكتابي : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٩ - ٣١

#### ٤ - المدرسة الزريقية :

تقع على الضفة اليمنى من نهر قادشبا ، وتعتبر أقدم مدارس طرابلس  
اذ أنشأها الأمير عز الدين أيك الموصلى لتكون مسجدا سنة ٦٩٧ هـ  
( ١٢٩٨ م ) ، وتاريخ الانشاء مسجل على لوحة في جدار المدرسة الواقع  
على يمين المنخل ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم ، أنشأ هذا المسجد  
المبارك ، الفقير الى الله أيك الموصلى . عفا الله عنه في تاريخ عشرين جمادى  
الآخر سنة سبع وتسعين وستائة) . وأيك (١) المذكور تولى نيابة طرابلس  
من ٦٩٤ هـ الى تاريخ وفاته سنة ٦٩٨ هـ . ثم أضيف الى هذا المسجد مصلى  
صغير المساحة سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٨ م) وسجل هذا الانشاء على طلبة عقد  
المنخل بأعلى عتب الباب مباطرة ونصه (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء  
هذه الزاوية المباركة العبد الفقير الى الله تعالى سيف الدين كرتاي السيفي ،  
وذلك في تاريخ شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة) ونلاحظ أن عتب  
الباب يردان بثلاث حشوات مكسوة بتكوينات هندسية ، والحشوة الوسطى  
أصغر من الحشوتين الأخرتين وبوابة المدرسة الزريقية قطاع مستطيل مجرف  
ينتهي من أعلى بجوقة نصف كروية قائمة على مقرنين مثلين ، وعقد البوابة  
يتلمج منبتاه في مداмик عضادتي البوابة ، وهي عاظمة تماما من الزخرفة  
باستثناء زخرفة عتب الباب . ويزعم الأستاذ بروس كندى أن هذه البوابة  
صليبية الطراز (٢).

#### ٥ - المدرسة السقرية :

وتقع في طرف المدينة الجنوبي الغربي ، بالقرب من مسجد أرغون شاه  
بناها الأمير سيف الدين أقطرق ، حاجب نيابة طرابلس لتكون مسجدا  
وضريحا وذلك سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) . وتاريخ انشاء المدرسة مسجل على  
جدار واجهتها الجنوبية الشرقية في شريط يمتد على كل من جانبي البوابة

(١) Sobernheim, op. cit. p. 83

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 118

ويتضمن هذا الشريط الكتابي تاريخ البناء ، والعقارات الموقوفة عليها ، ونلاحظ أنه يتوسط كل زوج من نوافذ الواجهة تحت صف الكتابة مباشرة رنك المنثني ، وهو عبارة عن دائرة يتوسطها حزام أفقي بداخله سيف يتجه من أعلى الجانب الأيسر الى أدنى الجانب الأيمن . وتكسو عتبات النوافذ زخارف هندسية من النوع الشائع في العصر التركي . ويعلو الضريح قبة مضلعة غاية في الجمال ، تفرم على رقبة مشمنة قائمة بدورها على قاعة مربعة في أركانها جوفات مقوسة مزينة بزخارف نباتية قوامها المزواح النخيلية ، ويتدلى تحت كل جوفة مقرنصات من ثلاث حطات .

#### ٦ - المدرسة الحاتونية :

تقع وجهها لوجه أمام المدرسة السمرقية ، بقها أرغون خاتون بالاشتراك مع زوجها عز الدين أيدير الأشرقي نائب طرابلس سنة ٧٧٥ هـ . وتاريخ انشاء هذه المدرسة وأسماء العقارات الموقوفة وشروط السيدة الواقفة مسجلة جريماً بأعلى المخمل ، ونص النقش ما يلي : ( بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد أنشأ هذا المكان المبارك مولانا المقر الأشرقي العالي المرلوي الخلدوي الكافلي العزى أيدير الأشرقي ملك الأمراء أعز الله أنصاره في شركة آدره الكريمة الجهة ، المصونة ، أرغون تغمدنا الله برحمته حسب وصيتها المتقدمة .. ) ويلى ذلك الرقبة وتاريخها ٢٣ شعبان سنة ٧٧٣ هـ ثم اسم متولى البناء الأمير جمال الدين يوسف ابن العزى غزان السيقى ، ثم تاريخ الفراغ من البناء سنة ٧٧٥ هـ (١) . وعز الدين أيدير المذكور هو أيدير بن عبد الله الأنوكي الدوادار نائب طرابلس فيما بين ٧٧٣ هـ ، ٧٧٦ هـ . وعلى الرغم من تآكل كسوة جدران المدرسة فاننا نشاهد رنك الكأس على جانبي عتب النافذة .

#### ٧ - المدرسة الظاهرية :

هي مدرسة صغيرة بباب الحديد جنوب غربي المدرسة البرطاسية ، وصميت بالظاهرية لأن الذي بناها هو الأمير سيف الدين تغرى برمش

(١) Sobernheim, op. cit. p. 116

الظاهرى بن أحمد الهنسى التركمانى الامير أخور الكبير فى عهد السلطان  
الظاهر برقوق ، لدفن ولديه سنة ٧٩٩ هـ ( ١٣٩٦ م ) . ومدخل المدرسة  
مسدود اليوم ، ولكن الواجهة بكتابتها النسخية مازال ظاهرة . وتاريخ  
انشاء المدرسة مسجل على عتب المدخل فى خمسة أسطر من الكتابة النسخية  
ونص الكتابة ما يلى : ( بسم الله الرحمن الرحيم ، المال والبنون زينة الحياة  
الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا . قوله الحق  
وله الملك . عمر هذا المكان المبارك المقر السيفى تغرى برمش الظاهرى  
أعز الله أنصاره سجدا لله تعالى وقربة لدفن ولديه الأخوين الشقيقين  
السعيدين الشهيدين سيدى الأمير قاتمر وسيدى أمير تغرى بردى الطفلين  
المتحصين (١) على الدنيا ، المتحابين فى دار الدنيا ، والمجاورين (٢) والمجاورين  
فى دار الآخرة تفعلهما الله برحمته ، وأسكنهما فسيح جنته ، وجمع بينهما وبين  
والديهما فى دار كرامة ، وذلك فى ثالث شهر الله المحرم سنة تسع وتسعين وسبعائة .  
رحم الله من ترحم عليهما ) (٣) ونلاحظ فى أول السطر الخامس نقش  
يمثل رنك الساق وهو عبارة عن صورة كأسين مغمورين فى ثلثى الرنك .

وبالمدرسة محراب ، الجزء الأدنى من جوفته مغطى بأشرطة رأسية  
من الرخام الملون بينما تكسو الحنية العليا زخرفة من النيسفاء قوامها القروع  
المتداخلة .

و يمكننا أن نميز فيها اللون الأحمر والأبيض والفيروزى والأصود ويقوم  
عقد المحراب على عمودين ، يزدان بدناهما بقنوات معصورة .

#### ٨ - المدرسة الطويشية :

تقع بالقرب من منطقة الجامع الكبير ، وتشتمل على ضريح مؤسسها  
الأمير سيف الدين الطويشى التوفى سنة ٨٧٥ هـ ( ١٤٧١ م ) . وتمتاز هذه  
لمدرسة بظاهرتين :

(١) قرأنا سورتهمايم « المتحصين » .

(٢) كلمة زائدة لم يكملها الخطاط لانتهاء السطر فأعاد كتابتها فى السطر الجديده .

(٣) Sobernheim, op. cit. p. 122

١ - البوابة الرائعة التي تعرض مثلا من أروع أمثلة المقرنصات المملوكية ، وبأعلاها جرفه نصف كروية على شكل معارة تمتد فيها زخرفة مشعة في أربع مجموعات . وعقد البوابة من النوع المفصص بفصوص نصف دائرية وأخرى مثلثة صغيرة على التعاقب ، على النحو الذي نشأه في العقود الأندلسية المغربية في عصر المرحدين ، مما يجعلنا نرجع نحل بعض التأثيرات المغربية الأندلسية الى عمائر المالك في بلاد الشام .

ويحيط بالبوابة اطار بارز على شكل مستطيل يترج أعلى العقد ، ثم يمتد طرفاه أفقيا بطول جدار الواجهة يمينا ويسارا .

٢ - النافذة ذات العقد المزدوج بالطابق الثاني (على يسار الواجهة) ، فعقدنا هذه النافذة مفصصان ينتهيان من أعلى بمجوفتين نصف كرويتين تكسرها زخرفة على شكل معارة ، ويحيط بهما اطار مستطيل الشكل . ويرتكز العقدان من الجانبين على عمودين بهما قنوات معصورة ويذكرنا العقدان بالعقود الأندلسية .

أما قبة الضريح فهي مفصصة (متعددة الفصوص) ، يتناوب في محيط قاعدتها الفصوص نصف الدائرية والفصوص المثلثة .

#### ٩ - المدرسة العجمية :

تقع بالقرب من قلعة صنجيل ، أسسها هي والتربة الملحقة بها الحاج شمس الدين محمد السكر في رمضان سنة ٧٦٦ هـ . واسم هذا الرجل نراه مجلا على منبر بمدينة دمياط سنة ٧٧١ هـ . وتاريخ المدرسة العجمية مسجل على عتب مدخلها ، ونصه : (أمر بإنشاء هذه التربة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى محمد السكر عفا الله عنه . وكان الفراغ منها في شهر رمضان سنة ست وستين وسبعائة) .

ما عمره بطرابلس « بعض القلعة ، وأقام أبراجا » (١) واليه تنسب بوابة القلعة الحالية بعقدتها الذي يتأوب في سنجاته اللونان الأسود والأبيض على التعاقب ، كما ينسب إليه كثير من أسوارها وأبراجها وممراتها (٢) .

والمندخل على شكل مرفق يصل الى باب ثان ، يعلوه لوحة مسجل عليها بالخط النسخي منشور عسكري صادر من السلطان الأشرف شعبان بن الناصر محمد بتاريخ ٧٤٦ هـ يتضمن بياناً بالمرابطة الحربية . ويبدو أن جانباً كبيراً من القلعة قد تخرب في عصر دولة المماليك الشراكسة ، فرمت سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢١ م) بأمر السلطان سليمان القانوني بعد زيارته للشام ، ثم عمرت بعض أجزاء منها بعد ذلك بقرن في عهد يرمسف باشا سيمنا .

وبناء القلعة خليط من أساليب مختلفة منها الصليبي ومنها المملوكي ومنها العثماني ، على أن الأجزاء الإسلامية يمكن تمييزها بسهولة عن الأجزاء المسيحية ، ونلاحظ أن أغلب أبراج الجانب الشرقي يرجع الى عصر الصليبيين وما زالت الحفائر تجرى بأرض القلعة لدراسة نظام بنائها دراسة علمية منظمة .

## ٢ - أبراج المينا :

رأى نواب السلطنة بطرابلس في عصر دولة المماليك البحرية ضرورة تحصين ميناء طرابلس وذلك بإقامة أبراج ممتدة على ساحل شبه جزيرة المينا ، لتأليف خط دفاعي قوي أمام أي اعتداء صليبي موجه من جزيرتي قبرص ورودس اللتين أصبحتا قاعدة للاستتارية والدأوية بعد تحرير الشام من بقايا الصليبيين في عصر السلطان الأشرف خليل ، فان تحرير الشام نهائياً من الصليبيين لم يكن يعني أن الفكرة الصليبية نفسها قد وئدت ، وأن منطقة الشرق الأدنى لم تعد ميداناً لحرب صليبية جديدة ، فقد ظلت فكرة الحروب الصليبية نحو قرن من الزمان بعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في الشام ، إذ أن البابوية ودعاتها لم ترض بالنهاية المؤلمة التي انتهت اليها الحروب

(١) نص انويري عن سورينهايم ص ٤٧

(٢) Bruce Condé, op. cit. p. 22

الصليبية ، واعتبرت دولة المماليك في مصر والشام السبب المباشر للكوارث التي لحقت بالصلبيين ، فحاولت البابوية أن تتدخل دينياً لدى الدول الأوروبية لقطع كل علاقاتها التجارية مع دولة المماليك في مصر حتى تقضي بذلك على أهم مواردها المالية ، فحرمت بيع أى شيء للعرب قابل لأن يكون أداة لتسليح المسلمين ، كالحطب ، والحديد ، وهما مادتان لازمتان لصناعة السفن وآلات الحرب (١) غير أن هذه المحاولات لم تلبث أن باءت بالفشل لأن الدول والجمهوريات الأوروبية التي كانت تتعامل مع مصر لم تكن تستطيع الاستغناء عن حاصلات الشرق التي تأتي عن طريق واحد هو طريق دولة المماليك . ولم يكن هناك غير سيل واحد هو الاغارة على شواطئ مصر والشام ، والرصد في البحر للسفن التجارية الاسلامية . وشهد القرن الرابع عشر عدة إغارات عنيفة قامت بها الأساطيل الصليبية على موانئ مصر والشام (٢) .

وكان تحصين ميناء طرابلس الذي خربته عساكر قلاوون وسوت مبابيه بالأرض يعنى إنشاء مراكز دفاعية على الميناء على أبعاد متفاوتة ، ولم تكن هذه المراكز تعدو أبراجاً حصينة مزودة بالجند والملاح وآلات الحرب ، ولا تعرف على وجه الدقة تاريخ انشاء هذه الأبراج ، وكل ما نعرفه في هذا السيل أن طرابلس زودت بسبعة أبراج لم يبق منها في الوقت الحاضر سوى آثار أربعة فقط . ويمكننا مع ذلك تحديد مواقع هذه الابراج السبعة على خريطة لطرابلس ، فقد كانت تمتد من مضب رأس النهر إلى رأس شبه جزيرة المينا غرباً . هذه الابراج هي كما يلي : برج الشيخ عفان وبرج السباع وبرج رأس النهر وبرج المغاربة وبرج السراية وبرج المشي وبرج أبي العدس ، ولم يبق من هذه الابراج السبعة سوى أبراج السباع ورأس النهر والشيخ عفان والسراية .

(١) Heyd, Histoire du Commerce du Levant, t. II, Leipzig, 1885, p. 23-30

(٢) أنظر سيد عاشور ، تبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٤ نفس المؤلف ، مصر في عصر دولة المماليك ابحرية ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٦٨ - ٧٥ كما ي عن تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٨٥

### (١) برج السباع :

هو أهم هذه الأبراج جميعاً ، لأنه ما يزال يحفظ بصورته الأولى ، كما أنه يعتبر من أجمل الأبنية الحربية التي وصلت إلينا ، ويقع بين برج السراية وبرج رأس النهر . وقد اختلف المؤرخون في تاريخ بنائه ، فكان برشم يعيل إلى جعل هذا التاريخ في حدود سنة ١٤٠٠ م ( ٨٠٢ هـ ) ، لأن عمارته وزخرفته يجمعان بين الحصانة والوثاقة التي تتجلى في عمائر أسرة قلاوون ، وبين الرشاقة والأناقة التي تنعكس على آثار قايتباي ، وينسب بناء هذا البرج إلى الأمير أيدمش نجاشي أحد ضباط الظاهر برقوق . ويعتمد فان برشم فيما ذهب إليه على نص لأبي الخناسن في المهبل وآخر للسخاوي في الضوء ، فالأول يقول : « وعمر بطرابلس برجا على ساحل البحر الملح لأجل المرابطين ووضع فيه جملة مستكثرة من السلاح ، ووقف عليه أوقافا » والثاني يقول : « وهو صاحب البرج الذي بطرابلس على ساحل البحر » (١).

ويرجع سوفاجيه نسبة برج السباع إلى السلطان قايتباي لشبهه الكبير بقاعة استقبال السلطان قايتباي بأعلى قلعة حلب ( سنة ١٤٧٥ م ) (٢) . ويرى بروس كندی أن هذا البرج أقيم في أواخر القرن الثالث عشر أو بداية الرابع عشر الميلادي ، ثم جدد في أواخر القرن الخامس عشر في أيام قايتباي لمواجهة أي غزو قد يقوم به العثمانيون (٣).

ويضيف الشيخ كامل البابا ، مؤرخ طرابلس الكبير ، أن هذا البرج بني فيما بين عامي ١٤٤١ و ١٤٤٢ م في عهد الأمير جيلان نائب طرابلس ، وأنه وقف على مصالحه وعماراته والمرابطين في البرج خمسة قرى منها : نصف قرية علما ونصف قرية كفرقو التابعة اليوم لزغرنا ، ونصف قرية بينو ، ونصف قرية الحصين من قضاء العلويين اليوم ، ونصف قرية القطين (٤).

(١) Van Berchem, op. cit. p. 122-124

(٢) J. Sauvaget, Notes sur les defenses de la marine de Tripoli, dans Bulletin de la musée de Beyrouth, Paris, Decembre 1938

(٣) Bruce Condé, op. cit. p. 137.

(٤) الشيخ كامل البابا ، من آثار التاريخ الطرابلسي ، ص ٩

أما رأينا فيختلف عن هذه الآراء جميعا (باستثناء رأى كندى) فنعتقد من أسلوب بناء هذا البرج كما سنصفه فيما بعد ، أنه أقيم لأول مرة في طليعة القرن الرابع عشر الميلادي ، ويؤيد ذلك التشابه الكبير بين بوابة البرج بعقدتها وسنجاتها التي يتعاقب فيها اللونان الأبيض والأسود ، وبين بوابة قلعة صنجيل من جهة ، وبوابة مدرسة الخيرية حسن من جهة ثانية . وقد ذكرنا فيما سبق أن بوابة قلعة صنجيل أقيمت سنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م) وأن الذي أمر ببنائها هو الأمير اسدمر كرجي نائب طرابلس ، أما مدرسة الخيرية حسن ، فأقيمت هي الأخرى في نفس هذا العام . كذلك نعتمد على نص ذكره سورنهام نقلا عن النويري جاء فيه « فوضت نيابة السلطنة الى الأمير سيف الدين اسدمر كرجي المنصوري ، فاستمر بها «أى طرابلس» الى سنة تسع وسبعائة ، وعمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله في بلد من البلدان ، وعمر قيسارية وطاحونا .. وعمر أيضا بعض القلعة ، وأقام أبراجا » (١) .

كل ذلك يشير اشارة واضحة الى أن برج السباع من بناء اسدمر ، وليس من العقول أن تظل منطقة المينا بطرابلس بدون أبراج دفاعية حتى عصر قايتباي .

وننتقل الآن الى وصف البرج : فهو عبارة عن بناء ضخم مكعب الشكل على أساس مستطيل  $28,50 \times 20,50$  م ، مبني من الأحجار المنسمة بطريقة منسقة ، ويتدمج في سمك البناء أبدان من الأعمدة تظهر على سطح الجدران الخارجية بارزة بروزا طفيفا . ومدخل البرج في الواجهة الغربية ، ونلاحظ أن البوابة بعقدتها ومدخلها تبرز قليلا عن بقية جدار الواجهة (٢) ، وتتميز البوابة بعقدتها المنكسر الذي يتناوب في سنجاته اللونان الأبيض والأسود . وتمتد تناوب الألوان في عضادتي العقد ثم يستمر في داخل القطاع المستطيل المحفوف للبوابة حتى فتحة الباب ، ويدور

(١) نص نويري عن سورنهام ص ٤٧

(٢) Sauvaget, op. cit. p. 4

حول السججات الملونة افريز بارز ، يلتقى مع الطرة المستطبة العليا عند متبقي العقد . ويعلو الاطار المستطيل فوق رأسى العقد مباشرة جوفة مستطبة يبدو أنها كانت تحدد موضع اللوحة الانشائية . وقد ضاعت هذه اللوحة في الوقت الحاضر . ويعلو الباب عتب كبير عبارة عن لوحة واحدة سمكة من الحجر يعلوها عقد مخفف لضغط سنجاته متعاشقة .

وهناك ظاهرة نلاحظها في هذا البرج كما نلاحظها في أبراج قلعة صنعيل وهي ميل الجدران في الجزء الأدنى من السور نحو الخارج ميلا واضحا ، ولهذا الميل وظيفة نفعية فهو يدفع الأحجار المتساقطة من أعلى الشرفات البارزة في عنف نحو الأعداء . ويعلو بوابة البرج قرب سور المشى كوابيل كانت تدعم شرفات بارزة عددها خمسة . ومدخل البرج يؤدي الى قاعة واسعة يعلوها ست قنوات متعارضة ، تتكئ في الوسط على دعامتين مركزيتين تقعان في نفس محور المدخل (1) ، ثم تتكئ في الجوانب على دعائم ملتصقة بالجدران . وسقف القاعة قليل الارتفاع ، ونلاحظ أن جدار المدخل مزود على جانبي الباب بفتحتين صغيرتين . احدهما تنهى بمنغذين للسهام ، الأيمن منحرف والأيسر معتدل ، والفتحة الثانية تؤدي الى منفذ واحد للسهم ، وجدار الفتحة القبلى محفور عليه شكل محراب . ونلاحظ أن الجدار الشمالى به أربع منافذ للسهم ، والجدار الشرقى به أربعة والجدار الجنوبى به ستة .

ويتوسط القاعة بين الدعامتين فوهة بئر تتجمع فيه مياه الأمطار التي تصل اليه من السقف عن طريق قنوات فخارية بداخل البناء . وكانت هذه القاعة تزدان فيما مضى بملحة ملونة ، فإن الافريز البارز المعتد ما بين الباب والدعامة المقابلة له ، ما زال يحتفظ في سنجاته بتناوب اللونين الأبيض والأسود . وعلى الجدار القبلى للقاعة رنك مملوكى بين زخارف هندسية وهو رنك الكأس ، وعلى الجدار الغربى الذى يفتح فيه الباب خمسة رنوك تمثل الكأس بعضها مرسوم باللون الأسود والبعض بالوان أخرى .

Ibid. (1)

أما الدرج فيدور في سمك جدار الواجهة الغربية ، ويؤدي الى الطابق العلوى ، ويذكرنا هذا البرج بالطريقة المتبعة في سورية . ويتألف الطابق العلوى من قاعة أكثر تعقيدا من القاعة السفلية ، فهي فسيحة واسعة ، تفتح في جدرانها ثمان جوفات عميقة تعلوها قبوات نصف أسطوانية . وللبرج مسجد صغير به محراب وناقلتين ومنور علوى ، وخزانة لحفظ المصاحف .

وبرج السباع يعتبر من أهم الآثار الاسلامية بطرابلس ، وأجل مثال لفن العمارة الحربية ، بما يتضمنه من عناصر معمارية وزخرفية متنوعة وموزعة جميعا في ايقاع وتصميم متناسق .

#### ٢ - برج الشيخ عفان :

يلي برج السباع من ناحية الغرب ، وقد جدد هذا البرج تجديد شوه معاله الأثرية .

#### ٣ - برج الرابية (أو الديوان) باليننا :

أدمج هذا البرج في مجموعة أبنية حكومية خاصة بالدرك اللبناني ، إلا أن هذه الأبنية نسفت في حوادث ثورة ١٩٥٨ (١) ، فعاد البرج الى الظهور من جديد . وهو برج مربع الشكل يدعم جدرانه أبدان أعمدة مندوجة في داخل البناء على النحو الذى شاهدناه في برج السباع . ولم يتبق من هذا البرج سوى الطابق الأدنى ، وقاعته الداخلية تعلوها قبوات متعارضة تقوم على دعائم ملتصقة في الجدران .

#### ٤ - برج واس النهر :

يقع على بعد ١٢٠٠ م شرق برج السباع بالقرب من مصب نهر أبي على وهذا البرج أصغر حجما من برج السباع وأقل ارتفاعا منه ، إذ يتألف من طابق واحد ، وهو على شكل مربع طول ضلعه ١٦ م . ويختلف هذا البرج في بنائه عن الأبراج الأخرى الواقعة على الساحل اللبناني ، إذ يقوم في

(١) Bruce Condé, op. cit. p. 143

أركانها الأربعة ركائز اسطوانية مندمجة في البناء أشبه بأبراج صغيرة ملتصقة بزوايا البرج الكبير ، على نحو ما نشاهده في قلعة حصن الأكراد وبالذات في قلعة قايتباي بالاسكندرية ، وجميع جدران البرج كسيت بحجارة سطوحها ناعمة ، ولكن هذه الكسوة الرقيقة انزعجت من أجزاء كثيرة من هذا البرج خاصة من الركائز الركنية ومن الواجهتين الجنوبية والشرقية .

ومدخل البرج باب منخفض صغير يفتح في الواجهة الجنوبية ، قد جرد تماما من عناصره الزخرفية ، ويتعاقب في مداميك هذا الباب اللونان الأسود والأبيض ، ويؤدي هذا الباب الى قاعة تعلوها أربع قنات متعاضدة ترتكز عند تلاقحها على دعيمة وسطى ، بينما ترتكز في الجوانب الأخرى على الجدران ، وفي الجدار الجنوبي محراب صغير ، وفي داخل سمك الجدار الشرقى درج يؤدي الى سطح البرج (١) .

أما تاريخ بناء هذا البرج فيرجع فيما يظهر الى عصر السلطان الأشرف أبو النصر قايتباي وذلك للتشابه الكبير بين هذا البرج وبرج قايتباي الذي بناه بالاسكندرية ٨٨٢ هـ (٢) ويرجع سبب اهتمام الأشرف قايتباي بتحصين طرابلس وغيرها من ثغور الساحل الشامى والساحل المصرى (٣) الى اضطراب العلاقات بين دولة المماليك والدولة العثمانية (٤) لدرجة حدوث مصادمات مسلحة بين الطرفين ، وأغلب الظن أن قايتباي أسس هذا البرج عند زيارته لمدينة طرابلس سنة ٨٨٢ هـ ، في رحلة المشهورة الى بلاد الشام وأطراف دولة المماليك .

- 
- (١) كان يملو هذا البرج بأعلى المشى شرفات ، على نحو ما نشاهده في برج قايتباي .
  - (٢) أنظر كتاب تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى من ٩٢ - ٩٧
  - (٣) زود قايتباي الاسكندرية بطابية ، وأقام طابية أخرى في رشيد في نفس العام .
  - (٤) أحمد النبه دراج : سيم سلطان والدبلوماسية العلية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ١٩٥٩ من ٢٠٣ - تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامى من ٩٧

## (د) الحمامات :

لم يبق من بين الحمامات الكثيرة التي كانت تزخر بها طرابلس في عصر المماليك سوى ثلاثة حمامات هي : حمام النوري وحمام الحاجب وحمام عز الدين .

أما الحمام النوري فيقع بالقرب من الجامع المنصوري الكبير ، وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته في الوقت الحاضر . أقيم سنة ٧٢٣ هـ في نفس الوقت الذي أسست فيه المدرسة النورية ، ويتكون هذا الحمام من غرف تعلوها قبوات وقببات تفتح فيها مضوى ( أي فتحات صغيرة لادخال الضوء ) مسدودة بقيعان القناني الزجاجية الملونة ، في إحكام صنعة وأجل ترتيب ، وأكبر هذه الغرف ، الغرفة المعروفة بالبيت الساخن ، وتحيط بها مجموعة من المخادع الخاصة ، وتسمى الخلوات ، ومضوى البيت الساخن تؤلف تكويناً زخرفياً رائعاً ، يقوم على عقود نصف دائرية متقاطعة فيما بينها ، تحيط بأطراف القبة . ويشغل الفراغ المركزي زخرفة نجمية الشكل . وأغلب قببات هذا الحمام من النوع المنصص القائم على جوفات مقوسة في أركانه .

وحمام عز الدين بناه الأمير عز الدين أيلك الموصل سنة ٦٩٤ هـ وكان نائبا لطرابلس فيما بين عامي ٦٩٤ هـ ، ٦٩٨ هـ ، وهي سنة وفاته . وقد دفن هذا الأمير في تربته التي أنشأها لصق حمامه . وما زالت نافذة هذه التربة تحمل نقشا تاريخيا يسجل تاريخ وفاته ونقش تحته رنك الأمير .

وقد استغل عز الدين أيلك بقايا كنيسة صليبية في بناء حمامه ، فاستخدم نقوشها ورخامها وأحواضها لذلك الغرض . ومدخل الحمام يفتح على الشارع بعقد مدبب ، على رأسه قطعة من إفريز بارز مزدوج ، جوانبه تعبر عن أصله اللاتيني ، وعلى رأس العقد كتابة لاتينية نصها SCS JACOBUS وأغلب الظن أن هذا الجزء من البوابة من بقايا كنيسة سان جاك التي كانت تقوم في نفس هذا المكان أو قريبا منه ، وفي نهاية البوابة يفتح باب عقده نصف دائري منكسر أنكساراً طفيفاً . وعلى عتب هذا العقد نحتت صورة « حمل فصحي » بين وردتين ويعلو هذه الصورة النقش الكتابي الآتي

ECCE AGNUS DEI

ويتّسم الحمام من الداخل بقبواته ذات المضاوى وغرفة الثلاثة المعروفة بالبراني (وهي غرفة الثياب وتقع عادة بعد المدخل) ، والوسطاني (وهي الغرفة الدافئة وترتفع درجة حرارتها قليلا عن الغرفة السابقة) ، والحامي (وهي البيت الساخن) .

أما حمام الحاجب فقد بناه الأمير سيف الدين اسدمر كرجي المنصوري سنة ٧٠١ هـ بجوار المدرسة الزريقية . ويذكر النويري أنه «عمر بها حماما عظيما أجمع التجار ممن يجوب البلاد أنه ما عمر مثله في بلد من البلدان» وما زال هذا الحمام يؤدي وظيفته حتى اليوم منذ أكثر من ٦٥٠ سنة مضت (١) وعلى عكس ما يزعمه مؤلفو كتاب اليونسكو من أن هذا الحمام قد اندثر ولم يبق منه إلا بقايا قليلة (٢) ، فإن هذا الحمام يعتبر أول الحمامات الثلاثة من حيث احتفاظه بعناصره المعمارية . فهو يشتمل على أكثر من ١٢ قبية وكلها مخزومة بمضاوى مزججة سليمة ، لآثار فيها لهدم أو لتشوّه ، وتندرج في تخطيطه الغرفة الباردة الدافئة فالساخنة ، بينما تتوزع حولها الجلوات الخاصة .

#### (هـ) الخانات والأسواق :

يحتل المركز العمراني الاقتصادي قلب مدينة طرابلس ، ويشتمل هذا المركز في الخانات والأسواق . أما الخانات فكانت تقع عادة بجوار الحمامات والأسواق ، وأهمها خان المنزل وخان الخياطين وخان المصريين وخان العسكر .

ويعتبر خان المنزل أحمل خانات طرابلس وأهمها ، فقد بناه الأمير سيف الدين اسدمر كرجي المنصوري فيما سبق سنتي ٧٠٠ ، ٧٠٩ هـ ، وواجهه هذا الخان غربية الشكل ، إذ يحف بباطن عقد البوابة المنكسر قطاعات مثلثة الأطراف تؤلف نوعا من الدالات المتصلة البارزة ، وتعتبر

(١) Bruce Condé op. cit. p. 120

(٢) تقرير لجنة اليونسكو إلى لبنان من ١٥

هذه الزخرفة تطورا لزخرفة الدالات الثائعة في زخرفة بوابات المساجد والمدارس بطرابلس . ويحتل طلبة العقد جامعة كبيرة حفرت فيها توريقات كثيفة ، أما الظاهرة الغربية في هذا الحان فهي أن عقود نوافلها مقصصة بفضوص من زهرة الزنبق ، تمثل تطورا فريدا في تاريخ عمارة المماليك ، ويعلم النواجهة افريز بارز يزدان بصف من المقرنصات الزخرفية المسطحة على شكل ورقة نبات متكررة .

أما خان الخياطين فقد بناه الأمير بدر الدين قبل سنة ٧٤٠ هـ ، وتتصل عمارته بعمارة حمام عز الدين وخان المصريين ، وتؤلف جميعا جانبا هاما من المدينة التجارية . وخان الخياطين أشبه بالدرب مقفل طوله نحو خمسين مترا . ويتميز بوجود صفيح من المقرنصات الخائفة . ويقطع الدرب من أعلى عشرة عقود عرضية أشبه بالمقناطر ، ولا يغطي هذه العقود سقف ، وفي هذا الحان الذي يقوم في نفس الوقت بوظيفة المصنع والسوق ، كانت تحاك الثياب وتباع بالحملة على التجار (١) لتوزيعها . أما خان المصريين الذي ما يزال يستخدم حتى اليوم مخزنا ، فقد أقيم فيما بين عامي ٧٠٩ هـ و٧٥٦ هـ . وتلدور غرفه حول صحن مركزي مستطيل الشكل ، ويعلمو الغرف قبوات نصف أسطوانية عمودية على الصحن .

وخان العسكري يرجع تاريخ بنائه إلى أواخر عصر دولة المماليك البحرية ، وقد استخدمه المماليك ككنة عسكرية فسي بذلك الاسم . ويتكون الحان من مجموعتين من البناء تدور كل منهما حول صحن مستطيل بداخله حوض للسقاية ، ويفتح على الصحن أبواب معقودة ، عقودها منكسرة من النوع الشائع في عمارة المماليك . وأهم العناصر المعمارية بالحان بواباته بعقودها المدببة ذات السنجات الزنبقية .

وأهم أسواق طرابلس المملوكية سوق الحراج ، ويقع الى الجنوب الشرقي من شارع الصاغة ، وهو سوق تعلوها قبوات متعارضة ترتكز على

Bruce Condé, op. cit. p. 87 (١)

١٤ عمودا جرانيتية ضخمة ، لاثيجان لها ، ويرجع بعض المؤرخين تاريخ بناء هذا السوق الى عصر المماليك، بينما ينسبه الآخرون الى العصر الصليبي . ويغلب على الظن أن هذا السوق أُقيم في مكان كانت تشغله كنيسة ، واستخدمت بعض أعمدتها وعقودها في اقامة هذا السوق .

• • •

وبعد فهذه الدراسة موجزه عن تاريخ وآثار مدينة طرابلس، قلعة العروبة في الشام، وصرحها المنيع ، وهذه الدراسة أقرب الى أن تكون تعريفا بالمدينة والدور الذي لعبته في العصر الاسلامي، والصلات التاريخية والفنية الوثيقة التي تربطها بمصر ، منذ أن حررتها الجيوش المصرية بقيادة الملك المنصور قلاوون . وشخصية المدينة المملوكية تنطبع في شوارعها الضيقة وأزقتها المتعرجة التي تعلوها الأقواس والحنايا. وفي قباب المدينة ومآذنها الرشيقة ، وفي أسواقها وخاناتها وحماماتها التي ما تزال تقوم بوظائفها حتى اليوم .

## المراجع

### ١ - المراجع العربية القديمة

- ١ - ابن الأثير (عل بن أحمد) : التكمال في التاريف ، ١٢ ج ، بولاق ١٢٩٠ هـ .
- ٢ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد) الرحلة ، طبعة بيروت ١٩٦٠
- ٣ - ابن قسرى بردى (أبو المغاسن) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٧ طبعة القاهرة ١٩٣٨
- ٤ - ابن شاهين الظاهري (غرس مائدين خليل) : زبدة كشف المأثك وبين الطرق والمسالك ، بول رافيس باريس ١٨٩٤
- ٥ - ابن القلابى (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٠٨
- ٦ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ج ٣ نشره الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٠
- ٧ - أبو انقدا (اسماعيل بن علي عماد الدين) : المختصر في أخبار البشر ، القسطنطينية ١٢٨٦ هـ
- ٨ - أبو شامة (عبد الرحمن بن اسماعيل) : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين طبعة مصر ١٢٨٨ هـ
- ٩ - الأملطرى (أبو اسحق فارس) : مسالك الممالك ، ليدن ١٩٢٧
- ١٠ - الاصفهاني (عماد الدين) : كتاب انفتح القس في الفتح القس ، نشره كارلو دي لانديرج تحت عنوان "Conquête de la Syrie et de la Palestine" ليدن ١٨٨٨
- ١١ - البلاغى (أحمد يحيى) : فتوح ابلدان ، القمم الأول ، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٢ - المنقضى (شمس الدين أبو عبد الله محمد) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦
- ١٣ - اليعقوبى (أحمد أبو يعقوب بن جعفر) : كذب البلدان ، ليدن ١٨٩١
- ١٤ - صالح بن يحيى : تاريخ بيروت ، نشره الأب لويس شيخو ، بيروت ١٨٩٨
- ١٥ - ناصر خسرو علوى : سفرنامه ، ترجمة الدكتور يحيى المشاب ، القاهرة ١٩٤٥

### ٢ - المراجع العربية الحديثة

- ١٦ - البابا (الشيخ كامل) : من آثار التاريخ الطرابلسى ، حديث بمجلة الارشاد الاجتماعى العدد ٢٧ ، طرابلس ١٩٦٢

- ١٧ - ابراهيم أحمد العموي (دكتور) : العولة الاسلامية وامبراطورية انروم ، القاهرة ١٩٥٨
- ١٨ - البستاني : دائرة معارف البستاني ، مادة طرابلس .
- ١٩ - حسن أحمد محمود (دكتور) : مصر في عصر الطولونيين ، القاهرة ١٩٦٠
- ٢٠ - دراج (دكتور أحمد) : جرم سلطان و دبلوماسية اندولية ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ١٩٥٩
- ٢١ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : بعض التأثيرات الاندولية في الهارة المصرية الاسلامية ، المجلة العدد ١٢ ديسمبر ١٩٥٧
- ٢٢ - ... : المآذن المصرية ، نظرة عامة من أصلها وتطورها ، القاهرة ١٩٥٩
- ٢٣ - ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١
- ٢٤ - الشياك (دكتور جمال الدين) : وحدة مصر وسورية في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٥٨
- ٢٥ - عاشور (دكتور سيد عبد الفتاح) : قبرص والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧
- ٢٦ - ... : مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩
- ٢٧ - فيليب حتى (دكتور) لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فرجة والدكتور نقولا زيادة ، بيروت ١٩٥٩
- ٢٨ - ... : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين في جزأين ، ترجمة الدكتور جورج سداد ، بيروت ١٩٥٨
- ٢٩ - كردعل (الأستاذ محمد) : خطط الشام ، ج ٦ ، دمشق ١٩٢٨

### ٣ - المراجع الأوروبية القديمة والحديثة

- ٣٠ - بنيامين انتطيل : رحلة بنيامين الطليل ١١٦٠ - ١١٧٣ ، نشرها أجناتيو جنتات مدريد ١٩١٨
30. *Viajes de Benjamin de Tudela*, Traducidos por Ignacio Gonzalez L. Liubera, Madrid, 1918.
- ٣١ - بيل (ف) : دائرة المعارف الاسلامية ، مادة طرابلس
31. *Buhl (fr) : Encyclopedia of Islam, Art. Terabuls.*
- ٣٢ - كلتي (بروس) : طرابلس لبنان ، بيروت ١٩٦١
32. *Comde (Bruce) : Tripoli of Lebanon, Beirut, 1961*
- ٣٣ - هايد : تاريخ بحارة اشرق ، ج ٢ ، ليزر ١٨٨٥
33. *Heyd : Histoire du Commerce du Levant, t. II, Leipzig 1885.*

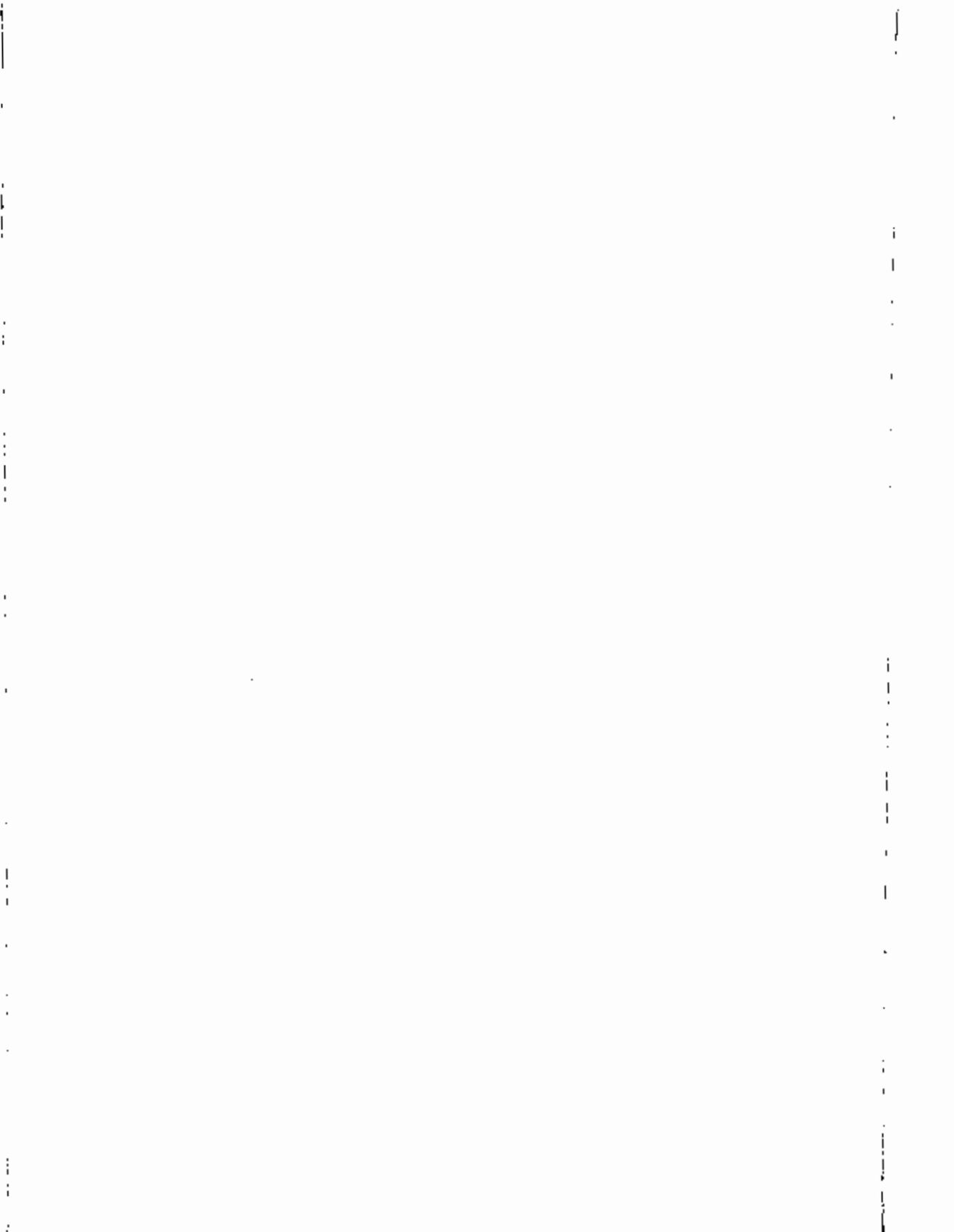
- ٣٤ - تقرير لجنة اليونسكو الى لبنان : عضوية الأستاذة بول كويار ، والأمير موريس شهاب وأرمانيو ديلون ، اليونسكو ، باريس ١٩٥٤
34. *Rapport de la mission envoyée par l'Unesco en 1953 au Liban*, membres : Mrs. Paul Collart, Emir Maurice Chehab et Armando Dillon, publié sous le titre: Liban, aménagement de la ville de Tripoli et du site de Baalbek, Paris 1954.
- ٣٥ - سوفاجيه (جان) : ملاحظات عن الدفاع عن ميناء طرابلس في مجلة متحف بيروت ، باريس ١٩٣٨
35. *Sauvaget (J.) : Notes sur les defenses de la marine de Tripoli*, dans, Bulletin de la musée de Beyrouth, Paris, Décembre 1938
- ٣٦ - سوبرنهايم (موريتز) : النقوش العربية في سورية الشمالية ، في معجم الكتابات العربية ج ٢٥ ، ١٩٠٩
36. *Sobornheim (Moritz) : Corpus Inscriptionum Arabicarum*, t. XXV, 1909.
- ٣٧ - فان برشم (ماكس) ، وفاتير (أدمون) : رحلة الى سورية نشرت في مذكرات المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ، عدد ٣٧ ، القاهرة ١٩١٤
37. *Van Berchem (M.) & Fatjo (E.) : Voyage en Syrie*, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37 le Caire, 1914.







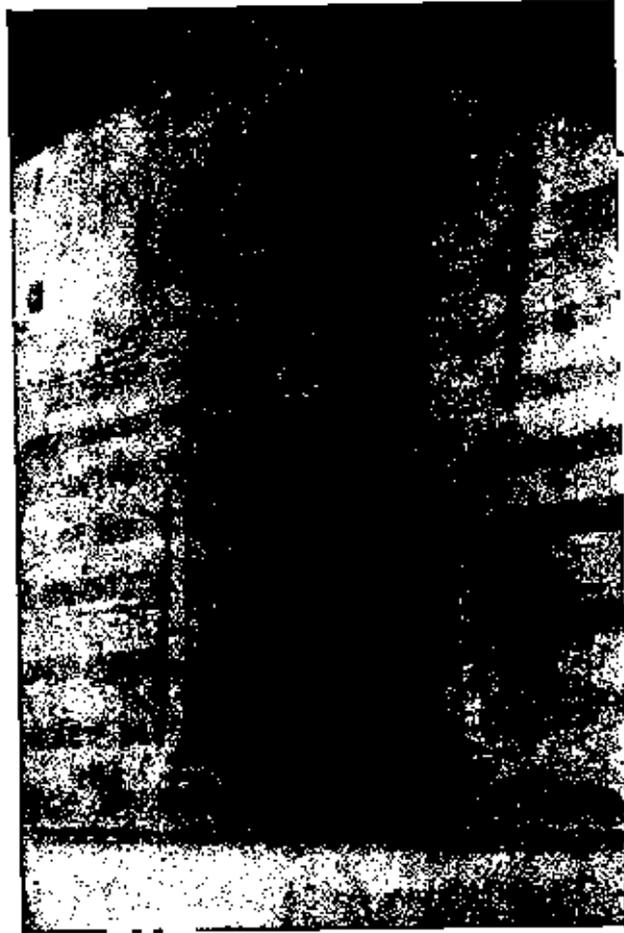






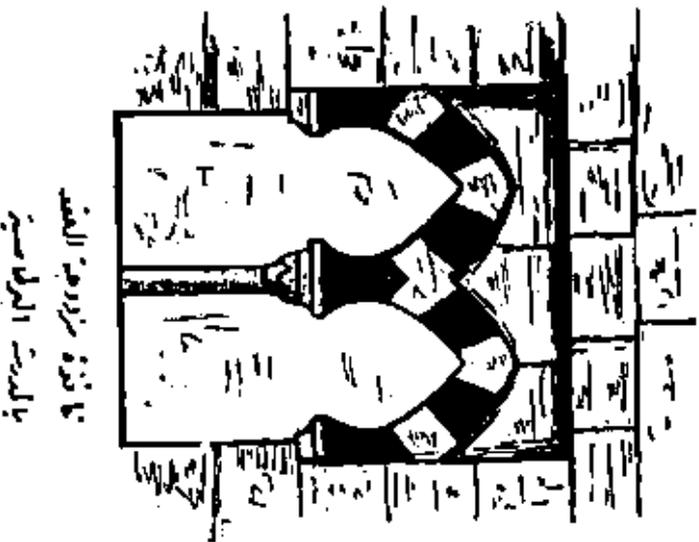
الجامع الكبير بطرابلس وترى المنقذة في الجهة الشمالية



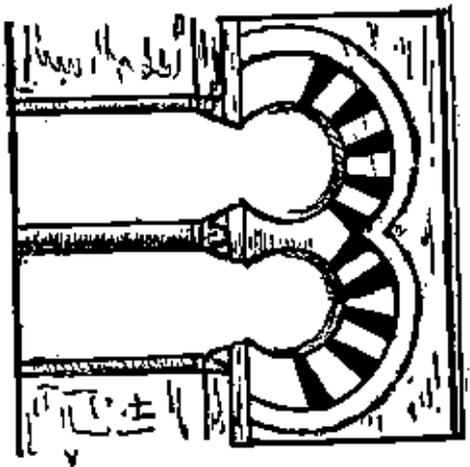


وأجهة المدخل بالدمرة القرطانية





نافذة مزودة اللغز  
بالدست المرطبة



نافذة مزودة اللغز بأمدى  
بباعت السهم البيع بقطعة



نافذة بجاء المرز





مسجد حیات، و حیات المکرومی





مشقة المنصور قلاوون وبجوارها مشقة الناصر محمد والنحاسين





قبة صانجيل طرابلس



اشبيلية : برج الذهب (من عصر المرحدين)  
وترى العقود المتجاوزه المتكسرة والعقود المقصصة





منظر عام للقلمة صنعيا





قلعة جيل





برج السباع : واجهة المنزل





خان القيامين



## اختلاف العراقيين والمدنيين

### في تقدير الصاع النبوي

للمكتوب عبر المسمى الحسيني

تذكر المصادر الفقهية أن أبا حنيفة وأصحابه قد خالفوا أهل المدينة في تقدير الصاع الذي تعرف به زكاة الحرث وصدقة الفطر وكفارة اليمين وفدية المناسك . فذهب أبو حنيفة وأصحابه إلى أن مُدَّ النبي صلى الله عليه وسلم رطلان بالرطل البغدادي، وأن الصاع النبوي ثمانية ، بينما يقرر أهل المدينة أن مُدَّ النبي صلى الله عليه وسلم رطل وثلث بالبغدادي ، وأن الصاع خمسة أرباط وثلث الرطل (١) . وكان من نتيجة هذا الخلاف بين المتقدمين أن امتد هذا الاختلاف إلى المتأخرين من الفقهاء في تقدير نصاب زكاة الزرع وزكاة الفطر . فذهب المالكية والشافعية إلى أن نصاب زكاة الزرع - وهو ثلاثمائة صاع - يعادل بالكيل المصري أربعة أرباب وكيلتين . إذ أن الصاع في تقديرهم قدح وثلث . وذهب الحنابلة في تقدير هذا النصاب إلى أنه ألف وأربعمائة وثمانية وعشرون رطلاً مصريةً وأربعة أسياع رطل (٢) . أما في زكاة الفطر فقد ذهب الأحناف إلى أن الصاع - الواجب إخراجه عن كل فرد - قدحان وثلث بالكيل المصري أو ثمانية أرباط بالرطل البغدادي الذي هو مائة وثلثون درهماً . بينما ذهب المالكية إلى أن هذا الصاع يقدر بقدح وثلث بالكيل المصري . أما الشافعية فقد قدروا هذا الصاع بثلحين بالكيل المصري (٣) . وكذلك كان هذا الصاع موضع خلاف بين العلماء على مدى العصور فقلبه القمولى المتوفى سنة ٧٢٧ هـ - وقد كان رئيساً

(١) ابن حزم : المحلى ج ٥ : ٢٤١

(٢) الفقه على المذاهب الأربعة : باب زكاة الزرع والتجارة .

(٣) المصدر السابق : باب صدقة الفطر .

لدار العيار في مصر - بقدحين مصريين ؛ بينما قدره السبكي بقدحين الاسباع ؛  
كما حاول ابن الرفعة المتوفى سنة ٧١٠ هـ - وقد كان رئيساً لدار العيار  
كذلك - أن يحرر عيار هذا الصاع فحرره على عيار انصاع المخفوظ  
بدار الحسبة في مصر والذي كان قد عمل في سنة ٥٧١ هـ وكان عياره بنماء  
الصافي يعادل مازنته ثلاثمائة وسبعة وثلاثون درهماً (١) .

أما أساس هذا الاختلاف فيرجع الى مخالفة أهل انكوفة لأهل المدينة  
في تقدير المد والصاع النويين . فقد ذهب ابراهيم النخعي فيما يرويه عنه  
الحجاج بن أرطاة عن طريق الحكم الى أن : « صاع رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ثمانية أرطال ومده رطلان » (٢) فقد كان قول ابراهيم هذا - في مد  
النبي وصاعه أساس قول أبي حنيفة وأصحابه .

وإذا كان ابراهيم النخعي قد سبق أبا حنيفة وأصحابه فيما ذهبوا اليه في تقدير  
المد والصاع الا أننا لا نستطيع أن نتبين طريقة - التي توصل بها الى تقرير  
رأيه - من طريقة من تابعة في هذا القول ثم سمى في تأييده والاحتجاج له .

والطريقة التي توصل بها أصحاب هذا الرأي الى تقرير مذهبهم هي  
أنهم توصلوا عن طريق المعلوم المبيّن الى الكشف عن المبهم الغائب .  
فوجدوا أن الآثار الصحيحة تقرّر أنه صل الله عليه وسلم كان يتوضأ بالمد  
ويغتسل بانصاع ، كما وجدوا أن هناك طائفة أخرى من الآثار تقرّر  
أنه صل الله عليه وسلم كان يتوضأ برطلين ويغتسل بثمانية أرطال ، كما وجدوا  
أن هناك طائفة ثالثة قد تكون في نفس هذا المعنى وان لم تكن نصاً فاستخلصوا  
من ذلك أن المد يعادل رطلين وأن الصاع يعادل ثمانية وهو يتفق مع ما قرره  
ابراهيم النخعي من قبل .

(١) الففكر : رسالة في المقاييس والمكاييل ص ١٠

(٢) أبو عبيد : الأمواك ص ٥١٨ ، ابن حزم : المحل ص ٥ : ٢٤٣

أما الطائفة الأولى من الآثار فهي (١) :

١ - عن اسماعيل بن ابراهيم عن أبي ريحانه عن سفيينة قال :  
« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل بالصاع ويتطهر بالمد » -  
قال اسماعيل : أو قال : « ويطهره المد » .

٢ - عن علي بن عاصم عن يزيد بن أبي زياد عن سالم بن أبي الجعد  
عن جابر بن عبد الله قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل  
بالصاع ويتطهر بالمد » .

٣ - عن يزيد عن هشام عن قتاده عن صفية عن عائشة قالت :  
« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ بقدر المد ويغتسل بقدر الصاع » .

وأما الطائفة الثانية من الآثار فهي :

١ - عن شريك بن عبد الله النخعي عن عبد الله بن عيسى عن عبد الله  
بن جبر عن أنس بن مالك : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان  
يتوضأ برطلين » ويروى ابن حزم هذا الحديث بلفظ « عن أنس بن مالك  
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجزىء في الوضوء رطلان »

٢ - عن شريك بن عبد الله النخعي عن موسى بن عبد الله الجهني  
قال : « أتيت مجاهدًا ببناء يع ثمانية أرطال فقال حدثتنا عائشة أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم كان يغتسل بمثل هذا »

٣ - عن يحيى بن سعيد عن موسى بن عبد الله الجهني قال : « كنت  
عند مجاهد فأتني ببناء يع ثمانية أرطال أو تسعة أو عشرة فقال : قالت  
عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يغتسل بمثل هذا »

٤ - عن مجاهد عن عائشة قالت : والله إن كنت لأغتسل أنا ورسول  
الله صلى الله عليه وسلم من الحنابة بصاع من ماء جميعاً »

(١) الآثار الواردة في هذه الطائفة وكذلك في الطائفتين التاليتين مشفرة بما يكفل بعضها  
بعضاً من أبي عبيد : الأموال ص ٥١٤ وما يليها وابن حزم : المحل ج ٥ ص ٢٤١ وما يليها

وثالث . وعند أبي حنيفة وأصحابه فإن مضمون هذه الآثار محدّ حدىً واحداً للوضوء وهو قدر المد أو رطلان كما محدّ حدىً واحداً لغسل الجنابة وهو قدر الصاع أو نحو ثمانية أرطال . وعند أهل المدينة فإن مضمون هذه الآثار محدّ حدين لكل من الوضوء والغسل كانا يدوران بينهما .

أما بالنسبة لى فإن لا أرى المائة موضع خلاف . فإذا أمعنا النظر فى هذه الآثار وجدنا أن الخلاف الذى وقعت فيه المدرستان خلاف ظاهرى فقط . فالمد بالنسبة لأهل المدينة رطل وثلاث والصاع بالنسبة لهم خمسة أرطال وثلاث . وهذا المد وهذا الصاع هما كيلان للحبوب فإذا كيل بهما الماء كان قنبر المد الذى يزن من الحبوب رطلاً وثلاثاً يعادل ما زنته رطلان وذلك للفرق بين كثافة كل من الحب والماء . وكذلك فإن حجم الصاع يسع من الحب ما زنته خمسة أرطال وثلاث الرطل ، ويسع من الماء ما زنته ثمانية أرطال - فأهل المدينة حين يعينون مقدار المد أو الصاع إنما ينصرف ذهابهم الى مقدار ما يسعه كل منهما من الحبوب . والآثار التى تذكر مسألة الوضوء وغسل الجنابة وتحدد مقدار كل من المد والصاع إنما تحدده دون شك بمقدار ما يزنه حجم كل منهما من الماء . فالمسألة فى حقيقتها لا تنطوى على شيء من الخلاف . فالمد النبوى يزن من الحبوب - كما قدره أهل المدينة - رطلاً وثلاثاً ويوزن من الماء - كما قدره الآثار السابقة - رطلين من الماء . وصاع النبي صلى الله عليه وسلم وهو أربعة أمداد يزن من الحبوب - كما قدره أهل المدينة - خمسة أرطال وثلاثاً ويوزن من الماء - كما قدره الآثار التى نقلت ذلك - ثمانية أرطال من الماء . فلا خلاف اذن بين هذه الآثار جميعاً . فجميعها متفق لاخلاف بينها .

والفرق بين كثافة الحب وكثافة الماء نستطيع أن نتيقنه اذا علمنا أن الأردب المصرى يسع ١٩٨ لتراً فحجمه على وجه التحديد ١٩٧,٧٤٧٧ لتراً . والأردب من التمتع يزن ١٥٠ كيلو جراماً تقريباً والأردب من الشعير يزن ١٢٠ كيلو جراماً تقريباً فتكون النسبة بين كثافة التمتع وكثافة الماء هى النسبة بين ١٥٠ : ٢٠٠ تقريباً . كما تكون النسبة بين كثافة الشعير وكثافة الماء هى

النسبة بين ١٢٠ : ٢٠٠ تقريباً أو بعبارة أخرى تكون نسبة وزن القمح الى الماء ٣ : ٤ ونسبة وزن الشعير الى الماء ٣ : ٥ فاذا كان المد - على تقدير أهل المدينة - يزن رطلاً وثلاثاً من القمح فان نفس هذا الحجم يسع من الماء ما زنته رطل وسبعة اصاع الرطل . واذا كان المد على تقدير أهل المدينة يزن رطلاً وثلاثاً من الشعير فان نفس هذا الحجم الذى يتسع لنفس هذا الوزن يسع من الماء ما زنته رطلان وتسعاً رطل . فاذا خلطنا القمح بالشعير بنسبة متساوية كان الحجم الذى يتسع لرطل وثلاث من مخلوط الشعير والقمح يتسع لرطلين من الماء تماماً . وكان الصاع وهو أربعة أمداد يتسع لثمانية أرطال من الماء تماماً . والملاحظ في تقدير وزن المد أو الصاع من الحبوب هو الحبوب في حملتها وبصورة أخض البر والشعير لا أحدهما خاصة .

فضمون هذه الآثار صحيح لاجدال فيه قائم يعادل ما زنته رطلان من الماء والصاع يعادل ما زنته ثمانية وذلك بالرطل البغدادي . وهذا هو ما تعنيه هذه الآثار ولا تعنى غيره . ولكن هل فهم ابراهيم النخعي هذا المعنى ؟ وهل كان الذى يقصده - حين حدد مد الرسول عليه السلام برطلين وصاعاً بثمانية - هو الماء كما تعنيه هذه الآثار أو أنه أخطأ المعنى وقصد الحبوب ؟ أما عن ابراهيم النخعي صاحب القول الأول في هذا الشأن فليس لدينا ما يحدد لنا ما الذى كان يقصده ؛ هل هو الماء كما تعنى الأحاديث أو الحبوب ، ولكن المؤكد أن ما نثار من الجدل حول موقف أبي حنيفة وأصحابه في هذا الشأن ومن أن أبا يوسف حين دخل المدينة ووقف على امداد أهلها رجع عن قوله وأخذ بتحديد أهل المدينة (١) بين لنا أن أبا حنيفة وأصحابه كانوا يقصدون - في تحديدهم - الحبوب دون الماء . ومن هنا كان خلافهم مع أهل المدينة وكان خطوهم في التحديد اذ أخطأوا المعنى الذى تضمنته الآثار . ولكن كيف نشأ هذا الخطأ ؟

(١) ابن حزم - المحل - ص ٢٤٦ - أبو عبيد : الأموال ١٩٠ هـ

١ - كان شريك بن عبد الله القاضي يقول : « الصاع أقل من ثمانية أرتال وأكثر من سبعة » هذا مع ما هو معروف من أن الهجاشي ربع الهاشي وهو ثمانية أرتال .

فالصاع الذي يعنيه أهل الكوفة هو صاع عمر ، نارة يقولون عنه « الصاع » بال العهد فحسب ، ونارة يقولون عنه قفيز عمر . كما أن الهجاشي هو صاع الهجاج أو قفيز الهجاج .

أما صاع عمر رضي الله عنه أو على الأصح قفيز عمر فلم يكن هو صاع النبي صلى الله عليه وسلم وتاريخ هذا الصاع يرجع الى اصلاحات عمر الاقتصادية في العراق حين أحس متاعب العراق الاقتصادية خاصة فيما يتعلق بالنقد ، وتلخص هذه الاصلاحات في أنه رفع قيمة الدرهم - وهو نقد العراق - وذلك بتقليل وزنه والاحتفاظ بقوة الشرائية ، كما أنه زاد في سعة مكيال الحبوب بالعراق وهو القفيز . فقفيز عمر - اذن - هو قفيز كان قد رتبته للعراق وهو أكبر من سابقه وقد كان هذا القفيز يعرف عندهم بصاع عمر أيضاً (١) وقد كان يجبي عن كل جريب درهما وقفيزاً قفل وزن الدرهم وزاد في القفيز بقدر ما نقص من الدرهم فاحتفظ بقيمة الحراج الاحمالية وان كان قد زاد مقدار ما يجبي عينا - أي من الحبوب - وقل مقدار ما يجبي نقدا - أي من الدراهم - وأرخص الأقوات اذ كان القفيز يساوي درهما في كلتا المرحلتين . وصار الدرهم العمري الحديد وهو أقل وزنا من الدرهم القديم يشتري من الحبوب قدراً أكبر مما كان يشتريه الدرهم القديم . أما نسبة هذه الزيادة فلا نستطيع أن نعلمها على وجه التحديد غير أننا اذا فرضنا أن الدرهم القديم هو البغلي أو الواقي وهو ثمانية دوانق ودرهم عمر ستة دوانق تكون نسبة تخفيض وزن الدرهم ورفع قيمته هي نسبة ٤ : ٣ فاذا كانت هذه النسبة هي نفس النسبة التي راعاها في تكبير حجم القفيز

(١) فصلنا ذلك في بحثنا : A. M. El-Housseini : The Umayyad Policy in Khorasan :

and its Effect on the Formulation of Muslim Thought P 11.

يكون القفيز القديم - إذا كان قفيز عمر ثمانية أرتال - يكون ستة أرتال فقط . وإذا كان قفيز عمر أقل من ثمانية وأكثر من سبعة يكون القفيز القديم قريباً من صاع المدينة أو صاع النبي الذي هو خمسة أرتال وثلاث . فإذا صححت هذه النسبة يكون الصاع القديم الذي أجرى فيه عمر التعديل هو صاع المدينة أو صاع النبي إذ لم يكن العراق يعرف صاعاً آخر قبل صاع عمر . ومقدار هذه النسبة وهذا التعديل يؤيدها كذلك نصاب الزكاة . فنصاب زكاة الزرع ثلاثمائة صاع ونصاب زكاة الفضة مائتا درهم أي أن الدرهم يعادل صاعاً ونصفاً من صاع النبي . فإذا كان عمر رضى الله عنه قد تحرى أن تكون الأسعار بالعراق مثل أسعار المدينة - والدرهم كان يعادل في قيمة قفيزاً وفق التعديل الجديد - يكون هذا القفيز الجديد قدر صاع ونصف من كيل المدينة أو صاع النبي (١) . وعلى كل حال سواء سُلم لنا ما ذهبنا إليه - في نسبة تكبير حجم القفيز أو الصاع - أو لم يسلم فإن المؤكد الذي لا جدال فيه هو أن صاع عمر أو قفيز

(١) يبدو أن قيمة النقود من الذهب والفضة كانت تحدد على أساس قرنها الشرائية وكيفية نسبة أحد الطرفين إلى الآخر وأن مدار تحديد القيمة كان الإنتاج الزراعي من الأدوات خاصة كما كان الإنتاج الحيواني من الإبل ثم البقر والغنم . وقد ثبت ذلك من تحديد نسبة زكاة الحرث وزكاة المال وزكاة الناقة كما ثبت أيضاً أن عمر رضى الله عنه كان في تشريعاته وإصلاحاته يراعى دائماً هذه النسبة . ففي جانب مراعاته طهه النسبة في تخفيض وزندرم العراق وتكبير حجم القفيز نجد أنه قد رأى ذلك في أدبه أيضاً لما ينقله ابن حزم (المجلد ٦ : ٧١٠) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن دية الخطأ التي قضى بها رسول الله صل الله عليه وسلم مائة من الإبل - على أهل الإبل - ومائتا بقرة - على أهل البقر - والفاشاة - على أهل النشاء - وقد كانت قيمة هذه الدية على عهد رسول الله صل الله عليه وسلم - كما يروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده - ثمانمائة دينار أو ثمانية آلاف درهم . فلما استخلف عمر رضى الله عنه وكانت قيمة النقود قد تغيرت قام خطيباً ففرس الندية على أهل الذهب الفضة والبرق والدرهم وحل أهل البرق مائتي بقرة وعلى أهل النشاء نفق شاة ، ويروى كذلك أبو عبيد (الأموال ٥١٩) عن النافع عن أسلم أنه أن عمر ضرب الجزية على أهل الذهب أربعة دنانير وأرزاق المسلمين من الخطة مدينين وثلاثة أنساط زيت لكل إنسان كل شهر وعلى أهل النوق أربعين درهماً وخمسة عشر صاعاً لكل إنسان . ولا أحفظ ما ذكر في النوهك ويعلق أبو عبيد : « فنظرت في حديث عمر هذا فإذا هو قد عدل أربعين درهماً بأربعة دنانير لأن أصل الدنانير أن يعدل الدينار بمشرة دراهم وكذلك عدل مدينين من طام بخمسة عشر صاعاً وجعلها موازية لها »

عمر هو غير صاع النبي وهو أكبر منه سواء كانت نسبة التعديل التي أجراها  
عمر هي نفس هذه النسبة التي ذهبنا إليها في اختلاف صاع عمر أو قفيز  
عمر عن صاع النبي أو صاع المدينة . فلما غاب عن مدرسة الكوفة تاريخ  
صاع عمر أو قفيزه فقد ظنوا - تحت تأثير ما كان يجري عليه العمل  
في بلادهم - أن صاع عمر هو نفس صاع النبي ومن هنا كان سبب الخطأ  
في تقدير قيمة الصاع النبوي .

أما عن تاريخ الصاع في العراق - بعد ذلك - فإذا تركنا صاع  
الحجاج الذي يقارب صاع عمر أو يساويه نجد أن البخاري بسند إلى السائب  
ابن يزيد (١) : قال : كان الصاع على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
مداً وثلاثاً بمدكم اليوم فزيد فيه في زمن عمر بن عبد العزيز فوجد أن العراق  
قد عرفت كذلك صاعاً آخر - إذا حسب على أساس ماورد في هذا الخبر يقين  
أنه كان يزن ستة عشر رطلاً عراقياً من الحبوب . وكان مد هذا الصاع  
زنة أربعة أرطال من الحبوب، وربما كان هذا المد هو المعنى في بعض الأخبار  
الماضية التي ذكرناها في تقدير ماء وضوئه صلى الله عليه وسلم وغسله، والتي  
يرد فيها أن عائشة رضيت الله عنها أخبرت أنها ورسول الله صلى الله عليه وسلم  
كانا يغتسلان من اناء واحد يسع ثلاثة أمداد . فتلاثة أمداد بهذا المد الكبير  
هي زنة اثني عشر رطلاً من الحب أو زنة ستة عشر رطلاً من الماء . وربما  
كان التقدير على هذا النحو - بثلاثة أمداد - من تقدير الليث - حين روى هذا  
الخبر - فقدر الماء بقدر المد الكبير المعروف في وقته ثم احتاط في تقديره بقوله  
أو قريباً من ذلك .

وهذا الصاع الحديد الكبير وما يتفرع عنه من مد والذي عرفته العراق  
قد عرفته المدينة أيضاً . ولذا نجد أن مالكاً - فيما يروى عنه - قد قال في  
مكيلة زكاة الفطر بالمد الأصغر مد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنه  
أيضاً في زكاة الحبوب والزيتون بالصاع الأول صاع رسول الله صلى الله عليه

(١) ابن حزم : المحل ج ٥ ص ٢٤٣

وسلم . كما يروى عن ابن عمر أنه كان يعطى زكاة النعتر من رمضان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم المد الأول . غير أن المقصود بالمد الأول أو الصاع الأول - عند أهل المدينة - هو مد الرسول صلى الله عليه وسلم وصاعه . أما عند أهل العراق من اتباع أبي حنيفة فقد ظنوه صاع عمر . أما من تابع أهل المدينة من أهل العراق فقد أدرك أن الصاع الأول هو صاع النبي صلى الله عليه وسلم وذلك مثل ابن حنبل الذي يروى عنه أن ابنه عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : ذكر أبي أنه سأل مد النبي صلى الله عليه وسلم بالخطبة فوجدها رطلا وثلاثين في البر . قال : ولا يبلغ من التمر هذا المقدار (١) .

وإذا انتهينا من تمييز مد النبي وصاعه عن غيرهما من المكاييل التي كانت تحصل نفس اسميهما وكانت معروفة في العراق والمدينة وبيننا نسبة كل منها إلى مد النبي وصاعه يجب علينا أن نعرض للمكاييل الأخرى التي عرف مقدارها والتي كانت النسبة بينها وبين صاع النبي معروفة وذلك لتسقين صحة ما ذهبنا إليه في تقدير صاع النبي بالجوب وبالماء . وقد عرف من هذه المكاييل الفرق والقسط . أما الفرق فيقولون إنه ثلاثة أصع وأما القسط فهو نصف الصاع . والفرق ستة أقساط كما أنه ستة عشر رطلا . والصاع خمسة أرطال وثلاث .

أما إذا كان الفرق مكيالا للجوب فهو ثلاثة أصع ولا اعتراف عن ذلك فسته عشر رطلا هي ثلاثة أمثال خمسة أرطال وثلاث . وأما إذا كان الفرق مكيالا للسوائل فإن حجم الفرق الذي يبع من الماء مثلاً مازنه ستة عشر رطلا لا يمكن أن يقع لمقدار من الجوب زنته نفس هذا المقدار بل غاية ما يتبع له هو صاعان فقط أو أكثر قليلا تبعا لنوع الجوب . والذي يفهم من الآثار التي يذكر فيها فدية المناسك أن الفرق مكيال نجوب والتموت فقد كان سفيان بن عيينة يحدث عن أيوب عن مجاهد عن عبد الرحمن ابن أبي ليلى عن كعب بن عجرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له - وذلك

(١) ابن حزم : المحل ج ٥ : ٢٤٥

في فدية نسكة - «أطعم ستة مساكين: فترقا من طعام» وفي رواية عن الشعبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن عُجْرة : هل معك من دم ؟ قال : لا . قال : فإن شئت فصم ثلاثة أيام وإن شئت فتصدق بثلاثة أصع تمرأ بين ستة مساكين ، لكل مسكين نصف صاع واحلق رأسك . فيتضح من هذا أن الفرق مكيال للطعام وربما كان للتمر خاصة وأنه قد كان قدر ثلاثة أصع . فتقدير الفرق بستة عشر رطلا لم يلحظ فيه زنته من الماء أو السوائل وإنما المقصود بهذا التقدير هو زنة الطعام وربما زنة التمر فلا يمكن بحال أن يكون الفرق إذا عير بالماء يزن ستة عشر رطلا ولكن يزن أكثر من ذلك . والخبر الذي يرويه ابن شهاب الزهري ويذكر فيه الفرق ويحدد مقداره بقوله «وذلك اليوم نحو خمسة أمداد» يحدد لنا مقدار الفرق . فالمد الذي يعنيه الزهري بقوله «اليوم» هو مد غير المد الأول فربما كان المد الذي يعنيه هو مد التقير الحجاجي الذي كان شائعاً في ذلك الوقت أو مد الصاع الذي رتبته عم بن عبد العزيز أو مد المكوك - وهو الملمج أيضاً - الذي شاع استعماله بعد ذلك وغلب على جميع المكايل في العراق . أما مد التقير الحجاجي فهو رطلان، فيكون الفرق الذي يعنيه الزهري - على هذا التقدير - عشرة أرطال من الحبوب وزنة ما يعادل حجمها من الماء حوالي ثلاثة عشر رطلا وثلاث الرطل . وأما صاع عمر بن عبد العزيز فله قدر أربعة أرطال من الحبوب فيكون الفرق على هذا التقدير عشرين رطلا من الحبوب وزنة ما يعادل حجمها من الماء هو ضعف التقدير السابق تماماً أي ستة وعشرون رطلا وثلاث رطل . وأما المنجم أو المكوك - وهو صاعان ونصف بصاع المدينة الأول - فيكون الفرق على هذا التقدير اثني عشر مداً ونصف المد عند المدينة الأول وهو تقدير يوافق التحديد المعروف للمد بثلاثة أصع أي اثني عشر مداً إذا أخذنا في اعتبارنا كلمة «نحو» التي وردت في تقدير الزهري ويكون ما يعادل حجم ذلك من الماء هو وزن واحد وعشرين رطلا وثلاث الرطل . فأى هذه المكايل الثلاثة كان يقصد إليه الزهري في تقدير الفرق ؟

الفرق كذلك يساوى ستة أقساط والصاع قسطان فلا خلاف في أن القسط كان رطلين وثلاثي رطل . ولكن انقسط مكيال من مكاييل السوائل والزيت خاصة فلا يمكن أن يكون حجم انقسط حجم مازنته رطلان وثلاث رطل من الماء أو الزيت ويكون في نفس الوقت حجم ما يساوى نفس هذا الوزن من الحبوب . وأغلب الظن أن الذي كان يعنيه من رروا النسبة بين الصاع وانقسط وأنه نصف صاع أنهم كانوا يعنون ما يتبع له من الحبوب فيكون حجمه يتبع لما زنته ثلاثة أرطال وخمسة اتساع الرطل من الماء (١) . أو ثلاثة أرطال الا قليلا من الزيت . فيكون حجم الفرق حجم ما زنته واحد وعشرون رطلا وثلاث الرطل من الماء أو ما زنته سبعة عشر رطلا من الزيت تقريبا .

فإذا كان الفرق مكيالا للطعام وقد نسب الى القسط في تقدير وزن حجمه والقسط مكيالا للزيت خاصة وهو يزن من الزيت سبعة عشر رطلا تقريبا - وقد احتاط الزهرى في تقديره بكلمة نحو - فيكون الزهرى قد قصد في تقديره إلى مد الصاع الملحم أو المكوك كما لحظ في زنته ما يكال بالقسط وهو الزيت فيكون سبعة عشر رطلا من الزيت تقريبا أو ستة عشر رطلا من الطعام ولا يكون وزنه من الماء الا أكثر من عشرين رطلا . وهنا نجد أن الذين غفلوا عن فرق النسبة بين كثافة وزن الحب وكثافة وزن الماء قد اخطأوا حين ظنوا أن المقصود بسنة عشر رطلا هو الماء وفهموا أن مقدار الاغتسال المقصود في هذا الخبر هو ثمانية أرطال لكل من النبي صلى الله عليه وسلم وأم المؤمنين ورضي الله عنها .

نخرج من كل ذلك بأن مد النبي صلى الله عليه وسلم كان حجمة يتبع لما زنته رطل وثلاث من الحبوب بالرطل البغدادي أو ما زنته رطلان من الماء .

(١) هذا التقدير الذي اتبينا عليه بالحساب يقارب الى حد كبير ما ذكره الجرد عن تقدير القسط فهو عنده اربعمائة وواحد وثمانون هرما أى حوالي ثلاثة أرطال ونصف ومعنى ذلك أن الفرق على هذا التقدير يكون واحدا وعشرين رطلا وهو موافق أيضا لتقديرنا لوزن ما يسمه الفرق من الماء . وتقدير الجرد نقسط قد نقله عنه جواد على في تاريخ العرب قبل الاسلام

والصاع أربعة أمثال ذلك . وانفترق اثنا عشر سداً وهو ثلاثة أمثال الصاع وأن القسط وهو نصف الصاع وهو كليل للزيت يعادل حجم مدين ويزن من الزيت قدر ثلاثة أرتال الا قليلا . والقرق يعادل ستة أقاط ويزن من الزيت سبعة عشر رطلا تقريباً . أما وزن ما يتسع له من الحبوب فهو ستة عشر رطلا وهو ثلاثة أصع .

وهذا الذي انتهى اليه في تقدير وزن المد من الحبوب هو نفس الذي انتهى اليه الامام احمد بن حنبل حين عبر مد النبي صلى الله عليه وسلم (١) وهو نفس الذي انتهى اليه أبو عبيد حين عبر الصاع عياراً مقارناً بالهندى (٢) على ضوء ما قرره عمر رضى الله عنه في أرزاق الهند بالنسبة لهند العراق وجد الشام (٣) وهو نفس الذي انتهى اليه ابن حزم حين عبر صاعاً موروثاً يقال إنه على قدر صاع مالک فجدده بالقمح الطيب رطلا ونصفاً وبالشعير غير الطيب رطلا وأوقية بالرطل القلقل (٤) أى أن متوسطهما هو رطل وثلاث بالقلقل . والرطل القلقل هو نفس الرطل البغدادى .

وإذا كان حجم كل من المد والصاع قد اتضح لنا عن طريق تعيين وزن ما يتسع له من الحبوب على أساس الرطل البغدادى أو العراقى فما حجمه إذا بالنسبة لنظام المكايل والموازين المصرية .

(١) ابن حزم المحلى ج ٥ : ٢٤٥

(٢) الذى غير الله . فنادى لأهل الشام وهو مكيل الحبوب كان يزن أكثر من أربعين رطلاً أما المد فهو ربع الصاع ويزن رطلاً وثلاثاً . وكلمة مدى هذه من أصل كلمة Maund التى تطلق على وزن من الأوزان الكبيرة بالبلاد الآسيوية، ووزنه في الهند ٤٠ سيرا أى  $\frac{٨٢}{٣}$  رطلاً انجليزيا . وكلمة مدى هذه ترجع فى أصلها الى كلمة Mina اللاتينية و Minum اليونانية ومن الفارسية . وأصل الكلمة الأول بابل .

(٣) أبو عبيد : الأموال ٥١٩

(٤) وفى مكان آخر يذكره تعديداً بأنه رطل ونصف الى رطل وربع على قدر رزاة الكليل وخفته . المحلى : ج ٥ ص ٢٤٠ ، ص ٢٤٥

إن الرطل البغدادي بنوره كان موضع خلاف بين الأحناف أيضاً وبين غيرهم . فالرطل البغدادي عند الأحناف مائة وثلاثون درهما وعند غيرهم أقل من ذلك قليلا فيقول أبو عبيد إنه مائة وثمانية وعشرون درهما (١) وهو كذلك عند ابن حزم أيضاً (٢) وهو ما ذكره صاحب القاموس كذلك . أما عند الشافعية فهو مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم (٣) ولكن نندع الآن الخلاف في تحرير الرطل البغدادي حتى نفرغ من استعراض محاولات فقهاء مصر في تحديد المد والصاع على أساس نظام الكيل والوزن في مصر :

إن أقدم ما وقفنا عليه من المحاولات في مصر لمعادلة المد بالأوزان المصرية هي ما ذكره ابن الرقعة المتوفى سنة ٧١٠ هـ عن محاولة الأمام الزاهد شهاب الدين متولى الحسبة في مصر في عهد الملك العزيز إذ عمل له "مد" برصمه في عام ٥٧١ هـ عوبر على مد النبي صلى الله عليه وسلم وقدر حجمه بوزن الماء الصافي فكان ثلاثمائة وسبعة وثلاثين درهما (٤) . فإذا أخذنا في اعتبارنا النسبة بين وزن الماء ووزن الحبوب كان هذا المد من الحبوب مائتين وثلاثة وخمسين درهما إلا ربع درهم وهو ما يعادل تقريباً وزن رطلين بغداديين لا يختلف عن ذلك إلا بمقدار ثلاثة دراهم وربع ، أو أربعة دراهم وربع درهم وسبع دراهم ، أو سبعة دراهم وربع درهم وذلك تبعاً للاختلاف الذي ذكرناه في وزن الرطل البغدادي . وقد يكون هذا الاختلاف اليسير راجعاً إلى ما قد يكون هناك من فرق بين الدراهم المصرية والبغدادية أو يكون راجعاً لنوع مخلوط الحبوب فقد يكون قد أضيف إلى القمح والشعير أنواع أخرى من الحبوب مثل الذرة والعدس والفول وغيرها مما تجب فيه زكاة

(١) أبو عبيد : الأموال ٥٢٣

(٢) المجلد ٥ : ٢٤٦ والدرهم عند ابن حزم سبع وخمسون حبة وستة أثمان حبة وعشر حبة . والمشهور في الدرهم أنه  $\frac{1}{50}$  حبة كما ذكره المقرئ في رسالة النقود الإسلامية ص ٣٨ (نشره أنتاس الكرملي) .

(٣) الذهبي : تحرير الدرهم والمقال ص ٢٨ (ضمن مجموعة النقود العربية لانتاس الكرملي) .

(٤) الفلكي : رسالة في المقاييس والمكاييل ص ٩ .

الزرع مما يجعل نسبة الوزن تتفاوت بهذا التقدير اليسير . ومن هذه المعادلة يتبين لنا أن المد الذي حررت في عام ٥٧١ هـ في مصر قمر على أساس قول العراقيين وهو رطلان من الخبث ، ويكون الصاع تبعاً لذلك ثمانية أرطال . وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

نجد بعد ذلك التعمول المتوفى عام ٧٢٧ هـ - وكان رئيساً لدار العيار في مصر - يحاول تحرير الصاع على أساس الكيل المصري فيرى أن الصاع يعادل قديحين مصريين . والقديح المصري . وفقاً للقانون رقم ٩ لسنة ١٩١٤ - يعادل ٢٠٠٦٢ لتر أو يعادل ٢٠١٢٣٥ لتر وفق حساب محمود الفلكي (١) . ومعنى ذلك أن وزن القديح المصري من الماء هو ٢٠٦٢ جم أو ٢١٢٣٠٥ جم فيكون المد ١٠٣١ جم أو ١٠٦١٠٧٥ جم فيكون ما يعادل ذلك من الدراهم ٣٣٠٠٤٤ أو ٣٤٣٠٦٣ وفق التقدير القانوني ثم حساب محمود الفلكي على التعاقب ، مع ملاحظة أن الدرهم القانوني ٣٠١٢ جم والدرهم على حساب محمود الفلكي ٣٠٠٨٩٨ جم . وهذا العدد من الدراهم وهو ٣٣٠٠٤٤ أو ٣٤٣٠٦٣ يدور قريباً من ٣٣٧ وهو تقدير المد الذي عويز عام ٥٧١ هـ برسم الامام شهاب الدين (٢) فيكون حساب التعمول كذلك على أساس تقدير العراقيين في المد وهو رطلان بالعراقي . ولعل ذلك كان تحت تأثير ابن الرفعة المتوفى عام ٧١٠ هـ انذى كان معاصراً للتعمول وكان متولياً للحسبة ولف كتابه الافصاح والنتيان في تحرير الكيل والميزان وكان معتمده - فيما ذهب اليه - هو المد الذي حررت في مصر عام ٥٧١ هـ وان كان ابن الرفعة شافعي المذهب .

(١) الفلكي : رسالة في الفايص والكيل ص ١١

(٢) يذكر القسطنطين (صحيح الأعرابي ج ٣ : ٤٤٥) أن القديح المصري تقديره بالوزن من حلب المعتدل ٣٣٢ درهماً ولا بد أن يكون قد وقع نوع من اللطاف في هذا الرقم فهو لا يعادل لا أكثر من تلك القديح على تقديرنا . خاصة وأنه حين يكتب على ذلك بتقدير القديح بالحبة بقول : وقدره الشيخ تقي الدين بن رزيق في الكلام على صواع الفطرة بالكيل والملايين الصاحبه ومبينة والتبر وستين حبة . . . والدرهم كما هو معروف  $\frac{1}{20}$  حبة فيكون القديح على هذا التقدير ٦٥٠ درهماً تقريباً فيكون نصف القديح ٣٢٥ درهماً تقريباً وهو قريب من تقديره .

تعرض كذلك السبكي لتحرير الصاع فذهب الى أنه قدحان الا صباع  
أى أن المد وهو ربع الصاع يعادل نصف القدح بالكيل المصرى الا جزءاً  
من ثمانية وعشرين فيكون تقديره لا يقل عن تقدير القمولى الا بمقدار  
اثنى عشر درهما تقريباً . وهذا الفرق لا يدل على اختلاف أساسى الا بقدر  
رجحان المكيل أو عدم رجحانه فالاساس الذى بنى عليه السبكي كذلك هو  
التقدير العراقى وإن كان السبكي شافئى المذهب أيضاً .

وأما فى العصر الحديث فنجد أن تقدير المد والصاع عند مؤلفى  
« الفقه على المذاهب الاربعة » يختلف اختلافاً يئس عما ذهب اليه اسلافهم  
من فقهاء مصر . فعلى مذهب المالكية قدر الصاع بقدح وثلث وهو ما يعادل  
خسة أرتال وثلث بالعراق وعند الشافعية قدر الصاع فى نصاب زكاة  
الزرع بقدح وثلث وهو ما يعادل خسة أرتال وثلث بالبغدادى كذلك أى وفق  
تقدير المالكية أيضاً وأما فى زكاة الفطر فقدر الصاع تقديرأ آخر مختلفاً  
فقدر بتدخين ولعلمهم قد أخذوا فى هذا بتقدير اسلافهم الذين بنوا تقديرهم  
على أساس المد الذى عوبر فى عام ٥٧١ هـ . وأما الحنابلة فقدروا نصاب  
الزكاة - وهو ثلاثمائة صاع - بألف وأربعمائة وثمانية وعشرين رطلاً مصرياً  
وأربعة أسباع رطل . أى أن الصاع يبلغ أربعة أرتال وثلاثة أرباع بالرطل  
المصرى تقريباً . وعلى وجه التحديد فان كل واحد عشرين صاعاً تعادل  
قنطاراً مصرياً . وأما الاحناف فقدروا الصاع عند تعرضهم للواجب  
اخراجة فى زكاة الفطر بقدحين وثلث وهو فى تقديرهم ما يعادل ثمانية  
أرتال بالعراق والرطل مائة وثلاثون درهما .

فواضح من هذا أن الأساس الذى بنى عليه كل من علماء المالكية والحنابلة  
هو قول أهل المدينة فى تحديد صاع النبي ومده . وأما علماء الشافعية فقد  
اختلف تقديرهم ففى زكاة الزرع بنوا تقديرهم على قول أهل المدينة  
وأما فى زكاة الفطر فقد بنوا تقديرهم على تقدير اسلافهم الذى بينا أنه يرجع  
فى أساسه الى قول العراقيين . وأما الاحناف فقدروا الصاع على قول أبى  
حنيفة وهو ثمانية أرتال بالعراق ولكن حين عادوا ذلك بالكيل المصرى

إن طريقة الاعتماد على الوزن في تبادل السلع بطريقة بابلية في أصلها وربما كانت الأوزان التي استعملت أول الأمر بابلية الأصل كذلك . وقد كان للبابليين نظامان للأوزان : نظام في منطقتهم الشرقية ويعرف بالنظام السلطاني ، نظام في منطقتهم الغربية على سواحل البحر المتوسط ويعرف بنظام وزن العامة . وكان كل من النظامين يقوم على أساس تقسيم وزنتين كبيرتين أحدهما ثقيلة والأخرى خفيفة تبلغ نصف وزن الأولى . وكل واحدة منهما كانت تعرف باسم ككر Kikar فكانت الوزنة تقسم إلى ستين قسما يعرف كل قسم منها باسم منا Munch أو Mina وهو ما عرب بعد ذلك بلفظ المن . وكان كل من يقسم إلى ستين قسما كذلك يعرف كل واحد منها باسم الشاقل . فكانت كل وزنة تتكون من ٣٦٠٠ شاقل . فكانت هناك الوزنة الشرقية الكبيرة بأقسامها ، والوزنة الشرقية الخفيفة بأقسامها ، كما كان هناك الوزنتان الغربيتان بأقسامهما . وأما مقادير أوزان هذه الوزانات الأربع وأقسامها فهو كما يأتي (١) :

	الشاقل	المن (٦٠ شاقل)	الوزنة (٦٠ منا)
الشرقية الثقيلة	١٦, ٨٣ جم	١, ٠١٠ كجم	٦٠, ٦٠٠ كجم
الشرقية الخفيفة	٨, ٤١ جم	٠, ٥٠٥ كجم	٢٠, ٣٠٠ كجم
الغربية الثقيلة	١٦, ٢٧ جم	١, ٩٨٢٤ كجم	٥٨, ٩٤٤ كجم
الغربية الخفيفة	٨, ١٨٥ جم	٠, ٤٩١٢ كجم	٢٩, ٤٧٢ كجم

وعن هذه النظم البابلية الأولى تطورت نظم الأوزان خلال العصور التي تعاقبت على منطقتي الشرق الأوسط .

كان هناك في مصر طريقة أخرى لتبادل تقوم على أساس التكيل إذ كان موضوع التبادل - أول الأمر - هو الخبث . وكان نظام التكيل المصري يقوم

(١) اختارت في تحديد هذه الأوزان تحديد دائرة المعارف اليهودية Jewish Encyclopedia (١١, ٤٨٣ pp. مادة Weights and measures) ولا يفسر أن فيه أن تلك الأوزان وتحديد هذه الأوزان خلاف يسير ولكن به أثره عند الحساب فليذكر ذلك د. محمد .

على الأساس العشري . كما كان هناك نظام آخر للكيل عند البابليين يتفرع عن نظام وزنهم ولكنه كان يتبع النظام السداسي مثل نظام وزنهم (١) . فلما اخترع البابليون الميزان واستعمله المصريون لما كان يستعمل له من وزن المعادن الثمينة من الذهب والفضة والنحاس استعملوا الطريقة العشرية في نظام أوزانهم ولم يستعملوا الطريقة السداسية التي اتبعها البابليون . ولكن عندما نشطت التجارة الخارجية بين مصر وبابل وخاصة في المعادن الثمينة نشأ الصراع بين النظام السداسي والنظام العشري خاصة وأن المعادن في ذلك الوقت كان يجري تبادلها في صورة سبائك مستطيلة أو في صورة قضبان معدنية - وذلك على طريقة البابليين - أو في صورة حلقات من المعدن - وذلك على طريقة المصريين (٢) وكانت كل سبيكة من هذه السبائك ذات وزن معلوم . فكانت سبائك بابل سداسية الأوزان وكانت سبائك مصر عشرية الأوزان فنشأت الصعوبة في حساب المبادلة وتبع ذلك صراع بين النظامين كان من نتيجة أن نشأ نظام جديد للأوزان يوفق بين النظامين البابلي والمصري وجرى ذلك في نظام الوزن في المنطقة الغربية وكان هذا النظام الجديد يقوم على أساس احتساب الوزن ٦٠ مثلاً وفق نظامها الأول بينما جعل المن من ٥٠ شاقلاً بدلاً من ٦٠ فأصبحت الوزن مكونة من ٣٠٠٠ شاقلاً بدلاً من ٣٦٠٠ . وظل وزن الشاقل كما هو أي ١٦,٣٧ جم وهو شاقل الوزن الثقيلة الغربية . فأصبح المن ٨١٨,٦٢ جم بدلاً من ٩٨٢,٤ جم . وكان هذا الوزن يستعمل في تجارة

(١) وحدة الكيل عند البابليين هي الماريس Maria وأساسها الوزن الشرقية الخفيفة . فوزن الماريس من الماء هو نفس وزن الوزن الشرقية الخفيفة (٣٠,٣٠٠ كجم) وكانت تنقسم كذلك إلى ٦٠ قماً وزن كل قماً ٥٠٠ كجم وهي تعادل المن وكان حجم كل قسم ٠,٥٠٥ من اللتر . وهو نظير السكتاريوس عند اليونان والرومان . وإن كان السكتاريوس أكبر قليلاً (٠,٥٤٧ من لتر) كما أنه كان نظير اللج عند العبرانيين . ووحدات الكيل الأخرى عند البابليين هي مضاعفات من هذا الكيل بنسب ١٢ - ٢٤ - ٦٠ - ٧٢ - ١٢٠ - ٧٢٠ . وأما في مصر فكان نظام الكيل عشرياً ووحدته الايفة (الروبية) كما كانت تعرف بالأردب أيضاً ومترقيس وبث وهي تنقسم إلى أشار واحد عشر وقضاعف بمشرة أيضاً وهي التور الكبير أو الكر . وهناك مكيال أخرى صغيرة وهي أجزاء من هذه النسب تأثرت بنظم الكيل المختلفة عند الشعوب الأخرى من البابليين والعبرانيين منها الصاع أو المي وهو  $\frac{1}{10}$  الروبية والمن وهو نصف الصاع .

(٢) Jewish Encyclopedia IX, 350 (مادة Numismatiques)

النسبة الحديدية ١٨ : ٢٤ فنشأ في جزر الإيجين وربما في مناطق أخرى من جديد كانت نسبتته بالنسبة للمن البابل الشرقي كنسبة ١٨ : ٢٤ أو ٣ : ٤ فكان المن الإيجيني  $\frac{3}{4}$  البابل الشرقي أي ٦٢٨ جم وكان شاقلة  $\frac{3}{4}$  الشاقل البابل الشرقي أي ١٢,٥٦ جم وكان المن ٥٠ شاقلا .

ولكن حدث بعد ذلك شيء له خطره في تاريخ تطور نظام الوزن وفي تاريخ تجارة المعادن الثمينة . ذلك أنه في أواخر القرن الثامن قبل الميلاد وأوائل السابع بدأ الليديون في سك النقود . وكانوا أسبق الأمم إلى ذلك . وكان المعدن الذي استعمل أول الأمر في سك النقود هو الالكتروم وهو حزام طبيعي في آسيا الصغرى مركب من الذهب والفضة واستعمل في صورته الطبيعية أول الأمر ثم كان يخضر بعد ذلك صناعياً بصهر الذهب والفضة معا (١) وكان من الطبيعي أن تكون النسبة بين قيمة الالكتروم وقيمة الفضة غير النسبة بين قيمة الذهب وقيمة الفضة فلما سك الإيجينيون نقدهم المعروف بالدرخمة وهو نقد فضي يبدو أن نسبتته إلى الالكتروم الذي كان قد حل محل الذهب في التجارة هناك كانت نسبة ٢٠ : ٢١ فكان وزن الدرخمة الإيجينية ٥,٩٧ جم وهي نسبة ٢٠ : ٢١ من المن الإيجيني مع ملاحظة أن الدرخمة كانت  $\frac{1}{2}$  من المن بالنسبة الحديدية ولم تكن  $\frac{1}{2}$  كما كان الشاقل أي أن الشاقل الحديد الذي يزن ضعف الدرخمة كانت نسبتته إلى الشاقل القديم هي ٢٠ : ٢١

ولم يلبث نشاط الفينيقيين أن امتد إلى الجزر اليونانية فاقبس الفينيقيون سك النقود عن هذه الجزر وربما كان ذلك أول الأمر من أجل التجارة مع هذه الجزر فضربوا السلع الفينيقية 'Sela' على ضعف وزن الدرخمة الإيجينية ليساير نظام الشاقل فكان وزنه ١١,٩٥ جم ولما كان نظام الوزن عند الفينيقيين يقوم على أساس المضاعفات الزوجية أي ٢ - ٤ - ٦ فقد جعلوا هذا السلع من ٢٠ قيراطا أو بلغتهم ٢٠ معه وأحدثوا الوزن العشري (٢٠ قيراطا أو معه)

في نظام أوزانهم ليحتفظوا بمعاييرهم للنظام العشري ثم لم يلبثوا أن ضربوا سلعا آخر يزيد على هذا الأول بمقدار الخمس (أي ٢٤ قيراطاً بدلا من ٢٠) ليسابروا كذلك نظام الأوزان البابلية وليكون قريبا من شاتل الفضة الذي أحدثوه قبل ذلك . فكان هذا السلع الحديد ١٤,٣٤ جم أما شاتل الفضة الفينيقي فهو ١٤,٥٥ جم (١)

ولم يكن نظام الوزن الايجيبي هو النظام الوحيد للندن اليونانية بل كان لكل مدينة شخصيتها فكان هناك أكثر من نظام للوزن والنقد . فمن هذه النظم نظام الوزن الايبيي وكان من هذا الوزن يقوم على أساس من الفضة الفينيقي بنسبة ٣ : ٥ كما كان الشاتل أيضاً بنفس هذه النسبة من الشاتل الفينيقي فكان المن ٤٣٦ جم وهو ٥٠ شاقلا والشاتل ٨,٧٣ . وكان هذا الشاتل هو أساس نظام النقد في كورينثه اذ كانت الدرحة الكورينثية  $\frac{1}{4}$  وزن هذا الشاتل أي ٢,٩١ جم .

ولما كان القرن السادس قبل الميلاد ظهر الفرس على مسرح الأحداث في منطقة العالم القديم وكانت الأوزان البابلية الشرقية هي الأوزان المنتشرة في بلادهم كما كان الحان في ليديا ويبدو أن النسبة بين قيمة الذهب وقيمة الفضة كانت في ذلك الوقت هي نفس النسبة التي كانت قبل ذلك أي ٣ : ٤٠ أو باصطلاح القراريط ١٨ : ٢٤ ف ضربوا نقودهم بما يتفق وهذه النسبة لو أحدثوا التصديل في أوزانهم وفق ذلك . ف ضرب دارا (٥٢٢ - ٤٨٥ ق. م) نقده الذهبي المنسوب اليه والمعروف باسم Dario وجعله على وزن الشاتل البابلي الشرق من الوزن الخفيف فكان وزنه ٨,٤١ جم (٢) وكان يعرف عند اليونان باسم استار دارا  $\delta\sigma\iota\kappa\acute{o}\varsigma \sigma\tau\alpha\rho\eta\rho$  أما النقد النضي المتعلق بهذا الدارك الذهبي

(١) الشاتل الأول أو السلع الأول ١١,٩٥ جم كان يتكون من ٢٠ قيراط ٢٠٦ أو ٢٠ سمه  $\sigma\tau\alpha\tau$  أو ٢٠ لوبل Obol وكان يبدل كج ٣ دينار اذ أن ٦ مروت من الفضة تصوى دينارا Denarius . وأما تشاتل الثاني أو السلع الثموري ١٤,٣٤ جم ويتكون من ٢٤ قيراطا أو سمه أو أوبل فكان يسوى أربعة دقائق .

(٢) Jewish Encyclopedia VIII, 656. (مادة money)

والدينار المقصود هنا هو دينار النقد أو الفضة لا دينار الذهب أي Denarius nummus لا Denarius Aureus إذ كان هو الدينار الأول فلما صار الدينار علماً على الدينار الذهب جاز لمن نقلوا الأخبار أن يقولوا إنه على وزن مثقال الذهب . فهذا المثقال أو الدرهم البغلي كان على أساس المن الإيجي . وإذا اعتبرنا المن من ٥٠ شاقلاً كان الشاقل إذن ١٢,٥٨٥ جم وهو قريب من ١٢,٥٦ جم وهو شاقل المن الإيجي .

وكان الدينار في أول الأمر علماً على الدينار الفضي وكان مناظراً للدرخة الفضية ولكن لما ضرب الدينار الفارسي الذهب على وزن دينار خلفاء الإسكندر أو الدرهم البغلي وكان كذلك نصف الدارك الأول وعرف باسم مثقال الذهب دعت الضرورة لاحداث وزن للفضة مناسب لهذا المثقال أو الدينار ولما كانت النسبة بين الذهب والفضة في منطقة السلوقيين والمنطقة الفارسية هي ٣ : ٤ كان هذا الدرهم الخديدي على نفس هذه النسبة من الأصل الذي يرجع إليه الدينار وهو المن الإيجي  $٦٢٨ \times \frac{٣}{٤} = ٤٧١$  جم وهو وزن المن  $١٢,٥٦ \times \frac{٣}{٤} = ٣,١٤$  جم وهو وزن الدرهم الخديدي . وكان هذا المن من ١٥٠ درهماً على نفس نظام المن الإيجي وعرف بمن خلفاء الإسكندر وغلب عليه اسم المن الإسكندري . وكان الوزن ٣,١٤ جم وزناً للفضة خاصة عرف باسم الدرهم تمييزاً له عن الدينار النقدي الأول الذي نسب إلى الذهب .

أما في منطقة البطائنة في مصر وجنوب الشام فقد كان نظام الوزن الذي اقتبسوه يرجع في أصله إلى ذلك المن الإيجي الذي بينا أنه كان وزن الإسكندر أو وزن خلفاء الإسكندر وكان هذا النظام يرجع في أصله إلى الوزن الفارسي وإلى الوزن البابلي الشرق . وقد كان طبعياً أن يقتبس البطائنة هذا الوزن دون نظام الفينيقيين إذ كان هو الوزن الذي أدخلوه معهم من بلادهم الأصلية كما كان كذلك هو الوزن الشائع في المناطق الآسيوية التي كانوا يناقسون فيها السلوقيين من أجل السيطرة الاقتصادية . فكان المن البطلمي يقوم في أصله على المن البابلي الشرق الخفيف وقد اقتبسوا المن الخفيف دون

الثقل تمشياً مع حركة النقد التي شاعت فيها الأوزان الصغيرة دون الكبيرة تلبية لحاجة التبادل اليومي وتمشياً مع حركة التجارة التي كثرت في السلع الشعبية الرخيصة أكثر من السلع الخاصة الثمينة . ويبدو أن نشاط حركة التجارة البطلمية خاصة مع مناطق الفضة في الهند وآسيا كانت في صالح البطلمة أو منطلق الذهب فصارت النسبة بين قيمته وقيمة الفضة كالنسبة بين ٧ : ١٠٠ بدلا من ٣ : ٤٠ أى أن الجزء الواحد من الذهب كان يعادل نحواً من أربعة عشر مثلاً من وزنه . وظلت هذه النسبة هي النسبة السائدة لفترة طويلة وكان يرجع إليها نسبة وزن الدينار الى الدرهم حتى ظن المؤلفون الاسلاميون في تعليل سببها أنها النسبة بين كثافة الذهب وكثافة الفضة (١) مع أن كثافة الذهب هي ١٩,٢٦ جم وكثافة الفضة ١٠,٥ جم وهي في الحقيقة النسبة بين قيمة المعدنين في العصر البطلمي وامتدادها فيما تلاه من عصور .

وعلى أساس هذه النسبة وضع المن البطلمي فهو سبعة أعشار المن البابلي الشرق الخفيف  $٧ \times ٥٠٥ = ٣٥٣٠٥$  جم (وزن المن البطلمي ٣٥٤ جم) وقد جعل هذا المن ٢٥ مثاقيل بدلا من ٥٠ تمشياً مع حركة الأوزان الصغيرة في النقد فكان المثقال ١٤,١٦ جم وهو ثلاثة أمثال المثقال أى أن وزن المثقال كان ٤,٧٢ جم وكان هذا المن ٧٥ مثقالاً وبالنظام الدينارى كان مائة دينار وزن الواحد منها ٣,٥٤ جم كما كان مائة وعشرين درهماً وزن الدرهم منها ٢,٩٥ جم أى بنسبة ١٥ : ٢٤ من قراريط مثقال هذا المن .

ولما ظهر الرومان على مسرح الأحداث العالمية كان لهم أثر في تطور نظام الوزن وكان وزنهم الأول الذي انتشر في بلادهم قديماً هو المن الايطالى وربما كان العامل على انتشاره هو تجارهم مع الفينيقيين مباشرة أو مع القرطاجنيين فهو من يقوم في أساسه على نظام الوزن البابلي الغربى الذى اقتبسه الفينيقيون أول الأمر، فتطور المن الايطالى عن المن البابلي الغربى الكبير ويبدو

(١) مصطفى النجدي : تحرير الدرهم والمثقال ص ٧٦ (نشرة الندوة الكرميل من مجموعة نقود العربية)

أن هذا التطور كان في مرحلة الصراع بين النظام العشري والنظام السداسي فاتباع المن الايطالى النظام العشري أى كان شاقله بنسبة  $\frac{1}{6}$  من شافل المن البابلى الغربى الكبير ١٦,٣٧ جم  $\times \frac{1}{6} = ٢,٧٢٥$  جم وكان المن ٢٥ شاقلا بدلا من ٥٠ مائيرة للاوزان الخفيفة والتجارة الشعبية فكان وزن المن ٣٤١,٠٧٧ جم وكان هذا هو أساس أوزانهم التى تطورت فيما بعد فأحدثت الرومان نظام الأوقية Uncia وكانت ضعف وزن شافل المن أى ( ١٣,٦٤ جم  $\times ٢$  ) ٢٧,٢٨ جم وهذه الأوقية كانت جزءاً من اثني عشر جزءاً من وحدة وزنهم . فلما كان المن يتركب من ٢٥ شاقلا فهو لا يقبل القسمة على ١٢ ولذا أحدثوا نظام الرطل أو الآس على قدر ٢٤ شاقلا فقط وكان هذا الرطل أو الآس يتركب من اثني عشرة أوقية فكان وزنه ٣٢٧,٤٥ جم وكان مثقاله وهو سدس الأوقية ٤,٥٢٧ جم وكان الآس هذا هو وحدة الوزن عندهم كما كان وحدة النقد البرنزى ولم يكن لهم تقديم القضى أو الذهبى بل كانوا يستعملون نقد الشعوب الأخرى . وفى عام ٢٦٩ ق.م سكوا النقد القضى وسماه Denarius nummus أى النقد ذا الآسات العشرة اذ كان أول أمره يساوى عشرة آسات من النقد البرنزى ثم أحدثوا بعد ذلك نظام النقد الذهبى وسماه Denarius Aureus أى الدينار الذهبى وكانت النسبة بين وزن الدينار الى المن — فى أول الأمر — كالنسبة بين الدرخمة والمن أى  $\frac{1}{6}$  من المن ولكنهم بعد أن أحدثوا نظام الأوقية كان وزن الدينار وزن سدس الأوقية وعرفوا هذا الوزن باسم Sextula أى السدس . ولما كانت الأوقية ضعف الشافل والشافل ثلاثة مثاقيل كان هذا السيكستول هو المثقال الرومانى وكان فى وزنه مقاربا للدرخمة اليونانية . أما بالنسبة للدينار الذهبى فان مثقال الدينار كان يعرف باسم Solidus وهو العيار الذى أقره القيصر قسطنطين (١) .

وبسيطرة الرومان على مصر وحلول الرطل محل المن ظهر الرطل المصرى الرومانى فكان على أساس المن البطلمى غير أن عدد الشواقل به أصبح ٢٤ بدلا من ٢٥ تمشيا مع نظام الأوقية وكانت الأوقية ضعف الشافل ولما كان

(١) عن مبارك : الخطط التوفيقية ج ٢٠ : ٢٨

الشاقل ١٤:١٦ جم صارت الأوقية ٢٨:٣٢ جم وصار وزن الرطل ٣٣٩,٨٤ جم  
وكان المثقال مثل مثقال المن ٤:٧٢ جم .

وفي المرحلة التي تطور فيها نظام المن إلى النظام الرطلي نجد ذكر الرطل  
الاسكندري وهو ١٤٤ درهماً . ولما كان من الاسكندر ١٥٠ ديناراً ووجب على  
هذا المن لكي يتحول إلى نظام الرطل الاسكندري من أن يخفض من ٢٥ شاقل  
إلى ٢٤ تمثيلاً مع نظام الأوقية كما خفضت شواقل المن من ٢٥ إلى ٢٤  
لتكون الرطل . فخفضت المائة والخمسون ديناراً بهذه النسبة فصارت ١٤٤  
وعرفت باسم الدرهم لأن الدرهم للوزن والدينار للتقد . خاصة وأن الدينار  
الاسكندري المقصود كان الدينار النقي لا الدينار الذهبي أما كيف تحول  
هذا المن الاسكندري إلى الرطل الاسكندري أو كيف تحول من من لو وزن  
النقصة إلى رطل وزن مجرد فقد جرى هذا التحول في نطاق النسبة السائدة  
في المنطقة البطلمية بين قيمة الذهب والنقصة وهي ٧ : ١٠ فلما كان درهم  
المن الاسكندري درهم فضة فعند تحوله رد إلى أصله من المثقال بنسبة ٧ : ١٠  
فصار  $٣٠١٤ \times \frac{٧}{١٠} = ٤٠٤٩$  جم فصار هذا هو مثقال الرطل وهو يمثل جزءاً  
من مائة من الرطل أي أن الرطل ٤٤٩ جم وعندما صار الرطل - تمثيلاً مع  
نظام الأوقية ١٤٤ درهماً بدلاً من ١٥٠ وأصبح ٩٦ مثقالاً بدلاً من ١٠٠ صار  
درهم هذا الرطل الاسكندري ٤٤٩ جم ÷ ١٤٤ = ٣.١٢ جم بدلاً من الدرهم  
الأول (٣.١٤٦ جم) الذي كان درهم المن الاسكندري (١) . وصار  
المثقال ٤٤٩ جم ÷ ٩٦ = ٤.٦٨ جم .

(١) يرى عل مبارك (المخطوط ج ٢٠ : ٣٧) أن درهم الرطل الاسكندري ٢,٨٢٣ جم .  
واستخرج ذلك عن طريق نسبة الدرهم إلى الدينار ليزنطن (السوليدس) ٩٦:٦٤ حبة . ولكني  
أعتقد أن المن الاسكندري والرطل الاسكندري قد حدثا قبل حدوث السوليدس وأن درهم الرطل  
الاسكندري قد نشأ من درهم المن الاسكندري وليس لذلك صلة بمثقال الدينار الذهب (السوليدس) .  
ويرى أن الرطل الاسكندري هذا هو رطل النبي صل الله عليه وسلم المذكور في كتب الفقه أي  
رطل البغدادي ومقداره عنده ٤٠٨ جم وهو ١٤٤ درهم ولا أوافق في ذلك لأنه لم يقل أسد بأن  
رطل البغدادي ١٤٤ درهم . وكذلك ذكره عن محمد بن سفيان من أن أردب مصر مائة رطل  
وأربعة أرطال بالاسكندري غير مفهوم لأن الأردب المقصود إذ كان هو الأردب الحالي الذي  
يزن من القمح ١٥٠ كجم ومن الشعير ١٢٠ كجم لا يمكن بحال أن يكون كما ذكر لأن  
 $٤٠٨ \times ٢٠٤ = ٨٣,٢٣٢$  كجم فقط .

ويتدخل تطور نظام الأوزان مرحلة جديدة عندما بدأ يتأثر بنظام النقد في المنطقة التي ورثها البلاد الإسلامية . فقد عرفت هذه المنطقة من الدراهم الدرهم الطبرى وهو أقدم أنواع الدراهم التي بقيت حتى العصر الإسلامي وكان من أربعة دوانق ويوصف بأنه درهم خلفاء الاسكندر وكان كذلك نصف الدرهم البغلى أى أن وزنه ٢,١٠ جم ( ١١٩ : ١٢٠ جم ) . كما عرفت الدرهم البغلى الرواقى وهو ثمانية دوانق وكان وزنه ٤,١٩٥ جم . كما عرفت كذلك الدرهم الجوارقى وكان أربعة دوانق ونصفا وكان وزنه ٢,٣٦ جم وهو الدرهم الذى وجد في زمن هرقل ويقال إنه كان نصف المثقال أو نصف اللبتون .

ومن نفود الذهب عرفت هذه المنطقة الدينار البيزنطى وكان ٤,٢٥ جم على وزن الدرجة الآتيكية المتأخرة أى المحفظة (١) . كما عرفت كذلك الدينار الفارسي وكان على وزن الدرهم البغلى (٤,١٩٥ جم) إذ أن الفرس بعد عهد اردشير كانوا قد خفضوا تقدمهم الذهبى الى مثل وزن النقد الرومى (٢) .

وكانت أوزان هذه النفود قد وجدت وفق نظم خاصة للنقد ولكن هذه النظم كانت ولا بد ذات صلة بنظم الوزن المبرود التي عرفتها المنطقة بل ربما كانت قد تفرعت عنها . وإذا حاولنا أن نكشف عن هذه الصلة أو عن هذا التطور فانا نعلم أن هذه المنطقة قد عرفت من الأوزان الرطل المصرى الرومانى الذى تطور عن المن البطلمى وكان مثقاله ٤,٧٢ جم كما عرفت

(١) يذكر صاحب الدينار الإسلامى في متاحف العراق (ج ١ : ص ١٢) أن وزن الدينار ٤,٢٦٥ جم وأنه هو وزن الدرجة الآتيكية المتأخرة وأن صنده في ذلك الموسوعة الإسلامية . واخترت أن هذا الوزن هو ٤,٢٥ جم وهو ما ذكر في دائرة المعارف الإسلامية كما أنه وزن هندو بعد ذلك أيضاً انتهى غرضه على نفس الوزن البيزنطى فدينار عبد الملك كان يدور حول هذا الوزن لم يسر أبداً الى ٤,٢٦ جم . وهذه الزيادة التي ذهب إليها في وزن دينار جسته يعتبر هذا الدينار أو المثقال الشرعى ٦٨٥٢٥ : ٢٠ قيراطاً وبالتالي اعتبر الدرهم الشرعى ١٤,٧٧٢٥ : ١٤ قيراطاً (ج ١ : ص ٢٣٧) مع أن المثقال ٢٠ قيراطاً فقط والدرهم ١٤ قيراطاً فقط . والزيادة التي حدثت في القيراط كانت بسبب الزيادة التي اعتبرها في وزن الدينار وبالتالي بزيادة وزن الدرهم . فالدرهم الشرعى عنده ٢,٩٨٥ جم وهو في الحقيقة ٢,٩٧ جم

(٢) على سبيلك : المخطط التوفيقية ج ٢٠ : ٣١

الرطل الاسكندري الذي تطور عن المن الاسكندري وكان مثقاله ٤.٦٨ جم كما عرفت كذلك الرطل الروماني الذي تفرع عن المن الايطالي وكان مثقاله ٤.٥٢٧ جم فما صلة نظام النقد بنظم هذه الأوزان ؟

يقولون إن دينار الذهب البيزنطي Denarius Aureus ووزنه ٤.٢٥ جم (٤.٢٤٨ جم) كان بالنسبة الى سوليدس قسطنطين (٤.٥٢٧ جم) الذي هو مثقال الرطل الروماني أيضاً Sextula كالنسبة بين ٩٠ : ٩٦ (٤.٥٢٧ × ١/١٠) (٤.٢٤). كما يقولون إن هذا الدينار الذهب (الأوروس) كان ١٨ قيراطا بالنسبة للمثقال الذي كان ٢٠ قيراطا أي أن المثقال المقصود هنا هو ٤.٧٢ جم وهو المثقال البطلمي أو اللبتون Lepton وهو الاجزاجيوم أيضاً Exigium (٤.٢٥ جم × ١/٩ = ٤.٧٢) (١) ومعنى هذا :

(أولاً) أن مثقال الرطل الروماني وبالتالي سوليدس قسطنطين قد نشأ عن العيار المصري البطلمي الاجزاجيوم أو اللبتون (٤.٧٢ جم) في اطار النسبة التي تخون بها المن الى رطل أي من ٢٥ مثاقلاً الى ٢٤ (١٠٠ : ٩٦) وذلك تمثيلاً مع نظام الأوقية الاثني عشرى الذي حل محل النظام العشري الذي كان سائداً قبل الرومان .

(ثانياً) أن الدينار الذهب (الأوروس) ٤.٢٥ جم قد تفرع عن العيار المصري البطلمي ٤.٧٢ جم بنسبة ١٨ : ٢٠ قيراطا . وأن نسبة الدينار الى اليكثون الروماني والى السوليدس هي نسبة ٩٠ : ١٠٦ فالدينار الذهب (الأوروس) ينتسب إلى كل من المثقال الروماني والمثقال البطلمي بالنسب الآتية :

الدينار	المثقال الروماني	المثقال البطلمي
٩٠	٩٦	١٠٠
٤.٢٥ جم	٤.٥٢٧ جم	٤.٧٢ جم

(١) عل مبارك : المخطوطات التاريخية ج ٢٠ : ٢٠

ولما كان هناك دينار ذهب آخر (٤٠٠ جم) هو الدينار الفارسي أو الدينار الرومي باعتبار مصدر وزنه الذي نشأ عنه وهو الدرهم البخل أو وزن خلفاء الاسكندر - والعرب ينسبون الى اليونان الشرقيين بكلمة رومي - فلا بد وأن هذا الدينار كان ينتسب الى نظام من نظم الوزن على غرار نسبة الدينار البيزنطي (الأوروس) الى كل من المتقالين الروماني والبطلمي . فاذا بحثنا عن نسبة الدينار الرومي هذا في اطار النسب السابقة وجدناها كما يأتي :

١٠٠	٩٦	٩٠
٤,٦٨ جم	٤,٤٩ جم	٤,٢٠ جم

ومعنى ذلك أن الدينار الفارسي الرومي قد تفرع عن مثقال الرطل الاسكندري كما تفرع الدينار البيزنطي عن مثقال الرطل المصري الروماني في اطار نفس النسبة وهي ١٨ : ٢٠ قيراطا أو ٩٠ : ١٠٠ أى أن مثقال هذا الدينار هو مثقال الرطل الاسكندري . وكما كان الدينار البيزنطي ذا صلة بمثقال الرطل الروماني الذي استحدثه الرومان بنسبة ٩٠ : ٩٦ فربما كان هناك وزن مماثل في المنطقة الشرقية ينتسب اليه هذا الدينار الفارسي الرومي بنفس النسبة التي ينتسب بها الدينار البيزنطي الى المثقال الروماني أو السوليدس وهي ٩٠ : ٩٦ فاذا بحثنا وجدنا هذا المثقال وهو ٤,٤٩ جم (٤,٢٠ : ٤,٤٩ : ٩٦ : ٩٠) هو نفس مثقال المن الاسكندري الذي كان درهما ٣,١٤٦ جم وكان مثقاله ٣,١٤٦ جم  $\times \frac{1}{7} = ٤,٤٩١$  جم . فالدينار الفارسي الرومي ينتسب الى مثقال المن الاسكندري بنفس نسبة الدينار البيزنطي الى المثقال الروماني . واذ أمعنا النظر أكثر من ذلك وجدنا أن مثقال هذا المن الاسكندري ينتسب بدوره الى مثقال المن البطلمي كما ينتسب مثقال الرطل الروماني الى مثقال المن البطلمي ولكن بنسبة أخرى هي  $\frac{227}{24}$  : ٢٤ (٤,٤٩١ جم : ٤,٧٢ جم) بدلا من ٢٤ : ٢٥ أو ٩٦ : ١٠٠

ونسبة  $22\frac{1}{2} : 24$  هذه النسبة التي تبدو غريبة لمن لا يعرف- تسميها هي النسبة بين مثقال النقد ومثقال الوزن المجرّد . فنقال النقد  $22\frac{1}{2}$  قيراطا وهو بالنسبة الى الدرهم نسبة  $22\frac{1}{2} : 16$  قيراطا أي نسبة  $10 : 7$  وهي النسبة بين قيمة الذهب والفضة . ومثقال الوزن المجرّد  $24$  قيراطا وهو بالنسبة للدرهم  $24 : 16$  أي  $3 : 2$  وهي نسبة مثقال الوزن المجرّد الى الدرهم . والنتيجة الضرورية لهذا هي تأكيد ما ذهبنا اليه قبل ذلك من أن المن الاسكندري كان منّا لوزن النقد وكان أصله الأول المن البطلمي الذي كان بالنسبة اليه من الوزن المجرّد . ولما تطور المن البطلمي الى الرطل المصري الروماني تمثياً مع النظام الرطلي تطور المن الاسكندري الى الرطل الاسكندري تمثياً مع النظام الرطلي كذلك وانقطعت صلة المن الاسكندري بالمن البطلمي وحلت محلها الصلة بين المن الاسكندري والرطل الاسكندري فكان هناك في العراق مثقالان مثقال المن الاسكندري  $4,491$  جم ومثقال الرطل الاسكندري  $4,68$  جم والنسبة بينهما هي نفس النسبة بين السوليدس البيزنطي  $4,527$  جم والمثقال البطلمي أو المصري الروماني  $4,72$  جم أي النسبة بين  $96 : 100$  وكان الدينار الفارسي الرومي مرتبطاً بمثقال المن الاسكندري بنفس النسبة التي تربط بين الدينار البيزنطي ومثقال الرطل الروماني أو السوليدس أو اليكسول وهي  $90 : 96$  . والصلة بين كل من الدينارين وبين مثقال وزنه المجرّد هي نفس النسبة بين  $18 : 20$  قيراطا ( $4,20 : 4,68 = 4,72 : 4,72 = 18 : 20$ ) أي أن كلا من الدينارين كان  $18$  قيراطا بالنسبة لمثقال وزنه المجرّد الذي كان  $20$  قيراطا وكان  $90 : 96$  بالنسبة لعيار نقده أو مثقال نقده وهو الذي عرف عند الرومان باسم سوليدس قنطنطين وأما في المنطقة الشرقية فلا نعلم اذا كان قد تميز باسم خاص أم لا . واذا ابحنا لأنفسنا أن نميزه استطعنا أن نقول إنه العيار أو المثقال الشرقي لوزن النقد  $4,491$  جم كما أن المثقال الآخر وهو مثقال الرطل الاسكندري  $4,68$  جم هو المثقال الشرقي للوزن المجرّد .

وقد آن لنا الآن أن نحاول الكشف عن الاطار الذي كانت تتطور خلاله النظم المختلفة للأوزان كما نحاول الكشف عن النظام الذي يربط بينها .

وإن ما ذكره الأقدمون عن نظام التفريط في الأقطار المختلفة والنسب بين بعض المتاقيل وبعضها يستطيع أن يكشف لنا عن ذلك .

اصطلح العراقيون والأحناف على أن الدرهم ١٤ قيراطا والمثقال ٢٠ قيراطا واصطلح الساميون على أن الدرهم ١٥ قيراطا والمثقال ٣ ٢١ واصطلح المصريون على أن الدرهم ١٦ قيراطا والمثقال ٣ ٢٢ وكل هذه النسب هي في الواقع نسبة ٧ : ١٠ وهي النسبة المتأخرة المعروفة بين قيمة الذهب والفضة . غير أنه يوجد مثقال آخر يختلف نسبه إلى الدرهم عن هذه النسبة وهو ٢٤ قيراطا ونسبة الدرهم إليه ١٦ قيراطا أي بنسبة ٣ : ٢ بدلا من ١٠ : ٧ .

وهناك كذلك الدينار ونسبته إلى المثقال ١٨ : ٢٠ قيراطا أي بنسبة ٩ : ١٠ كما أن هناك نسبة أخرى هي نسبة ١٨ قيراطا : ٢٤ أي نسبة ٣ : ٤ وهي النسبة القديمة بين قيمة الذهب والفضة . كما أن هناك نسبة ٢٤ : ٢٥ أو ٩٦ : ١٠٠ وهي النسبة بين السكستول الروماني وبين المثقال أو بعبارة أخرى النسبة بين مثقال الوزن الرطلي (الاثني عشرى) وبين مثقال المن (العشرى) . فإذا أمعنا النظر في هذه النسب المختلفة واصطلاح كل قطر فيها وجدنا أنها تحدد لنا الاطار الذي تطورت خلاله نظم الوزن المختلفة كما توضح نسبة كل منها إلى الآخر .

ففي المرحلة التي تطورت فيها نظام الأوزان كأثر لانخفاض النسبة بين قيمة الفضة والذهب إلى ٣ : ٤ أو ١٨ : ٢٤ نشأ فيها ثلاثة متاقيل اثنان منها وفق هذه النسبة أحدهما ١٨ قيراطا والثاني ٢٤ قيراطا . وأما الثالث فإذا تذكرنا أن بعض نظم الأوزان في تطورها وفق هذه النسبة تطورت كذلك من النظام الستيني إلى النظام الخمسيني أي أن المن أصبح ٥٠ شاقلا بدلا من ٦٠ فكان من نتيجة ذلك وجود من للفضة جديد نسبه إلى القديم نسبة ١٠ : ٩ (الشاقل  $\frac{1}{9}$  × نسبة الفضة  $\frac{1}{10}$  × عدد الشواقل ٥٠ =  $\frac{1}{9}$ ) إذا تذكرنا ذلك علمنا أن نسبة هذا المثقال الثالث كانت ٢٠ قيراطا : ١٨ بالنسبة للمثقال الأول . وإذا تذكرنا أيضاً أن السطع الحقيقي كان ذا وزنين أحدهما

٢٠ قيراطا والثاني بالنسبة اليه ٢٤ قيراطا-علما أن نسبة ٢٠ : ٢٤ كانت  
تنظم أكثر من مثقال . فكان لدينا في هذه المرحلة - إذن - مثاقيل تدور في  
اطار النسب ٢٠ : ٢٤ : ١٨

وفي المرحلة التي تطورت فيها النسبة بين قيمة الذهب الى الفضة فاصبحت  
٧ : ١٠ نشأت نسبة جديدة في نظام التقريط فنشأ مثقال جديد وزنه واحد  
وعشرون قيراطا وثلاثة أسباع القيراط وهو في مقابل المثقال ذي العشرين  
قيراطا . وذلك أن المثقال ذا العشرين قيراطا كان مثقال فضته أو درهمه  
١٥ قيراطا وفق النسبة القديمة بين الذهب والفضة ٤ : ٣ (٢٠ : ١٥)  
فلما صارت هذه النسبة ٧ : ١٠ كان وزن الفضة هذا - وهو ١٥ قيراطا  
في حاجة الى مثقال ذهب آخر وفق النسبة الجديدة فكان هذا المثقال  $\frac{21}{7}$   
( $15 \times \frac{7}{10} = \frac{21}{2}$ ) كما أن مثقال الذهب ذا العشرين قيراطا أصبح درهمه  
وفق النسبة الجديدة ١٤ قيراطا ( $20 \times \frac{7}{10} = 14$ ) بدلا من ١٥ قيراطا . وتيل  
إن هذا المثقال الأخير مع درهمه ٢٠ ، ١٤ كانا أساس نظام التقريط في  
العراق بينما كان المثقال الأول  $\frac{21}{7}$  ودرهمه ١٥ أساس نظام التقريط  
في الشام .

وتمرّ التطور في نظام الأوزان بمرحلة جديدة حين نشأ نظام النقد لأول  
مرة فكان مثقال النقد ذا نسبة الى مثقال الوزن المجرّد وكانت هذه النسبة هي ٢٠ : ٢١  
وذلك مثل الدرّخة الايجينية التي كانت نسبتها الى مثقال المن الايجيني ٢٠ : ٢١  
(٥,٩٧ جم : ٦,٢٨ جم) وكان لهذه النسبة أثرها في حدوث نسبة جديدة  
في نظام التقريط فنشأ مثقال نقد جديد ينسب الى المثقال الأصلي الذي كان  
٢٤ قيراطا وفق هذه النسبة الحادثة فكان هذا المثقال  $\frac{22}{7}$  وذلك على  
النظام الآتي :  $24 \times \frac{7}{10} = \frac{22}{7}$  . وفي المرحلة التي صارت نسبة الذهب  
فيها الى الفضة ٧ : ١٠ نشأ درهم هذا المثقال فكان ١٦ قيراطا وفق هذه  
النسبة  $22 \times \frac{7}{10} = 16$  . فكان هذا الدرهم الحديد ذا صفة بمثقالين الأول  
 $\frac{22}{7}$  وهو مثقال نقده الذهبي والثاني ٢٤ قيراطا وهو مثقال وزنه المجرّد  
وكانت النسبة بين هذا الدرهم ومثقاله هي النسبة بين ٧ : ١٠ بالنسبة للمثقال الأول

و ٢ : ٣ بالنسبة للمثقال الثاى و هما ١٦ : ٢٢٣ ، ١٦ : ٢٤ وقد كانت هذه الطريقة فى التقريظ هى الطريقة التى اصطلح عليها المصريون .

يضاف الى هذه النسب نسبة ٢٤ : ٢٥ وهى النسبة التى ذكرنا قبلا أنها نشأت عن تحول نظام المن الى نظام الرطل أو النظام الاثنى عشرى فكان المثقال الرطل ٩٦ : ١٠٠ بالنسبة للمثقال المن الذى ينسب اليه . وكان وزن للتقد بالنسبة لهذا المثقال للرطل هو ٩٠ : ٩٦ أى ٢٢٣ : ٢٤ .

والآن وقد وقفنا على النسب الحمايية التى كانت ترتبط بها المثاقيل المختلفة مع بعضها البعض ومع دراهمها - والتى تصور القاعدة العامة التى كان يدور فى اطرافها نظام كل وزن -- نستطيع أن نعرض لجميع أنواع المثاقيل والدراهم التى ورثتها الأقطار الاسلامية وكذلك الأقوال المختلفة فى تعيين المثقال الشرعى والدرهم الشرعى - وهما أساس الرطل البغدادى - لنستطيع أن نحصر كافة الاحتمالات التى لا يمكن أن يخرج عن نطاقها هذا المثقال الشرعى والدرهم الشرعى لتتمكن بعد ذلك من الرجوع بينها على ضوء هذه القواعد تم تحديد الدرهم الشرعى أو المثقال الشرعى حتى نستطيع تشخيص الرطل البغدادى .

وأما من هذه المثاقيل الدينار الذهب الفارسى أو الدينار الرومى - بنسبة الى أصل وزنه - والذى كان سائداً فى العراق عند ظهور الاسلام وكان وزنه وزن الدرهم البقل أى ٤,٢٠ جم أو ٤,١٩٥ جم . والدينار الذهب البيزنطى والذى كان سائداً فى الشام ومصر عند ظهور الاسلام وكان وزنه وزن الدرهم الاثينى المتأخرة أى المنخفضة وهو ٤,٢٥ جم أو ٤,٢٤٨ جم . ومن مثاقيل الأوزان مثقال الرطل الاسكندرى ٤,٦٨ جم ومثقال الرطل المصرى الرومانى ٤,٧٢ جم ومثقال الرطل الرومانى ٤,٥٢٧ جم وأما من الأقوال والمذاهب المختلفة فى تحديد الدرهم الشرعى أو المثقال الشرعى أنواع من الدراهم والمثاقيل شائعة الاستعمال فى بعض أرجاء العالم الاسلامى ويوصف كل منها بأنه هو الوزن الشرعى ومن ذلك الدرهم الشرعى

في مصر والذي سجله علماء الحملة الفرنسية على أن وزنه ٣.٠٨٨٤ جم وسجله المجلس الذي انعقد في عام ١٨٤٥ م بدار العيار المصرية على أن وزنه ٣.٠٨٩٨ جم (١) والدرهم القانوني في مصر - وفق القانون رقم ٩ لسنة ١٩١٤ - والذي يزن ٣.١٢ جم ومثاقله الذي يزن ٤.٦٨ جم . كما نجد في بغداد الدرهم البغدادي الحديث الذي يسجل وزنه صاحب كتاب الدينار الاسلامي (٢) على أنه ٣.٢٩٩٢ جم وكذلك المثلقال البغدادي ٤.٩٤٨٨ جم كما نجد في تركيا الدرهم الشرعي يزن ٣.٢٠٧٥ جم (٣) والمثلقال ٤.٨١٢ جم (٢) . كما نجد درهما آخر يقال إنه شائع الاستعمال في كثير من البلاد الاسلامية ويزن ٣.١٤٧ جم (٣) . وأما من أقوال بعض الباحثين في ذلك ما ذهب اليه علي مبارك من أن الدرهم الشرعي هو السالك ووزنه ٢.٨٣٣ جم وهو درهم الرطل الاسكندري عنده أو البغدادي الذي دارت عليه أحكام الشرع (٤) . فجميع أنواع هذه المئاتيل والدراهم ممثلة في الجدول الآتي كل منها في مكانه من نسب القاعدة العامة لنظام الوزن وحساب التقريط .

(١) الفلكي : رسالة في المقاييس والمكاييل ص ٨/٧

(٢) ناصر نقشبندی : الدينار الاسلامي ج ١ : ٢٣٧

(٣) دائرة المعارف الاسلامية ج ١ : ٩٧٩ (مادة درهم)

(٤) علي مبارك : المخطوطات التوفيقية ج ٢٠ : ٣٣

معايير الوزن ١٠٠-٩٦ ٢٥-٢٤	الكشبان			الدينار		البرم				
	٢٤	٢٢	٢١ $\frac{1}{4}$	٢٠	١٨	١٠:٧	٣:٢			
٤,٤٩١	٥,٦٦	٥,٣٢	٥,٠٠	٤,٦٨	٤,٢٠	٣,٩٤	٣,٥٠	١		
	٥,٦٠٤	٤,٨٠	٤,٥٠	٤,٢٠				٢		
	٤,٧٠٤	٤,٤٨	٤,٢٠	٣,٩٢				٣		
	٤,٤١	٤,٢٠	٣,٩٢	٣,٦٧٥				٤		
٤,٥٢٧	٥,٦٦٤	٥,٣٩٤	٥,١٥٧	٤,٧٢	٤,٢٥	٣,٩٧	٣,٥٢	٥		
	٥,٦	٤,٨٥٧	٤,٥٥	٤,٢٥				٦		
	٤,٧٦	٤,٥٣٢	٤,٢٥	٣,٩٦				٧		
	٤,٤٦٠٤	٤,٢٥	٣,٩٨	٣,٧٢				٨		
	٥,٦١	٥,٣٢	٥,٠٠	٤,٦٨				٣,٢٧٦	٣,١٢	٩
	٥,٢٤١٦	٤,٥٥	٤,٦٨	٤,٣٦						١٠
	٤,٩١٤	٤,٦٨	٤,٣٨٧	٤,٠٩٧						١١
	٤,٦٨	٤,٤٥٧	٤,١٨	٣,٩٠						١٢
	٥,٦٦٤	٥,٣٩٤	٥,١٥٧	٤,٧٢				٣,٣٠٤	٣,١٤٦	١٣
	٥,٢٨٢٤	٥,٠٣٤	٤,٧٢	٤,٤١						١٤
	٤,٩٥٦	٤,٧٢	٤,٣٤٥	٤,٠٦						١٥
	٤,٧٢	٤,٤٩٦	٤,٢١٤	٣,٩٢						١٦
	٥,٢٨٢	٥,٠٣٤	٤,٧٢	٤,٤١				٣,٠٨٨	٣,٩٤	١٧
	٤,٩٧٩٢	٤,٧٠٤	٤,٤١	٤,١١٦						١٨
	٤,٦٢	٤,٤١	٤,١٣٤	٣,٨٥						١٩
	٤,٤١	٤,٢٠	٣,٩٢	٣,٦٧٥						٢٠
٥,٣٨٩٢	٥,١٣٢	٤,٨١٢	٤,٤٩١		٣,١٤	٣,٩٩٤	٢١			
٥,٠٢٩٩٢	٤,٧٩	٤,٤٩١	٤,١٩١				٢٢			
٤,٧٢	٤,٤٩١	٤,٢١٤	٣,٩٢				٢٣			
٤,٤٩١	٤,٢٧٧	٤,٠٠٩	٣,٧٤				٢٤			
٥,٤٣٢٤	٥,١٧٢	٤,٨٥	٤,٥٢٧		٣,١٦٨٩	٣,٠١٨	٢٥			
٥,٠٧٠٢٤	٤,٨٢٨٨	٤,٥٢٧	٤,٢٢٥٢				٢٦			
٤,٧٠٢٢١	٤,٥٢٧	٤,٢٤٤	٣,٩٦١				٢٧			
٤,٥٢٧	٤,٣١١	٤,٠٤٢	٣,٧٧٢				٢٨			

فنشرع الآن في الترجيح بادئين بما يجري عليه العمل في الأقطار  
الإسلامية المختلفة .

فإذا كان الدرهم المصري الذي سجله علماء الحملة أو الذي سجله مجلس  
عام ١٨٤٥ م هو الدرهم الشرعي . والدرهم الشرعي سبعة أعشار المئقال --  
وجب أن يكون المئقال ٤,٤١٢ جم (  $3,0884 \times \frac{7}{10}$  ) أو ٤,٤١٤ جم  
(  $3,0898 \times \frac{7}{10}$  ) فإذا كان هذا المئقال ٢٤ قيراطا كان وزن الدينار الفارسي  
(٤,١٩٥ جم أو ٤,٢٠) بالنسبة لهذا المئقال  $\frac{7}{10}$  ٢٢ قيراط (الحدول س ٤,  
س ٢٠) وكان درهم النصبة المتفرع عن هذا الدينار الذهب هو ٢,٩٤ جم .  
ويعنى ذلك أنه قد كان هناك مئقالان أحدهما للوزن المجرى ومقداره ٤,٤١٤  
والتانى مئقال الذهب وورثه ٤,٢٠ جم ونسبتهما الى بعضهما ٢٤ :  $\frac{7}{10}$   
وهى دائما نسبة مئقال الوزن المجرى الى مئقال النقود ، وكان هناك درهمان  
أحدهما ٢,٩٤ جم ونسبته الى مئقال وزن المجرى ٢ : ٣ وهى دائما نسبة  
درهم الوزن المجرى الى مئقال لوزن المجرى (الحدول س ١٧) كما أن نسبة  
الى مئقال الذهب (النقد) ٧ : ١٠ وهى دائما نسبة درهم النقد الى مئقال  
النقد أو الدينار (الحدول س ١) : والدرهم الآخر وهو ٣,٠٨٨ جم إذا اعتبرناه  
درهم وزن مجرد وجب أن يكون مئقاله بنسبة ٢ : ٣ أى ٤,٦٣٢٦ جم  
(  $3,0884 \times \frac{3}{2}$  ) أو ٤,٦٣٧٧ (  $3,0898 \times \frac{3}{2}$  ) ولا نجد ذكراً للمثل هذا  
المئقال . وإذا اعتبرناه درهم نقد كان مئقاله بنسبة ٧ : ١٠ أى ٤,٤١ جم  
(الحدول س ١٧) ولا نجد ذكراً لهذا المئقال في النقد . وإذا أخذنا بعين  
الاعتبار ما ذكره مصطلفى الذهبى في رسالته في تحرير الدرهم والمئقال (١)  
من أن المصريين في نظامهم لتقريب جروا على اعتبار المئقال  $\frac{7}{10}$  ٢٢ قيراط  
والدرهم ١٦ أى بنسبة ١٠ : ٧ ثم في القرن الثانى عشر رفعوا المئقال الى  
٢٤ قيراطا مع بقاء الدرهم على حاله أى صارت النسبة ٢٤ : ١٦ أو ٣ : ٢  
أمكننا أن نحل طرفا من المشكلة ذلك أن الدرهم ٢,٩٤ جم إذا اعتبرناه ١٦

(١) مصطلفى الذهبى : تحرير الدرهم والمئقال ص ٧٧ (نشرة لجان الكرمى من مجموعة  
النقود العربية ) .

قيراطاً كان مثقاله الأول (٢٢٣) هو ٤.٢٠ جم وهو مثقال الذهب أو الدينار وكان مثقاله الثاني (٢٤ قيراطاً) هو ٤.٤١ جم . ومعنى ذلك أن هذا المثقال الأخير هو الذي حدث في القرن الثاني عشر . ولما كان الدرهم الشرعي بالنسبة للمثقال ٧ : ١٠ ووجد هذا الدرهم الحديد وهو ٣.٠٨ جم عن هذا المثقال الذي حدث في القرن الثاني عشر تطبيقاً للنسبة الشرعية وهي ٧ : ١٠ من هذا المثقال أوروبياً كان هذا الدرهم قد وجد على أساس مكة متأخرة لدرهم النقد ثم وجد المثقال الحادث في القرن الثاني عشر عن طريق تطبيق النسبة الشرعية أيضاً ١٠ : ٧ من الدرهم . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكره البلاذري وغيره (١) من أن العراقيين والاحناف في نظامهم للتقريب جروا على اعتبار المثقال ٢٠ قيراطاً بينما اعتبره الشاميون ٢١٣ وادركنا أن النسبة بين هذا المثقال ٤.٤١ جم وبين المثقال البطلمي ٤.٧٢ جم هي بالضبط نفس النسبة بين ٢٠ : ٢١٣ (الجدول ص ١٧) كان لدينا ما يدعوننا للاعتقاد أن هذا المثقال مثقال قديم وربما كان نفس المثقال العراقي للوزن المجرى ، خاصة وأن صلته بمثقال الذهب أو الدينار (العراق) صلة واضحة وهي كسبة ٢٤ : ٢٢٣ (٤.٤١ : ٤.٢٠) وهي نفس النسبة دائماً بين مثقال الوزن المجرى ومثقال النقد .

وهذا المثقال الذي يزن ٤.٧٢ جم وهو مثقال المن البطلمي إذا كانت نسبتته إلى مثقال الوزن المجرى العراقي هي نسبة ٢٠ : ٢١٣ أي النسبة بين حساب الشاميين والعراقيين في التقريب إذا معنا النظر فيه على ضوء حساب المصريين في التقريب أي اعتبرناه ٢٢٣ على طريقة المصريين وجدنا أن مثقاله الذي يزن ٢٤ قيراطاً هو ما يعادل ٤.٩٥٦ جم (الجدول ص ١٥) وهذا الوزن هو قريب جداً من وزن المثقال العراقي الحديث ٤.٩٤٨٨ جم لا يختلف عن ذلك إلا بتقريب . وإذا أردنا الدقة في ذلك وحسبنا المثقال البطلمي على أساس وزنه من المن البابل وهو (٥٠٥ × ٧) = ٧٥ مثقالاً

(٢٥ شاقلا) كان وزنه ٤.٧١٣٣ جم فاذا اعتبرناه على طريقة المصريين ٢٢٣ كان ٢٤ قيراطا تعادل ٤.٩٤٨٨٦ جم وهو المقياس البغدادي الحديث (٤.٩٤٨٨) تماما لا يفترق عن ذلك شيئا . ومعنى ذلك أن المقياس البغدادي الحديث ينتسب الى مقياس المن البطلمي بنسبة ٢٤ : ٢٢٣ على طريقة المصريين كما أن المقياس البغدادي القديم الذي كشفنا عنه (٤.٤١) جم) ينتسب الى المقياس البطلمي بنسبة ٢٠ : ٢١٣ أى وفق النسبة بين حساب العراقيين والشاميين ودرهم هذا المقياس الحديث يزن ٣.٢٩٩٢ جم .

وأما اذا كان الدرهم الشرعى هو ٣.١٢ جم وجب أن يكون المقياس بنسبة ٧ : ١٠ لهذا الدرهم أى ٤.٤٥٧١ جم (٣.١٢ ×  $\frac{7}{10}$ ) فاذا كان الدرهم ١٦ قيراطا كان هذا المقياس ٢٢٣ وكان مثقاله الثانى (٢٤ قيراطا) أى بنسبة ٢ : ٣ هو ٤.٦٨ جم (الجدول س ١٢) . أما المقياس الذى يزن ٤.٤٥٧١ جم فلا نجد له ذكرا بين المقاييل فلا نرى اذا كان قد وجد أم لا . واذا كان قد وجد فهو لا بد وزن قديم للنقد بنسبة ٧ : ١٠ من الدرهم كان قد اخضع قبل الاسلام لاننا لم نقف على اختيار مثل هذا النقد . واذا كان لم يوجد كان المقياس ٤.٦٨ جم — وهو الذى يعادل ٢٤ قيراطا بالنسبة لهذا المقياس الأول ٢٢٣ — مثقال وزن مجرد لم يرتبط بنقد وكان الدرهم ٣.١٢ جم درهم وزن مجرد بنسبة ١٦ : ٢٤ الى هذا المقياس . وهذا الدرهم وهذا المقياس هما أساس الرطل الاسكندرى وهما كذلك أساس الرطل المصرى الحديث وفق قانون رقم ٩ لسنة ١٩١٤

واذا كان الدرهم الشرعى هو ٣.١٤٦ جم فنحن نذكر أصل هذا الدرهم فهو درهم المن الاسكندرى الذى كان مثقاله كما ذكرنا ٤.٤٩١ جم (بنسبة ٧ : ١٠) وهذا المقياس كما نعلم هو الذى نشأ عنه الرطل الاسكندرى فى تفرعه عن نظام المن . وهذا المقياس اذا اعتبرناه ٢٢٣ وبخسنا عن مثقال وزنه المجرى ٢٤ قيراطا وجدناه ٤.٧٢ جم (الجدول س ٢٣) هو مثقال المن البطلمي والرطل المصرى الرومانى . ولما كان هذا المقياس ٤.٤٩١ جم هو مثقال المن الاسكندرى الذى ينتسب الى خلفاء الاسكندر من السلوقيين

والذى عنه تفرع الرطل الاسكندرى كان من المعتاد أنه كان شائع الاستعمال فى العراق . ولما كان العراقيون فى نظامهم للتقريب يعتبرون المئقال ٢٠ قيراطا فاذا اعتبرنا هذا المئقال كذلك وجدنا أن المئقال الذى يعادل  $\frac{2}{3}$  ٢١ من وزن هذا المئقال الأول - وذلك على طريقة الشاميين - هو ٤.٨١٢ جم (الجدول من ٢١) وهو عين المئقال التركى وبالتالي يكون الدرهم التركى (٣٠٧٥ جم). متفرعا عن مئقال هذا المن الاسكندرى على طريقة النسبة بين حساب العراقيين والشاميين . واذا اعتبرنا المئقال البطلمى (٤.٧٢ جم) ٢٠ قيراطا على طريقة العراقيين وجدنا أن درهم وزنه المجرد هو نفس درهم المن الاسكندرى ٣.١٤٦ جم بنسبة ٢٤ : ١٦ قيراطا .

واذا تركنا ما يجرى عليه العمل الآن فى الأقطار الاسلامية المختلفة واستكلنا النظر فى بقية أنواع المئقال والدراهم وجدنا دينار الذهب البيزنطى ووزنه ٤.٢٥ جم . ويقولون إن نسبة الدينار الى المئقال هى نسبة ١٨ : ٢٠ ومعنى ذلك أن مئقال هذا الدينار هو المئقال البطلمى ٤.٧٢ جم (الجدول من ٥) . ودرهم هذا الدينار بنسبة ٧ : ١٠ هو ٢.٩٧ جم وهو درهم الثقل . والدرهم الأخر بنسبة ٢ : ٣ أو ١٦ : ٢٤ يعادل ٢.٨٣ جم وهذا الدرهم الثانى هو وزن الساليت وهو ماذهب اليه على سبيلك على أنه الدرهم الشرعى لأنه فى نظره درهم الرطل الاسكندرى الذى يراه عين الرطل البغدادى . ونسبة هذا الدرهم - فيما أرى - وهى ٢ : ٣ غير نسبة الدرهم الشرعى الى المئقال التى هى ٧ : ١٠ .

ومن المئقال أيضاً مئقال الرطل الرومانى ويزن ٤.٥٢٧ جم ويبدو من دراسة نسبة المختلفة انه لم يكن ذا صلة بالمئقال والدراهم التى عرفها العالم الاسلامى غير نسبه الى دينار الذهب البيزنطى وهى ٩٠ : ٩٦ وهى أمر طبيعى . واذا كان الدينار الاسلامى قد ضرب على أساس الدينار البيزنطى فهذا هو القدر المحدود الذى ترتبط به الأوزان الاسلامية بهذا المئقال الرومانى .

وبعد أن حصرنا كافة الاحتمالات ومضينا قدما في الترجيح بينها نجد أن الخلاف بين أبي حنيفة وغيره في تشخيص الرطل البغدادي يقدم لنا أهم عنصر من عناصر هذا الترجيح. فالرطل البغدادي على تقدير أبي حنيفة (١) ١٣٠ درهما وعلى تقدير الشافعية  $\frac{128}{3}$  أى أن الفرق بين التقديرين هو  $\frac{1}{3}$  درهم. وإذا علمنا أن الدرهم  $\frac{1}{10}$  المئقال والمئقال  $\frac{1}{10}$  درهم علمنا أن الخلاف بين التقديرين هو قدر مئقال واحد. فأحد التقديرين يراه ٩٠ مئقالا بينما يراه الآخر ٩١ مئقالا. ولا خلاف في أن المقصود بالمئقال هنا هو مئقال الذهب دون سائر المئقال لاننا لا نستطيع أن نجد خلافا بين مئقالين من المئقال التي وصلنا الي وجودها ينتمى الى مثل هذه النسبة ٩١ : ٩٠ في مدى ١٣٠ درهما أو  $\frac{128}{3}$ . كما أن كل من تعرضوا لتشخيص الرطل البغدادي من القدماء - الذين ربما كانوا قد عاصروا وجود هذا الرطل - كانوا ينصرفون في تحديدهم الى مئقال الذهب ودرهم الفضة دون مئقال الوزن ودرهم الوزن المحرد. كما أن النسبة بين المئقال والدرهم هي ١٠ : ٧ وهي النسبة المجمع عليها هي النسبة بين درهم النقد ومئقال النقد (الدينار) دون وحدات الوزن المحرد.

أما مئقالا الذهب فهما : الدينار الفارسي وهو على وزن الدرهم البغلي أو الرومي وهو متطور كما رأينا عن الأوزان البابلية الفارسية السلوقية ووزنه ٤,١٩٥ جم أو ٤,٢٠ جم ، والثاني هو مئقال الدينار البيزنطي الذي وضع على أساس الدرخة الأثينية المحفضة ووزنه ٤,٢٤٨ جم أو ٤,٢٥ جم وهنا يبدو أن مسألة الخلاف في تقدير الرطل البغدادي مسألة سهلة الحل فواحد وتسعون مئقالا من مئقال الذهب بالعراق التي وضعها الفرس على أساس الدرهم البغلي تساوي تسعين مئقالا من مئقال الشام أو الدينار البيزنطي  $٩١ \times ٤,٢٠ = ٣٨٢,٢٠$  جم و  $٩٠ \times ٤,٢٤٨ = ٣٨٢,٣٢$  جم وهو نفس الوزن تماما لا يختلف الا بمقدار مليجرام واحد وبعض المليجرام. فكان سبب الخلاف

(١) معلق في النجوم : تحرير تدمر والمئقال ٧٩ (سنة مجموعة النقود العربية نشرة استانس الكرملي).

بين تقدير أبي حنيفة وغيره أن أبا حنيفة كان يقصد في تحديده مئائيل العراق  
 بينما كان يعنى غيره مئائيل الشام ومصر . فالرطل البغدادي بمئائيل العراق  
 ٩١ مثقالا ومئائيل الشام ومصر ٩٠ مثقالا وهو على كل حال ٢٨٢,٢٠ جم  
 أو ٢٨٢,٣٢ جم .

وإذا أخذنا في اعتبارنا ما ينقله علي مبارك (١) عن المقرئ من أنه  
 قد كان هناك مثقالان أحدهما أرجح من الآخر ويعرف بالمائة وهو مثقال الشام  
 وأن النسبة بينه وبين المثقال الآخر هي النسبة بين ١٠٢ : ١٠٠ وعلمنا  
 أن نفس هذه النسبة هي النسبة بين مثقال الذهب أي الدينارين البيزنطيين  
 والفارسي ٤,١٩٥ × ٢ : ١ = ٤,٢٧٨٩ أزدونا يقينا بأن المثقال الذي استعمل  
 في تشخيص الرطل البغدادي هو مثقال الذهب أو الدينار . قدره العراقيون  
 على أساس الدينار العراقي والشاميون والمصريون على أساس الدينار البيزنطي  
 ومن المستبعد أن يكون المقصود من ذلك مثقال الوزن المحرد لأن النسبة  
 بينهما أشد اختلافا عن ١٠٠ : ١٠٢ (٤,٦٨ × ١ : ١ = ٤,٧٧٣٦  
 و ٤,٧٢ × ١ : ١ = ٤,٦٢) .

أما كيف كان الرطل البغدادي ١٣٠ درهما أو ١٢٨ ١/٢ فهذا سرده  
 دون شك النسبة بين قيمة الذهب والفضة أو بين الدينار والدرهم وهي ١٠ : ٧  
 أما كيف كان ٩٠ مثقالا أو ٩١ مثقالا ولم يكن ٩٦ وفق النظام الرطل  
 الاثني عشرى ( أو ١٠٠ وفق نظام المن فمرد ذلك أمر بسير اذا علمنا أن  
 النسبة التي أفترق بها من الفضة عن من الوزن كانت نسبة ٩ : ١٠ أو ١٨ : ٢٠  
 قراطا فكان من الطبيعي أن يكون الرطل ٩٠ مثقالا بأحد المثقالين وربما  
 كان ذلك هو المثقال الأصلي وكان ما يعادله من وزن المثقال الآخر  
 (٩١ مثقالا) .

ويبدو أن الرطل البغدادي كان ذا صلة بمن الطيب الذي استمر  
 العمل به في العالم الاسلامي . فالرطل - كما هو معروف - نصف المن .

(١) الخط ج ٢٠ : ٢٩



غيرهم على أساس الدرهم والمقال الشائعين في مصر وإنشام فكان في ١٢٨ .  
 فالخلاف إذن خلاف في نوع الدراهم والمثاقيل وليس خلافا في مقدار  
 الرطل نفسه . وكانت هذه الدراهم والمثاقيل مرتبطة أول الأمر بمثاقيل الذهب  
 ودراهم الفضة فلما جاءت العصور التالية وفل استعمال الأوزان للتقد  
 انصرفت الأذهان - بحكم العرف الشائع - الى نظام الوزن المحرد  
 ومثاقيله ودراهمه . وغلب على اعتقاد كل فريق من العلماء أن الدرهم  
 الشرعي هو الدرهم المعروف لديه في اقليمه وظن أن الخلاف الأول في شأن  
 الرطل البغدادي هو خلاف في مقداره وليس خلافا في نوع الدرهم الذي  
 يحدد هذا المقدار . فنجدهم مثلا في تحديد مقدار ماء الثلج يذهبون الى أنه  
 يعادل ٥٠٠ رطل ببغدادى و٤٤٦ ٢/٣ بالمصرى أى أن الدرهم المصرى هو  
 عين الدرهم البغدادي وإنما الخلاف في عدد دراهم كل رطل فالمصرى  
 ١٤٤ درهما والبغدادي في ١٢٨ على حساب الشافعية .

وشيء آخر يحسن أن أتبه اليه وهو أنه - كما يبدو - لم يكن هناك في العالم  
 الاسلامي نظام واحد للوزن المحرد بل أكثر من ذلك لم يكن في الاقليم الواحد  
 نظام موحد للوزن بل كان هناك نظم مختلفة للوزن في الاقليم الواحد تختلف  
 باختلاف السلع فهناك من الطيب الذي ذكرنا أنه كان ٢٦ أوقية وأوقيته  
 عشرة دراهم . وكان في مصر الى عام ١٢١٧ هـ رطل خاص بالزياتين  
 كان ١٤ أوقية وكان يوزن به الحن والعسل والسمن واللحم وأبطل العمل  
 به عام ١٢١٧ هـ (١) وأكثر من ذلك فإن ابن مفاقي يمدد لنا أنواعا كثيرة  
 من الأبطال كان يجري استعمالها وهي : المصرى والمدمشقى والحلبى والعجلونى  
 والسلطى والطحاوى والعكاوى والحروى والبيى والزماهى والعلامى والحورى  
 والعلقى والفيومى والبغدادى والرومى والدمياطى والمهل والغزاوى  
 والرملى والبيسانى والحمصى والحموى والتابلسى والزياتى (٢) وكان كل  
 نوع من هذه الأنواع يختص بوزن نوع خاص من السلع سواء في الاقليم

(١) عن مبارك : المخطط ج ٢٠ : ١٥٨

(٢) قوانين التداوين ٣٦٠ هامش ٤ ، ٢٦٦ وما يليها

الذي ينسب اليه أوفى غيره من الأقاليم . وإن هذه الكثرة والتعدد في نظام الأوزان في العصور المتأخرة لا بد وأنها كانت موروثه في معظمها على الأقل من العصور الأولى . فاذا كان الفقهاء الأولون قد حاولوا تشخيص هذا الرطل فانما حاولوا تشخيصه بأعم نظام للوزن وأشهره وهو بمقال الذهب أو أوزان القندون غيرها من الأوزان التي اختص كل منها بنوع خاص، ومن المعقول أن تكون أوزان المعدنين الثمينين هي أعم الأوزان وأشهرها أو أن تكون هي أساس العيار يضبط على أساس مثاقيلها أوزان غيرها . ولما كان هناك مثقالان للذهب في العالم الإسلامي كان هناك عياران مختلفان شخص الرطل البغدادي تشخيصين مختلفين على أساس هذين العيارين .

• • •

وإذا كنا قد وصلنا الى هذه النتيجة وهي أن الرطل البغدادي ٣٨٢,٢٠ جم أو ٣٨٢,٣٢ جم - ومع كل الاحتياط أن يكون هناك وجه للمخالفة أو أن تكون الحقيقة في غير جانبنا - نستطيع أن نقضى قدما في تحرير مقدار الصاع النبوي . فاذا كان الرطل البغدادي يعادل ٣٨٢ جم ومقدار الصاع من الخيوط يعادل خمسة أرطال وثلاث الرطل بهذا الرطل البغدادي كان وزن هذا الصاع من الحب  $382 \times \frac{5}{16} = 2037,3$  جم . ولما كانت النسبة بين وزن مخلوط الخيوط ووزن الماء هي النسبة بين  $\frac{5}{16}$  و ٨ كما بينا قبل ذلك كان وزن الصاع من الماء  $8 \times 382 = 3056$  كجم أي أن حجم الصاع ثلاثة لترات و٥٦ . من اللتر . ولما كان القدح المصري يعادل ٢,٠٦٢ لتر وفق الكيل القانوني (قانون ٩ لسنة ١٩١٤) ويعادل ٢,١٢٣٥ لتر وفق حساب محمود الفلكي كان الصاع يعادل قلدحا و٤٨٢ . من القدح وفق التقدير الأول ( $\frac{2,062}{2,1235} = 1,482$ ) ويعادل قلدحا و٤٣٩ . من القدح وفق التقدير الثاني ( $\frac{2,062}{2,1235} = 1,439$ ) أي أنه قريب من قدح ونصف يقل عن ذلك قدرأ يسيراً .

أما هذه النتيجة التي وصلنا اليها فهي قريبة مما ذهب اليه علماء المالكية من مؤلفي «الفتحة على المذاهب الأربعة» في تقديرهم للصاع في زكاة الحنث بقدح وثلاث . فالفرق بين النتيجة التي وصلنا اليها وبين تقديرهم أقل من

سبح القدر على التقدير الأول وأقل من سبع قدر على التقدير الثاني .  
وأما ما ذهب إليه علماء الشافعية من مؤلفي الفقه « على المذاهب الأربعة »  
في تقديرهم لصاع الفطرة بقدرين وما ذهب إليه علماء الأحناف من تقديرهم  
الصاع بقدرين وثلاث فيختلف عما وصلنا إليه اختلافاً بينا .

## المراجع

- ابن حزم** - أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦): المل - القاهرة ١٣٤٧/١٣٥٢
- ابن خلدون** - عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٨٠٨) :
- السكة (فصل من مقدمة ابن خلدون - مجموعة النقود ص ١٠٢/١٠٩) نشره  
انتاس الكرميل . القاهرة ١٩٣٩
- ابن صفاتي** - الاسما بن ماقا (٦٠٦) : قوانين الدراوين - القاهرة ١٩٤٣
- أبو عبيد** - أبو عبيد القاسم بن سلام (٣٤٤) : الأموال - القاهرة ١٩٥٣
- البلاذوري** - أحمد بن يحيى بن جابر البغدادي (٢٧٩) : فتوح البلدان (أمر اتقود ص ٤٧٠  
٤٧٩) - القاهرة ١٩٠١
- جواد علي** - تاريخ العرب قبل الإسلام (قياس الأبعاد والكيل والوزن ج ٨ ص ٤١٠/٤٨٢)  
بغداد ١٩٦٠
- الذهبي** - مصطلح الذهب الثامن : تحرير الدرهم والدينار والدرهم والمكيال وبيان تقدير  
النقود المتداولة بمصر ومقدار ما حدد بدار اشرب سنة ١٢٥٩ هـ (ضمن  
مجموعة النقود العربية ص ٧٥/٨٦) نشره انتاس الكرميل - القاهرة ١٩٣٩
- علي مبارك** - (١٨٩٣م) :
- بيان الدراهم والدينار وشكل النقود وهيأتها وما يتبع ذلك قديما وحديثا.  
(الجزء الثمرون من الخطط التوفيقية) القاهرة ١٣٠٦
- الفلكي** - محمود الفلكي (١٨٨٥م)
- رسالة في المقاييس والمكاييل العملية باندبار المصرية - الاستانة ١٢٩٠
- المقرئزي** - تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر (٨٤٥) : كتاب النقود الإسلامية (ضمن  
مجموعة النقود العربية ص ٢١/٧٣) نشره انتاس الكرميل - القاهرة ١٩٣٩
- النقشبندی** - ناصر السيد محمود النقشبندی : الدينار الإسلامي والمتحف العراقي (الجزء الأول  
الدينار الأموي والعباسي) بغداد ١٩٥٣

A. M. El- Housseini :

The Umayyad Policy in Khorasan and its Effect on the Formulation of  
Muslim Thought (Journal of the University of Peshawar) No. 4, December 1955.



## الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية

للدكتور جزييف نسيم يوسف

اتسمت الحروب الصليبية في ظاهرها بمبسم ديني استهدف به الغرب الأوروبي استلاك الأراضي المقدسة وتخليص قبر المسيح من قبضة العرب ، وواقع الأمر أن ما تكن سوى حروبا استعمارية بعيدة كل البعد عن الغرض الديني ، الذي ما قصد به الا إثارة الحماس والتعصب في نفوس أهل المغرب . ولا جدال في أنه كان للكنيسة اللاتينية وقتذاك سيطرتها المطلقة في أوروبا . فقد تغفل الدين في حياة الأفراد الخاصة والعامة ، الأمر الذي مكن الكنيسة من تعبئة هذا الشعور وتوجيهه في حرب عدوانية ضد الشرق استمرت قرابة ثلاثمائة عام أو يزيد . وقد ترتب عليها من الآثار ما لا يزال احقيقة قائمة حتى يومنا هذا .

ولقد قامت تلك الحركة نتيجة لعدة عوامل متشابكة معقدة متداخلة في بعضها ، منها الرئيسي والثانوي ، ومنها المباشر وغير المباشر ، ومنها الخفي والظاهري . ومن أهم هذه العوامل نظرة الغرب الى الشرق منذ أقدم العصور باعتباره مهبط الوحي والأديان ومهد العلم والمعرفة ومركز الحضارة والاشعاع الثقافي . وكذلك تطور حركة الحج الى الأراضي المقدسة عبر القرون الطويلة ، ونمو فكرة الحروب المسيحية المقدسة ضد العرب في الغرب الأوروبي منذ اقرن التاسع الميلادي حتى قيام الحركة الصليبية في ختام القرن الحادي عشر . هذا بالإضافة الى الأحوال السياسية السائدة في الغرب اللاتيني ودولة الروم والعالم العربي وقتذاك . (١) كل هذه العوامل متكيفة ساهمت في

(١) لا يخفى كتاب من كتب الحروب الصليبية أو أحد فصولها من الحديث عن عوامل قيام هذه الحروب . فن المراجع الأفرنجية يجب أن نذكر مؤلفات ميشو ، وبريه ، وشالنتون ، وجروسيه ، وراشميان . ومن المراجع العربية والعربية نذكر : ديفيز : أوروبا في الضصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدي ، ص ١٧٨ - ٢٠٨ ، والدكتور عمر كان : ملكة بيت المقدس الصليبية ص ٩ - ٢٢ ، وباركو : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريفي ، ص ١١ - ٢٦ .

التمهيد للحروب الصليبية وتمهئة الجو والأذهان لقبولها ، تحفيقا لأقراض  
وأطعام بعيدة الغور في سير مجرى التاريخ .

وإذا كان لنا أن نناول الأسباب التي هيأت الحوا لقيام هذه الحروب ،  
وأدت في نهاية الأمر الى احتكاك أهل المغرب بكل من العرب والروم  
في الشرق ، فأنا سنكشف في هذا المقال عن الرجل الذي مثل دورا رئيسيا  
فيها والدافع الشخصي في قيامها .

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه بحث شاق وعمر ، دار حوله الكثير  
من الخلاف بين المؤرخين ، إذ تباينت فيه النظريات ، ولم يبت فيه برأى  
قاطع حتى الآن . ولم يدرس هذا الموضوع الآن دراسة وافية ، ولم يظهر  
فيه كتاب أو بحث مستقل قائم بذاته يلم بكل أطرافه ونواحيه . وكل ما هنالك  
نتف وشذرات مبعثرة هنا وهناك لا تشفى غلة الباحث . ولذلك أصبح لزاما  
على المتصدي له تتبعه في شتى المصادر والأصول من شرقية وغربية ، معاصرة  
وغير معاصرة .

لقد حاول كثير من المؤرخين استناد هذه الحركة الى شخص  
دون آخر أو الى عامل بالذات دون عوامل أخرى . كما لعبت الأساطير  
والخرافات دورا كبيرا في هذا الصدد . فهناك مثلا من ينسب أمر قيامها  
الى الامبراطور شارلمان وأغنية رولان المعروفة . وجعل البعض الآخر من بطرس  
لذاسك داعية لهذه الحروب ومنفذا لها . وهناك طائفة من المؤرخين تعزى  
قيامها الى امبراطور الدولة البيزنطية الكيس كومنين . بينما يرى كثير  
من المؤرخين المحدثين أن الدور الأول ينسب الى الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية  
وبابوية روما ، وبخاصة البابا أربان الثاني الذي سعى جاهدا على أن يقوم  
في الشرق للعرب بنفس العمل الذي سبق أن قامت به جماعة كلوني الديرية  
ضد العرب في أسبانيا قبل قيام الحروب الصليبية بحوالي نصف قرن .  
وستناول فيما يلي أهم هذه للنظريات والأفكار بالدراسة والتحليل .

## (أولا) أنشودة رولان وقصيدة جيج شارلمان :

في سنة ٤٦٧ سقطت الامبراطورية الرومانية القديمة إثر هجمات البرابرة عليها . وأسست هذه العناصر المتبررة دويلات جرمانية على انقاض الامبراطورية المهارة . فاستقر الانجلوسكسون في الجزيرة البريطانية ، والتقوط الشرقيون في ايطاليا ، والغريون في اسبانيا ، بينما أسس الفرنجة مملكة لهم شملت مساحات عظيمة في غرب أوروبا . من بينها فرنسا وأجزاء واسعة من ألمانيا التي تعتبر موطن الفرنجة الاصلى . وقد آلت هذه المملكة في آخريات القرن الثامن الى الكارولنجيين وعلى رأسهم شارلمان أو شارل العظيم . ويعتبر حكمه الذي امتد من سنة ٧٦٨ الى ٨١٤ من الفترات الهامة الحاسمة في تاريخ الغرب الأوروبي الوسيط ، لما يرتبط به من احياء الامبراطورية الرومانية المقدسة وتقدم الحضارة وازدهار العلوم والآداب والفنون وقتذاك .

ففي ظل هذه الظروف المواتية واصل شارلمان جهود سلفه شارل مارتل في محاولته الياسسة القضاء على حكم العرب في غرب أوروبا . وأخذ يتحين الفرص لتحقيق حلمه هذا . وقد واثته الفرصة عندما دعاه الأمراء العرب المرابطين شمال نهر الايرو لمساعدتهم في حروبهم الداخلية ضد خليفة قرطبة . وكان من أثر ذلك أن قام بمحلتين متتاليتين تجاه الاندلس في عامي ٧٧٨، ٧٧٧ . والحملة الثانية هي التي خلدها الشعراء في الانشودة المعروفة باسم أنشودة رولان التي تعتبر من أهم الأناشيد في الأدب الشعبي في العصور الوسطى الأوروبية ، وإن لم يكن لها من الأهمية التاريخية والنتائج الحاسمة ما يبدو من شهرتها الفاتحة في التاريخ (١) .

(١) ديفيز : أوروبا في العصور الوسطى ص ٥٦ - ويعتقد نفس المؤرخ في كتابه : شارلمان ص ٢٨٥ - ٢٨٧ ، أن القى ألف أنشودة رولان شاعر نورماندى مجهول الاسم عاش في انجلترا عقب الفتح النورمانى لها . وهي تشتمل على أربعة آيات بيت معلنة بأملوب يصلح للقاء لا للقاء . وفيها يتحدث الشاعر عن أعمال شارل الحربية في اسبانيا وحصاره للمدن ودكة القلاع والحصون في أسلوب لا يخلو من المبالغة والتحويل . ويقول إن رولان الذي تنور حوله هذه القصيدة هو شخصية واقعية ، وقد اشترك بنفسه في الحروب المذكورة وغير صريحا أثناء انسحاب الفرنجة من اسبانيا . ونظرا لما كانت القصيدة تحويه من آراء وأفكار تدعو الى الجهاد والقتال ، فقد استعملت زمن الحروب الصليبية لتحقيق أغراضها وأهدافها .

كل هذا كان له أثره في ذبوع صبيت شارلمان في الغرب والشرق حتى وصل الخلافة العباسية في بغداد . وتبدلت السفارات والهدايا بين العاهلين العربي والمسيحي . وبقا إن شارلمان نجح في الحصول على تفويض من هارون الرشيد بحماية مسيحيي فلسطين ، وتقديم التسهيلات اللازمة للحجاج اللاتين الى الاراضي المقدسة ، وإن الخليفة منحه فوق ذلك ملكية القبر المقدس الذي شيده الامبراطور قسطنطين في القدس في أوائل القرن الرابع الميلادي . ويزعم بعض المؤرخين أن بطريق بيت المقدس أرسل الى شارلمان مفاتيح قبر السيد المسيح اعترافاً ضمناً منه برعامته الروحية على العالم المسيحي (١) .

هذه هي الظروف التي استغلها الغرب في الدعاية للحركة الصليبية في أحرىات القرن الحادي عشر ، أي بعد وفاة الامبراطور شارلمان نحوالي ثلاثمائة عام . وعلى هذا الأساس ظهرت أغنية رولان وأسطورة حج شارلمان في الأدب الشعبي في ذلك الوقت بالذات بقصد إيقاظ التمرة الدينية في نفوس مسيحيي الغرب ودفعهم في حماس جنوني لخدمة اخوانهم في الشرق ، في وقت جندت فيه الافلام والحقول والافكار لخدمة هذا الغرض فحسب .

وقد تناول هذه الفكرة بالدراسة أكثر من مؤرخ نذكر منهم كارلس ديفيز وجاستون باريس ، وهما من كبار العلماء المتخصصين في التاريخ الوسيط . ويقول أولهما ان هذه الأسطورة كانت معروفة من قبل ، ولكنها دخلت في فترة الحروب الصليبية في مرحلة جديدة . إذ ساد الاعتقاد وقتذاك أن شارلمان نهض من الموت ليقود أول حملة صليبية متجهة الى الشرق . وقد استغل الشعراء اللاتين هذه الناحية ، وهم يعرفون جيداً أثرها في النفوس . ولعلمهم وجدوا تشجيعاً وترحيباً من البابوية والهيئات الدينية الأخرى في الغرب ، فخرجوا لنا بأسطورة جديدة لعب فيها الجيل دوراً كبيراً ، إذ صوروا شارلمان في هيئة محارب صليبي في حروب مستمرة ظافرة ضد العرب . ولم يكتفوا بذلك ، بل نسجوا من خيالهم قصة مؤداها

(١) ديفيز : شارلمان من ٢٠٢-٢٠٣ و٢٠٣-٢٠٤ .

أن الامبراطور المذكور حج الى اورشليم وزار القسطنطينية عاصمة بيزنطة والتقى بكبار المشولين فيها ، وذلك بقصد تعبئة الشعور بين أهل الغرب ضد العرب في الشرق . وكان من أثر ذلك أن شوها الأنشودة الأصلية القديمة مما أدخلوه عليها في آخريات القرن الحادى عشر من آراء وأفكار تحقيقاً لغايات معينة (١) .

ويضق المؤرخ جاستون باريس مع زميله ديفز في أن أغنية رولان وقصيدة حج شارلمان هما من وحى الخيال ، وأنهما لا يستندان الى الحقائق التاريخية . ويزيد الأمر وضوحاً فيقول ان الأغاني التي وضعت في فترة متأخرة أقتبست نماذج لشخصيات مثل رولان من الأناشيد والملاحم الأصلية القديمة التي وردت فيها تلك النماذج للمرة الأولى . وان الأغاني والقصائد التي استلهمها مؤلفوها من أحداث الحروب الصليبية لا شأن لها بتلك الملاحم القنائية القديمة مثل أغنية رولان ، وان كانت قد اخذت عنها اطوارها العام فحسب . وبناء على ذلك فالقصائد التي وضعت أيام الحركة الصليبية أما تقليد للقصائد الأصلية أو ابتداء من بحيلة الشعراء . ويخلص الكاتب من هذا أن أنشودة رولان تم احياؤها في القرن الحادى عشر لتحريك الشعور في غرب أوروبا ضد العرب في الشرق . أما قصيدة حج شارلمان فهي قصيدة باريبية الأصل ترجع الى سنة ١٠٦٠ تقريباً . وتكاد تكون الانتاج الأدبي الوحيد الذي وصل إلينا من هذا التاريخ المبكر في شكله الأصلي دون أن نتمد اليه يد التحوير أو التغيير . ومع ذلك فهي مخلقة من خيال الشاعر الذي نسب الى شارلمان ورجاله أعمالاً لم يقوموا أصلاً بها . فهي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، شأنها شأن أغنية رولان (٢) .

والخلاصة أن حج شارلمان للاراضى المقدسة أسطورة غير موثوق بصحتها ، ابتدعتها أقلام الكتاب اللاتين عند بداية الحركة . وليس في المصادر المعاصرة لشارلمان ما يؤكد قيامه بهذا الحج . وهذا ما يمكن أن يقال أيضاً عن أغنية

(١) ديفز : شارلمان ص ٢٨٧-٢٨٨ .

(٢) Paris, Mediaeval French Literature, 32, 38-42.

رولان التي كانت عبارة عن صورة ممسوخة مشوهة للقصيدة الأصلية .  
وليس من العسير ادراك أنه لم يكن لحج شارلمان أو الانتشودة أي أثر مباشر  
في قيام الحروب الصليبية أو حتى في التمهيد لها ، اللهم الا دورها في إثارة  
الرغبة الكامنة لدى اللاتين للعمل على توسيع دائرة نشاطهم بحيث تشمل  
الشرق العربي الى جانب شبه الجزيرة الايبيرية . وقد ضمن الغرب في ابتداء  
مثل هذه الأساطير التي لاقت نجاحا كبيرا في ذلك الحين .

(ثانياً) دور بزنطه والكيس كامين في الدعوة الى الحروب

الصليبية :

وهناك فئة من المؤرخين المحدثين ترجع الى الامبراطور الكيس كامين  
أمر قيام هذه الحروب . ويستدلون على ذلك من خطاب (١) يقال إن الامبراطور  
اليزنطي أرسله حوالي سنة ١٠٨٨ الى الكونت روبرت الاول امير الأراضى  
الواطة (٢) ، يطلب منه فيه المبادرة بإرسال تجندات الى الشرق للدفاع  
عن القسطنطينية ضد السلاجقة ووقف تيارهم الجارف ، ثم التوجه بعد ذلك  
للاستيلاء على الأراضى المقلعة .

إن طلب الكيس الماعدة من أهل الغرب والدعوة الى الحروب الصليبية  
أمر لا يزال مثار كثير من الخلاف بين المؤرخين . ولكن مما لا شك فيه أنه  
قد طلب العون من البابا ايزابان الثانى في مؤتمرى بياتشيزا Piacenza وكلمرون

---

(١) أورد جيبيرث ده فوجان مقتطفات من الخطاب المذكور باللاتينية في الجزء الرابع  
من مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ١٣١-١٣٢ . ولا نعلم إن كان  
هذا هو الخطاب الأصل أم ترجمته ، اذ لم يصلك النص الاغريقى له . كذلك نشره في سنة ١٩٠١  
العام الألماني هاجينباير ضمن مجموعة وثائق باللاتينية تحت اسم : خطابات ومواسم متعلقة بالحرب  
الصليبية الأولى - ص ١٢٩ - ١٣٦ . وقد نقل الخطاب المذكور الى اللغات الانجليزية والفرنسية  
والألمانية .

(٢) هو الكونت روبرت الاول ده فلامدورز ، وهى لأراضى الواطة أو بلاد الفلندس  
إحدى مقاطعات فرنسا . وقد حكم من سنة ١٠٦١ أو ١٠٩٣ ، وكان من كبار رجال الانطاع  
في الغرب ، وتمتت بلاده بكثافة مرموقة في التحسين السياسية و لانتصافية وقتذاك . انظر :

Grousset, Crois., I, p. 1n. 1.

Clermont ، ومن بعض كبار رجال الاقطاع في الغرب مثل روبرت أمير الأراضي الواطئة . ومع ذلك لا يمكن أن نبت برأى حاسم فيما يتعلق بنوع هذه المساعدة وماهيتها ، وعمما إذا كان هدفها مساعدة الجيش البرنتى ضد الخطر السلجوقى فحسب ، أم الدعوة الصريحة الى حرب صليبية بمقصد غزو الأراضي المقدسة .

لقد أثار الخطاب المنوه عنه الكثير من الخذل ، وكان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب أن الحملة الصليبية إنما تحركت صوب القسطنطينية بناء على طلب الامبراطور البرنتى . واعتقد كثير من العلماء القدامى في صحة هذه الوثيقة التاريخية المنسوبة الى الكسيس كومنين (١) . وفيها يصف في أسلوب لا يخلو من المبالغة مافعله الاثراك السلاجقة في الدولة البرنتية من مذابح وتقتيل ومن أعمال اللدب والنهب ، وكيف أنهم باتوا يهددون العاصمة نفسها بشر مستطير . ويجده بضراب على أحد الأوتار الحساسة باثارته الحماسة الدينية بين أهل الغرب ، عندما ذكروهم بما يوجد في القسطنطينية من مخلفات وذخائر مقدسة . ولم ينس ان يقدم لهم . فضلا عما تقدم - المفريات المادية ، عندما لوح لهم بما يوجد في العاصمة من كنوز ونفائس وأموال وذهب وأحجار كريمة ، وهو يعلم سلفا بجشع الالاتين وحجم الشديد للمال . وأكد لهم أنهم اذا هبوا لتجديته ستكون هذه الكنوز والتحف من نصيبهم ، أما اذا باطشوا فستقع غنمة باردة في قبضة التركان . ويطلب منهم في ختام خطابه المبادرة بارسال الامدادات لانقاذ عاصمته المهتدة ، ثم التوجه بعد ذلك للاستيلاء على البيت المقدس وتخفيض قبر المسيح .

هذا هو الخطاب الذى احتدم الخلاف حوله ما بين مؤيد ومعارض . وهناك رأيان على طرفى نقيض في هذا الموضوع . أولهما رأى المدرسة الألمانية التى تنادى بصحة هذا الخطاب . وأنه إذا لم يكن الخطاب الذى وصلنا هو النص الأصيل فهو على الأقل صورة أخرى منه تحوى نفس المعنى وإن كان بأسلوب مغاير . ويدافع عن هذا الرأى المؤرخان المعروفان هاجنباير

Hagenmeyer وهرشت Röhricht (١) . أما الرأي الثاني فهو رأي المنرسة  
الفرنسية المعارضة ، وهي تنفى نفياً قاطعاً أن الكيس أرسل أى خطاب الى  
أمير الأراضي الواطئة ، وعلى رأس هذه المنرسة العالمان شالندون Chalandon  
وشارل ديل Ch. Diehl . ويرى هذا الرأي أيضاً كثير من المؤرخين المحدثين  
أمثال الكونت بول ريان Paul Riant وفازيليف Vasiliev واستروجرسكى  
Ostrogorsky وستيفن رانسيان .

ويعزز الفريق المعارض رأيه بقوله ان الأسلوب والكيفية التي دون بها  
الخطاب لا تتفق بحال مع العادات والتقاليد التي كانت متبعة في ديوان الانشاء  
في الدولة البيزنطية في ذلك الحين . ويضيف الى ذلك أن هذا الخطاب لم يكتب  
عام ١٠٨٨ ، وإنما وضع في غرب أوروبا نفياً بين عامي ١٠٩٨ و١٠٩٩ ،  
أى بعد تاريخ الخطاب بحوالى عشر سنوات - وذلك بقصد اثاره شعور  
أهل الغرب وحثهم للاشتراك في الحرب الصليبية والاسراع بإرسال  
النجادات الى الأفرنج بالشرق . وترجع المنرسة المذكورة أن الخطاب  
وضع أثناء حصار مدينة انطاكية في الحملة الأولى . وأنصار هذا الرأي  
يدللون على ذلك بقولهم ان البيزنطيين فوجئوا بوصول هذه الجيوش اللاتينية  
التي كانت تفوق في عددها « نجوم السماء ورمال البحار » (٢) وفقاً لرواية  
الأميرة آن كومنين ابنة الامبراطور الكيس .

ويقول المؤرخ الفرنسي شالندون ان الكيس لم يكن صاحب الفكرة  
في قيام هذه الحروب ، وان البيزنطيين لم يستدعوا الغربيين لتقيام بحرب  
مقدسة في الشرق العربي ، وان الامبراطور البيزنطي حينما طلب من الكونت  
روبرت ارسال امدادات ، فذلك لأن الخطر التركي كان يهدد الدولة البيزنطية  
وتشدد . يضاف الى ما تقدم أن بيزنطة كانت تستخدم الغربيين في جيوشها كمرزقة  
قبل عهد الكيس كومنين . وكانت ترسل من وقت لآخر الى كبار رجال

(١) راجع عن مناقشة في هذا الموضوع : Grousset, Crois., I, p. 2 & n 2

(٢) Anna Comnena; Alexiad, 249 & 263. Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 16.

الغرب والى البابوية نفسها في طلب العون والمساعدات وارسل الفرنسكان لدفع التركان عن حدودها . ولذلك فان طلب الامبراطور المساعدة من الغرب لا يعنى اطلاقا الدعوة الى القيام بحرب صليبية أو الذهاب للاستيلاء على البيت المقدس . ويذهب شالندون الى أبعد من ذلك . فيقول ان ما ذكره المؤرخ برنولد Bernold من أن الكيس أرسل وفدا الى مجمع بياتشزا (٧ مارس ١٠٩٥) لحث الغرب على اغاثة الامبراطورية البيزنطية ، ليس له نى أساس من الصحة ، ذلك لأن الامبراطورية كانت وقتئذ في حالة تمكثها من صدأى اعتداء خارجى عليها (١) . ثم أن المؤرخين اللاتين المعاصرين لتلك الفترة امثال المؤرخ المجهول ، وريمون داجيل Raimond d'Agiles وفوشيه ده شارتر Foucher de Chartres ، لم يشيروا في كتبهم وتآليفهم الى طلب الكيس المساعدة من أهل الغرب للقيام بحرب مقدسة في رقعة الشرق العربى كذلك التى شنأ اللاتين ضد العرب في الغرب الأوروبى . واننا لا نجد هذه الأسطورة الا في كتب المؤرخين اللاتين المتأخرين نسيا أمثال روبرت الراهب (٢) وجيرت ده نوجان (٣) .

ويعلل شالندون قيام هذه الأسطورة بقوله إن أهل الغرب عندما علموا بالصعاب العديدة التى تحملها رجال الحملة الأولى ، وعندما رأوا قلة من عاد منها اذا قورن بالاعداد الضخمة التى غادرت أوطانها ، لم يكن باستطاعتهم أن يتصوروا أن السبب في ذلك إنما يعزى الى عدم كفاءة رؤساء الحىوش الفرنجية والى خلافتهم ومنازعاتهم المستمرة ، وعدم وجود قيادة موحدة وخطة مرسومة ثابتة . فألقوا المشولية جزافا على كاهل الامبراطور البيزنطى . وكانت متاعبه ومشاكله مع زعمائهم ، وما أظهره حيا لهم من الحزم والعزم كى يحافظ على دولته ، سببا في اختراع هذه الأسطورة المعادية له ، والتى أنتشرت بصفة خاصة بين الطبقات الشعبية في المجتمع العربى الوسيط في القرن الحادى عشر (٤) .

Chalandon, Alexis Comnène, 156-157. (١)

Robert le Moine, R.H.C. — H. Occ., III, 727. (٢)

Guibert de Nogent, R.H.C. — H. Occ., IV, 131 — 132. (٣)

Chalandon, Alexis Comnène, 157. (٤)

ويتفق الكونت بول ريان مع شالندون ودليل في أن الخطاب مختلف من أسامه ، ولا يوجد أى أصل يوناني له ، وأنه وضع في القرب تحفيقا للاغراض المتوه عنها . ويذكر ريان أن مقتطفات من الخطاب المذكور وردت في كتابي جيبرت ده فوجان وروبرت الراهب ، ويعتقد أن واضح الخطاب هو روبرت الراهب (١) .

أما الأستاذ فازيليف فيضع النقط فوق الحروف ، فمثلا ان الحركة الصليبية كانت مشروعا غربيا بحثا ، وان وضع بيزنطة من هذه الحركة كان معقدا غاية التعقيد . فلم يكن لديها أى فكرة عن الحرب الصليبية بمعناها المعروف في الغرب في القرن الحادى عشر . ثم أن امتلاك فلسطين لم يعد أمرا حيويا بالنسبة لها وقتذاك . هذا فضلا عن أنه لم يكن يوجد عداة ديني بين البيزنطيين والعرب ، ولم يوجد مبشرون في بيزنطة للدعوة للحملة الصليبية ، على عكس الحال في الغرب الأوروبي . ويزيد فازيليف الأمر وضوحا فيذكر أن بيزنطة قد تورطت دون رغبة منها في الحملة الصليبية الأولى . وكانت رغبةا الوحيدة هي الحصول على بعض المساعدات ضد تهديد السلاجقة لها ، ولم يكن هذه الرغبة أى صلة بالحملة الغربية على فلسطين (٢) .

ويقف العالم استروجرسكى الى جانب زملائه شالندون وريان وفازيليف . فيؤكد أن الحركة الصليبية كما فهمها الغرب كانت أمرا غربيا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية . فلم يجد جديد في العلاقات بين البيزنطيين وجيرانهم العرب يستدعى القيام بمثل هذه الحركة . ثم أن مسأنة الاستيلاء على الاراضى المقدسة - من وجهة النظر البيزنطية - هي مسألة سياسية من اختصاص الدولة ، وليست فرضا واجبا على المسيحية عامة . وأخيرا فإن الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية الذى بلغ ذروته في أواسط القرن الحادى عشر يكاد يجعل من المستحيل وجود أساس طيب للتعاون المشترك بين الطرفين .

(١) Riant, A. O. L., I, 74 sqq. Cf. Molinier, II, 275.

(٢) أنظر مقال فازيليف في : Baynes and Moss, Byzantium, 322.

ويختم استروجرسكي تعليقه بقوله ان بيزنطة لم تطلب من الغرب محاربيين صليبيين وانما جندا مرتزقة (١) .

وبما يعزز هذا الرأي أن الكسيس اعترته الدهشة عندما علم بفرزول هذه القوات الجراوة في غير نظام على أراضي امبراطوريته . وتؤكد آن كومنين في كتابها عن تاريخ حياة أبيها أنه لم يكن يعرف شيئا عن هذه الحركة ، وأنه علم بتقديم الفرنج عن طريق الاشاعات والأقاويل . ولذلك فوجيء بوصول هذه القوات التي لم تكن منذ أن حلت بالامبراطورية عن أعمال السلب والتدمير . وتذكر الكاتبة الأغرريقية أن الصليبيين الغربيين اتخذوا من مسألة الاستيلاء على أورشليم متاريا يخضون وراءه مطامعهم التي اجمعوا عليها ، الا وهي خلع الامبراطور والاستيلاء على عاصمة ملكه بعد أن أغرامهم ثراؤها الفاحش وهم قوم جشعون محبون للمال ، حتى أن الامبراطور نفسه كان يعتقد أن وجهة أولئك القوم ليست الأراضي المقدسة وانما القسطنطينية (٢) .

وهذا يفسر لنا السر في موقف الكسيس والدولة البيزنطية حيال الصليبيين اللاتين ، الذي يتلخص في العمل بكافة الطرق والوسائل على المحافظة على الامبراطورية من عدوانهم مهما كلفهم هذا من ثمن . ثم يجب ألا ننسى أن العلاقات بين اللاتين والاعريق قبل قيام الحركة الصليبية لم تكن طيبة أو مرضية . فلم يكن هذا مما يشجعها على استدعاء الغربيين للقيام بحرب صليبية ضد الشرق العربي .

(١) Ostrogorsky, Byzantine State, 320 & 321 n. 3

(٢) Anna Comnena, Alexiad, 250 — وتؤكد الكاتبة الأغرريقية هذه الفكرة في أكثر من موضع من كتابها . فنذكر أن بعض اللاتين من زعماء الحملة الأولى أمثال بوميسند النورمانتي كانوا يلعبون في الدولة البيزنطية ويريدون الاستيلاء عليها وتأسيس إمارة لاتينية بها . وقد رجسوا في تشير بعض الدعاة بالحملة أمثال بطرس التسلق ذريعة لتحقيق أهدافهم ، فقدموا السلج وابطاء العقول وتسييرا في قيام هذا الطرفان البشري ، وابتاعوا نسلكتهم بحجة توجيههم لتخليص القبر المقدس — تنظر ص ٢٥٢ من نفس المرجع .

وهكذا نجد أن طلب الكيس امتداده بانحد لم يكن شيئاً جديداً أو أمراً غير مأروف . ولم يكن هو أول من استن هذه السياسة من الأباطرة ، كما أنه لم يكن آخرهم . اذ سبقه إليها أسلافه مثل ميخائيل السابع ، وحذا خطوه من جاء بعده . (١) فاذا نظرنا الى الخطاب من هذه الزاوية نجد أنه صحيح لا غبار عليه ، واذا طلب الكيس النجدات من الغرب الكاثوليكي للدفاع عن القسطنطينية وحماية حدود امراطوريته ، فهذا صحيح أيضا . أما طلب اندهب الى الأراضي المقدسة واخراج السلاجقة منها ، فهو أمر مستبعد ومحتاج الى مزيد من البحث وانداسة ، وان كان هذا لا يمنع من القول ان الكيس يتصرفه هذا - لو صح ان الخطاب المذكور قد صدر عنه - قد نبه الغرب الأوروبي الى خطر انصر التركاني . ولهذا أهمية خاصة عند اللاتين الذين كانوا يعتبرون القسطنطينية حتى وقت غير بعيد من قيام الحرب الصليبية حامية الغرب الأوروبي ضد الخطر السلجوقي . ولكن هجمات السلاجقة في آسيا الصغرى واقتطاعهم من ولايات برنطة الشرقية أفقدها هذا اللقب الذي كانت تتمتع به .

واذا أخذنا بوجهة النظر الثالثة بصحة الخطاب ، أو أي خطاب آخر بنفس المعنى أرسله الكيس الى روبرت ، فذلك يرجع الى أن الكونت المذكور كان قد ذهب للحج الى الأراضي المقدسة حرالي عام ١٠٨٧ ، وعند عودته التقى بالامبراطور البرنطي ووعده بإرسال خمسمائة فارس لمساعدته ضد الأتراك . ويحتمل أن الكيس عندما لم تطله النجدة ، بعث اليه في العام التالي يستحثه على ارسال القوات التي وعده بها (٢) .

والأمر الذي يفتق عليه الجميع هو أن التفاصيل والحقائق التاريخية الواردة بالخطاب صحيحة في مجموعها ، وينحصر الخلاف بين المؤرخين في أمرين حسبنا أملكنا : أولها الخطاب نفسه وعمما اذا كان قد صدر فعلا عن الكيس أم لا ، وثانيهما مسألة صحة دعوة الكيس لأهل الغرب للقيام بهذه الحروب الصليبية .

Cf. Ostrogorsky, 305. (١)

Grousset, Crois., I, p. 1; Molinier, II, 275. (٢)

نخلص مما سبق ذكره أن هناك احتمالان لا ثالث لهما . إما أن الخطاب صحيح أو غير صحيح . فإذا كان قد صدر فعلا عن الكسيس فهذا لا يعنى أكثر من طلب التعاون من الغرب لدفع خطر السلاجقة عن الدولة البيزنطية وعاصمتها كما فعل اسلافه من قبله وخلفائه من بعده ، ولا يمكن تفسيره اطلاقا بالدعوة الصريحة لاثارة حرب صليبية . فهذه الفكرة غريبة محته ، نبتت وترعرعت في الغرب وتولتها البابوية برعايتها وعنايتها طيلة مراحلها . واذا لم يكن قد صدر عن الامبراطور البيزنطى ونسب اليه عمدا أو بدون قصد ، فيحتمل في هذه الحالة أن يكون قد وضع في الغرب اللاتينى وقتذاك انتقاما من الكسيس لموقفه من زعماء الحملة الصليبية الأولى من ناحية ، ولحث اللاتين للمبادرة بنجدة إخوانهم في الشرق من ناحية أخرى . وفي كلتا الحالتين يجب الانسحاب من جميع المعلومات والحقائق التاريخية الواردة بالخطاب صحيحة في جملتها ومضمونها .

#### (ثالثا) بطرس الناسك وقيام الحرب الصليبية :

ويرى بعض المؤرخين أن بطرس الناسك هو المسئول الأول عن هذه الحروب . وحجتهم في ذلك أنه ذهب للحج الى بيت المقدس قبيل قيام الحركة بضع سنوات ، حيث التقى ببطريق هذه المدينة الذى حدثه عما يقاسيه الحجاج الى الأراضي المقدسة على أيدي السلاجقة . وسلمه البطريرق رسالة للبابا يطلب فيها النجدة والمساعدة . ويضيف البعض أن بطرس هذا رأى فيما يرى النائم السيد المسيح الذى طلب منه مقابلة البابا والدعوة للحرب الصليبية ، وأن بطرس قام بتنفيذ هذه الرؤيا (1) .

وهكذا صنعت الأسطورة من بطرس الناسك ناصحا لاربان وذاعية للحرب الصليبية . والذات أن هذه الرواية تفتقر الى ما يعززها ويستندها ، خاصة وأن جميع المؤرخين الذين عاصروا الحرب الصليبية

(1) Guillaume de Tyr, R. H.C. — H. Occ., I, le p., 34—35; Historia Belli Sacri, (1) R.H.C. — H. Occ., III, 169. Cf. also Runciman, Crusades, I, 113; Grousset, Crois., I, 5.

حيث النفس منه ارسال وفادة الى البابا اربان الثاني للدعوة للحملة المزعومة (١) ، حتى لقد جعل منه بعض المؤرخين الغربيين الحداثيين محرك الحروب الصليبية وبطلها (٢) .

ويجب أن نقبل مثل هذه الروايات ذات الطابع الأسطوري بكثير من الحيطه . إذ كان من الطبيعي بعد النجاح الكبير الذي احرزته الحملة الصليبية الأولى ان تظهر بعض الروايات المبالغ فيها التي تنسب امر نجاحها الى هذا النبيل أو ذاك ممن اشتركوا فيها اشتركا فعليا ، وعن ذاع صيتهم وبرزت شهرتهم .

### (خامساً) البابا اربان الثاني والحركة الصليبية :

يتضح اذن أن النظريات السابقة فيها مجافاة للحقيقة وبعد عن الواقع ، وانها لا تعدو وأن تكون من نسج الخيال . فلا يمكن ارجاع الدور الأول في قيام الحركة الصليبية الى قصيدة حج شرملان أو أغنية رولان ، أو الى خطاب الكسيس كومنن ، أو تفنؤات ورؤيات بطرس الناسك ، أو غير هذه وتلك من الأساطير التي يجب حذفها نهائياً من سجل التاريخ .

والأمر الثابت الذي لا خلاف فيه أن البابا اربان الثاني — يؤيده في ذلك الجهاز الكنسي في الغرب — هو الذي قام بالدعوة الصريحة المباشرة الى الحروب الصليبية وامتلاك الأراضي المقدسة (٣) مستغلاً في ذلك سلطاته الدينية والزمنية التي كان يتمتع بها . وينسب اليه جميع المؤرخين اللاتين المعاصرين له الدور الرئيسي في تحقيق هذه الفكرة ، ومن هؤلاء فوشيه ده شارتر (٤) ، وتيدبوده (٥) Tudebode ، وراؤول ده كان (٦) Raoul de Caen .

(١) Cf. Guillaume de Tyr, R.H.C. — H. Occ., I, le. p. 71 sqq.

(٢) Cf. Diehl, L'Europe Orientale, 19.

(٣) Grousset, Crois., I, 2; Molinier, op. cit., II, 274-5.

(٤) Cf. Foucher de Chartres, R.H.C. — H. Occ., III, 321.

(٥) Cf. Tudebode, R.H.C. — H. Occ., III, 121.

(٦) Cf. Raoul de Caen, R.H.C. — H. Occ., III, 606.

لقد اعتل اربان الكرسي البابوي سنة ١٠٨٨ ، ولكن المشاكل الداخلية التي واجهته في السنوات الأولى من حكمه حالت بينه وبين تحقيق أمنية كانت تجيش في صدره وطالما تاق إليها . ولكن بعد أن فرغ من مشاكلكه مع خصمه اللدود الامبراطور الالماني هنرى الرابع وتخلص من مناوئته له ، وبعد دخوله روما منتصراً في أوائل عام ١٠٩٥ ، والتي كان قد تركها مضطراً سلفه جريجورى السابع ، عقد في مدينة بياتشزا في مارس من نفس العام مجلساً دينياً لمناقشة الشؤون الداخلية . والشئ الخلد في هذا المجلس الذي كانت له آثاره في قيام الحركة الصليبية ، هو أن الكيس كومنن امبراطور برنطة أوفد رسلاً من قبله الى اربان في طلب المساعدة العسكرية من دول الغرب للاستعانة بها في دفع خطر السلاجقة الذين استولوا على جانب كبير من امبراطوريته وياتوا يهددون القسطنطينية نفسها . وقد حضر أولئك الرسل المجمع المذكور ، واذن لهم البابا بعرض طلباتهم على المجتمعين ، فأخذوا يصورون الخطر الذي تعرضت له الدولة الرومانية الشرقية التي كانت تعتبر حتى وقت قريب حامية الغرب اللاتيني وحصنه المنيع . وافلحوا في تحريك شعور أهل الغرب واثارة حماسهم لنجدة إخوانهم في الشرق . وكان من الطبيعي أن تصادف طلبات الكيس ترحيباً من البابوية التي وجدت فيها فرصة ذهبية لتحقيق سياستها الخاصة في هذا السيل (١) .

لقد حركت طلبات الكيس كوا من النفس لدى اربان حتى أنه ارسل الى بعض كبار رجال الاقطاع في الغرب يطلب اليهم ارسال المساعدات الى الامبراطور البيزنطي ، مقتنياً في ذلك خطى سلفه البابا جريجورى السابع . ويستنتج البعض من ذلك أن مجمع بياتشزا قد مهد بطريقة الموثمتر كليرمون الذي أعلن فيه اربان مولد الحركة الصليبية ، وأن فكرة ايفاد نجدات إلى الكيس كانت المحاولة الأولى التي مهدت بها البابوية لتلك الحركة . ويجب أن نتقبل هذا الرأي بشئ من الحذر ، اذ ليست لدينا نصوص تاريخية تدعّم

Baldwin, Med. Church, 100; Runciman, Crusades, I, 104-5. (١)

وعلى أية حال ، عقب انتهاء مجمع بياقشيرا في أخريات مارس ١٠٩٥  
بدأ البابا اربان جولته الديرية التفقيسية في غرب أوروبا التي انتهت بالتبشير  
بالحملة الصليبية الأولى .

لقد أفضى البابا بضعة أشهر في إيطاليا عقب انقضاء المجلس ،  
ومنها توجه الى فرنسا ، محترقا جبال الألب . ثم قصد بعد ذلك الى مدينة  
بوى وكان استقنها وقتذاك هو ادهيهار دة مونتى Adhemar de Monteil الذي  
سيصبح مندوبا للبابا في الحملة الصليبية الأولى ورئيساً روحياً لها . وتذكر  
بعض المراجع أن هذا الأسقف سبق أن ذهب الى الأراضي المقدسة حوالي  
عام ١٠٨٧ ، وأنه حدث البابا بعد عودته عن الخطر السلجوقي . ويحتمل  
كذلك أن يكون اربان قد فاتحه أثناء زيارته الأخيرة له في أمر تعيينه مندوبا  
عنه في الحملة المزمع قيامها ، وكانت العلاقة بينهما على أحسن ما يكون .  
وان كانت هذه وغيرها مجرد فروض واحتمالات تعززها الأحداث المتلاحقة  
التي وقعت بعد ذلك .

ومن مدينة بوى وجه اربان في ١٥ أغسطس عام ١٠٩٥ الدعوة الى  
حضور مؤتمر كليرمون في ١٨ نوفمبر من نفس العام . وجددير الذكر أن هذه  
الدعوة لم تتضمن أية اشارة الى مسألة الحرب الصليبية من قريب أو بعيد .  
ولعل البابا كان يهدف من وراء ذلك جعل مشروعه طئي الكتمان ضمنا  
لتجاسه .

واصل البابا بعد ذلك رحلته الديرية فتوجه الى مدينة سان جيل وكان  
صاحبها يدعى ريمون ، وهو من كبار رجال الاقطاع في الغرب المؤيدين  
للبابوية . وقد لعب دوراً كبيراً في تزييح الحروب المسيحية ضد العرب  
في أسبانيا وفي الحملة الصليبية الأولى نفسها . ويبدو أن البابا قد تحدث اليه  
في أمر مشروعه الصليبي وعزمه على تنفيذه كما تحدث الى ادهيهار من قبل .  
ونستدل على ذلك من أن ريمون تطوع للذهاب الى الشرق بعد انتهاء مؤتمر  
كليرمون بأيام قلائل ، مما لا يدع مجالاً للشك في أنه كان على علم سابق

بهذه الخطوة . أى قبل انعقاد المؤتمر لمدة كافية . إذ لا يعقل أن يعلم الكونت بالقرار الذى اتخذ في مؤتمر كليرمون الذى لم يتسن له الاشتراك فيه ، وأن يحضر بعد ذلك ببضعة أيام ليسجل اسمه في سجل الحرب المقدسة ، في وقت كانت فيه وسائل النقل والمواصلات صعبة بطيئة غير ميسرة .

ثم واصل البابا رحلة التفتيشية فر بعدة بلاد جنوبي فرنسا . واخيرا توجه الى كلون ، ذلك الدير الذى شب فيه واشربت نفسه بمبادئه وتعاليمه . وأقام هناك بعض الوقت مما ساعده على التأمل والتفكير الحدى فيما استقر عليه حزمه . ومن المحتمل أن يكون قد استعان بخبرة رجال كلون في التعرف على أحوال الشرق العربى ، إذ كانوا على علم بمجريات الأمور في هذا المنطقة من العالم (١) .

مما سبق يتضح أن فكرة الدعوة للحرب الصليبية لم تظهر فجأة في كليرمون ، ولم يعلن عنها رسميا في بياتشيزا ، وإنما نضجت واختمرت في ذهن اربان خلال هذه الجولة التى طاف فيها الغرب الأوروبى في الفترة الواقعة بين شهرى أبريل ونوفمبر من عام ١٠٩٥ . ومن هنا جاء اهتمام المؤرخين المعاصرين لتلك الفترة وتلعب أحداثها ، ودراسة تحركات البابا وتنقلاته خلالها ، وتسجيل ذلك كله في كتبهم وتأليفهم . وخلصوا من ذلك أنه كان بعد العدة فعلا للدعاء بهذه الحروب .

وأخيرا في ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ عقد مؤتمر كليرمون الذى اشترك فيه عدد كبير من رجال الدين معظمهم من فرنسا . وبإلترغم من اعتقاد المؤرخين أن الدعوة للحرب الصليبية كانت الموضوع الاساسى في جدول أعمال المؤتمر ، فقد عالج المجتمعون في الفترة الواقعة من ١٨ الى ٢٦ نوفمبر بعض الأمور الندية التى لا تمت بعلة لتلك الحركة . وأخيرا في ٢٧ من نفس الشهر خرج البابا من الكنيسة التى عقد فيها المؤتمر جلساته ، وخطب في

(١) فيما يتعلق بتحركات البابا وتنقلاته ينظر : Chalandon, Histoire de la première Croisade,

19-22; Runciman, Crusades, I, 106-107; Baldwin, Med. Church, 100-101.

الجمهور الذي احتشد خارجها لسماعه تلك الخطبة التي كانت ايذانا بقيام  
الحركة الصليبية (١).

لقد تركت الخطبة الملتهبة أثراً بالغاً في نفوس المستمعين الذين  
قابلوها بمجملات صغيرة في عدد كلماتها خطيرة في مدلولها ، فكانت ابلغ  
تعبير عن سر هذه الحركة وحقيقة دوافعها ومراميها التوسعية الاستعمارية ،  
وهي « هذه هي ارادة الله » Deus vult التي ستصبح صيحة الحرب والقتال  
للصليبيين الغربيين خلال ثلاثة قرون من الزمان . ولم يكشف اربان بذلك بل قام  
ووزع بنفسه الصليبان على الحاضرين الذين قاموا بتعليقها على صدورهم  
أو وضعها فوق اكتافهم (٢) .

ومهما يكن من شيء ، فقد تطورت افكار البابا اربان في هذا المؤتمر  
تطوراً خطيراً . فبدلاً من السعي لاعداد حملة لمساعدة الكيسين كومنين  
الذي التمس رسله في يياتشراً العون من أهل الغرب ، وبدلاً من أن يقتنى  
خطى سلفه جريجورى في هذا المضمار ، نراه يطالب في جرأة وصراحة القيام  
بعملة كبيرة لغزو الأراضي المقدسة واستئصال شأفة العرب منها وتأسيس  
امارة لاتينية لها . وهكذا بدلاً من أن تكون القسطنطينية هي وجهة الحملة ،  
أصبح بيت المقدس والشرق العربي هدفها ومرساها .

(١) اثبت أربعة من المؤرخين الغربيين لمدصريين تلك الفترة نص هذه الخطبة أو مضمونها  
مع اختلافات طفيفة في بعض الألفاظ أو الكلمات التي لا تقل بالمعنى اصنام ، وهم : فوشيه ده  
شارتر في الجزء الثالث من مجموعة ملونسي الحروب الصليبية (المؤرخون الغربيون) ص ٣٢٣-  
٣٢٤ ، ووبرت اتراب (نفس المجموعة والجزء من ٧٢٧ - ٧٣٠) ، وبودري ده بودريسي  
(الجزء الرابع من المجموعة من ١٣٧ - ١٤٠) . ويؤزم بودري أنه حضر المؤتمر المذكور ،  
بينما كتب الثلاثة الآخرون عن المؤتمر كما لو كانوا شهود عيان له . أنظر الترجمة الانجليزية  
لنص فوشيه وترجمة مقتطفات من نص ووبرت اتراب في :

Downs, Basic Documents in Med. Hist., 73-6.

(٢) يقول مارشال بليرين إن كلمة « محارب صليبي » « Crusader » جاءت من كلمة الصليب  
الذي لبسه كل من انخرط في تلك الحركة . ينظر Baldwin, op. cit., 101 ومن هنا عرف المحاربون  
الذين اشتركوا فيها باسم المحاربين الصليبيين ، وسميت الحركة نفسها باسم الحركة الصليبية .

لقد تمكنت الفكرة من نفس اربان ، ووجد أنه من الضروري اتخاذ الخطوات الإيجابية لتنفيذها . فعين في ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ - أي غداةلقاء خطبته المشهورة - ادهيار أسقف بوى رئيساً روحياً للحملة وقاصداًرسولياً لها . وبذلك أكد البابا الاتجاه الحقيقي لهذا المشروع الغربي التوسعي . فهو مشروع نفذته الكنيسة والبابوية بما لها من سلطات مطلقة لا يستهان بها وقتذاك ، ثم باركاه وأشرفا عليه أشرفاً فعلياً طيلة مراحلها . واتخذ اربان على الفور عدة قرارات لتشجيع المتطوعين للاشتراك في الحملة . وأوفد مندوباً من قبله الى جنوة للاتفاق على أن يقوم أسطولها بمساعدة الحملة فيما يتعلق بنقل الحنء والعتاد والامدادات عبر البحر . وأخذ يتنقل من بلد الى آخر مباشرة بالحرب داعياً الى حمل الصليب (١) .

لقد لاقت الدعوة في الغرب نجاحاً مقطوع النظر ، وأثارت حماس الأوربيين بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ تلك القارة . اذ قامت في عصر سادت فيه المسيحية على انقاض الوثنية القديمة ، وسيطرت الكنيسة اللاتينية على مصائر الخلق ومقدراتهم ، يتقبلون أوامرها ونواهيها بالسمع والطاعة . فاذا قالت ان المسيح يأمر اتباعه بالتوجه الى اشرق في زحف مقدس لتخليص قبره ، فهذا معناه أن يهب الغرب من اقصاه الى اقصاه للاشتراك في هذا الزحف . والويل لمن يخالف تعليلات الكنيسة ، حينئذ يتعرض لسيفها المسلط على الرقاب . وما أكثر أسلحتها التي كانت تستخدمها من حرمان ونقمة ولعنة وقطع . ولعل هذا يغسر سر الحماس الخوفى الذى قوبلت به تلك الدعوة في بدايتها . فلم يقتصر على جيش معين أو مدينة بذاتها ، بل عم جميع أنحاء أوروبا . ولم يقتصر كذلك على طائفة دون أخرى ، بل شمل الفرسان وكبار رجال الاقطاع الى جانب الاقنان وعبيد الأرض ، مما يؤكد وجود ظروف واحدة في دول الغرب تجمع بينها وتوحد بين قلوبها ، وان الافكار هناك كانت معدة فعلاً لقبول هذه الحروب والاشترك فيها .

(١) بزركر : الحروب الصليبية من ٢٢ - ٢٤ ، وكذلك :

Runciman, Crusades, I, 109-113.

## المراجع

### أولا - المصادر الأصلية

1. Albert d'Aix, *Historia Hierosolymitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 265-713 (Paris, 1879).
2. Anna Comnena, *The Alexiad*. An English trans. by E.A.S. Dawes. London, 1928.
3. Anonymous, *Historia Belli Sacri*, R.H.C. — H. Occ., III, Paris, 1866 (pp. 165-169)
4. Baudri de Bourgueil, *Historia Jerosolmitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 1-111. (Paris, 1879).
5. Dawson, N. (Ed.), *Basic Documents in Medieval History*. New York, 1959.
6. Foucher de Chartres, *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium (1095-1127)*. Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 311 — 485, (Paris, 1866).
7. Gilbert de Nogent, *Historia quae dicitur Gesta Dei per Francos*. Ed. R.H.C. — H. Occ., IV, 113-263.
8. Guillaume de Tyr, *Historia rerum in partibus transmarinis gestarum*. Ed. R.H.C. — H. Occ., t. Ie. p. (1- 702). Paris, 1844.
9. Hagenmeyer, H. (Ed.), *Die kreuzzugsbriefe : Epistolae et chartae ad historiam primi belli sacri spectantes*. Innsbrück, 1901.
10. Michel le Syrien, *Extrait de la Chronique de Michel le Syrien*. Ed. R.H.C. — Doc. Arm., I, 309-409 (Paris, 1869).
11. Raoul de Caen, *Gesta Tancredi in expeditione Hierosolymitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 587-716.
12. Robert le Moine, *Historia Iherosolimitana*. Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 717-892.
13. Tudebodus abbreviatus, *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum*. Ed. R.H.C. — H. Occ., III, 119-163.

### ثانياً - المراجع الثانوية

#### ( ١ ) مرجع عربية ومعربة

- ١ - باركر (ارنست) : *خروب الصليبية - نغمه الى العربية* الدكتور السيد ابنز العزوي - القاهرة ١٩٦٠ .
- ٢ - ديفز (ه. و. كارلس) : *أوروبا في العصور الوسطى - نغمه الى العربية* الدكتور عبد الحميد حمدي محمود - الإسكندرية ١٩٥٨ .

- ٣ - ديفز (ه. و. كارلس) : شاونان - نقله الى العربية الدكتور السيد الهاز العريبي -  
 القاهرة ١٩٥٩ .
- ٤ - عمر كمال توفيق (دكتور) : مكتبة بيت المقدس الصليبية - امكنبرية ١٩٥٧ .
- ٥ - نشر (ه. ا. ل.) : تاريخ أوربا في العصور الوسطى - جزءان - ترجمة الدكتور زيادة  
 والدكتور أمريبي والدكتور العلوي - القاهرة ١٩٥٠ و١٩٥٧ .

#### ب - مراجع أوروبية

1. Baldwin, M.W., The Medieval Church. New York, 1960.
2. Baynes, N.H. & Moss, H. St. (Eds.), Byzantium. Oxford, 1953.
3. Chafandón, F., Essai sur le Règne d'Alexis Ier. Comnène. Paris, 1900.
4. ———, Histoire de la Première Croisade. Paris, 1925.
5. Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.
6. Diehl, Ch., L'Europe Orientale de 1081-1453 (Moyen âge t. IX). Paris, 1945.
7. Grousset, H., Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.
8. Hagenmeyer, Le vrai et le faux sur Pierre L'Ermite, trad. F. Raynaud. Paris, 1883.
9. Mollner, A., Les Sources de l'Histoire de France des Origines aux Guerres d'Italie. Cf. t. II : Epoque féodale, les Capétiens jusqu'en 1180. Paris, 1902.
10. Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State. Trans. by J. Hussey. Oxford, 1956.
11. Paris, G., Mediaeval French Literature. trans. from the French by H. Lynch. London, 1903.
12. Riant, P., Inventaire critique des lettres historiques des croisades. Cf. A.O.L.I., 1-224. Paris, 1881.
13. Runciman, S., A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1934-55.





كمان مذكري، جبال امورا، شام، بعد الحرب العالمية الثانية





الامير الطور انكيس كوشين ايام السج



## حمامات الاسكندرية الرومانية

للدكتور فوزى عبد الرحمن الفخراني

لم تتل حمامات الاسكندرية الرومانية من الباحثين أى قدر يذكر من دراساتهم حتى تكاد تخلو الكتب العديدة التى نشرت عن الاسكندرية باللغات المختلفة - رغم استرسالها فى وصف المدينة ، وآثارها ما قام منها وما اندثر - من الاشارة الى أى من حمامات المدينة وأضحى ما اكتشف بالمدينة من حمامات فى طى النسيان . هذا كله على الرغم من المرات العديدة التى انفردت بها حمامات الاسكندرية فى اختلاف أشكالها وتباين أغراضها مما لم يعرفه العلم عن حمامات الرومان فى أى مكان آخر ، سواء فى ايطاليا أو فى أى من الولايات الرومانية العديدة بما فيها مصر نفسها .

فى روما عاصمة الامبراطورية التاسعة ، اُسِّمَت حمامات الأباطرة (١) نيرون وتراجان وكارا كالا (شكل ١) وديوقليانوس بالضخامة ، فلم تكن الحمامات مجرد أماكن للاستحمام والاعتسالم فحسب بل كانت بها أيضا الحدائق والملاعب الرياضية والمكتبات الى جانب صهاريج المياه وما الى ذلك . أما الحمامات الرومانية التى بنيت فى الأقاليم مثل حمامات بومبي (٢) وهركولانو (٣) بايطاليا أو حمامات الولايات الرومانية مثل حمامات ليقس ماجنا (ليدا) بفييا (٤) المعروفة باسم حمامات الصيد نسبة لمناظر الصيد المرسومة بها . فلقد كان الاستحمام فى هذه الحمامات على مراحل يمر فيها المستحم بحجرة لتلح الملبس وكانت تحفظ فى فتحات صغيرة مستطيلة محفورة بالحيطان . وتعرف هذه الحجرة باسم apodyterium . ثم حجرة بها حوض للماء البارد تعرف باسم tepidarium فحجرة الهواء الساخن وتعرف باسم tepidarium وحجرة أخيرة بها حوض للماء الساخن اسمها caldarium . ولقد اُسِّمَت بعض هذه

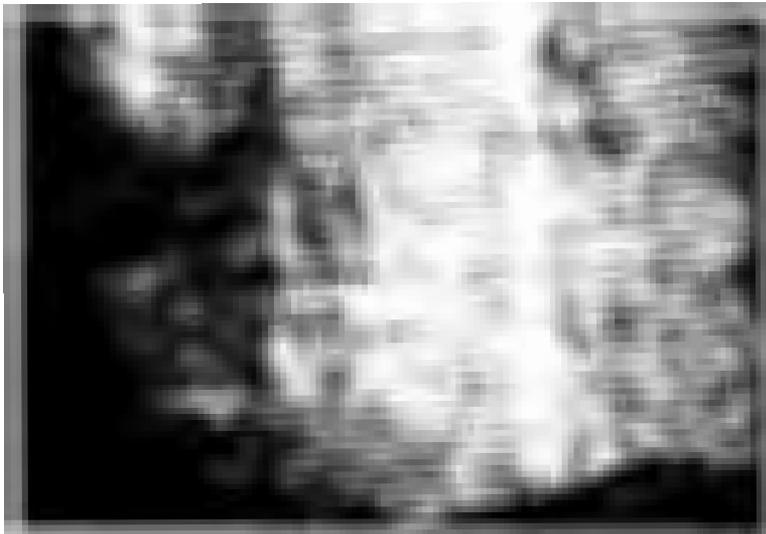


عن كتاب : Sir B. Fletcher - History of Architecture  
(شكر ١) حمامات داراكنة برومي  
نوع أفقر بين توزيع حجرات المنطقة بالحمامات

الحمامات مثل حمام ستايرا برومبي (٥) (شكل ٢) لتضم بين جنباتها  
ملعبا palaestra وحوضا للسباحة natatio . وكانت هناك حمامات للرجال  
وأخرى للنساء منفصلة كما في هركولانو أو متصلة ببعضها كما في حمامات  
برومبي (٦) . كما كانت هناك حمامات بسيطة مثل حمامات تمجاد بشمال أفريقيا  
وهي مشتركة في استعمالها بين الرجال والنساء ولكن في أوقات مختلفة (٧) .  
ولقد أمعنا الحظ حديثا باكتشاف حمام بالاسكندرية من هذا النوع  
المعروف في الأقاليم الرومانية وذلك في الحفائر التي تجريها حاليا البعثة  
البولندية للأثار بمنطقة كوم الدكة ، وأبت أن أطلق عليه اسم المنطقة وأشره  
هنا لأول مرة .

## حمام كوم الدكة (أ) .

يتفق هذا الحمام والنوع الشائع استعماله من الحمامات الرومانية في الأقاليم بإيطاليا كما تبدو في حمامات بومبي وهركولانو إلا أن حمام كوم الدكة أصغر منها حجماً وأقل زخرفة . كما أنه قد تهدم ولم يبق الا تخطيط له مع الحدران بارتفاع يقرب من متر ونصف . ولقد تهدمت الأرضية في بعض الحجرات ولم يبق من زخرفتها الى أجزاء صغيرة من المزايكو وجدت في الانقاض المحاورة للحمام ومحفوفة الآن . متحف الاسكندرية اليوناني الروماني كما أن محتويات الحمام الأخرى قد أندثرت . والحمام من الحجم الصغير يتقصر الملعب palacstra وكذلك حوض السباحة natatio وحجرة خلع الملابس apodyterium وحجرات الادارين وما الى ذلك من الحجرات التي كانت تفتح في حمامات ستابيا بومبي مثلاً على الملعب . وحمام كوم الدكة ليس مزدوجاً بمعنى أنه ليس به جناح خاص بامتحمام الرجال وآخر خاص بالنساء بل ربما كان الحمام مقصوراً على الرجال دون النساء أو العكس أو ربما استخدمه الرجال مثل حمام تمجاد في أيام وساعات تختلف عن تلك التي تستخدمه النساء فيها . ويظهر من حجم الحمام وصغره وموقعه المتوسط بمدينة



(شكل ٢) حمامات ستابيا بومبي (في نابولي)

تتبع أفقى بين توزيع الحجرات المختلفة كما يوضح حمامات الرجال وحمامات النساء  
Mau "Pompeii"

الاسكندنرية بعيداً كما يبدو عن ثكنات الجنود الرومانية أن الحمام لم يكن مخصصاً للجنود كذلك الحمامات الرومانية التي نراها بانجلترا على طول الحائط الروماني الذي بناه الامبراطور هادريان بين مدينتي نيوكاسل على بحر الشمال وماري بورث على البحر الايرلندي ليصد عن بريطانيا الرومانية هجمات الاسكتلنديين . وربما كان الحمام عامارغم صغر حجمه ويستبعد أن يكون خاصا لعدم وجود بقايا منازل بجواره .

وحمام كوم الدكة لايتعدى الخمسة عشر متراً في طوله والستة أمتار في عرضه ويفتح بابُه العام نحو الشمال كما تقع حجراته الثلاثة في صف واحد والحجرات تكاد تكون متساوية في أحجامها أما الحيطان فبذبة عند أساساتها من كل مربعة الشكل من الحجر الجيري حجم كل منها ربع متر مكعب تقريباً وتعلو هذه الكتل صفوف من قوالب الأجر الأحمر المحروق الذي لم يكن معروفاً قبل عصر الرومان في مصر (٩) . واستخدمت المونة للصق الأحجار ببعضها في اقامة الحيطان وكذلك في تثبيت زخارف التيفساء (المايكا) التي توجد بماياها في حجرة الفريجيدياريوم . وسقف الحمام مهدم كما أنه لم يبق من حيطانه ما يزيد عن المتر ونصف تقريباً ارتفاعاً .

يفتح الباب الخارجي للحمام على حجرة الماء البارد *frigidarium* مباحرة وهو يقع في الجانب الشرقي من الحائط الشمالي لهذه الحجرة . أما الحجرة نفسها فمربعة الشكل وتبلغ الأربعة أمتار ونصف تقريباً في أبعادها . ولقد حفر في الجزء الغربي من أرضيتها (وهو الجانب البعيد عن الباب) حوض للماء البارد تاركاً جزءاً من أرضية الحجرة يبلغ العشرة سنتيمترات تقريباً بينه وبين الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية للحجرة . والحوض في جانبه الغربي يمتد بطول حائط الحجرة ، ويبلغ ٤ أمتار تقريباً بينما يمتد في عرضه الى مسافة مترين ، وعمقه متر تقريباً وهو مغطى بطبقة سميكه من المصيص المزوج بمحروق الرخام حتى يمكن صقل السطح فلا يصاب المستحم بأذى ، كما يكسب الحوض متانة ، ويحفظ المياه من التسرب . ويستخدم المستحم ثلاثة درجات مبنية في الركن الجنوبي الشرقي للحوض للترؤل فيه . وفي هذا السلم دليل آخر يشير الى أن بناء الحمام قد تم تحت حكم الرومان . اذ تمير بالخصائص المعروفة عن السلام الرومانية كما عرفناها في فيلا مينوري *Villa Minori* الواقعة

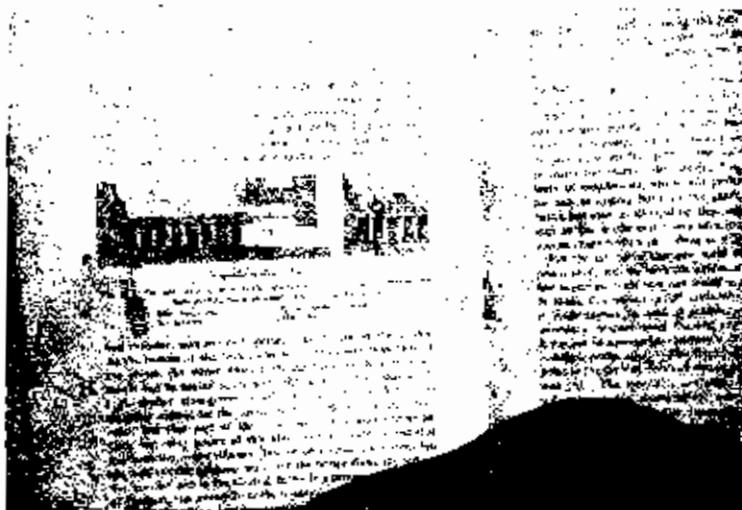
على الطريق بين سالرنو وسورنتو بإيطاليا ، وكما نراها ممثلة في الاسكندرية في جبانة كوم اشفافة الرومانية . ففي كل هذه السلاسل نجد أن الدرجة السفلى أكثر ارتفاعا ، ويقل ارتفاع الدرجات كلما صعدنا حتى يكاد ينعدم هذا الارتفاع في الجزء العلوى من السلم . والغرض من ذلك أن المرء يكون أكثر نشاطا وقدرة عند البدء في الصعود بينما يأخذ منه الجهد كلما صعد ولهذا قل ارتفاع الدرجات حتى يكاد لا يشعر الصاعد بارتفاع الدرجات أثناء صعوده ، بل يحس وكأنه يسير في منحدر . ويشير استخدام المصيص الأبيض مما فيه مسحوق الرخام الى عصر مبكر من حكم الرومان لمصر ، وربما كان ذلك في القرن الأول الميلادى ، اذ ندر استخدام الرخام في مزيج المصيص بعد ذلك التاريخ ، بل يكاد يخلو التكو ( المصيص ) الرومانى كلية من الرخام في القرن الثانى الميلادى في مصر ، كما نرى في قطع الرخارف البارزة من هذه المادة المحفوظة بالمتحف .

ولقد غطى جزء من أرضية الحجرة تجاه الباب ببعض قطع المزايكو ( البلاط ) وربما كان ذلك في عصر لاحق ، اذ أنه ليس كالمزايكو المعروف في العصر الرومانى بل عبارة عن قطع كبيرة الحجم كما أنها وليست ملونة أو من جزئيات صغيرة كما نرى مثلا في القطعة الصغيرة ذات رسوم الأفراد المكتشفة قرب الحمام تجاه حجرة التبادريوم tepidarium .

وفي مواجهة باب الفريجيدياريوم في الحائط الجنوبي لهذه الحجرة يقع الباب الذى يفصل بين الفريجيدياريوم والتبادريوم . وهي حجرة الهواء الساخن . وهذه الحجرة تنوء على شكل محراب niche في حائطها الغربى إتساعه متر تقريبا . والحجرة أصغر قليلا من حجرة الفريجيدياريوم (اذا لا يزيد حائطها الغربى عن الثلاثة أمتار ونصف تقريبا) وربما كان ذلك لكي تحتفظ الحجرة بحرارتها ولا تفقدتها بسهولة . ووجود niche في هذه الحجرة شيء معروف في tepidaria كما نراها في حمامات بومبي . وفي الغالب يكون له niche سقف مقبب semi - dome بأعلاه نافذة تسمح لهواء الحجرة بالتجدد ، كما تعمل على مرور الضوء الى داخل الحجرة أسوة بما نراه في حمام الفورم بومبي وحمام ستابيا .

ولقد غطيت جدران هذه الحجرة برسومات من الفرسكو . وقدو الأثر الأكران الحمراء والصفراء والسوداء والزرقة على طبقة المصيص المزوج محروق الرخام الذي يغطي حيطان الحجرة كما أننا لا نزال نرى بالقرب من niche على الحائط الغربي في الجزء الغربي من حجيرة الماء الساخن (caldarium) رسماً تخطيطياً لعمود على الطراز الكورنثي .

وما يسترعى الاهتمام في هذه الحجرة أرضيتها والحائط الغربي لها ( المبنية بقوالب الأجر الخروق ) وهي الحائط الخارجية للحمام كما يبدو . فلقد بنيت الأرضية على طريقة الخدمات المتعلقة بـ Balneae pensiles وهي الطريقة التي ابتكرها معاصر شيشرون تسمى sergias Onia واستخدمت منذ القرن الأول ق.م (١٠) . والفكرة في هذه الطريقة هو السماح للأرضية بأن تشع الحرارة بالتساوي في حجيرة البنداريوم وذلك عن طريق تمرير الهواء الساخن في فراغ يترك تحت الأرضية . لهذا كانت تصنع الأرضية من طبقة سمكها ستة سنتيمترات تقريبا من الطين المحروق المعروف باسم التراكوتا . وكانت ألواح



(شكر ٣)

فتتبع رأس في حمامات سنايازين البعثات التي تبين أوضاعها كالحجيرة أو البنداريوم وأنواع  
بعض الخدمات التي ينظمها بجانها تحت قارصها

عن كتاب : "Mau "Pompeii"

التراكوتا المكونة لهذه الطبقة تعرف باسم tiles . وكان كل لوح من هذه tiles حوالي نصف متر مربع في مساحته ، ويرتكز على قوائم pilasters مربعة في مقطعها (شكل ٣) . وتبلغ في حمام كوم الدكة حوالي النصف متر في ارتفاعها والربع متر مربع في مقطعها . ولقد زالت الأرضية في حمام كوم الدكة ولكن لازال بعض هذه القوائم في مكانه وكان الهواء الساخن يمر من فتحة مستديرة قطرها نصف متر تقريباً حفرت تحت الباب المتسع الذي يقع في منتصف الحائط الجنوبي لهذه الحجرة والذي يفصل بينها وبين حجرة الماء الساخن (الكالداريوم) . والملاحظ أن بينا نجد الباب الفاصل بين التبداريوم والكالداريوم متساوي ويقع في منتصف حائط حجرة التبداريوم الجنوبي ، نجد الباب الفاصل بين التبداريوم والفرجيداريوم ضيقاً ويقع في الركن الشرق من الحائط الشمالي لحجرة التبداريوم . والغرض من ذلك هو العمل على مرور أكبر كمية من الهواء الساخن من حجرة الكالداريوم الى حجرة التبداريوم ثم الاحتفاظ بهذا الهواء دون التسرب بسهولة الى حجرة الفرجيداريوم . وزيادة في الحيلة حتى لا يتسرب الهواء الساخن ويبقى أطول مدة ممكنة في حجرة التبداريوم وكذلك في حجرة الكالداريوم بحيث الحيطان الخارجية للحجرتين أي الحائط الغربي لكل منهما من قوالب الأجر المحروق مع ترك فجوات فارغة من البناء بين قوالب الأجر المصنوعة منها هذه الحيطان ليتخللها الهواء أي بطريقة أشبه بزجاجة « الترموس » الآن . وهذه الفجوات مستطيلة الشكل وتمتد عميقاً في الحائط وبارتفاعها ولقد استعملت هذه الطريقة في الحمامات الرومانية منذ عصر الجمهورية . وربما (١١) كانت أرضية الحجرة مزخرفة بالمرابيكو إذ أن القطعة المكتشفة تجاه هذه الحجرة خارج الحمام والمحفوفة بالمتحف هي من نوع الـ tiles ولقد صور عليها شخص رافع يده وظهور وجه شخص آخر بجواره .

أما الحجرة الأخيرة فتقع في جنوب الحمام وهي حجرة الماء الساخن (caldarium) تلك الحجرة التي بها الفرن hypocaustis وكان يقع هذا كما يبدو في الركن الجنوبي الشرق من الحجرة . والكالداريوم أصغر الحجرات

ولا يزيد عرضها عن ثلاثة أمتار تقريبا . ويلاحظ في الحائط الشمالي للحجرة على يمين الباب عند الدخول وجود حفرة منتظمة بارتفاع الجزء المتبقى من الحائط وتكاد تكون باتساع المسافة التي بين الباب والحائط الغربي مع ترك ١ متر من الحائطين . وربما كان يثبت في هذه الفتحة حوض للماء الساخن ( مغطس ) للمستحمين أو ربما كان المستحم يقف في هذه الفتحة وتصب المياه عليه من أعلى كما هو الشأن في حمام تل أتريب الذي لم ينشر بعد (شكل ٤) . ولكنني أرجح الاحتمال الأول « أى تثبيت حوض للماء الساخن » كما هو متبع في حمامات ستاياا والعموم بيومبي



(شكل ٤) حوض في حمام تل أتريب

أما مياه الحمام فلقد أتت من بئر أو صهريج منى أيضاً بالأجر الأحمر ويقع بجوار الحمام قناه في اتجاه الحمام وتخرج منه ربما كانت متصلة بالقناة التي تخرج من الحائط الغربي للكالدانيوم .

ويقارب هذا الحمام الذي اكتشف في كوم الدكة حماما آخرأ اكتشف منذ زمن بعيد بالقرب من القنصلية الإنجليزية وفي غربها (١٢) (ولكنه اندثر الآن) . ولقد عرف هذا الحمام بأسم « حمامات كليوباترة » أو « قصر كليوباترا » ومبنى بكتل من الحجر الجيري تعلوها حيطان

من الآجر المحروق . والحمام مستطيل الشكل ويشغل مساحة قدرها ١٥٠ متراً مربعاً . كما أنه يتكون من طابقين تحت السفل منها في الصخر . وتوجد بأسفل أرضيته الأفران . بينما بنيت أرضية الطابق العلوي من عرائع أو ألواح من التراكوتا ( الطين المحروق ) تعرف باسم Tiles حتى تسمح للحرارة بأن تنفذ من خلالها فتفرغ درجة الحرارة بالحجرات كما شاهدنا في حجرة التبداريوم في حمام كورم الدكة . وكانت هناك أنابيب تحمل المياه إلى الحمام من الخزانات .

ولقد انتشر بلاسكندرية حمامات ساخنة كثيراً ما كانت تزخر بزخرفتها وبما تضمه بين جدرانها من تماثيل وأعمال فنية كما كان في حمامات إيطاليا . ولقد عرفت بعض الحمامات باسماء التماثيل المشهورة (١٣) التي بها ، فثلا هناك حمام اياسوس (وهي ربة من ربوات اليم) وحمام الحصان وحمام هيجيا (نسبة إلى الهة الصحة) وحمام الجعران وما إلى ذلك ..

وكما قامت في إيطاليا الحمامات العامة كحمامات بومبي وهركولانو على نظام المراجل في الاستحمام بين الماء البارد والبخار والماء الساخن كذلك قامت الحمامات الخاصة على نفس الطراز كما نراها في حمام فيلا بوسكوربالي قرب نابولي (١٤) وحمام منزل الكريستوبورتيكو Cryptoporticus في شارع Via dell' Abbondanza في بومبي (١٥) . ففي كل من هاذين المنزلين مثلاً نجد الحمام قد أخذ بنظام المراجل ، فهناك حجرة للماء البارد وأخرى للبخار وثالثة للماء الساخن ..

ولكن في ذلك اختلفت حمامات الاسكندرية الخاصة إذ اكتفى الأثرياء من سكان المدينة باستخدام الأحواض (بانيو) للاستحمام في منازلهم . وهذه الأحواض تقارب في شكلها أحواض الاستحمام المستعملة في المنازل حديثاً . فكان بعضها مستطيل الشكل أو بيضاوي كتلك الأحواض الموجودة بالمتحف اليوناني الروماني (شكل ٥) . وبما يلفت النظر أن الأحواض التي اكتشفت



(شكل هـ) حوض الاستحمام المصنوع من البازلت الأسود الذي تم اكتشافه في المتحف الروماني

من هذا النوع مصنوعة من البازلت الأسود الذي طالما استخدمه الفراعنة منذ أقدم العصور على أوسع نطاق سواء في مبانيهم العامة أو في عمل تماثيلهم وما إلى ذلك من الأعمال الفنية . كما أن توافره في البلاد يعطى هذه الأحواض المكتشفة بالاسكندرية طابعها المصري . وبما يسترعى الاهتمام أن الحوضين الموجودين بالمتحف قد اكتشفا في جبانة الورديان حيث استعملا كتوابيت . ولكن في اعتقادي هناك أدلة تشير إلى أن هذه التوابيت كانت مستخدمة في البدء كأحواض للاستحمام . وابتز هذه الأدلة أن لكل حوض في جانبه الطويل من أسفل فتحة لتصريف المياه زخرفت بنحت بارز من نفس حجر البازلت الأسود على شكل رأس فهد . كما أن الغطاء الذي صنع لكل تابوت لم يصنع من نفس البازلت الأسود بل استخدم لذلك مثلا الجرانيت أو خلافة وهذا طبعا يشير إلى أن الغطاء صنع في وقت آخر غير الوقت الذي صنع فيه الحوض . ولقد حليت الجوانب الطويلة لكل حوض بنحت بارز من نفس حجر البازلت الذي صنعت منه الأحواض ويمثل رأسان للبعوض وهي فاقرة النعم . ولقد امتازت هذه الأحواض بنسبها المحكمة وسطحها المصقول.

بما عرف عن الفن المصري من اتقان في الحفر ، والدرجة العالية في صقل  
السطح للأعمال الفنية المصنوعة من الأحجار الصلبة منذ عصور ما قبل التاريخ  
كما نرى في أواني ذلك الزمن .



شكل ٦ : حوض من شكل المقعد من ألكندرية محفوفه بالتحف اثيوذال لروماني

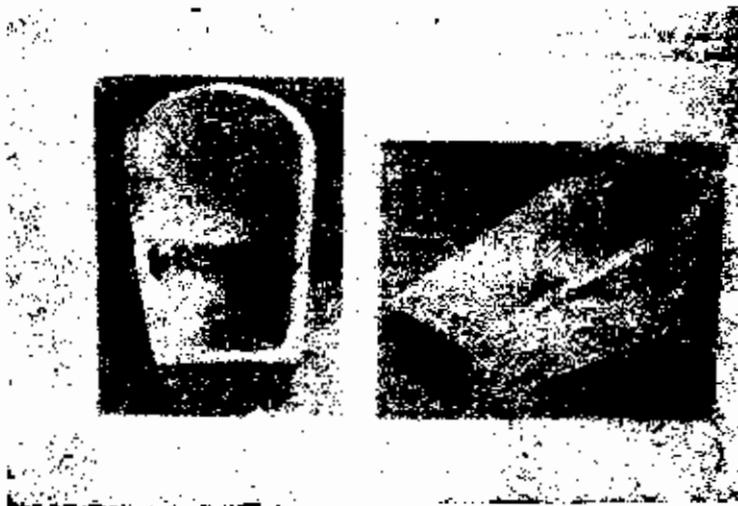
وقد تكون هذه الأحواض من نوع أشبه بالمقعد مما له من مسند للظهر  
والذراعين كالحوض المنحوت من الحجر الجيري والمكتشف بالاسكندرية  
(الآن بالمتحف السكندري ويحمل رقم ١٧٨٥٦) (١٧) (شكل ٦). ولهذا  
الحوض حافة حتى لا تنكب المياه وقت عملية الاغتسال . كما أن به انخفاض  
حيث توضع الرجلان وذلك لغسلها وهي تشبه في ذلك أحواض الأقدام المحفوظة  
بمخازن المتحف (شكل ٧) والشبيهة بأحواض الأرجل في حمامات ادفو  
(١٩) والكوم الأحمر (١٩) وغيرها من حمامات العصر الروماني بمصر .

وان كان الحوض ذو المسند هذا غير معروف في الحمامات الرومانية  
سواء تلك التي اكتشفت بايطاليا أو في غيرها من الولايات الرومانية  
المختلفة الا أن أقرب الأحواض المعروفة لنا في شكلها لهذه الأحواض ذات  
المقعد هي التي اكتشفت في ميسيني (٢٠) Mycenae باليونان والتي ترجع



(شكل ٧) حوض لارتفاع مخروط بالكعب الخودو الروماني

الى عصر الحضارة الميسينية المرادف للدولة الحديثة بمصر (شكل ٨). ولكننا نتمتع في أحواض ميسيني مساند الفراعين كالتى نراها في حوض الاسكندرية

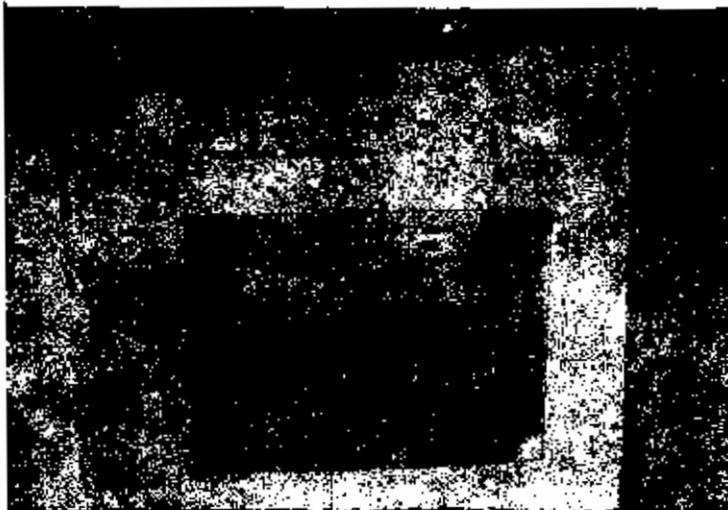


(شكل ٨) حوض للاستحمام من ميسيني اليونان نقلًا عن كتاب

Wiegand/Schrader "Priene"

ويبدو كذلك أن أحواضا قريبة في شكلها لهذه قد استخدمت في منازل برييني Prieno بأسيا الصغرى (٢١) والتي ترجع في تاريخها الى العصر الهلينيستي وكذلك منازل ديلوس التي ترجع الى القرن الثاني ق. م (٢٢) ، من ذلك اعتقد أن حوض الاسكندرية ربما ساد استعماله منذ العصر الهلينيستي واستمر استخدامه في العصر الروماني وأن كان في شكله الراهن لا نعرف له مثل بالضبط في أي من البلدان اليونانية أو الرومانية .

لم يكن استعمال هذا الحوض ذو المسند الخلفي الشبيه بالمقعد Fauteuil مقصورا على الحمامات الخاصة فحسب بل تعداها الى الحمامات العامة الدينية كما نرى مثلا في حمامات كوم النجيلة وولاد الشيخ قرب أبي المطاير (شكل ٩) وحمامات تابوزيريس ماجنا (أبو صير بالصحراء الغربية) وحمامات أبي مينا قرب العلمين ، وحيث أننا لم نعتد في الاسكندرية على المبنى الذي استخدم فيه هذا الحوض لهذا لا يسعنا الا أن نشير الى بعض الحمامات المكتشفة بمنطقة الاسكندرية كحمامات أبي صير وحمامات أبي قبر (كانوب قديما) ، حتى نستطيع أن نكون صورة لما كانت عليه تلك الحمامات



(شكل ٩) حمامات كوم النجيلة وولاد الشيخ قرب أبي المطاير نقلا عن

Breccia, "B. S. A. A.", 1921.

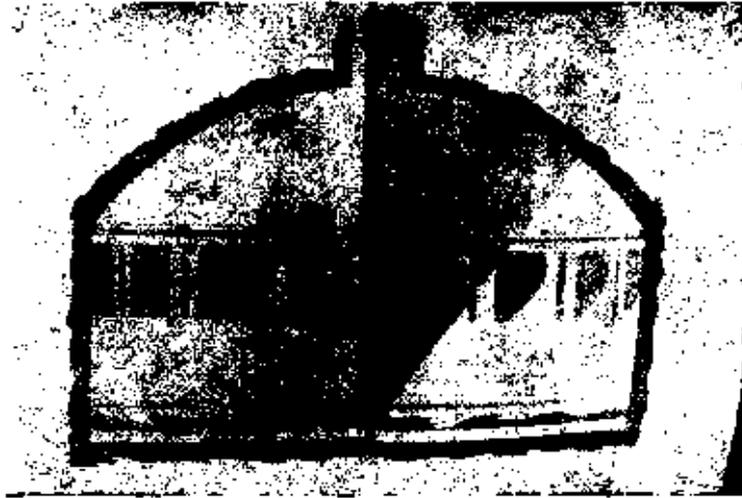
العامّة التي استعمل فيها مثل هذا الحوض وحتى نقيب الأفراس التي قامت من أجلها مثل هذه الحمامات .

### حمام تابوزيريس ماجنا ( أبو صير بالصهراء الغربية )

صمم هذا الحمام (٢٣) على هيئة دائرتين كبيرتين حفرتا في الصخر ويربط الدائرتين ممر ضيق (شكل ١٠) وكان لكل دائرة سقف كبير على هيئة قبة مفتوحة في مركزها كما نرى مثلاً في معبد البانثيون بروما وكما نرى حالياً في قباب المساجد . ولقد ترك في القبة هذه فتحة متوسطة لتسمح بمرور الضوء والهواء إلى داخل الحمام . كما تركت في مركز كل دائرة مساحة خالية تحيطها الأحواض والغرض من ترك هذه المساحة هو سهولة الانتقال للأحواض وللممرات سواء تلك الواصلة بين الدائرتين أو بين أحدها والمباني المستطيلة الشكل الملحقة بها . أما الحيطان الرأسيّة لكل دائرة فلقد حفرت فيها على ارتفاع قائمة تقريباً خمسة عشر فتحة صغيرة مستطيلة الشكل (شكل ١١) . لم تكن هذه الفتحات لوضع أواني رماد الموتى بعد حرقها كما يدعى Thiersch (٢٤)



(شكل ١٠) حمام تابوزيريس ماجنا ( أبو صير )  
قطاع أفقى يبين توزيع الحجرات والأحواض



(شكل ١١) حمام نابونديريس ماجنا (أبرصير)

نقلا عن قطاع رأسى بين الفتحات التى بالحيطان لحفظ الملابس بعد غسلها عند الاستحمام

Braccia, B. S. A. A. 1921

ولكن تأييداً لبريتشا كانت هذه الفتحات بمثابة دواليب يضع فيها المستحم ملابسه وحاجاته حتى ينتهى من الاغتسال . فهى فى اعتبارى تشابه تلك الفتحات التى نراها فى حيطان الأبوديناريوم فى حمام استايا (٢٥) أو السلداريوم فى حمام الفورم . كما أن فتحات المقابر التى تحفظ فيها زلع الرماد اتخذت فى العادة شكل نصف دائرة . وإن كانت هذه الفتحات صغيرة أيضاً إلا أنها مستطيلة الشكل .

وفى الحضرىات التى أجراها برتشا فى هذا الحمام اكتشف تحت هذه الفتحات الموجودة بالحيطان أحواضاً للاغتسال تشبه تلك الأحواض التى على شكل المقعد والمكتشفة بالاسكندرية وكوم النجيلة ولاد الشيخ . ولقد رصت هذه الأحواض فى مجموعتين تتكون إحداهما من ١٢ حوضاً بينما تضم المجموعة الثانية ثلاثة أحواض وتقع الأخيرة بين ممرين مقببين إحداهما مستقيم ومنخفض ومتصل بالممر الواصل بين الدائرتين أما الثانى وأن كان منخفضاً إلا أنه أكثر اتساعاً ومتصل بممر ينهى فى حالة إحدى الدائرتين

الى مباني مستطيلة ذات سقف مقبب وبها فتحة على هيئة عراب niche  
 ربما وضع فيه تمثال. أما الاتصال بين الدائرة الأخرى والمبنى المستطيل الشكل  
 الذى يقع بجوارها فمقطوع. وربما كانت المباني المتصلة بالمبنى المستطيل  
 المتصل بالدائرة تمثل بعض مكاتب الإداريين إذ أن المدخل العمومى للحمام  
 يفتح على المبنى المستطيل وعليه كان هذا المبنى المستطيل مكان تجمع  
 للمتحمين. ومقارنة هذا الحمام بحمام أبى قير (كانوب) يمكن الجزم  
 بأن هذا الحمام كان للاغتسال عند إجراء الطقوس الدينية أى بمثابة الميضة  
 للوضوء عند المسلمين اليوم.

وفى اعتقادى يرجع هذا الحمام فى تاريخه الى العصر الإمبراطورى  
 الرومانى وربما كان ذلك فى القرن الثانى الميلادى وإن كان استخدام الحمامات  
 الدائرية معروفاً فى مصر منذ نهاية العصر البطلمى (٢٦) ولكن استند الى أن  
 القبة بهذا الشكل ظاهرة رومانية معمارية كما نراها فى الباثيون وفى حمامات  
 كاراكلا مثلاً كما أن الـ niche بدت كظاهرة معمارية فى الحمامات  
 الرومانية منذ عصر كلوديوس أو نيرون تقريباً كما تبدو فى حمامات بومبى.

#### حمام كانوب (أبو قير)

يقع هذا الحمام جنوب حصن توفيق (٢٧). ويختلف فى تصميمه عن  
 حمام أبى صير فبدلاً من أن تكون الحجرات دائرية كما هو الحال فى أبى صير  
 نجد هنا مستطيلة الشكل وتضم ١٤ حوضاً مبنياً بقوالب الآجر المحروق بما  
 يرجعها الى العصر الرومانى. وهى مغطاة بطبقة من المصيص حتى لا تسمح  
 بتسرب المياه. وموزعة بحيث يضم كل جانب طولى كبير أربعة منها وثلاثة  
 لكل من الجانبين القصيرين العرضيين. وتشبه هذه الأحواض تلك التى  
 رأيناها فى كوم النجيلة ولاد الشيخ وتلك التى فى أبى صير. ولقد تهدمت  
 الأجزاء العليا من الحيطان وكذلك المباني المجاورة. ولكن اكتشف بجوار الحمام  
 مبانى حوض كبير كما لو كان للباحة. واكتشفت فى الأراضى المحيطة  
 بالحمام أربعة تماثيل من التراكوتا (الطين المحروق) تمثل الإله بس، وهى غير

مهذبة في صنعها من الظهور مما يشير بأنها كانت توضع وظهرها للحفاظ كما أن ارتفاعاتها متفاوتة تتراوح بين نصف المتر والمتر تقريبا . ويعطو تاج إحدى هذه التماثيل تحت للعجل أبيس في منظر جانبي . ويدل وجود هذه التماثيل بجوار الحمام على أن الحمام أقيم للاغتسال في المراسم والطقوس الدينية أما الحوض الكبير فهو بمثابة مغطس جماعي لغمر الأفراد أسوة بالتعميد عند المسيحيين إذ أن عملية التعميد بالغمر في المياه كانت منتشرة في الديانات اليونانية منذ العصر الهيلينستي . واستمرت عند الرومان وخاصة في مذهب New Pythagoreanism كما نراها ممثلة في الفن في أوائل عصر الامبراطورية الرومانية كما في سقف المهراب niche للصلاة الرئيسية في باسيليك بورتا ماجورى المبنيّة تحت الأرض في روما Undergraund basilica at Porta Maggiore (٢٨). أما الأحواض الأربعة عشر فرمما كانت حمامات لغسل الأرجل .



## ملاحظات

1. D.S. Robertson, "A Handbook of Greek and Roman Architecture", 2nd edition, Cambridge, 1940, pp. 254-262, fig. 110; Sir Banister Fletcher, *A History of Architecture on the comparative method*, 13th. edition, London, 1946, pp. 164-171.
2. Maria J. Sargienko, "Pompeii", 2. Auflage, Leipzig, 1954, pp. 205-222, fig. 64 for the Stabian Baths; fig. 85 for the Forum Baths; Amadeo Maiuri, "Pompeii", translated by V. Priestley, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy), 4th edition, Rome, 1949, pp. 29-32, fig. 5 for the Forum Baths.
3. Amadeo Maiuri, "Herculaneum," translated by V. Priestley, (Guide-Books to Museums and Monuments in Italy), 3rd edition, Rome, 1945, pp. 37-41, fig. 4.
4. J.M.C. Toybee and J.B. Ward-Perkins, "The Hunting Baths at Leptis Magna," With a survey by R. Fraser, Oxford, 1949.
5. August Mau, "Pompeii, its Life and Art," translated into English by F. W. Kelsey, new edition, New York & London, 1902, pp. 186-201.
6. Mau / Kelsey, *op. cit.*, pp. 202-207.
7. R. Cagnat et V. Chapot, "Manuel d'Archeologie romaine," 1, Paris, 1917, p. 214, fig. 111.

(A) لم اطلع ضم صورة الحمام ولا إحصاء المقاييس بدقة إذ أتى في انتظار تعريخ إدارة البعثة الأثرية البولندية من وارسو .

9. Robertson, *op. cit.*, pp. 232, 233 ff.
10. Mau/Kelsey, *op. cit.*, pp. 187, 188; Cagnat/Chapot, *op. cit.*, p. 219, fig. 113.
11. Mau / Kelsey, *op. cit.*, p. 187.
12. Ev. Breccia, "Alexandria ad Aegyptum," English edition, Bergamo, 1922, p.91.
13. Breccia, *op., cit.*, p.91.
14. Cagnat et Chapot, *op. cit.*, pp. 210, 211, fig. 108.
15. V. Spinazzola, "Pompeii alla Luce degli Scavi nuovi di Via dell' Abbondanza" (Anni 1910-1923), 1, Roma, 1953, pp. 437 ff.
16. Breccia, *op. cit.*, p. 210 nr. 31; Ev. Breccia, *Le Musee greco-romain*, (1922-23), p. 17; A. Adrioni, *Repertorio d'Arte dell'Egitto greco-romano*, serie A, 1, Palermo, 1961, p. 31, nos. 35, 36.
17. Alexandria, the Graeco-Roman Museum, Invent. Nr. 17856, prov. Alexandria, Mex, matière : calcaire, mesure : 1,20 x 0,79, (Bain en forme de chaise.).

بها هنا التفاهر بمحو الالة الأعداء على أساس : أن تنقوا منهم نقاة : أي تحذروهم  
وتحجبوا الأذى منهم . ومن هنا يتبين أن الخوف والمحافظة على النفس في  
مواطن الخطر هما أساسا التقية وأن القرآن قد أباح للمسلمين - وخاصة  
المسلمين الأولين الذين عناهم هنا - الخائفين على ديمهم أن يتخذوا الكافرين  
أولياء : نقاة أو تقية « على أمل زوال الظروف التي دعهم الى هذه ضرورة .  
والضرورات تبيح المحظورات كما هو معروف .

ويجب أن نلاحظ أن « النقاة » أو التقية : هنا موصولة بالإيمان الباطني ،  
وأن الاسلام قد أقرها على هذا الأساس . وهدد أصحاب « النقاة » من  
المسلمين الأولين المضطهدين في مكة بالعقاب : ان لم يكن الإيمان منلبسا  
بالقلب - بختم الآية بعبارة : « والى الله المصير » وذلك وعيد صريح  
وتذكير بعد التحذير الأول .

ويحسن بنا أن نلاحظ أن التقوى والتقية - التي تتحد معها في الأصل -  
تتصلان بمعنى الاسلام ، فكلا المنطين في معناهما الاصطلاحي الاسلامي ،  
مرتبطة بالانقياد للقوة العظمى - قوة الله - فالتقوى من الاتقاء بمعنى  
النجاة - والتقية والتقوى متقاربتان في الأصل بل تعلمهما من أصل واحد -  
أي حماية النفس من قوة معينة . فهي متصلة بالخوف . وكذلك الاسلام  
يتصل بالتسليم والانقياد لهذه القوة وبالسلامة من غضبها وسخطها . ويحسن  
أن نضيف الى ذلك أن التأثير بالجمان عند العرب يتصرف الى هذه الرهبة  
والهبة لهذه القوة المجهولة واصطلحوا عليه بالروعنة وقالوا : هذا أمر رائع  
فالهبة التي تدل على الجلال - وهو متصل بالهبة والخوف نحو : أمر جل -  
والاسلام والتقوى والتقية كلها متصلة بالقوة وبالخوف منها وبالتسليم لها .  
وذلك كله لا يعني أن العرب قد كان يخاف الخوف نفوسهم لجسهم . وإنما  
يتصرف الى هذه الهيئة السحرابية الخيفة المليئة بالأشباح والى الافكار التي  
داعبت خيالهم حتى تمد وضعوا برواية ابن خالويه - للدهاية أربعة آلاف

اسم (١) . ومن الغريب أن يتصل معنى الإيمان بالحروف أيضاً ، فالإيمان من آمن والثلاثي منه : أمن ، والأمان هو النجاة من الخطر ومن الحروف . وهكذا تتصل المعاني في التقوى - التي منها التقية - والاسلام والإيمان بالينوع البعيد الذي ينعكس من البيئة العربية الصحراوية التي كان يملؤها الحروف حتى لقد كانت أول عبارة يفوه العربي المسلم بها إذا لقي غيره قوله : « السلام عليكم » (٢) ، ليطمئن القادم تمهيداً لاطمئنانه هو .

٣ - بعد هذا كله ، نعود الى التقية لنبحث السابقة الأولى لها ، لقد كان من الصدف أن التقية قد ارتبطت - أول ما ارتبطت - بابن عبد سابق هو عمار بن ياسر الذي قتل في صفين (سنة ٣٧-٦٥٧) دفاعاً عن حق علي ، وكان من الشيعة الأوائل الذين اتفق الباحثون على كونه من أشد أنصار علي إخلاصاً له وثباتاً في الدعوة له ونصرته . وذلك أن القرشيين عذبوا أباه وأمه حتى قتلوهما وعمار ينظر ، فلما حل عليه الدور في التعذيب لم يتركوه حتى سب رسول الله (ص) وذكر آلهم بخير ، فلما أتى رسول الله في المدينة - بعد نجاته من الموت - قال : ما وراءك يا عمار ، قال : شر يارسول الله ، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهم بخير ، فقال رسول الله : فكيف تجدد قلبك ؟ قال : أجد قلبي مطمئناً بالإيمان . قال : فان عادوا فعند (٣) . ثم نزلت فيه الآية : « من كفر بالله من بعد إيمانه ، إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » . (٤) وفي الآية استفهام وجوابه : أما الاستفهام فهو : من كفر بالله من بعد إيمانه ؟ وأما الجواب ، فصدره محذوف وهو مفهوم من السياق ثم تليه النتيجة ، ويمكن أن نضب الآية في هذا القالب : « من كفر بالله من بعد إيمانه ؟ من كفر بالله ونبيه وارتد عن الاسلام ، إلا من أكره

(١) الآداب السنية للاستاذ محمد عطية الأبراشي ص ١٢٩

(٢) عن اسلامية « السلام عليكم ؟ أنظر الطبري - طبع أوربا - ١٣٥٣/١ وقد ذكر هنا أن نحوه الجاهلية كانت ، نعموا صابحاً »

(٣) حلية الأولياء ، ١٤٠/١ ، تفسير الطبري ١١٢/٤ ، غرائب القرآن لنظام الدين التبريزي على غنائم الخبري ١١٨/١٤ ، تفسير القرطبي ١٨٠/١٠

(٤) النحل : ١٦ : ١٠٦

وقلبه مطمئن بالإيمان ، وهكذا قرر الاسلام وقرر النبي مبدأ التقية بوصفها  
 وسيلة لحماية النفس من خطر يؤدي بها من غير طائل . ويجب أن نلاحظ  
 أن عمارة كان عبداً وان الاسلام قد جاء لحماية الفقراء والمستضعفين والعيبد  
 من جشع مستغلبهم ، وهو لا يعنى مطلقاً أن يفنيهم أو يقدمهم ضحايا  
 لا لشيء الا لضرب أمثال نادرة على الشجاعة ، فهذه الصفة تتوقف على  
 شخصية الرجل نفسه ولا تدخل لها في ايمانه بالحركة الجديدة وقبوله لها .  
 وهي لا تعنى اباحة الحرب والجبن في الحرب - فهذا هو ميدان الشجاعة  
 حقاً - وإنما تعنى أنه - إذا تحالفت الظروف السيئة على مسلم ، وخاصة  
 العبيد والمستضعفين الذين يفرض فيهم الحروف والضعف فلا داعي  
 للانتحار ، بل لا ضير من التظاهر بعكس ما يضمرون حتى تروى  
 هذه الظروف ويتحقق بزملائه المسلمين ، وعندئذ يستطيع أن يبدي شجاعته  
 وقوته وجنده في ميدان تساوى فيه انصرص للجميع ولا تتحالف على شخص  
 وحيد واقع في قبضة أعدائه . فالتقية قد أقرت في الاسلام لأنه يحض على  
 الجبن ، وإنما لأنه هدف الى أن يحمي الضعفاء والفقراء والعيبد تحت أوائه .  
 ولم يكن من العادل أن يتطلب منهم أن يتبنوا بقدرة قادر من قوم ضعفاء  
 جبناء اعتادوا الذل والسكينة والايذاء الى أبطال أسطوريين مجرد نطقهم  
 بالشهادتين . أما الشجاعة والاقدام فالاسلام - في بيئته الجديدة - كصيلة  
 بإنبات تكل المثل الانسانية في نفوسهم . ومن الجدير بالالتفات أن الاسلام  
 لم يعن الحض على الجبن وإنما ترك المسلم لطبيعته وخلفه ونشأته ، فمن كان  
 الاباء والاقدام والصبر من خلقه وجيلته ومات في سبيل مبادئه صابراً فهو  
 شهيد مثاب ، ومن كان مؤمناً في اخلاص دون أن يسعه قلبه على الجلد  
 لجاة جبل عليها فليس عليه من حرج (١) . والقرآن يقول « فضل الله  
 المحاهدين على القاعدين » (٢) ويقول أيضاً ، فمن أضطر غير باع ولا عا  
 فلا أثم عليه » (٣) ولم يكن عمار ليروح يسر يتعرض لافشائه زملاؤه للموت

(١) انظر الى ما يقول ابن حزم في الفصل ١١١/٢ ، « وقد أوحى الله عز وجل كلمة الكفر  
 عند التقية وأباح بها لهم في غير التقية » .

(٢) البقرة ٢ : ١٧٤

(٣) النساء ٤ : ٩٧

وإنما طوى إيمانه في قلبه كما نصبت الآية : « وقلبه مطمئن بالإيمان ، فالإيمان هو المهم وهو متوفر حافس . ومن المعلوم أن الإسلام قد جعل الإيمان درجة في العقيدة أعمق من الإسلام ، فالعبرة بالإيمان الذي يتصل بالقلب وهو يعنى التصديق بالعقيدة الجديدة القائلة بالتوحيد والنبوة والمساواة . ولعل من المستحسن أن نضيف إلى هذه الفقرات الآية التي تسند ظهور الإسلام لانقاذ النبايين واهتمامهم بهم : « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين » (١) وإلى الحديث الذي يقول : « اتبعوني أجعلكم أنسابا » (٢) ، لنضع يدنا على ما كان الإسلام يهدف إليه . فالثقة إذن أمر يتصل بعامل إنساني يبيع للرجل أن يحقن دمه في الظروف التي يؤدي فيها التظاهر بالإسلام إلى انقضاء على حياته وربما تعريض حيوات غيره من الدائنين بالعقيدة نفسها إلى الضرر أو القتل كما حدث فعلا في الإسلام الأول ، وأبو عمار وأمه وأخوه بشهدون . والثقة - بعد - عرف إسلامي يتصل بالإنسانية وفهمها أكثر من اتصاله بالدين وحدوده . وفهمها السليم - في رأينا - لا يتأدى إلا من هذه الوجهة بل إن الإسلام لم يفكر فيها قبل أن يمتحن عمار ، فلما فعل تنبه إليها وفسفها وأسسها على ذلك الأساس الذي مر بنا تفصيله .

يضاف إلى هذا كله أن خصال الإسلام الثلاث في تغيير الكفار المقهورين بين الإسلام أو السيف أو الجزية - تدخل في باب اقرار الثقة . فليس خافيا على الإسلام وشارعه أن الدخول في الدين الجديد على هذه الصورة تحت حد السيف أو مالا يمكن توفيره من مال يعنى دفع كلا الضررين يتحمل أهون الثلاثة وهو الدخول في دين القاهرين ، فلا يمكن أحدا أن يتصور أن معتق الإسلام وعلى هذه الصورة جاد في إسلامه المهم إلا إذا رأى فيه الروح مما كان يعانى ، شأن المسلمين الأولين ، وذلك أمر

(١) انقصر ٢٨ : ٤

(٢) رسائل ابينا (تحقيق كرد من ، مصر ١٣٦٥/١٩٤٦)

رسالة ابن تقيونج ص ٢٦٧

يدخل في باب الخدس والتخمين . فلم يبق الا أن يكون الاسلام مؤمنا بمبادئه ومثله واثقا من تأثيرها في الناس اذا اتيج لهم أن يزوروا الامور ويعجزوا الحياة الجديدة ولو بالاكراه أولا . فهو من هذه الناحية يغرى بالتقية ويقدمها الى الجاهلين به ثقة منه في كسبهم منى أمنوا واطمأنوا . فتفادى القتل والجزية والدخول في الاسلام بالفتح انما هو مبدأ اسلامي حمله الاسلام الى المغلوبين لاغرائهم باعتناقه ، فهذه تقية لا جدال فيها كما يبدو . ثم أن الاسلام لم يكف باتاحة الولاء - تقية - للمغلوبين على أمرهم من ارستقراطي المدينة - وكانوا يعرفون صراحة بالمنافقين وانما كان يتألف قلوبهم بالمال وجعنتهم احدى الطوائف الثماني التي لما نصيب في أموال الصدقات (١) . وقد ظل المنافقون يقيضون الأموال الى أن أُلغى عمر نصيبهم حين قوى الاسلام وأحسن بأن في ذلك تقيلا من هيته . وتلك اشارة على اتاحة الاسلام تقية حتى للارستقراطيين السابقين ، بل أدخل فيها وأبعد منها مدى .

ويحسن بنا بعد هذا أن نصحب التقية في حياتها الاسلامية لتبين هل تعلق بها الشيعة وحدهم أم كانت أمراً اسلاميا انسانيا .

٤ - لقد تذبذب جولد تسيبر الى أن الخوارج كانوا أول من دان بالتقية وتوصل بها (٢) والذي دعا الخوارج الى التقية هو مادعا عمارا : الكره والحقد المتبادل بينهم وبين جماعة المسلمين حتى كان اصطيد الخارجي يعني القضاء عليه ، وقد قاتلهم على حتى أبادهم ولكنهم كانوا لا ينفدون حتى عمأوا الشباب والرجال من جديد ، ومن هنا تعلقوا بالتقية حفاظا على حيواتهم وخلصا من الفناء .

وقد اضطرت الظروف الخوارج ، وهم أعنى وأشجع أصحاب المثل الاسلامية ، الى الأخذ بالتقية . وقد اخبرنا الشهرستاني (ت ١١٥٣/٥٤٨)

(١) التوبة ٩ : ٦٠

(٢) العقيدة والتشريعة في الاسلام ص ١٨٠

أن هذه الفكرة قد تسببت في انقسام الخوارج، وذلك أن نافع بن الأزرق (ت ٦٥/٦٩٤) قد كان يكفر القاعدين عن الحرب وكان يقول: «التقية لا تحل والقعود عن القتال كفر» (١) فانصرف زعماء الخوارج واتباعهم الى نجدة الحروري الذي قتل في أيام عبد الملك بن مروان ٦٩/٩٠. وكان نجدة يرى أن التقية جائزة واحتج بقوله تعالى: «الآن تنفوا منهم نقاة» (٢) فبين لنا التزاوج الواضح بين الظروف والتقية وإسناد الاسلام لها. والشهر ستأني الى ذلك بعدد بدع الأزارقة أصحاب نافع المذكور ويرى أن سادستها «أن التقية غير جائزة في قول ولا عمل» (٣) وقد رسمت التقية في بيضة الخوارج الى حد أن صار النقاش - بعد نافع - يدور حول كونها: هل تطبق في القول أم العمل أو كليهما، فأبنا الضحاك وهو رئيس فرقة من الخوارج وقتل سنة ١٢٨/٧٤٦ يرى أنها تجوز (٤) في القول دون العمل وكان أسلافهم النجدات يرونها «جائزة في القول والعمل وإن كان في قتل النفس»

وعلاوة على ذلك فقد ابتدع الخوارج اصطلاح (٥) «دار التقية» (٦) «ودار العلانية» ، وكانوا يعنون بدار التقية المواطن التي يغلب عليها غيرهم من المسلمين ، فبينوا لنا مدى اضطرابهم الى التعلق بهذا الدرغ الذي حى كثيرا من المسلمين قبلهم وبعدهم . بل لقد كان من لصوق التقية بالخوارج أنهم - مع اعتبارهم غيرهم من المسلمين كفارا - جوزوا تزويج المطلقات - أي الخارجيات - من كفار قومهم - أي المسلمين ذوى المذاهب الأخرى - في دار التقية (٧) . وذلك يعنى أنهم - وهم غلاة المخلصين

(١) الفلن والنحل ١/١٩٢

(٢) المصدر نفسه ١/١٩٥

(٣) المصدر نفسه ١/١٨٦

(٤) المصدر نفسه ١/٢١٦

(٥) المصدر نفسه ١/١٨٧

(٦) الفرق بين (مصر ١٩١٠) ، الملل والنحل ١/٢١٥

عبادتهم - سمعوا بالزنا الذي يعنيه تزوج الكافر بالمسلمة - بقدر ما يتعلق الأمر بعقيدتهم - لاني سبيل المحافظة على حيواتهم وانما لان الطرف يقتضي التقية ويقتضي الكتمان . وكان للصدقات عندهم تنظيم خاص في حال التقية وآخر في حال العلانية أيضا (١) .

وقد لا يكون هذا رأى كل الخوارج ولكنه رأى المشهور من فرقهم على كل حال والنزيم به النجدات والابراهيمية والضحاكية والاباضية والصفوية وغيرهم .

• - أما الشيعة فقد وجدناهم بعد قتل علي وقد علاهم معاوية فقتل رؤسائهم وأمر عماله ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة « وأمر بحرمان كل من عرف عنه موالاته علي من العطاء واستخاضه من الديوان والتكليف به وهدم داره . (٢) وبدأ لعن علي على المنابر . فصار التشيع يعنى الموت ، كما حدث سنة ٦٧١/٥١ لكثير من زعماء الكوفة من أمثال حجر بن عدى وعمرو بن الحمق الخزاعي وستة من زملائهما الذين أبوا الديانة بالتقية وصرحوا بالمعارضة وسبوا عثمان ومعاوية مقابلة لسب علي فكان أن قتلوا ، بل لقد دفن أحدهم - وهو عبد الرحمن بن حسان - حيا (٣) . واستمر القتل والقمع ، وكانت التقية جنة تقى من الموت وسبيلا الى الحياة بعد أن صار مبدأ الدولة « لا صلاة الا بلعن أبي تراب » (٤) . ولم تكن التقية من أهل الكوفة شيعية . وانما كانت عرفا انسانيا أقره الاسلام في القرآن . وجعل أولياء علي يمدون في أعمارهم بالبراءة من علي وكان ميدان البطولة مغنقا في ظل ذلك الطغيان الذي أعقب تنازل الحسن عن الخلافة سنة ٦٦١/٤١ وغلر الجو للمعصوم يفعلون فيه ما يشاؤون .

(١) الطبري ٦/٦٤٢

(٢) نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٦/٢

(٣) مروج الذهب ٦٧/٢

(٤) ابن أبي الحديد ٣٥٦/١

ويقتضينا الواقع والانصاف أن نسلم بأن التقية لم تكن الا درعا استعملها الكوفيون ليكسبوا الوقت وينظروا انكشاف الغمة عنهم . وقد رأيناهم يهضون ويقاتلون - بعد قتل الحسين - سنة ٦١/٦٨٠ حين استيقظت ضمايرهم وتماظمهم ما أقرنوا ، وكان منهم الثوابون الذين خرجوا لقتال الأمويين لا لشيء الا للتكفير عن قعودهم عن نصره الحسين . وكانوا يرددون الآية «فتوبوا الى بارئكم ، فاقتلوا أنفسكم ذلك خير لكم » (١) ولسان حالهم يقول : « اقلنا ربنا تقرطنا فقد تبنا » (٢) . وقد أبدوا من ضروب الشجاعة التي كانت التقية حصرتها في أنفسهم - ما صار مدعاة لاعجاب أعدائهم بهم ، فسمحوا لهم - من بعد هزيمتهم - أن يرتحلوا ويلحقوا بأعدائهم (٣) .

ثم تكررت الأحداث في الكوفة حتى ثار عبد الرحمن بن الأشعث (ت ٨٤/٨٠٣) على الحجاج . ولم يكن عبد الرحمن شيعيا ولم يعرف ذلك عنه ولم يكن أبوه وجده الا من ألد أعداء علي وأبنائه ولكن أنصاره ، بعد انهزامه ، تسلحوا بالتقية حين انتصر الحجاج عليهم وسامهم ما سام القرشيين عمارا في الاسلام الأول : البراءة من الاسلام والاعتراف بالكفر ، (٤) وقد كانوا يفعلون ذلك نجاة من الموت كما فعل عمار : أما القرشيون فكانوا يحمون عقيدة قدمة يؤمنون بها ، وأما الحجاج فلم يبيح الا اذلال الرجال والأزراء بأعدائه وأنه لمزاج غريب حقا : حمل الناس على الكفر شرطا لاطلاق سراحهم ، واهدأر دمهم مع الامان . وتلك - على كل حال - صورة مما آلت اليه حال العالم الاسلامي في أواخر القرن الأول الهجري . ومن أوضح الأمثلة على رسوخ التقية في نفوس المسلمين عموما في هذا الوقت أن الشعبي (ت ١٠٤-٧٢٢-٣) - الذي يمثل في الصحاح مكانا مرموقا - قد كان يبقى على صورة فيما ازراء بالانسانية وبالخلق النبيل . وبينما كان الحسن البصري (ت ١١٠

(١) البقرة : ١/٢٠١

(٢) مروج الذهب ١١٠/٢

(٣) مروج الذهب ١١٠/٢ ، وابن الاثير ٦٨/٤-٧٤

(٤) الطبري (لندن) ١٠٩٦/١-٩٧

٧٢٨-٩) لا يعطى أن نفسه الدنية في مجلس الحجاج ولا يداجى ولا يذفق وإنما كان يتجه في أوقات الخرج إلى السكوت ، وجدنا الشعبي يلومه على صراحته في حضرة الحجاج وتصريحه بظلمه ويقول : « أغضبت الأمير وأوغرت صدره » . فلما قال له الحسن : « البك عني يا عامر ، يقول الناس : عامر الشعبي عالم أهل الكوفة . أثبت شيطان من شياطين الأنس هواه وتقاربه في رأيه . ويحك يا ابن عامر ، هل انقبت إن سلئت بصدقك أو سكت فسلمت به » . فكان جواب الشعبي عجيبة : « يا أبا سعيد ، قد قلتها وأنا أعلم ما فيها » ، وقد كان الحسن محققا حين أغلف له بقوله : « فذاك أعظم الحجة عليك وأشد في التبعة » (١) وروى العزالي أيضا خبرا آخر جمع الشعبي والحسن البصري أيضا في مجلس عمر بن هبيرة ، فصدر من الحسن ما صدر منه في مجلس الحجاج السابق فلامه الشعبي وهو يقول له : « يا أبا سعيد ، اغضبت الأمير وأوغرت صدره وحرمتنا معروفه وصته » (٢) . بل لقد اعتبر فريق من العرب الحسن البصري صاحب ثقة لتحيزه السكوت للسلامة وردوا سبب ذلك إلى أصله غير العربي (٣) . ولم يكن الشعبي ولا الحسن البصري شيعيين بل لعلهما كانا من أعدائهم . وهذه ثقة واضحة في وقت تقبل الشيعة فيه الموت دون البراءة من علي أو الاعتراف بالكفر وقتل كميل بن زياد النخعي سنة ٧٠١/٨٢ وقتل وغيرهما من الشيعة من الشواهد على ذلك .

وجرت بعد ذلك أمور أحداث بلورت اتجاهات الناس ، وقامت الدولة العباسية وظل الشيعة معارضين ورجحت كفة العباسيين واستطاعوا أن يكسبوا معظم العالم الإسلامي ، فأحس الشيعة من جديد بالضغط يزيد ويانقل بستم وبالذلة الخديعة تقوى ويشدد ساعدها ، فكان العود إلى التقيّة أمرا تتطلبه الظروف . وكان ذلك أيام بدأت الحركة العقنوية تستغرق العالم الإسلامي

(١) أحياه علوم لدين نيزي (مصر ١٩٤٦) : ٢/٣-٣

(٢) المصدر نفسه ٢/٣٠٤

(٣) المصدر نفسه ٢/٣٠٤

في منتصف القرن الثاني الهجري ، وجعلت الطوائف والفرق والنحل تقبلين  
ونستقل وتكون لها مبادئها وتسندها بالحجج العقلية والمنطقية . وهكذا وجد  
الشيعة أنفسهم مضطرين لالتي التقية فقط ، بل الى تأسيبها على أساس من المنطق  
والكلام : فبدأت الأحاديث تروى والأخبار تترى ، فرووا ، عن الصادق -  
جعفر بن محمد المتوفى سنة ١٤٨/ ٧٦٥ أقوالا في التقية ومحبيدها ، ورووا  
عن الباقر - محمد بن علي بن الحسين المتوفى ١١٩/ ٧٣٧ - أنه قال :  
جعلت التقية ليحفظ بها الدم ، فإذا بلغ اندم فليس تقية « (١) وأنه قال :  
«التقية ديني ودين آبائي « (٢) وسواء أصبح هذا الجبرام لا فإنه يعكس  
حال الشيعة عكسا صحيحا ويبين الظروف التي أحاطت بهم . وهو الى ذلك  
صحيح من حيث أن التقية دين القرآن فعلا فهي دين النبي جد الباقر ، ويجب  
أن يضاف الى هذا أن عليا قد علل استجابته للتحكيم بعد خذلان أصحابه  
له في صفين بالمحافظة على نسل رسول الله من أن ينقطع (٣) .

٦ - وكان فريق آخر من الشيعة يباشر المعارضة الايجابية بالسيف  
والثورة وهم الزيديون ، فهض زيد بن علي بن الحسن في الكوفة سنة ١٢١  
٧٣٩ حركته ثورات أخرى حتى قام محمد بن عبد الله بن الحسن في المدينة  
سنة ١٤٥/ ٧٦٢-٣ ونصره أصحاب الحديث والفقهاء والزهاد . وكان  
سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١/ ٧٧٧ يقول : « أن يرُد الله خيرا بهذه الأمة  
يجمع أمرها على هذا الرجل « (٤) . وثار ابراهيم بن عبد الله أخو محمد في  
البصرة ، وكان أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠/ ٧٦٧ يعضده ويحث الناس  
على الخروج معه ويقول : « أن تقتيل مع ابراهيم يعدل قتله لو قتل يوم  
بسر : وشهادته مع ابراهيم خير له من الحياة « (٥) . ومهما يكن من أمر

(١) أصول الكافي ص ٢٠٦

(٢) أصول الكافي ص ٢٠٥

(٣) الطبري (عصر ١٣٢٣) ٤٣/٢ رقة صفين ص ٦٠٩

(٤) مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ص ٢٨٩

(٥) مقاتل الطالبين ٣٦٩ ، الطبري (أوروبا) ٢٠٠/٣

فإن المهم - فيما يتعلق بموضوعنا - أن الامام مالك بن أنس استثنى في الخروج مع محمد وقيل له : ان في أحنافنا بيعة لأبي جعفر (المنصور) (ت ١٥٨/ ٧٧٥) فقال : إنما بايعتم مكرهين ، وليس علي كل مكره يمين ، فأسرع الناس الى محمد ولزم مالك بيته (١) . وقد أشار ابن خلدون (ت ٨٠٨/ ١٤٠٥-٦) الى ذلك وذكر فتوى الامام مالك بجواز نقض بيعة الاكراه (٢) . وواضح أن الامام مالكا كان يرى أن الناس قد اجابوا المنصور وبايعوه لحوفهم من القتل فكانت بيعتهم على غير أساس من عقيدة قلبية ، وهكذا تعود من جديد الى الثقة التي خرج بها مالك بيعة الناس على الصورة التي ارتد بها عمار عن الاسلام في محنة في مكة . وهو بذلك قد أقر الثقة وأغرى الناس ببيعة محمد بن عبد الله بن الحسن . ولعل في هذا الحادث ما يجعل ارتباط الثقة لا بالاسلام الأول فقط بل بأصحاب الحديث من أهل السنة في أيام الامام مالك المعاصر لكثير من الحوادث التي دعت الشيعة الى التعلق بالثقة وبما يدخل هذا المدخل أن القرطبي (ت ٦٧١/ ١٢٧٢-٣) قد ذكر في تفسيره أن الشافعي والكوفيين على هذا الرأي من ايثار الثقة في حال الخوف من القتل ، وذكر كذلك أنه قد « أجمع أهل العلم » على ذلك (٣) . ولابد أن نلاحظ أن ذكر موافقة « الكوفيين » على الثقة ومعهم الشافعي (ت ٢٠٤-٨١٩) إنما جاءت من أن هذا البلد قد كان مسرحا لكثير من المظالم وعديد من الثورات على الظلم وأهله . وقبل أن نطرق الى حادث آخر يؤيد رسوخ الثقة في العالم السني ، نحسن بنا الالتفات الى أن الثقة - حتى الآن - لم تكن قد لصقت بالشيعة هذا اللصوق الذي وثقته الحوادث فيما بعد حتى بدا للناس أنها عرف خاص بهم ، ومن هنا فاجأتنا الأحداث بمثال بديع للتواصل بين الظروف والثقة . وذلك أن المؤمنون (ت ٢١٨/ ٨٣٣) - لما امقطه أخوه من ولاية العهد واستطاع الانتصار واستعادة حقه - التزم أفكار منافسي خصومه في العقيدة وطرأز التنكير ، فقرب الشيعة والمعزلة ونادى بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب (٤) وقد كانت محنة خلق القرآن

(١) الطبري (أوريا) ٢/ ٢٠٠ ، مقاتل الطالبيين ٢٨٢

(٢) العبر ١٨٠

(٣) تفسير القرطبي ١٠/ ١٨١

(٤) البداية والنهاية ١٠/ ٢٨٦

محكامينا للزعم القائل بأن التقيّة من عقائد الشيعة وحدهم . ولقد أورد الطبري (ت ٣١٠/٩٢٢-٣) وابن الأثير (ت ٦٣٠/١٢٣٣) في حوادث سنة ٨٣٣/٢١٨ في المحنة قولها : « وأجاب القوم كلهم حين أعاد القول عليهم : أن القرآن مخلوق الا أربعة نفر منهم أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ ٥٥-٦) وسجادة والقواريري وعبد بن نوح المصروب ، فأمر بهم اسحق بن ابراهيم (ممتحنهم بالنيابة عن المأمون) فشدوا في الحديد ، فأعاد عليهم المحنة ، فأجاب سجادة الى أن القرآن مخلوق ، فأمر باطلاق قيده وخلق سيبله ، وأصر الآخرون على قولهم . فلما كان من بعد الغد عاودهم أيضا ، فأعاد عليهم القول ، فأجاب القواريري الى أن القرآن مخلوق ، فأمر باطلاق قيده وخلق سيبله وأصر ابن حنبل وعبد بن نوح على قولها ولم يرجعا . فشدا جميعا في الحديد ووجها الى طرسوس وكتب معهما كتابا بأشخاصهما وكتب كتابا بتأويل القوم فيما أجابوا اليه .

وذكر سليمان بن يعقوب - صاحب الخبر - أن بشر بن الوليد (القاضي نثرف سنة ٢٣٨/٨٥٢-٣) تأول الآية التي أنزلها الله تعالى في عمار بن ياسر « الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان » (١) وهكذا تعود من جديد الى عمار بن ياسر والآية التي نزلت فيه وتبين الانسانية التي تكن في تلك الحادثة والخلود التي حددها الاسلام في القرآن للمدى الذي يستطيع الانسان فيه - اذا اكره - أن يحفظ به دمه « وقلبه مطمئن بالايمان » . ومن الطريف والمفيد معا أن ثبت ما رواه المقرئزي (ت ٨٤٥/١٥٣٨-٩) عن ابن حنبل في هذه المحنة وكيف عبر عن حان من أجاب الى أن القرآن مخلوق وكيف خرج اجاباتهم .

« قال اسحق بن حنبل - عم الامام أحمد - : « كنت أتكلم مع أصحاب اللطآن والقواد في خلاص أبي عبد الله فلم يتم لي أمر ، فأستأذنت على اسحق بن ابراهيم ، فدخلت اليه وكلمته ، وقال للحاجب : اذهب معه الى ابن أخيه

(١) الطبري (لوربا) ٣/١١٣٠ ، ابن الأثير ٣/١٤٤ طبع مصر ١٣٠٣



القتل والعذاب والالتقاء الى الأسود الضواري دون أن يترجحوا عن عقيدتهم  
ويذكر القرآن أصحاب الأخنود ممن عذبوا اليهود الجانين « بالنار ذات الوقود»  
وهذا هو الذي أراد الاسلام أن يتفاداه في أوائله وأعطى المسلمين الأوائل  
من الأرقاء والعبيد والمستضعفين والفقراء الميزة على قدر طاقتهم مع اطمئنان  
قلوبهم بالامان لتجنبيهم الاطاعة لهم به . وقد جاء الاسلام لانقاذهم  
مما هم فيه لا لتعريضهم لما هو أشد منه وتركهم طعمة للسيف والنار والسوط .  
ولم يكن ثبات ابن حنبل لمنع اصحابه - والآية تتردد بين جوانبهم -  
أن يستجيبوا للمأمون والمعتمد والأرائق (حكوا من ١٩٨/٨١٣-٨٤٧)  
في المحنة ، ولقد صدروا عن انسانيته وصدرا ابن حنبل عن انسانيته أيضا .  
وكل صدر عن طاقته وكل أرانا التفتية على حقيقتها والاسلام الذي أقرها  
وبين كلا الفريقين لنا تأصلها في الدين لا في التشيع وحده .

وإذا تبين ذلك فاننا نستطيع أن نضع شعبياً - لاشك في شيعيته -  
كريم النفس أيبا بازاء هؤلاء الخنازلة وغيرهم من فقهاء أهل السنة الخائفين  
المضطربين الى الديانة بالتفتية ليتضح الأساس الذي قامت عليه هذه العقيدة  
المتصلة بالظروف الاجتماعية وبقوة الاحتمال الشخصي . فقد كان الشريف  
الرضي المتوفى سنة ٤٠٦/١٠١٥-٦ رجلا أيبا كريما حر ان رأى لم تستطع  
الأحداث التي مرت في أيامه أن تنال من شدة ذهنه وعزة نفسه فضمن  
كتابه « حقائق التأويل في متشابه التزويل » كلاما يدور حول التفتية الأولى  
يعكس لنا هذه الحقيقة التي تقع من تواصل التفتية مع الظروف . لقد بحث  
الشريف التفتية على أنها شأن يكون بين المؤمن والمشركين لا بين المسلم والمسلم  
فلم يتطرق الى تفتية المسلم من المسلم مطلقا ، ثم أنه قد صرح في جلاء - كما فعل  
ابن حنبل - ان حبيب بن عدى حين قتل كان أفضل من عمار بن ياسر  
حين أعطى التفتية ، وذكر ان « اعطاء التفتية رخصة وأن الأفضل ترك اظهارها»  
وذكر أن « اقامة المرء عليه (الاسلام) حتى يقتل أفضل من الأخذ بالرخصة  
في العذر عنه حتى يسلم » (٣) ولم يفت الشريف أن يلحظ أن التفتية لا تكون

(١) البروج ٨٥ : ٤

(٣٠٢) حقائق التأويل ص ٧٥ - ٧٦

بالمالأة بالعمل وإنما تكون «قولا باللذان» (١) ونقل عبارة أبي العالبة أن «التقية باللذان لا بالعمل» (٢) . وكان الشريف فى ذلك كله صدر عن أفقه الواسع ونفسه المطبئة ولم يكن ذهنه متجها الى الظروف الصعبة التى تمر بالشعة كما خرت بالحنائلة قبل ذلك ، فلم يشأ أن يحاول الوصل بين ما فى القرآن وما تأتى به الظروف . ولعل هذا الذى ورد فى حقائق التأويل بين صحة مدح الشريف للخليفة الفاطمى وتهافت مشاركته فى الطعن فى نسبة نحت ضغط العباسيين كما شهد له بذلك أبو الفداء (ت ، ٧٣٢/١٣٣١) وصحح له قوله :

ما مقامى على الهوان وعندى مقول صارم وأنف مى  
أبىس المذل فى بلاد الأعادى وعصر الخليفة العلوى (٣)

وبين أيضا أنه كان معزل عن شؤون الشيعة وأن نقابته للظالمين كانت تصل بأرحامه وذوى قرياه دون سواد الشيعة وأمنهم فى العراق ، وأن ذلك كان موكولا بالشيخ المقيد (ت ٤١٢/١٠٢١-٢) وبالطوسى (٤٦٠/١٠٦٧-٨) من بعده وغيرهما بما كان الشيعة يتلقون منهم النصح والارشاد يأخذون عنهم أمور دينهم ودنياهم .

٧ - وقد آن لنا أن نتوقف الآن لنقرر أن التقية قد كانت تعنى انقاذ المسلمين من شرك الكفار ، فصارت الآن سلاحا يقتر به المسلم من أخيه المسلم وسلاحا يتلجح به الضعيف أمام القوى وذلك أمر يعكس ما آل اليه حال العالم الإسلامى من الفرقة والانقسام وانتشرت بحيث غدا الدين الذى جاء لهم الشعث فى العالم كله وعمر الفوارق الطبقة والعرقية والدينية - مفرقا الناس فرقا وطوائف ومذاهب وتحالا يتربص كل فريق منهم بالآخر اللدوائر

(١) المرجع نفسه ص ٧٤

(٢) حقائق التأويل ص ٧٤

(٣) تاريخ أبى الفداء طبع أوربا ٢٠٨٧

وأنظر ديوان الشريف الرضى ، مصر ١٣٠٦ ، ص ٤٥٦

ويتحين الفرص للإيقاع به . لقد كان أصل كل ذلك أن قوما أرادوا لأنفسهم الملك والسلطة ، وكان الطريق أمامهم شاقا ، فانتبها في المجتمع الاسلامي نباتا يورث الشقاق والعداوة بين المظلومين أنفسهم من قبائل الاسلام وبلداته وشعوبه ، فانشغل المظلوم بسب المظلوم والفقير بقتال الفقير والمحروم بلعن المحروم ونهيه وسلبه . واستراح أصحاب الدسيمة الى صلاتهم وأطمأنوا على جاههم ومجدهم وسلطانهم التي وجدوا لها حامة من بين مستحبيها . ولم يكن ذلك وقفا على طائفة دون أخرى وإنما كان الأساس الاستعلاء الشخصي والطمع الفردي والتسلط الارستقراطي . هكذا استغل مروان بن الحكم (ت ٦٨٥/٥٦) وارحامه عثمان وأشاعوا الكراهية في الأمة الاسلامية حتى ضحوا بعثمان نفسه ، ثم تناول معاوية هذا الحيط بيده فاستغل ضحية آل عبد شمس وجعل قتله ستارا لملكبيته ، فشطرت العالم الاسلامي شطرين : شطرا عثمانيا يمثله هو وأنصاره من طلاب الدنيا في الشام وغيرها شطرا علويا يلتفت حوله المظلومون والمحرومون والمساكين وأصحاب العقيدة والمثل العليا وضوائف أخرى من أصحاب الأغراض المختلفة . ثم تعددت الأحداث فحلت الخصومة محل الأخوة وصار السب تدينا وصار لعن أبي تراب علما للأمويين ولعن معاوية علما للكوفيين . ثم كان الشيعة - كلما اشتد الضغط عليهم - أمضوا في السب حتى شغل معاوية وعثمان وعمر وأبا بكر باعتبارهم ظالمين وغاصبين لحق على . ثم دخل يزيد ومروان بن الحكم والمنصور والرشيدي والمتوكل في هذه القائمة ، حدث كل ذلك مع أن عليا قال لأنصاره « كرهت لكم أن تكونوا شتامين » (١) ، ومنع ولده ابن الحنفية من التعرض لعمر في صفين (٢) ووصف أبا بكر بأنه أنحوه في رثائه ل محمد بن أبي بكر (٣) وقد كان علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ت ٩٤-٣٧١٢) يقول للسبابة من أهل العراق : أشهد أنكم لستم من الذين قال الله عز وجل فيهم :

(١) رقعة صفين ١١ ، الأخبار الطوال ١٥٥

(٢) الطبرى (نصر) ٧/٣

(٣) مروج الذهب (نصر) ١٣٤٦/٢ ٤٢٠

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالآيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » (١) ، وكان زيد بن علي يصرح بأنه ما سمع أحداً من أهل بيته يتراً من أبي بكر وعمر ولا يقول فيهما الا خيراً (٢) . وهكذا ترد عن سائر أئمة الشيعة نواه عن السب . ولكن المسألة لم تكن مسألة أوامر ونواه وانما كانت مسألة جاه وسلطان لاصحاب الأطماع ومسألة نار يؤججونها لئيم لهم الأمر والسلطان . فقد شعر أصحاب الأغراض الشيعة - باستمرار الضغط عليهم - أن المعتدين عليهم وأعداءهم الحقيقيين لبوا الظلمة من العباسيين وانما هم أبو بكر وعمر ومعاوية ومروان بن الحكم وعمرو بن العاص ويزيد . وكان ذلك يخدم مصالح الطائفتين المتنافستين على الحكم ، فتصرف الانظار عن الظالم الحقيقي وتوقع العداوة والبغضاء بين أهل البلد الواحد فتذهب ربحهم ويضعفوا ، وهكذا يمكن التغلب عليهم جيماً . ثم أن التشيع قد حوى خياطاً من الناس وصار ستاراً يخفى وراءه أصحاب الاطماع والأحقاد والبِدع باعتباره أمراً يسهل جمع الناس حوله . وقد أخبرنا ابن زيب في كتابه : « الغيبة » بحيلة الأمر ، فين لنا « أن أكثر من دخل في هذه المذاهب (الشيعة) انما دخله على أحوال : فمنهم من دخله بغير روية ولا علم ... ومنهم من أرادهم طلباً للجاه والدنيا وحطامها .. على غير اعتقاد للحق ولا اخلاص . ومنهم من دان به على ضعف من ايمانه ووهن من نفسه بصحة ما نطق .. » (٣) .

وجاء اليوميون فاتخذوا التشيع مذهباً لهم وشجعوا الشيعة على التصريح بما غرسه فيهم أصحاب الحقد والطمع ونموه فكان اظهار التشيع على صورة هزيمة من اعلان السب والاحتفال المبانع فيه ، بتكرى قتل الحسين . ولم ينس الحكام أن يؤذوا أهل السنة على انشيعة فتحول الصراع بين الشيعة وأهل السنة واطمان البوسيون على سلطانهم كما فعل سابقوهم ، وهكذا تحقق لهم

(١) مع انشيعة الانبية لمحمد جواد عتبة بيروت ١٩٥٥ - ص ٤٢ - ٤٣ (المشر : ١٠٠)

(٢) الطبري ٢٧٢/٨

(٣) الغيبة ص ٥

غرضهم فتمكن لهم الأمر من سنة ٣٣٤ ٩٤٥-٦ الى سنة ٤٣٧-١٠٤٥-٦ فانطوى حكمهم ولكن العداء بين الأخ وأخيه ظل مستمر الاوار . ونظرة الى الفن التي كانت تحدث بين الشيعة وأهل السنة تبين الى أى مدى كان للدسامين دورهم فيها ، فاننا نسمع عن كثير من الفن وتفصيلها وفظائنها . وخلال كل هذا الضجيج نرى الجماعات وهجمات الخوارج وانتشار قطاع الطرق واستشراء الأمراض ونرى أيضاً أمراً أهم وأبلغ : ذلك أن هذا الشعب المسكين كان بسيطاً طيباً مسالماً ، ففى سنة ٤٢-١٠٥٠-١ كما يروى ابن كثير ه اصطلع الروافض والسنة ببغداد وذهبوا كلهم لزيارة مشهد على ومشهد الحسين وتعرضوا فى الكرخ على الصحابة كلهم وترحوا عليهم ه (١) ويذكر فى حوادث سنة ٤٨٦-١٠٩٥-١ قوله : ه وفيها اصطلع أهل الكرخ من الرافضة والسنة مع بقية المحال وتزاوروا وتواصلوا وتواكلوا ه (٢) ولكن ابن كثير لا ينسى فى الخالين أن يبدى عجبه من ذلك لانه لم يستطع أن ينفذ الى الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذه الفن المفتعلة ، ثم أن الأمر لم يقتصر على الشيعة وأهل السنة بل سمنا عن فن بين الاشاعرة والحنابلة سنة ٤٤٧-١٠٥٥-١ (٣) وفن بين الاثراك والعامه وهكذا .

وكلما أمعنا فى تقصى الأسباب والنفوذ الى الدوافع الحقيقية الخفية وراء هذه الفن وجدنا أمامنا عبارة المجاعة أو النهب أو هجوم جيش على بلد ، وعلى العكس من ذلك نجد رخص الأسعار وكثرة المحصول والرخصاء مقترناً بسى الصلح والوحدة (٤) . ومهما يكن من أمر فقد استغل الفرس والترك هذه الفرقة الجاهزة بين طوائف الشعب الاسلامى ووطدوا ملكهم بينهم . والغريب أن عناصر الاستغلال كانت فى صالِح المستغلين دائماً : فاذا ذهبت دولة البويهيين الشعبية جاءت دولة السلاجقة السنية فاستغلت الخصومة نفسها

(١) البداية والنهاية ١٢/٦١

(٢) الترجع نفسه ١٢/١٤٨

(٣) الترجع نفسه ١٢/٦٦

(٤) يراجع المرجع نفسه فى السنوات المبينة .

— كان دله مصنف في فضل يزيد بن معاوية أقي فيه بالفرائب والعجائب كان يعتقد أن إباحة لعن يزيد يقضى الى لعن الخليفة لأنه ظلم مثله « (١) والأطراف من هذا أن الخليفة كان متكبرا يسمع هذا الكلام . وأدى هذا الى أن يقف مروان بن الحكم ويزيد والوليد بن يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد والمغيرة بن شعبة بازاء أبي بكر وعمر وفي مقام واحد ومترلة واحدة . وخلف هذا السب العام رد فعل قديم عند أهل السنة والجماعة فرأيانهم لا يألون عن عدالة ثلاثة قرون — كما هو معروف — فأسدلوا ستارا كثيفا على حقائق يجب أن تعرف وتجهل ليدين الحق ويعرف ما كان واقعا . وهكذا صار على المثقفين وطلاب المعرفة أن يتجنبوا كل ما يتصل بهفوات الصحابة والتابعين وتابعي التابعين وأخطأهم ودسائسهم وكان هذه القرون الثلاثة من الناس كانت أجيالا من الملائكة لا تعيش في هذه الدنيا وإنما تسرى في السموات وتخرج الى الجنان « ودخل بذلك الى الاسلام تقليد يشبه بالبيولوجيا اليونانية التي تسرد قصص الخلاف والدسائس والمؤامرات التي كانت تجرى بين الآلهة وتطلب الى الناس أن يعبدوهم ويتقربوا اليهم بالقرابين والطاعة . وكذلك طلب أهل السنة والجماعة . ردا على هذه الأمور — أن نقرأ كتب التاريخ ونطلع على ما كان يجري في العالم الاسلامي لمجرد القراءة والاطلاع وطلب اليها أن نعتبر ثلاثة أجيال من المسلمين محاطين بهالة من العصمة مع أنهم نفوا أن يكون النبي نفسه معصوما هذه هي المشكلة التي خلفها السب : الحساسية من التعرض لأية شخصية من شخصيات الصحابة والتابعين وتابعيهم .

٩ — ودخل عامل الرياسة الميدان فراد الأمر تعقيدا ، وكان وجود دولة شيعية رسمية في مصر تنافس الدولة العباسية باعثا على اسراف الشيعة في العراق وغيره من توابع العباسيين في اتخاذ التقية . وكان الأمر بالنسبة للاشعاعيين أشد وأنكى . فمن المعروف أن التقية لازمة من لوازمهم . وكان هذا يعني أن للاشعاعيين المصري أو المغربي أو غيرها — شرعا — أن ينكر

اشعاعيليته ليدفع عن نفسه خطر الموت ، فرأينا لهذه العقيدة علاجاً (اسلامياً) عباسياً زينه الفقهاء والساثرون في ركاب الدولة بالمنطق البراق حتى وجدنا رجلاً محترماً كالغزالي (ت ٥٠٥/١١١١) يكتب في الرد على الباطنية بناء على الأوامر « الشريفة المقدسة النبوية المستظهرية بالاشارة الى الخادم » (١) على اعتبار « أن الحاجة الى الكتاب عامة في حق الخاص والعام وشاملة جميع الطبقات » (٢) . وكان الغزالي يعترم دحض عقيدة الباطنية بالمنطق والعقل بدحض مبدهم في « إبطال الرأي واثبات التعليم » (٣) ، ولكنه لم يكف بالجدل العلمي وإنما انزلنا الى مهاوى السياسة فقرر أن « قبول التوبة من المرتد لا بد منه .. وأما توبة الباطنية وكل زنديق يستبر بال كفر ويرى التوبة ديناً .. ففي هذا خلاف بين العلماء » (٤) ، ثم ذكر رأى السائرين في ركاب الدولة وأنه قد « ذهب ذاهبون الى أنه لا تغيب توبته ، وزعموا أن هذا الباب – لو فتح – لم يمكن حسم ما دهم وقع غائلهم ، فان من سر عقيدتهم التدين بالتقية » (٥) هذا بالنسبة للمسلمين من الشيعة الإسماعيليين في زمن السلم ، أما في الحرب فان من قبض عليه منهم فان حكمه القتل وكذلك النساء « فانا نقتلنهما مهما صرحن بالاعتقاد الذي هو كفر على مقتضى ما قررناه » (٥) ، وأما الصبيان « فهما بلغ صبيانهم (من العمر) عرضنا الاسلام عليهم فان قبلوا قبل اسلامهم وردت السيوف عن رقابهم الى قربها وأن اصرروا على كفرهم مقلدين فيه آباءهم مددنا سيوف الحق الى رقابهم وسلطنا بهم مسلك المرتدين » (٦) ، وهكذا بلغت الحال بحماة الدين . ولم ينس الغزالي ، بعد أن سلخ الدولة بكل هذه الحجج والبراهين ، أن يذكر أن هذا الأمر ليس نهائياً – أيام السلم – وأن « الأمر منوط برأى الامام » (٧) لكلا يند الطريق عليه اذا بدا له أن يسلم أو يهادن أو يساوم .

(١) فضائح الباطنية للغزالي تحقيق كوله تميم (لیدن ١٩١٦) ص ١

(٢) المرجع نفسه ص ٢

(٣) المرجع نفسه ص ٣

(٤) المرجع نفسه ص ٥١

(٥) المرجع نفسه ص ٤٩

(٦) المرجع نفسه ص ٥٣

تحت لواء التصوف . على عكس ما حاول الأملبي : فيبين لنا رسوخ التقية في البعثات الصوفية التي تبنى الأمر بالادعية لا يستطيع الناس احتمالها وخسبنا أن نورد عبارته ، قال الشعراني : « فعليكم أيها الاخوان باحتفال الأذى ممن يجادلكم في صحة هذا الميزان .. فإنه معدود لا يكاد يسلم بكم صحبها لغرابتها » (١) ، وقال في مزارع آخر : « ونوفقم في الف مجادل مجادني على ترجيح مذهب بغير دليل واضح لا أرجع اليه في قلبي وإنما أرجع اليه .. أن رجعت - مداراة لحججه ، وأقول له : نعم - مذهبك أرجح ، أعنى عنده لا عندي » (٢) ومن الشعراني نستطيع أن نعود التمهيد الى التصوف واتصافه بالتقية . لقد كانت التقية لازمة من لوازم التصوف . دون التصريح بذلك عند بدء السلك بقرب من الحلون ووحدة الشهود . وقد كان التصوف يشمل على أساس التقية دون أن يعلن ذلك على الملأ . وذلك انه حين بدأ يتخذ سبيله الى الحلون وتبين خطر ما هو مقبل عليه حاول بعض المتصوفة أن يخفوا من غلوائهم ونواهم بسطاء الناس من الغامة لكلا يلحق بهم الأذى من ذلك . ولكن نظرف الحنفي الذي ثبت رسوخ التقية في التصوف بل ضرورتها له تأخر إلى بداية القرن الرابع الهجري حين قبض على الخلاج (ت ٣٠٩/٩٢٠) وحقق السطكان مع قوم كانوا يعتقدون الحقبة واعترفوا بأنه صح عندهم أنه يحيى المولوي (٣) . وقد بيو الخلاج على ذلك فأذكره وقال : « أعوذ بالله أن أدعي الزبوية أو النبوة وإنما أنا رجل أعبد الله عز وجل » (٤) . وتلك تقية واضحة نابعة عن التشيع وهي مصداق قول البقر الذي مر بنا : « جعلت التقية ليحفظ بها الدم .. ومن ذلك أيضا أن الخلاج قال للمشايع : « فريدون مناظرني ؟ أعنى ماذا أنظركم ؟ اعترف أنكم على الحق وأنا على الباطل » (٥) فلما بلغ الأمر القدر رأيت الخلاج يطلق بعقبه

- (١) كتاب الميزان في ملاحات الطبقات من المخطوطات وكتابتها ريبان بيد . ومطبع (طبع) ورقة ١٤  
 (٢) كتاب الميزان في ملاحات الطبقات من المخطوطات وكتابتها ريبان بيد . ومطبع (طبع) ورقة ١٤  
 (٣) أربعة قصص تتعلق بالخلاج انظر المخطوطات من ٤٩  
 (٤) الكسب لابن الأثير ٩٢٠  
 (٥) أربعة قصص من ١٩

ويظهر مكونات قلبه ، فطبق بذلك الشق الثاني مما نطق به الباقر : « فإذا بلغ الدم فليس تقية » ولعل الصحيح أن كل ذلك يتصل ببداية الأول للتقية الذي وجدناه في القرآن . وقد كان الشبل (ت ٣٣٤/٩٤٥-٦) من هذا الفريق أيضا في التمسك بالتقية وهو القائل : « كنت أنا والحسين بن منصور شيئا واحدا الا أنه أظهر وكتمت » (١) بل لقد رووا عنه أنه وقف على العلاج وهو مصلوب فنظر اليه وقال « ألم نهك عن العاملين » (٢) وتلك دعوة صريحة الى التقية بحفاظ على النفس ودفعاً للأذى عن الرءلاء وهو جوهر التقية كما أوضحنا . بل أننا لنجد الحفيد المتوفى سنة ٢٩٨/٩٤٠ يصدر عن تقية واضحة حتى كان « لا يتكلم قط في علم التوحيد الا في قعر بيته .. ويقول : أتعبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته ويرموهم بالزندقة والكفر (٣) .

يا : يبقى شيء آخر يتصل بالتصوف وعلافته بالتقية به ، ذلك أنه نشأ في خراسان قوم من الصوفية دعوا أنفسهم بالملامية في القرن الثالث الهجري وكانوا يتظاهرون باتيان الحرمات وكان مؤسس هذا المشرب حمدون القصار النيسابوري المتوفى سنة ٢٧١/٨٨٤-٥ (٤) ، وقد ذكر نيكولون أنهم « أظهروا اخلاصهم لله تحت راية من الحرية الدينية المصطنعة » (٥) وعبر أبو حفص الحداد (ت حوالي ٢٥٨/٨٧١) عن مذهبهم بأنهم « قاموا مع الحق تعالى على حفظ أوقاتهم ومراعاة أسرارهم ، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروا من أنواع التقرب والعبادات وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه وكتموا عنهم محاسنهم ، فلامهم الخلق على ظواهرهم ولاموا أنفسهم على ما يعرفونه من بواطنهم » (٦) ويشرح ذلك كله المناوي (ت ١٠٣١/١٦٢١) بأن الياقني (ت ٧٦٨/١٣٦٦-٧) زوى عن رجل وصفه بأنه كان عارفا ربانيا وروى أنه كان يتستر فيكبر عمامته ويطلب أكمامه ،

(١) (٢-١) أربعة نصوص ص ١٩

(٣) طبقات الشرائف ١٠/١

(٤) طبقات الصوفية للسلي ص ١٢٣

(٥) في التصوف الاسلامي - ترجمة الدكتور عفيف ص ٢٠

(٦) اللامية والصوفية وأهل الشريعة تهكتور عفيف ص ١٦

ثم قال : « وقال: مذهب الملامية إخفاء الطاعة وإظهار الرغبة في المباح (١) ومن هذا يتبين أن الملامية مذهب يراد به الانقطاع إلى الله بإظهار خلاف الباطن ، وهي تقية من حيث أنها التظاهر بعكس ما في الباطن ، ولكنها اتخذت طابعا عكسيا وأن كانت صلتها بالتقية واضحة . وقد اثبت السهروردي (ت ٦٣٢/ ١٢٣٤-٥) أن تقيتهم الواضحة فقال فيهم « سموا أنفسهم ملامية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية ، وما هم من الصوفية بل هم في غرور وغلط ينسرون بلبسة الصوفية توقيتا (توقية) أي (تقية) تارة ودعوى أخرى (٢) .

١١ - وقد أشرنا في مطلع هذا البحث إلى أن الزيدية قد أنكروا التقية ولم يعملوا بها واتهموا الشيعة الإمامية والأسماعيلية بالخروج والضعف لنسرتهم بها ، ولكنهم مع مرور الزمن واستقرارهم في اليمن وشعورهم بالأمان وفتور حماسهم الحزبي ، الذي لازم دعوتهم ، جعلوا يحرمون صلاة الجمعة في بلد السلطان ليس على شرطهم (٣) وذلك يدخل في الحدود والمحافظة على النفس وهو لب التقية كما مرنا .

١٢ - ونحن بنا أن نعرض للعالم الإسلامي في القرون المتأخرة ليم لنا وصل آخر هذا البحث بأوله . فلقد صار المجتمع الإسلامي - بعد اكتمال التنازل له - مجتمعا توزعه الدويلات والجهل والعصبيات ، وصار ضيق الألفق الطابع العام له ، وصارت العزلة التي عاناها سببا في شدة العصبية المذهبية . ودخل في الحياة الاجتماعية في العالم الإسلامي عامل جديد هو تنفس التشيع ونحرره من الضغط الذي كان يعانيه من الحكومات المضادة له وبدأ التوازن بين الكفتين يظهر . وكان نتيجة ذلك أن رأينا المجتمع السني ، الذي

(١) الكواكب النورية (مخطوط في المتحف البريطاني) ٢٥٥ أ

(٢) صراف المعارف (عوض حاشي أحيه العلوم - مصر ٢٣٤٩ ٢/٤ ، وأنظر كذلك كذلك طبعة مصر ١٣٥٨/ ١٩٢٩ ، ص ٥٥ ، وعبارة توقيتا التي هي تصحيف ظاهر « لتوقية » أريد بها التقية كما يظهر من سياق العبارة .

(٣) العلم الشامخ ص ٢٥٢

كان ينمى على الشيعة تمسكهم بالتيمة - يلتزم بها . وذلك أمر طبعى يدخل في جيلة الدفاع عن النفس المركبة في كل انسان ولكن غير الشيعة لم يحتاجوا اليه لأنهم كانوا في منجاة منه بالسلبية التي أبدوها لمظالم الحكومات المتواليه التي انصب ضغطها وظلمها على معارضيها من الشيعة . وهكذا بدأت سلسله من الصور التي تبعث على الأسى في مجتمع جاء الاسلام لصهره في وقتها وانقاده من التفرقة والظلم والتفوق الروحي ، فرأينا خربندا التتارى المتوفى سنة ٧١٦/١٣١٦-٧ يميل الى التشيع ويشجعه ويتخذ له مذهبا ويحمل عليه الناس . (١) فكان أن تظاهر كثير من غير الشيعة بهذا المذهب حفاظا على أرواحهم وأموالهم فحفى أمر كثير من الباحثين والمفكرين على المؤرخين حتى تنازع بعضهم مؤرخو الطرفين فأضافهم كل فريق الى مشربه ومنهم قطب الدين الرازى (ت ٧٦٦/١٣٦٦) المعاصر لخربندا المذكور الذى اضاف القاضى نور الله الى التشيع (٢) وغيره الى أهل السنة . وقد شك الخوانسارى في هذه النسبة الى التشيع وعلاه بأنه « قد كان ذلك في مبدأ أمر الرجل وزمان كونه في ديار العجم وانعكاس أمر التقية هناك وغاية ارتفاع أمر الشيعة الأمامية باعتبار تشيع سلطانهم الشاه محمد خد ابنده وأخذته بأنفاس جماعة العامة » (٣) . وظهر في أواخر القرن السابع وأوائل الثامن ابن تيمية صورة جديدة من اصرار ابن حنبل على عقيدته السلفية وعانى ما عانى في سبيل اقامة عقيدته على أساس من اثبات وقوة الشخصية وسجن ونفى وشرذ حتى مات سنة ٧٢٣/١٣٢٣ وفاز باعجاب خصومه وأنصاره . ابن تيمية هذا أضيفت اليه التقية ، فقد ذكر المفضل بن أبى الفضائل في كتابه « النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد (جرجيس) » في حوادث سنة ٦٩٩/١٢٨٨ ٣٠٠ أنه لما فتح التتار الشام وأمروا جماعة وكانت الأحوال مضطربة في دمشق فذكر أن ابن تيمية وبلر الدين به جماعة ذهبوا الى مقدم التتار في قلعة دمشق لتحقيق الصلح فلم يظفر بشئ ، وأن ابن تيمية اعاد الكرة فتوجه الى تخيم مقدم التتار بسبب

(١) ليداية وانهاية ٧٧/١٤

(٢) روغات البانات ١٨١/٣

المأسورين الذين أرجفوا بقدم المصريين لطردهم التار فاعتقلهم هؤلاء ، قال  
 الفضل : « وتحدث مولاي مع الشيخ في أمر (يزيد) ابن معاوية وسأله :  
 هل يجوز لعنته أم لا ؟ فعلم الشيخ (ابن تيمية) أن فيه موالة ، فكلمه  
 بما لاق بخاطره من الكلام بغير شيء ، يكرهه » (١) وتلك تقيية خفيفة يغلب  
 عليها المخاملة . ولكن ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية أظهر تقيية لاشك فيها  
 حين اشتد الخلاف بينه وبين المالكية فقبضوا عليه في سنة ٧٢٧/١٣٢٦-٧  
 وأخلوه الى جهم توطئة غماكته ، واحضروه يوم الاربعاء الى قاضي  
 القضاة شرف الدين المالكي وادعى عليه فأجاب : أن القاضي الحنبلي حكم  
 بحق دمي وتوثي واصلني ، فأعيد الى الحبس حتى يسأل الحنبلي كيف كان  
 الحكم . وسره القاضي الحنبلي وغيره الى قاضي القضاة يعقوب في المذكور  
 الا يكون الحكم الا عنده ولا يكون عند المالكي (لأنه لا يقبل توبة المرتد  
 ويحكم باعدامه) ، فاحضره في سابع عشرين الشهر وعزره بالعادلة بالدرة  
 وركب حمرا وطيف به البلد وراحوا به الى الصالحية . وآخر النهار ردوه  
 الى الحبس وأعلموا نائب السلطنة بما فعلوه .. وحبسه (النائب) بالقلعة مقيدا  
 وسكنت الفتنة » (٢) لقد نقلنا النص كله لأهميته في هذا المقام وليان ظروف  
 هذه التقيية التي أملاها خطر الموقف ، ومن هنا اعترفت ابن قيم الجوزية  
 بأنه ارتد عن الاسلام وأعلن توثيه وجده اسلامه . وهذا الخبر كله رواه  
 أحد أنصار ابن قيم الجوزية وكرر على ابن كثير أن يرويه الا مختصرا جدا  
 لشدة أثره في نفسه وكان من أنصار ابن تيمية المخلصين (٣) .

وفي سنة ٧٨٨/١٣٨٦-٧ فتح تيمور لنتك حلب وكان قد اتخذ التشيع  
 غير المتعين (الذي لا يخرج عن موالة على ورد معاوية ويزيد فقط) مذهبا  
 له ، فجمع فقهاءها - على عادته كلما فتح بلدا - ليمتحنهم ويرى رأيهم

(١) المنهج السديد ، تحقيق أوسكار بلرشي ضمن مجلة Pahalagiaionictalis باريس  
 الجزء ١٤ ، القسم الثاني ص ٦٦٧  
 (٢) الأعلام بتاريخ الاسلام لابن قاضي شهاب مخطوط في مكتبة البودلين في أكسفورد  
 رقم 143 marsh الجزء الثاني ورقة ٢٠٥  
 (٣) الأعلام بتاريخ الاسلام الجزء الثاني ورقة ٢٠٥ ب

في علي ومعاوية ريزيد وفي مسائل أخرى كان تيموريكررها في كل مكان يفتحه . (١) وكان السؤال الأخير : ما تقولون في علي ومعاوية ويزيد « وهنا قال القاضي شرف الدين وكان الى جانب الحافظ الخوارزمي - راوى هذا الخبر - «أعرف كيف تجاوبه فإنه شيعي» (٢) وهذا ارهاص بالقضية وأمرها كما لا يخفى . والمهم أن الحافظ الخوارزمي قد تخلص من المخرج بقوله : « كان الحق مع علي في نوبته » (٣) فسر تيمور ، وكان تخلصه - كتخليص عماد ابن الحسن الطوسي الفقيه الشيعي المتوفى سنة ٤٦٠ / ١٠٦٧ ، بمناورة أخرى (٤) يحسن الفقهاء في كثير من الأحيان حبكها متى دعت الضرورات إليها .

ومما زاد في البلية أن عاملا مساعدا على الغلو في التعصب قد نبث من قيام دولتين اسلاميتين قويتين تدين احدهما بالتشيع والأخرى بمذاهب أهل السنة ونعني بهما الدولة الصفوية في ايران وما بعدها من دول شيعية ، والامبراطورية العثمانية في بلاد الروم . وكان العراق - لسوء الحظ - هو الحسر الذي يربط بين الدولتين وكان فيه معتنقو كلا المذهبين ، فأصابه رشاش التعصب البغيض ، فاضطهد اسماعيل الصفوي أهل السنة سنة ٩١٤ / ١٥٠٨ - ٩ سنة ٩١٦ / ١٥١٠ - ١١ وقتل كثيرا منهم (٥) وكذلك فعل طهاصب سنة ٩٣٦ / ١٥٢٩ - ٣٠ (٦) وعباس الصفوي سنة ١٠٣٢ / ١٦٢٢ - ٣ (٧) واضطهد العثمانيون الشيعة وأسرفوا في قتلهم وفعلوا الأفاعيل ، ومن ذلك أصاب أربعين ألفا من الشيعة الأتراك من قتل أو سجن مدى الحياة على يد

(٣٤٢٠١) روضة المناظر لابن الشحنة مخطوط في أكسفورد ص ٢٣٨ وكذا عجائب المقدر في أخبار تيمور

(٤) أنظر لؤلؤة البحرين ص ٢٤٥

(٥) تاريخ الدولة الفارسية في العراق لعل طريف الأعظمي - بغداد ١٩٢٧ ص ١٠١ . ونقد اعتمادنا هذا الكتاب وكتاب موجز تاريخ البلدان العراقية الآتي لعرض صور الاضطهاد العظيم التي نالت الشيعة وأهل السنة بدلا من مصادرها الأصيلة المعروفة وذلك لابرار الأثر التي تركه هذا الاضطهاد في نفوس الباحثين من الترفيقين الذين مثلها مؤلفا الكتابين المذكورين .

(٦) تاريخ الدولة الفارسية ص ١٠٤

(٧) المصدر نفسه ص ١٠٩

سليم الأول سنة ٩١٨ (١٥١٢-٣) اصاب ذلك حتى الصبي الذي في الساعة ولم ينج منه الشيخ الذي بلغ السبعين (١) . ومن ذلك ما فعله مراد الرابع سنة ١٠٤٧/١٦٣٧-٨ ، وكان من تمام ما أتاه احراقه جميع كتب الشيعة الإمامية (٢) . وهكذا اضطر الشيعة الى النجاة بالتقية وأسرفوا فيها اضطرارا حتى لقد جعل بعضهم يشك في شيعة البعض الآخر في مواطن التشيع . ومن الطريف أن بعض الشيعة قد شكوا في شيعة بهاء الدين العامل المتوفى سنة ١٠٣٢/١٦٢٢-٣ لأن الشيخ عمر - وكان من علماء أهل البصرة من أهل السنة - قال (أن بهاء الدين محمدا من أهل السنة الا أنه كان يتقى من سلطان الرافضة .. ) (٣) فأوضح لنا ذلك أن اتباع كلتا الطائفتين كانوا يلتزمون التقية في هذه الظروف التي يهلف فيها دم الرجل لأمر لا يدخل في التدين ولا في الايمان بالمبادئ وانما يضحى به على مذبح الطمع والقساط الظالم . ويضاف الى ذلك أن بهاء الدين العامل الف في سياحته الطويلة في سوريا ومصر رسالة في وحدة الوجود ظهر فيها بمظهر شافعي كامل (٤) وبما يذكر أيضا أن الشيعة قد قدموا ثلاثة من أبرز علماءهم المتأخرين قرابين على مذبح التعصب المذهبي ؛ فقتل الشيخ محمد بن مكى العامل في دمشق سنة ٧٨٦ (٥) ١٣٨٤ وقتل الشيخ زين الدين بن علي في بلاد الروم سنة ٩٥٢/١٥٤٤-٥ (٦) في أيام طهاسب الصفوى انتقاما لضحايا أهل السنة ، وقتل القاضي نور الله القصرى في الهند سنة ١٠١٩/١٦١٠-١١ (٧) وكذلك كان يفعل العثمانيون بالشيعة من سكان دولتهم . (٨) وكان الضغط

(١) الطريقة البكاشية ليجرج ص ٦٦ عن فون هامر

(٢) سوجز تاريخ البلدان العراقية لعبد الرزاق الحسى (بتعداد ١٩٢٠) ص ٢٤

(٣) روضات الجنات ٩٦/٤

(٤) الرسالة مطبوعة مع رسائل أخرى صوفية في مجموعة الرسائل « مطبعة الكرمى ، مصر بلا تاريخ ، ومخطوطها في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٦٤٧٢ في الفهرست القديم ٨٥/٢

(٥) مجالس المؤمنين ص ٢٤١

(٦) أمل الآمل ١٤-١٦

(٧) روضات الجنات ١٩٦

(٨) طرائق الحقائق ١/١٣٢

شديدا على الشيعة في كل مكان تسوده دولة سنية حتى كانوا يعرون بانقاذهم  
التقية - مما رأينا انسحابه على غيرهم أيضا . ومهما يكن من أمر فان الشيخ  
محمد الحسين كاشف الغطاء قد قال في ذلك : « واللوم والتعير بالتقية  
ان كانت تستحق اللوم والتعير - ليس على الشيعة فحسب بل على من سلبهم  
موهبة الحرية والحلأهم الى العمل بالتقية » (١) .

١٣ - بقي أمر مهم يكمل هذه الصورة التي تعكس التقية في سفرها  
الطويل ، ذلك أن حركة جريئة عظيمة قامت في العالم الاسلامي سنة ١١٠٣  
١٧٤٠-١ وقادها رجل من لب بلاد العرب وقصد بها اعادة الاسلام تقيا  
بسيطا كما كان أيام النبي وقيل أن نعلق به الأفكار الغربية والبدع والأضاليل  
والتناسير والتأويلات هو محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠١/١٧٨٦-٧  
وقد اندفع فقهاء الاسلام اليه بين معارض وموافق وكتب في مدح مذهبه  
المولزي لمذهب ابن تيمية السلفي وقدحه عديد من الكتب ، ودخلت الحركة  
أمر وتطورات ليس هذا موضعها . وقد أرسل محمد بن عبد الوهاب رسائل  
الى الأمراء والوزراء يدعوهم الى مذهب « الموحدين » وكان من انكب كتاب  
أرسل الى بغداد سنة ١١٥٥/١٧٤٢-٣ حيث كان سليمان باشا ( المتوفى  
سنة ١١٧٩/١٧٦٥-٦ ) وزيرا ، فرد عليه عبد الله أفندي الراوى برسالة  
حاول فيها أن يلخص ما أوردته محمد بن عبد الوهاب في رسالة التوحيد  
جامعة كبرج تحت رقم (9) OR 138 هو في الواقع كتاب « التوضيح عن توحيد  
الخللاق في جواب أهل العراق » وان كان عنوان المخطوط فيها يقول :  
« رد الرهاني » دون اشارة الى المؤلف ، وفي مكتبة الأوقاف العراقية نسخة  
من هذا المخطوط . وبعد هذا الاستطراد نذكر أن هذا الكاتب الوهابي  
الذي تبنى الاسلام على حقيقته الأولى وبساطته قد ذكر عبارة تحمل دلالة  
كبيرة قال : « بل قد حرروا أمر (محمد بن عبد الوهاب) عند شيوخ أفاضل  
أكابر منهم الشاميون : الشيخ علي أفندي الداغستاني الذي قد ذكرنا  
اسمه وابن عمه الشيخ عبد الكرم الداغستاني والشيخ البرهاني ، والشيخ

(١) أصل الشيعة وأصولها ١٩٣

عثمان الديار بكرى تزيل المدينة المنورة ، والشيخ محمد الشافعي نزيل بالبس أرسل اليه نسخة . فأمرها وأقرأها وحرروه وأجازوه ، ولكن عذرهم عدم المساعدة لهم في قيام ما تضمنه من إقامة الدين وإخلاصه لرب العالمين ، والا هو الذي يدينون به في أنفسهم وأهليهم وأحبابهم من عشائهم لأن ذلك يعتاز الى سيف قائم وأمام عادل ، وذلك متعذر الا بتوفيق الله وإيجاده.. (١) فينت لنا عبارتهم «لا يقدرُونَ على نهي الناس عما اعتقدوه وعملوا به وقالوه» أن الثقة هي مبدأ اسلامي يتصل بالإنسان قبل الاسلام وأن المصدر عنها صدور عن طبيعة البشر وأن كان الرجل حنبلياً أو وهابياً ، والذي يلفت النظر أن صاحب الرد لم يحق على هذا الذي أورده عن هؤلاء الفقهاء من شئ أقطار الاسلام بل هو الذي صاغ هذه العبارة ترجمة عن مشاعرهم وضائرتهم فهي موافقة ضمنية على ما أصدره ، وهكذا ترتبط النهايات بالبدايات وتنعكس الأوائل على الأواخر وتبدو لنا الثقة في معزل عن الخصومة بين الشيعة وأهل السنة فتلقى عنها ما أنقلها به القرون .

١٤ - ولعل من غير الملل أن نضيف الى هذا كله أن الثقة - في فهمها الواسع - قد انتجت أدباً يتسم بالنسب بالرمز والاشارة في مختلف الأقطار والأزمان ، ولعلها من أهم ما يبني للأدب الرمزي بناءه وغدائه بالمواهب والفرص ولنا في كليله ودمنة ورسائل اخوان الصفا وكتب أكثر التصوفية وكتب النحل من أمثال الحروفية وغيرهم أمثلة تضرب . ونستطيع أن نضيف الى هذه الآثار كتباً من الغرب من أمثال يوتوبيا لثوماس مور ، وقد تسبب ذلك الكتاب في اعدامة «ورسائل فارسية» لمونتسكيو الكتاب الذي نقد فيه هذا الفيلسوف المجتمع الفرنسي على لسان ريكارد وازيك ورضي ، ثم أساطير لافونتين التي تشبه كليله ودمنة وأساطير ايسوب ، تلك الكتب التي تعكس هذه الثقة الانسانية التي لاحت في سماء الاسلام يوماً فرعى برعايتها الانسانية

(١) التوضيح من توحيد الخلاق في جواب أهل العراق (ص ٢٤) ونلاحظ الركنة الفاعلة في الألوپ).

ومزج الروح الديني بالشعور الانساني والضعف البشري فجعل الدين  
منظما لحياة الناس قلبا وقالباً .

\* \* \*

أما بعد فهذه هي النقية في بدنها وتطورها عقيدة اسلامية انسانية طبقها  
المذاهب الاسلامية على اختلافها حين سامتها الحوادث تطبيقها . ولم تكن عقيدة  
شيعة : ولعل اضطرار الشيعة الى اتخاذها درعا بحميتهم - في الماضي  
الذي انزاح ككابوسه أمر يدعو الى التأمل والاعتبار .

## المراجع

### المخطوطات :

- الأعلام بتاريخ الإسلام لابن قاضي شعبة ، مكتبة بودليان في أوكسفورد رقم March 143
- التوضيح عن توحيد الخلاف في جواب أهل العراق لسليمان بن عبد الوهاب ، كبردج nr. 738
- جامع الأسرار ومنبع الأنوار لغيرين على الأمل ، مكتبة دائرة الهند في لندن رقم Arberry: 1349
- روضة المناظر لابن الشحنة ، مكتبة بودليان في أوكسفورد رقم Arch seid. A. 19
- الكواكب النورية لبيدالرزوف المنادي ، مكتبة المتحف البريطاني في لندن رقم Add. 23,369
- الميزان في المذاهب الثمانية عشر للشمران ، مكتبة المتحف البريطاني في لندن رقم or. 4298

### المطبوعات :

- الآداب السامية لعمدة الأبراشي ، طبع مصر ١٩٤٦
- أحياء علوم الدين لغزالي ، طبع مصر ١٣٤٦
- أربعة نصوص تتعلق بالحلاج ، تحقيق ماسينيون ، باريس ١٩٤٩
- أصل الشيعة وأصولها لعمدة حسين كاشف الغطاء ، بيروت ١٩٥٦
- أصول الكافي للكليني ، طهران ١٢٧٨
- اعتقادات الصدوق القمي ، تبريز ١٣٦٤
- أمل الأمل لعمدة بن الحسن الحر العاملي ، طهران ١٣٢٠ .
- البداية والنهاية لابن كثير مصر ١٩٣٢ .
- تاريخ ابن خلدون ، مصر ١٩٣٦
- تاريخ أبي القداء (مع ترجمة لاتينية) طبع أوروبا بلا تاريخ .
- تاريخ الثورة الفارسية في العراق لعلي طريف الأعظمي - طبع بغداد ١٩٢٧
- تاريخ العراق بين احتلالين نعيم الزاوي ، بغداد ١٣٥٤/١٩٣٦
- تاريخ العرب (مفصل) لفيليب حتي ، بيروت ١٩٥٠
- تاريخ الطبري (لندن ١٨٨٤) أو مصر ١٣٢٢ (حسب الطبعة المثبتة في الهامش)
- تصحيح الاعتقاد لشيخ المفيد (مع مقدمة هبة تدين انشورستاني) (مع اعتقادات الصدوق) تبريز ١٣٦٤

- تفسير الطبري مصر ١٣٥٤/١٩٣٥
- تفسير الكشاف للزمخشري مصر ١٣١٨
- حقائق التأويل في مشابه التزويل للشيخ الشريف الرضي ، النجف ١٣٥٥/١٩٣٦
- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصفهاني مصر ١٣٥١/١٩٣٢
- دائرة المعارف الإسلامية (بالانكليزية) ١٩٢٩
- روضات الجنات للخوانساري ، ايران ١٣٠٧
- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد مصر ١٣٢٩
- طرائق الحقائق للحاج مصوم علي (بالفارسية) طهران ١٣١٩
- طبقات اشعراي ، طبع محمد صبيح ، مصر بلا تاريخ
- الطريقة البكاشية (بالانكليزية) ليرج ، أمريكا ١٩٣٧
- صحائب المنصور في أخبار تيمور لابن عربشاه ، مصر ١٣٨٥
- العميدة والشريعة في الاسلام لاجناتس جولده تسيهر وترجمة : محمد يوسف موسى ،
- وعبد العزيز عبد الحق وحل حسن عبد القادر ، مصر ١٩٤٦
- عوارف المعارف (على هامش أعياء العلوم) مصر ١٣٤٦
- غرائب القرآن لغمام الدين النيسابوري (على هامش تفسير الطبري المذكور)
- الغيبة للطوسي ، تبريز ١٣٢٣
- الفرق بين الفرق للبندادي مصر ١٩١٠
- فضائح الباطنية للزالي تحقيق جولده تسيهر (لندن ١٩١٦)
- الكامل لابن الأثير مصر ١٣٤٨
- لقول البعيرين للشيخ يوسف البحراني (طبع مع الكتاب - برسي)
- مجالس المؤمنين للقاضي نور الله (بالفارسية) طهران ١٣١٨
- مروج الذهب للمسعودي ، مصر ١٣٤٦
- مع الشيعة الإمامية لمحمد جواد مغبية ، بيروت ١٩٥٥
- مقاتل الطالبين لأبي الفرج الأصفهاني ، مصر ١٩٤٨
- الخلائط والسوفية وأهل الفترة لداكتور أبو العلا مفيض ، القاهرة ١٩٤٥
- الملل والنحل لشهر ستاني مصر ١٩٤٨-١٩٤٩
- مناقب الامام أحمد بن حنبل لأبي الفرج بن الجوزي ، مصر ١٣٤٩/١٩٣١

مناقب الإمام ابن حنبل (مفسر يزي) (مخطوط) نقل عنه بالوفا في كونه ابن حنبل واحدة  
بالتأجيلية) .

- شمسى المقام محمد بن اسماعيل الطائري . شهر - ١٣٢٠
- موحى تدوين البلدان العراقية لعميد روزان الحسى . بغداد - ١٩٣٠
- وثقة صدين لتصر مزاجم المنقرى ، تحقيق محمد عبد السلام هرون . مصر - ١٣٩٥

## تاريخ بناء القرويين

7306 ? 263 ? 245

للككتور هير الهادي التازي

إن كل أولئك الذين كتب لهم أن يراولوا للدراسات التاريخية بصفة عامة وتاريخ المغرب بصفة خاصة يذكرون جيداً أن ابن أبي زرع في كتابه القرطاس نقلا عن أبي القاسم ابن جنون في تاريخه لمدينة فاس ، وكذا سائر الذين حدوا حدوه من أمثال الخزنائي في زهرة الآس ، وابن خلدون في تاريخه : العبر ، وابن القاضى في جذوة الاقتباس وغير هؤلاء يجمعون على أن مسجد القرويين بمدينة فاس شرع في حفر أسامه والأخذ في أمر بنائه أول رمضان من سنة ٢٤٥ (٣٠ نوفمبر ٨٥٩) بمطالعة المعامل الادريسي يحيى الأول ، وأن أم البنين فاطمة الفهرية هي التي تطوعت ببنائه وظلت صائتة محسبة الى أن انتهت أعمال البناء وصلت في المسجد شكراً لله ، وهذه حقيقة تاريخية لا يسمع الباحث نفسه بالاستسلام للشك فيها والبردد أمامها سيما وهي ترجع لوقت مبكر من تاريخ المغرب أعني وقت بني مرين أوائل القرن الثامن الهجري ، بيد أننا نجد أنفسنا اليوم أمام وثيقة معاصرة للادارسة ، أنها لوحة منقرشة عثر عليها - عند أعمال الترميم - في البلاط الأوسط فوق قوس المحراب القديم الذي كان للقرويين قبل قيام المرابطين بتوسعة المسجد ، لقد اكتشفت مدفونة تحت الجبس وقد كتب عليها - في جملة ما كتب - بخط كوفي أفريقي عتيق : ه ... بنى هذا المسجد في شهر ذي القعدة من سنة ثلاثة وستين ومائتي سنة بما أمر به الامام أعزه الله داود بن ادريس أبقاه الله ... ونصره نصرأ عزيزأ .

وما دمتنا في استعراض الآراء حول تاريخ القرويين لا بد أن نعرض لرأى ثالث نقله الدكتور أوسكار لانز (١) ، فلقد ساق ترجمة لنقش قيل أنه عثر

Oskar Lena : Voyage au Maroc Paris 1886 vol 2, (1)

عليه فرق « صفيحة فضية » مفروزة في أحد جدران المسجد وتوجد ضمن هذا النص العبارة التالية : « .. بنى يوم الخميس من سنة ٣٠٦ أول شهر ربيع النبوى .. » أى في أيام ولاية يحيى الرابع ..

وحتى نرجع الى حديث فاطمة وداود نشير الى أن رواية الدكتور لانز لا نغيرها أى وزن من الناحية التاريخية لأنها خالية من كل سند ملموس سيما مع ما حكاه عن الطالب ادريس الذى زوده بهذه الوثيقة والذى لم يكتمه أنه وجد صعوبة في الوصول الى بقية النقش ، الأمر الذى يقرب الى « أساطير » السباح أكثر مما نخدم الحقيقة التاريخية ، هذا مع العلم بأن أول ربيع الأول يوافق - حسانياً - يوم الثلاثاء وليس يوم الخميس ... وبعد فلنرجع الى ابن أبى زرع ، واللوحة المنبئة .

ولكن قبل أن نفتح الموضوع يجب أن نتعرف في كلمة وجيزة عن الامام داود بن ادريس تاركا التفصيل للبحث الذى كنت كتبه خصيصا عن هذه الشخصية (١) .

بالرغم من أن جميع المؤرخين غفلوا على داود بأكثر من كلمة واحدة تلخص في أنه « ملا توى ادريس الثانى قام بالأمر بعده ابنه محمد وأن هذا الأخير قسم بلاد المغرب بين كبار اخوته ترضية لم وكان من بينهم داود الذى استأثر باقليم تازة وقدرددت سائر المصادر « الفتنة » التى نشبت بين بنى ادريس على أثر هذه « الترضية » لكنها لم تعد مجال للذكر اسم داود ، وقد كاد هذا الأمر يعد في عداد الضامنين لولا عناصر ثلاثة :

(أولا) اليعقوبى (٢) الذى يذكر أن داود ابن ادريس كان واليا على عدوة الأندلس وأنه كان « يدافع » يحيى صاحب عدوة القرويين المعروفة بالمدينة العظمى .

(١) التازى ، مجلة « دعوة الحق » العدد السابع ، السنة الثالثة ابريل ١٩٦٠ - مجلة « مجمع اللغة العربية » بدمشق المجلد ٣٦ جزء ٢ ص ٢١٢

(٢) اليعقوبى ، أخبار البلدان ، طبعة لندن ١٨٩٠ - ص ١٣٧  
Blachère, Hespéris T, 18 - 137 pages 41 - 42 - 43

ثانياً) الدرهم الموجود بالملكمة الوطنية بباريس الذي يحمل اسم الامام داود بن ادريس (١) .

(ثالثاً) هذه اللوحة الأثرية التي يحتفظ بها الآن في المركز الرئيسي لمصلحة الآثار بالملكمة المغربية وبعد هذا نرجع الى الحديث .

هل القرويين من تأسيس فاطمة ؟ أو من عمل داود ؟

لقد كنت ككيت بمجرد وقوفى على اللوحة كلمة فى الموضوع نشرت فى مختلف المجلات العلمية سواء بالمغرب (١) ، أو القاهرة (٢) ، أو تونس (٤) وأسبانيا (٥) ، وكنت قصدت كما صرحت بذلك أن أثير انتباه الناس عليهم يساعدون على اضاءة الضوء على هذه الحقائق ، ومن سوء الحظ أننى الى الآن لم أقت على « رد الفعل » من طرف الذين يهمهم أمر التاريخ حاشا بعض « الفروض » التي تلقيتها من بعض الأساتذة الاجلاء الذين حرصوا على أن يجعلوا نقل القرطاس فى نجوة من الشبهة والريب .

ففى الناس من أوصى ببند أمر هذه اللوحة لأنها فى نظره تناهض « تواتراً » متواتراً عبر الأجيال ، وفيهم من رجح أن تكون اللوحة قد نقلت من مكان آخر وغرزت هناك . وأن ذلك تم على عهد الوطاسيين فى الفترة القصيرة التي رجح فيها النفوذ للشرفاء الادارسة بواسطة محمد بن على الجوملى (٦) .

وفى الناس طائفة ثالثة بصمسون على أن يأخذوا بما ورد فى مدلول اللوحة نظراً أولاً لكونها « وثيقة معاصرة » ، وثانياً لما أثير من هفوات عن

(١) La voix, catalogue des Monnaies - Musulmanes de la Bibliothèque Nationale p. 69 no 921

(٢) التازى - مجلة العربية الوطنية ، العدد الرابع سنة ١٩٦٠ ص ١٠-٢١

(٣) مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، العدد الثامن ١٩٥٩ ص ٢٤٤-٢٤٥

(٤) التازى - مجلة الفكر - السنة الخامسة عدد ٩ مارس ١٩٦٠

(٥) التازى مجلة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد - المجلد السادس ١٩٥٨ ص ٢٧٧-٢٧٨

(٦) Devredun, mélanges d'histoire et d'Archeologie T. 11 page 72

عن القرطاس ، وثالثا لكون بعض الرحالة والمؤرخين القدماء من أمثال يعقوب  
والبكري وابن عذارى تحدثوا عن مدينة فاس بمسجديها العتيقين لكنهم  
لم يعرجوا على تأسيس القرويين على النحو الذي عرف في القرطاس .

## فإذا تكون الحقيقة ؟

أما التوصية « بنهد اللوحة فأمر سلب لا يسمح به المؤرخ الزبيري ، وأما عن  
أمر نقل اللوحة وخاصة أيام الوطاسيين فإنه يعده غندى أن التاريخ ظل  
صامتا صمتا مطلقا عن مؤسسات داود بن ادريس في مناطق نفوذه  
فلا يمكن أن ندعى أنه أسس هناك « مسجداً » وأن « اللوحة » التي كانت  
على ذلك المسجد هي التي نقلت . لكن الأبعد هو القول بأن عمدة النقل  
تمت على عهد الوطاسيين مع أنها وجدت تحت الخيس الذي ضرب - منذ  
نهاية دولة المرابطين - على سائر جهات البلاط الأوسط ، ولم يتحدث التاريخ  
أبدا عن ازاحة « التليط » (١) الذي قام به فقهاء فاس أو المسؤولون في الدولة  
الموحدية ، لذا فإمام قوة هذه الوثيقة الناطقة واعتبارا لما نقل عن يعقوب  
وعرف من أمر السكة الداودية واحتراما لما نقل عن أبي القاسم بن جنون (٢)  
وإلى محمد عبد الملك بن محمود الوراق (٣) مما تردد صداه في الأبنس المطرب  
وانعكس في زهرة الآس والعبير والحذوة ، ونظراً لأننا لم نعر لحدا الآن  
على نص تاريخي آخر يعزى بناء الإمام داود للخامس القرويين ، ونظراً  
لكون النقش المشار إليه لم ينص بصفة واضحة على لفظ القرويين ، أقول  
مراعاة لكل ذلك نجد أنفسنا بين احتمالين :

- (١) مجلة الآداب - الاسكندرية ، العدد ٤٤ سنة ١٩٦٠ من ٦٠ - ٨٨ - المؤتمر  
الثالث للأثار العربية ، نشر الجامعة العربية صفحة ٤٤٥ - ٤٦٥ . الترية الوصفية دجنبر -  
سنة ١٩٦٠ ص ٤٤ ، التازي : جامعة القرويين في أحد عشر قرناً ، طبعة الحميدية ص ٨
- (٢) رسالة في ذكر من أسس مدينة فاس (مخطوطة) مجهزة المؤلف بمعهد المخطوطات التابع  
لجامعة الدول العربية تحت رقم ٩٧٢٢ ج
- (٣) مخطوط في تاريخ الادارة من كوينهاجن مصور بمعهد المخطوطات التابع لجامعة  
الدول العربية .

فأما أن يكون ابتداء البناء كان في رمضان ٢٤٥ في أيام يحيى ولكنه استمر الى سنة ٢٦٣ أيام داود بن ادريس وتكون فاطمة استغرقت في صومها كل هذه المدة، ويعزز هذا الرأي أولاً ما استهدفت له البلاد من حالة الحفاف في هذه الأثناء ، وثانياً ما تعهدت به فاطمة والترامت من استخراج كل مواد البناء من نفس البقعة تحريماً ، وثالثاً أن المصادر التاريخية انما تحدثت عن ابتداء البناء ولم تتحدث عن انتهائه ، فكل هذا مما يبرر استغراق كل هذه المدة .

وأما أن يكون البناء تم في نفس السنة نظراً لكون الجامع - ومساحته لا تصل الى ألف متر مربع - لا يمكن التهاون في أمر بنائه طيلة ثمانية عشر عاماً .. ويفسر وجود داود بن ادريس هنا بأنه في الفترة التي كان « يدافع » فيه يحيى تمكن في بعض الظروف من الاستيلاء على عدوة القرويين وتحليداً لهذا الفوز الذي حصل عليه في عدوة القرويين ورغبة في أن تعرف الأجيال القادمة أنه « كان هنا » فقد شاء أن ينقش اسمه كنصب تذكاري في هذه الجهة . ولما كان الملوك ، والرؤساء يختارون ابرز مكان واشهره لتحديد أفعالهم وكان أفضل مكان في المسجد واطهره هو المحراب فقد تم ضرب هذه الأبرزة عليه حتى تظل أمام المتعبدين والقاصدين . بقي أن يتساءل عن اختفاء اسم فاطمة من اللوحة مع أن النصوص المذكورة تتضافر على أنها المؤسسة ؟

اننا نعلم أن التقاليد لا تلح في ذكر احوال النساء على المباني سيما مع ما اثر من أن الشعوب قد تقوم بنشاطات وتزجوا الى الملوك تبقيها تقديراً لهم وتكريماً لقيامهم .

وبعد ... فهل ستكون هذه كلمتنا الأخيرة حول تاريخ بناء القرويين ؟



## مساجد القاهرة ومدارسها

### « المدخل »

تأليف الأستاذ الدكتور احمد فكرى

معرض تعريف للدكتور سعد زغلول عبد الحى

استقبلت المكتبة العربية الحديثة منذ شهور قليلة كتاباً كانت في أشد الحاجة إليه ، ذلك هو المجلد الأول من كتاب الأستاذ الدكتور أحمد فكرى ، أستاذ الحضارة الإسلامية بجامعة الاسكندرية ، عن مساجد القاهرة ومدارسها . والحقيقة أن الكتب الخاصة بالآثار العربية نادرة أو غير موجودة في المكتبة العربية القديمة ، وما كتب عن الآثار عبارة عن قطع متناثرة في المصادر التاريخية وغيرها . أما الدراسات العربية الحديثة في آثارنا العربية فما زالت في دور النشأة ، ولم تأخذ بنصيبها الذي نتمناه لها بعد . وهنا نحب أن نذكر أن الدكتور فكرى يعتبر من أوائل الذين اهتموا بالآثار العربية ، ومن المنشئين لهذه الدراسة . وتكفى بالإشارة إلى كتابه عن « مسجد القيروان الجامع » الذي نشر في القاهرة سنة ١٩٣٦ . هذا في الوقت الذي اهتم فيه الأوروبيون والمستشرقون منهم بدراسة الآثار العربية الإسلامية منذ أكثر من قرنين .

والكتاب حسب المشروع الذي رسمه الدكتور فكرى سيكون موسوعة فكرى في الآثار والعمارة العربية في القاهرة - أسيوط - مصر . والآثار هي العنصر المادى الملموس الذي يحسم الحضارة العربية . والمجلد الأول الذي تقدمه هو « المدخل » لهذه الموسوعة ، وهدفه التمهيد لدراسة الآثار العربية في مصر والعالم العربى ، والتعريف بخصائص العمارة العربية الإسلامية تعريفاً يبرز مميزات الأصلية ، وسماها الحقيقية النابعة من أرض العرب ، ومن مجتمع

العرب ، ومن نفسية العرب ، ومن التقاليد والعادات العربية العريقة .  
وذلك على عكس ما يدعيه بعض المشتغلين بالآثار العربية من المستشرقين  
— عن غرض أو عن حسن نية — ، أو الذين انساقوا وراء دراماتهم  
البراقة دون أن يعرفوا إلى أين هم سائرون .

ولقد قسم الدكتور فكرى « المدخل » الى ثلاثة أبواب تنقسم الى فصول  
عشرة :

والفصل الأول من الباب الأول عرض للدراسات الآثار العربية التي قام  
بها المستشرقون باللغات الأوروبية المختلفة . وهذا الباب له أهميته الكبيرة  
في دراسة المصادر والتعريف بها . وأهم ما فيه نقد بحوث المستشرقين ،  
والتنبيه الى ما حوته من أخطاء أو تحريفات : كالأخطاء الناتجة عن الجهل  
باللغة العربية ، وعدم ادراك أصول الشريعة الاسلامية ، والتحيز الذي يهدف  
الى افكار أفضال العرب ، والاستناد الى الأخبار التي لم تثبت صحتها .  
وضرب الدكتور فكرى الأمثلة العديدة على هذه الانحيازات المفرضة عند  
« كرسويل » و« جورج مارسبه » و« ديولا فوا » ، وبين هدفهم الرأى  
الى اثبات أن تخطيط المسجد مأخوذ من تخطيط الكنيسة ، وأن المبانى  
الاسلامية منقولة عن المبانى القديمة . كما أن بعضهم يهمل فكرة وحدة التعبير  
الفنى العربية بالبحث عن الأصول والعناصر المختلفة فقط (ص ١٩) .

وفي الفصل الثانى فلسف الدكتور فكرى دراسة الآثار فى نظريات  
أربعة :

١ — نظرية الأصول والمصادر : ويبنى أن يراعى فيها أن الفنون  
لم تكن مجهولة فى بلاد العرب قبل الاسلام ، وان الشكل الخارجى غير مهم  
فالعبارة بالجواهر والوظيفة ، وأن تراعى الصلة التاريخية على أسس سليمة .

٢ — نظرية الاستنباط : ومجملها أن العمارة ليست محاورات لحل  
مسائل هندسية ، أو تجسيم لتعبيرات وإيماءات ، وانكنا ترتبط بأسباب

الحياة وأغراضها ، وظروفها المختلفة : بمعنى أنها تخضع لحاجات الانسان تبعاً لظروفه المادية . وترتبط بعملية الاستنباط هذه عمليتان ، هما : الاشتقاق والاقتباس .

٣ - نظرية التطور : وهي حلقة من حلقات الاقتباس والاستنباط فالأشياء المقتبسة لم تستقر في الفن الاسلامي على حالها ، بل تبعت قانون النمو والتطور حتى كونت مجموعة جديدة من الأساليب الزخرفية والعناصر المعاصرة وهي التي حددت خصائص الفن العربي .

٤ - نظرية الوحدة العربية : فالفن العربي من الخليج الى المحيط يكون وحدة رغم شدة تنوعه في الزخارف الهندسية والكتابة الزخرفية . فهذا التنوع أشبه باختلاف اللهجات بالنسبة للغة البلاد العظمى - اللغة العربية . وهذا يعني ضرورة أن تشمل تسميته صفة العروبة : فهو الفن العربي قبل أن يكون الفن الاسلامي . فالفضل للعرب في انتشاره ، اذ ينفرد العربي بخياله الهندسي الذي ينصب على الكتلة فيقسمها ويجزؤها ويحولها الى خطوط ومنحنيات تتكرر ، وتتعاقد وتتبادل ، وتمتد الى مالا نهاية ، حتى لا يكاد الناظر اليها يحدد بدايتها أو نهايتها (ص ٤٥) .

والخلاصة أن الفن الاسلامي نشأ نتيجة لدخول العرب في الاسلام . واستخدمهم كل ملكاتهم العقلية والحيازية والشعورية في خدمة هذا الدين .

ودرس الدكتور فكري في الباب الثاني في الفصل الرابع عواصم مصر قبل انشاء القاهرة من القباط الى العسكر والتمطع . والفكرة الرئيسية هنا هي أن المصريين فصموا وروابطهم بالماضي من حيث اللغة والدين والتقاليد ، وكذلك من حيث روابط الفنون التي اتخذت الطابع العربي . ويتبع ذلك بدراسة مسجد عمرو ، أقدم نماذج العمارة الاسلامية في مصر : تاريخه ، والآثار المختلفة منه ، وزخرفته ، وتخطيطه . ويقدم الدكتور فكري مشروع كرسويل لرسم تخطيط المسجد ، ويبين كيف أنه تصرف في النصوص فأولها تأويلاً لا يتفق مع حقيقتها . وينتهي هذا الفصل بمشروع تخطيط له

استخدم فيه روايات المؤرخين كما استعان بنتائج الدراسات الأثرية .  
والفصل الخامس دراسة مشابهة خاصة بالمسجد الطولوني ، تناولت تاريخه  
الذي يدل على أنه احتفظ بمعظم عناصره القديمة ، وتخطيطه المربع ،  
وعمارته ذات الدعامات والعقود التي سمحت بارتفاع الحقف إلى عشرة أمتار ،  
ومثنته ذات السلم الملتف حولها من الخارج . وعناصره المعيارية وأهمها الدعامة  
والعمد المدب وهما أول مثل معروف من نوعهما (ص ١١٩) ، وعناصره  
الزخرفية في اطارات الدعامات وتيجانها ، وتيجان الطاقات والنوافذ ،  
والأزارات التي تعلو رؤوس العقود .

والعناصر الزخرفية تتميز بأسلوبها المبتكر ، وأشكالها الهندسية ،  
وخاصية الخيال ، وخاصية التكرار ، وخاصية كراهية الفراغ ، وكثرة  
استخدام الحذف الكوني في الزخرفة . وهذه كلها نبتت من بيئة الأعراب ،  
ونزوة خيالهم ، وتأثرت بعقيدتهم الدينية ولغتهم (ص ١٣١) .

وتناول الباب الثالث تخطيط المساجد السابقة على إنشاء القاهرة .  
والفصل السادس منه مخصص للمسجد النبوي بالمدينة ، أول مسجد أقيم  
في الإسلام . ويوضح الدكتور فكري التشابه بين تخطيطه وتخطيط جامعي  
عمرو وابن طولون ، ويقدر رسم كرسويل التخطيطي ، ورسم بوتق Pauty ،  
كما يبين أخطاء محمود عكوش ، ومجهودات سرفاجيه وأخطائه . وأخيرا  
يقدم رسمه التخطيطي للمسجد . ويتناول الفصل السابع المساجد الجامعة الأولى  
في البصرة والكوفة ، كما يتناول مساجد العصر الأموي في القيروان والشام  
والعراق كالمسجد الأقصى ، ومسجد واسط ، والجامع الأموي بدمشق ،  
ومساجد بادية الشام ومنها مسجد بصرى ، ومسجد حران الذي عجز كرسويل  
عن رسم تخطيط له فرسمه الدكتور فكري (ص ٢٢٦) . ويحتوي الفصل  
الثامن على دراسة لمساجد القرنين الثاني والثالث للهجرة ، في المشرق العربي  
مثل مسجد المنصور ببغداد ، ومسجد الأخضر ، ومسجد الرقة ، ومسجد  
سامرا ، ومسجد أبي دلف ، وفي الأندلس مثل مسجد قرطبة ، وفي  
المغرب مثل مسجد سوسة ومسجد رباطها ، ومسجد بوفاته ، ومسجد

الزيتونة . ولقد رسم الدكتور فكرى رسوماً تخطيطية دقيقة لهذه المساجد ،  
مبذبة على دراسة المصادر التاريخية ، وعلى نتائج الأعمال الأثرية التي قام بها  
بنفسه في البلاد التونسية .

وبلخص الدكتور فكرى نتائج دراسته في الفصلين الآخرين ، ففي  
الذامع منهما يفتد آراء المستشرقين التي تهدف الى إثبات أن الجامع منقول  
عن المعابد الفرعونية أو قاعات الاستقبال العامة الرومانية أو القصور الفارسية  
أو الكنائس أو حتى المعابد اليهودية - كما سمح خيال بعضهم (ص ٢٨٨) .  
وبين أن تخطيط المسجد نابع من طريقة الصلاة الإسلامية ، وهذا موضوع  
الباب العاشر والأخير : فتحدد اتجاه القبلة وتخطيط جدار القبلة هما العنصر  
الأول في تخطيط المسجد . وهذا ابتكار جديد من غير شك في فن العمارة .  
فجدار القبلة هو المركز الذي تتشعب منه عناصر التخطيط . وهذا يعني  
خطاً فكرة المستشرقين القائلة ان محور تخطيط المسجد هو الخط الممتد من  
المحراب الى النقطة التي تتوسط الجدار المقابل له كما في الكنيسة (ص ٣٠٠) .  
ويخضع بيت الصلاة لنظام رفع الظلة عليه ، ويتسع أو يضيق حسب الارتفاع ؛  
وعلى ذلك فليست هناك نسبة بين طول جدار القبلة وعمق بيت الصلاة .  
أما حكمة اتساع اسكوب المحراب فلكنى يتضمن أكبر عدد من المصلين  
في الصفوف الأولى ، وللصف الأول فضل كبير في الصلاة ، ثم لأنه مكان  
المحراب والمنبر والمقصورة ، وهي عناصر هامة في المسجد اقتضت زيادة  
اتساع هذا الاسكوب . وأخيراً يلحظ الدكتور فكرى آراء أولئك الذين  
يقسمون المساجد الى ثلاثة أنواع : عراقية ، وسورية ، ومغربية أندلسية ،  
ويبين وحدة الفن العربي (ص ٣١٢) . ويثبت أن تخطيط المسجد الجامع  
نظام أصيل في تاريخ العمارة ، وأنه استحدث في السنة الأولى للهجرة عندما  
بنى الرسول مسجده (ص ٣١٦) .

هذا عرض سريع لبعض ما يحويه مدخل مساجد القاهرة ومدارسها ،  
وهو كتاب لاغنى للمشتغلين بتاريخ الاسلام ، والحضارة العربية ، وطلابها

والمهتمين بها ، عن الاستفادة منه . ولا يسعنا الا أن نهنئ الأستاذ الدكتور  
فكري على هذه الدراسة التي تدل على سعة العلم وكثرة الاطلاع ، وتتميز  
بتمعن الفكر ودقة الملاحظة . وأملنا أن ينهتى - وهو يعمل جاهداً - من  
إخراج بقية أجزاء موسوعته في القريب العاجل - إن شاء الله .

## وعد بلفور

### والعوامل التي ساعدت على اصدائه

للكونتور محمد محمود السروي

أربط وعد بلفور ارتباطاً وثيقاً بالمشكلة اليهودية وبالحركة الصهيونية في القرن التاسع عشر ، ووعد بلفور أحد اتفاقات دولية ثلاث أملت ظروف الحرب العالمية الأولى لخدمة الأغراض العسكرية ولتحقيق أطماع الدول الأوروبية الكبرى في تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية وانهاء المسألة الشرقية التي شغلت أذهان ساسة أوربا رداً طويلاً من الزمن .

وصلة اليهود بفلسطين ترجع الى القرون الأربعة أو الخمسة قبل الميلاد حيث استطاعوا في تلك الفترة من الزمن إيجاد بعض التشكيلات السياسية على ضفاف نهر الاردن . وباستيلاء الرومان على مصر والشام قضوا على تلك التشكيلات السياسية وأنضخوا اليهود لحكمهم المباشر . ثم توالى على حكمهم البيزنطيون والفرس والعرب والأتراك السلاجقة والمماليك والعثمانيون .

ولن نتعرض بطبيعة الحال لتطور تلك المشكلة خلال العصور . وإنما سأقتصر على بحثها في ظل الحكم العثماني لفلسطين . أي منذ أن نزل الأتراك بأرضها فاتحين في عام ١٥١٦ .

وإذا نظرنا الى الحكم العثماني للولايات العربية بصفة عامة نجد أنه لم يكن في صالح المحكومين بأي حال من الأحوال . فلا غرابة إذا ما ساءت حالة فلسطين بمن فيها من عرب ويهود تحت الحكم التركي .

وقد حاول نابليون خلال حملته على مصر والشام أن يغيري اليهود ، وخصوصاً يهود آسيا وأفريقيا على مساعدته في عملياته الحربية بتلك المنطقة ،

ووعدهم بإرجاع حقوقهم المفقودة في أرض فلسطين إذا ما انضموا تحت لوائه . ولكن هذه المحاولة ذهبت ادراج الرياح لعدم استطاعة نابليون الصمود أمام حصون عكا ، ولخروج الحملة الفرنسية من مصر بعد فترة وجيزة .

ومن النتائج الهامة التي تترتبت على حملة نابليون على الشام - رغم فشلها في تهديد المصالح البريطانية في الهند - اثارة انتباه إنجلترا الى هذه المنطقة . وهذا ما دفعها الى الوقوف ضد محمد علي عندما اجتاحت جنوده الشام . ومما يدل على زيادة اهتمام إنجلترا بفلسطين منذ ذلك الوقت حرصها الشديد على إخضاع الأراضي حول ضفتي القناة لسطانها ، وهذا مادعا اللورد كرومر في سنة ١٨٩٢ الى الاصرار على أن ينص فرمان تعيين الخديوي عباس الثاني على تحديد الحدود الشرقية لمصر بالخط المار من العريش شمالا الى خليج العقبة على البحر الأحمر ، أي ادخال كل شبه جزيرة سيناء ضمن حدود مصر . بينما يصر السلطان العثماني على أن يمتد خط الحدود الشرق لمصر من العريش الى السويس فقط .

وفي سنة ١٩٠٦ حاول الأتراك إعادة احتلال الجزء الشرق من شبه جزيرة سيناء، ولكن إنجلترا هددت باستخدام القوة بحيث اضطرت تركيا الى قبول قرار اللجنة التي شكلت لتحديد الحدود الشرقية لمصر والذي ينص على جعل الخط الممتد من خليج رفح شمالا الى خليج العقبة جنوبا حدا فاصلا بين مصر في الغرب وممتلكات الدولة العثمانية في الشام<sup>(١)</sup> .

وظلت فلسطين خاضعة للحكم التركي الى عام ١٨٣٢ حيث خضع الشام كله لسيطرة محمد علي . ولم يغير دخول فلسطين في حوزة محمد علي من الأمر شيئا، فظلت حالة الأهالي سيئة نظرا لغداحة الضرائب المفروضة عليهم ، ولاتباع محمد علي سياسة الاحتكارات التي طبقت في مصر .

Bentwich N.; Palestine P. 53. (١)

ولم يطل إبقاء الشام في قبضة محمد على فرعان ما أعيد مرة ثانية الى حظيرة الدولة العثمانية بعد هزيمة القوات المصرية في سنة ١٨٤٠ . وفي ذلك الوقت تمتع اليهود بحماية بعض القنصليات الأوروبية، وخصوصا القنصلية الانجليزية التي أنشئت في ذلك الوقت بفلسطين . ورغم ما تمتع به اليهود من حرية واسعة ، فإن هذه الحرية لم تحل بينهم وبين التفكير في اعادة ما يسمونه بمجد اسرائيل القديم ، وارجاع سيطرة اليهود على فلسطين دون مراعاة للظروف التاريخية التي مرت بتلك المنطقة، وبسكانها الأصليين الذين أمروا بشعوب أخرى ، وتكون من هذا الخليط الشعب الفلسطيني العربي الحالي . فهذا الشعب هو وحده صاحب الحق الشرعي في تلك البلاد . فعلى ارضها يعيش كما عاش آباؤه واجدادهم من قديم ، فادعاء اسرائيل اذن بأحقيتها في امتلاك تلك الأراضي استنادا على الأوضاع التاريخية القديمة التي لم تعمّر سوى فترات قصيرة من الزمن - اذا ما قيست بفترة الحكم العربي التي لا تقل عن ثلاثة عشر قرنا من الزمان - ادعاء مردود .

وقد ارتبطت حركة المناادة بمجمل فلسطين واطنا قوميا لليهود بالحركة الصهيونية ارتباطا كبيرا . ظهرت هذه الحركة بشكل واضح في أواخر القرن التاسع في أعقاب حركات الاضطهاد والمذابح التي تعرض لها اليهود في دول شرق أوروبا ، وعلى وجه الخصوص في روسيا وبولندا . ونشأة هذا الاضطهاد لا ترجع الى أسباب دينية ، وانما تنبع من أسباب اقتصادية وعنصرية تبلورت فيما اطلقت عليه أوروبا اسم الحركة اللسامية Anti Semitism Movement ، ولم تفصح الصهيونية عن نواياها الحقيقية ووسائلها في بادئ الأمر ، بل أخذت تصير العنصرية الدينية مع العنصرية السياسية طوال القرن التاسع عشر حتى تبلورت في النهاية عقيدتها السياسية (١) ، تلك العقيدة التي انحصرت في جمع شمل اليهود والعمل على احياء لغتهم وتاريخهم وتوطئ لانشاء الدولة اليهودية الحديثة . وتحقيقا لهذا العمل أخذ الصيونيون يدعون بأن اليهود أمة واحدة مستمرة منذ آلاف السنين . ولا يتقص هذه الأمة سوى أرض الوطن .

(١) دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ص ١٢١

وينبغي ألا يغرب عن ذهننا أن الحركة الصهيونية قد لقيت اهتماما من قبل الصيونييين في شرق أوروبا وفي غربها على السواء . وهي ليست حركة سياسية فحسب . بل كانت حركة اقتصادية وسياسية تدر عليهم الربح الوفير ، الأولون يصعدون العمال اليهود من شرق أوروبا ببرغيهم بكل الوسائل في الهجرة إلى فلسطين . والآخرون يصعدون رأس المال إلى فلسطين « (١)

ولم يطالب اليهود الصيونييون في بادئ الأمر بجعل فلسطين بالذات وطننا قوميا لليهود بل كان هدفهم الحصول على بقعة من الأرض تكون ملجأ لليهود المضطهدين ، فدخلوا في مفاوضات مع الدولة العثمانية لمنحهم قطعة من أرض سوريا أو فلسطين ، ولكنها فشلت خوفاً للدولة العثمانية من تغلغل النفوذ اليهودي في تلك المنطقة . فبمسا وجوههم شطر الدول الكبرى وخاصة إنجلترا وتقدموا إليها بمشروعين : أحدهما يطالب باتخاذ أوغندة وطنا لليهود ، والمشروع الآخر ينصب على شبه جزيرة سيناء . ولكن باء المشروعان بالفشل ولم يكن حظهما أحسن من حظ سابقتهما .

ويعلق الدكتور حاييم وايزمن على هذين المشروعين فيندد بالمشروع الأول ويبين بأنه لا يتفق مع أهداف الصهيونية في التوسع والاستعمار ، ولكنه يؤيد المشروع الثاني ويحمل على الذين رفضوه ، ويوضح بأن شبه جزيرة سيناء مكان مناسب لترطيب أقدام الصهيونية فيه ، نظرا لاتصاله جغرافيا بفلسطين ويمكن اتخاذه نقطة ارتكاز للنشاط الصهيوني في المناطق المحيورة له (٢) . ويذكر المستر Hoskins في كتابه The Middle East بأن الاستعمار الصهيوني قد بدأ في ظل الحكم التركي في صورته مصفرة (٣) .

### المؤتمر الصهيوني الأول

ويعتبر الكاتب النموي تيودور هو تزل Theodor Herzl أول من صاغ الأمانى القومية لليهود في شكل قضية قومية مدروسة في كتابه (الدولة اليهودية) Judenstaat ، وكان لنشر هذا الكتاب أكبر الأثر في التمهيد لعقد

(١) الفصل السابق ص ١٢٧

1. Weisman Dr; Trial & Error P. 228.

2. Hoskins H. L; The Middle East P. 43.

أول مؤتمر صهيوني لليهود في القرن التاسع عشر . واجتمع هذا المؤتمر بمدينة بال بروسيا في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ لمناقشة المسألة اليهودية . وفيه طالبت الوفود الصهيونية الآتية من دول شرق أوروبا بجعل فلسطين وطنا قوميا لهم ، أحياء لمجد اسرائيل في أرض الميعاد، وتخليدا للملكة داوود وملئان . وقد ركز الصهيونيون اهتمامهم بفلسطين بعد أن فشلت جميع محاولاتهم مع إنجلترا .

وفي هذا المؤتمر أيضا وضع الاعضاء شعار العلم اليهودي ، والشيد القومي اليهودي ، وتأسست الهيئات الصهيونية العالمية التي ستفرع عنها الوكالة اليهودية الأهلية .

وقد حاول هرتزل أن يحصل على ترخيص من السلطان من شأنه فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود ومنحهم مركزا خاصا بها ، ولكنه فشل في محاولته تلك وبدأ أن ليس هناك أي نتيجة عملية متوقعة في وقت قريب ، ولذلك ترك الأخير السير وراء هذا الخيال البعيد عن التحقيق على ما يبدو (١) .

وعندما ولى رجال تركيا الفتاه الحكم كانوا يميلون الى الاستجابة لمطالب الصهيونيين نظرا لما تتمتع به العناصر اليهودية داخل جمعية الاتحاد والترقي من نفوذ ، ولكنهم سرعان ما تبينوا أن الحكمة تقضي برد تلك المطالب نظرا للفضجة التي أثارها النواب العرب في البرلمان التركي في ربيع سنة ١٩١٢ ضد امتلاك اليهود لمساحات كبيرة من الأراضي الزراعية بفلسطين ، وما في ذلك من خطر جسيم على مستقبل الملاحين العرب (٢) .

ورغم أن فكرة انشاء وطن لليهود في فلسطين كانت لا تخرج - وتشد - عن مجرد خيال برارود عقول غلاة الصهيونيين ، وفكرة تستند على العاطفة أكثر مما تستند على الواقع ، الا انها وجدت رجلا أشداء يؤمنون بها ويعملون

(١) Samuel H.L.; Memoir P. 8٩.

(٢) Antonius G.; The Arab Awakening P. 25٩.

على التمهيد لها في أذهان الرأي العام العالمي ، تاركين مهمة التنفيذ الى الظروف الملائمة ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، الثرى اليهودى الكبير اللورد روتشلد والدكتور حايم وايزمن « وهو يولوفى الأصل وتجنس بالجنسية الانجليزية وأصبح استاذاً للكيمياء في جامعة مانشستر ، والدكتور نعم سوكلوف السياسى الكبير ، ونجبة ممتازة من كبار الكتاب والصحفيين ورجال السياسة .

وقد أصاب الحركة الصهيونية شيء من الحمود بعد فشل المحاولات السابقة وخصوصا بعد موت هرتزل في ١٩٠٤ ، ولكن سرعان ما وجدت الحركة بديلا له في شخصية الدكتور وايزمن . غير أن هذه الشخصيات اليهودية الكبيرة ماكانت تمتطج النجاح في مهمتها لولا عطف وارشاد بعض الساسة الانجليز . وفي هذا المعنى يقول الدكتور حايم وايزمن « ولولا المشورة التي كان يقدمها لنا رجال أمثال سايكس ولورد روبرت سيل في وقت لم تكن لنا خبرة في المفاوضات الدبلوماسية الدقيقة لارتكبنا دون شك أخطاء جسيمة وكثيرة » (١).

### الحرب العالمية الاولى ومساومات الصهيونية

كانت الحرب العالمية فرصة نادرة أمام الصهيونية العالمية للتعبير عن نشاطها في مساومة الحاربيين للوصول الى أفضل الشروط التي تحقق لها مطامعها في فلسطين . وفي نفس الوقت ألحقت الحرب الحركة القومية العربية ، فقد وجد فيها العرب فرصهم للخلاص من استبداد الترك . وخصوصا بعد أن استتب الأمر لحكومة الاتحاديين التي سارت على سياسة أكثر تعسفا وعصوية مما كانت عليه سياسة السلطان عبد الحميد . وكان العرب عازمين على الحصول على استقلالهم بأي ثمن من الأتمان وبأية وسيلة من الوسائل . وقد وجدوا أن مصالحهم تتفق مع مصالح إنجلترا في القضاء على الدولة العثمانية ، وان اختلف الهدف الذي يسعى كل من الطرفين الى تحقيقه .

Weizman Dr.: Trial & Error P. 130. (١)

ولكن العرب لم يكونوا على استعداد للدخول في مفاوضات مع إنجلترا دون قيد أو شرط ، بل لقد اتحدت كلمة زعمائهم على ضرورة الحصول على اعتراف بريطانيا العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التالية (١) :

شمالا : خط مرسين — أضنة حتى درجة ٣٧ شمالا : ومنها على امتداد خط بريجيك — أورفة — ماردين — مديات — جزيرة ابن عمر — عماديه حتى حدود فارس .

شرقا : الحدود الفارسية حتى خليج فارس  
جنوبا : المحيط الهندي (خلا عدن التي تحافظ على وضعها الحالي)  
غربا : البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين .

— إلغاء الامتيازات الأجنبية .

— عقد تحالف دفاعي بين بريطانيا العظمى والدولة العربية المستقلة العتيدة .

— منح بريطانيا الأفضلية في الشؤون الاقتصادية .

هذه هي الشروط التي قدمها الزعماء الى الشريف حسين حاكم مكة ليتولى عرضها على الجانب البريطاني نيابة عنهم ، فان قبلتها بريطانيا فسيكون العرب على استعداد لتأييد الثورة العربية التي سيعلنها الشريف مكة ضد الأتراك العثمانيين .

وقد ماطلت إنجلترا في أول الأمر في اعطاء موافقة صريحة على المطالب العربية وظلت المفاوضات مستمرة بين الطرفين فترة غير قصيرة ، وهي التي اطلق عليها اسم مفاوضات الحسين — مكماهون . ولم تحاول إنجلترا الاستجابة الى المطالب العربية الا عندما تخرج موفضا الحرب في منطقة الشرق

1. Antonius G.; The Arab Awakening P. 157 (١)

الأدنى وشعرت بحاجتها الملحة الى مساعدة العرب، فأرسل مندوبها السامي  
عصر السير هنري مكماهون الى الحسين مذكرة بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٩١٥  
بالموافقة على المطالب العربية مع بعض التحفظات جاء بها : (١)

• أن ولايتي مرسين واسكندرونة واجزاء من بلاد الشام الواقعة في  
الجهة الغربية لولايات دمشق اشام وحصص وحماه وحلب لا يمكن أن يقال  
أنها عربية محضة وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

ومع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين رؤساء  
العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الأقاليم التي تضمنها تلك الحدود حيث بريطانيا  
العظمى مطلقاً التصرف بدون أن تمس مصالح حليفها فرنسا فإن مفروض من قبل  
حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم الوثائق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة  
أن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة  
في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

وقد اعترض (٢) الشريف حسين على اخراج ولايتي حلب وبيروت  
وسواحلها من حدود الدولة المقترحة باعتبار كونها ولايتين عربيتين .  
ولكنه لم يعارض استبعاد ولايتي مارسين واضنة .

وحاول السير هنري مكماهون (٣) في رده على الحسين أن يتجنب  
الذخول في مناقشات حول ولايتي حلب وبيروت ، وارجاء البت في مصيرهما  
لحين الوصول مع فرنسا الى اتفاق بشأنهما . وفي ختام المذكرة أضاف

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين الوثيقة رقم ٤ ص ١٣

(٢) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين الوثيقة رقم ٥ ص ١٧

(٣) المصدر السابق وثيقة رقم ٦ ص ١٩

قائلا « وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوى على إبرام أي صلح كان الا اذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلصها من ملطمة الألمان والأتراك» .

وإذا ما نظرنا إلى تلك المراسلات التي تبودلت بين الطرفين العربي والإنجليزي نجد أن تعمد إنجلترا عدم قبول اعتراض الحسين على التحفظات التي أقرتها بشأن ولايتي دمشق وبيروت ومواحلها وكذلك ولاية العراق واصرارها على تحقيق مصالحها ومصالح حليفها فرنسا في هذه المنطقة العربية ، واضح وظاهر .

ولكن مهما يكن من شيء ، فإن منطقة فلسطين التي كان يطلق عليها في ذلك الوقت سنجق القدس لم تثر بشأنها أية تحفظات ، أي أنها كانت تدخل في نطاق الدوة العربية التي وافقت إنجلترا على الاعتراف بها .

وإذا ما تركنا الجانب العربي وانتقلنا إلى الجانب اليهودي ، نجد أن هؤلاء قد انتزوا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى ، واتخذوا في مساومة الطرفين الحارين نظرا لأن الحرب في بدايتها لم تكن واضحة الاتجاه ، وكان من الصعب ترجيح كفة فريق على آخر . ولهذا فقد آثر ممثلو الصهيونية الدخول في مفاوضات مع المعسكرين المحاربين في وقت واحد . وذلك لضمان الحصول على مطالبهم بشأن فلسطين أيا كانت نتيجة الحرب . ولما كان كلا المعسكرين يحرص كل الحرص على كسب التأييد المادي والأدبي للصهيونية العالمية ، أزاء قضيته ، فقد لجأت ألمانيا وحليفتها النمسا إلى الضغط على الدولة العثمانية (الحليفة الثالثة) لمنع الصهيونيين وعدا يسمح لهم بإنشاء شركة كبيرة تتمتع بامتيازات واسعة ، تكون مهمتها تيسير الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

ويذكر المؤرخ الكبير ارنولد توينبي في كتابه (دراسة <sup>(1)</sup>) في التاريخ « أن كسب التأييد اليهودي -- بل وأكثر من ذلك نجح العدواة اليهودية -- كان أمرا على جانب عظيم من الأهمية للقريقين ، ومع أن تحرر اليهود

النفسي في مفاهيم في الغرب لم يكن قد تم بعد ، فأن تحررهم الاقتصادي والسياسي في ذلك الوقت كان قد قطع شوطا بعيدا في تقدير أصوات اليهود ومنحها وزنا هاما ، بل وربما ورضا حاسما في ميران القوى الدولية المضطربة . لقد أصبح اليهود الآن قوة بحسب حسابها في الحياة السياسية القومية لدى دول وسط أوروبا وغربها على السواء . وفي الولايات المتحدة كانت قوتهم لا تزال على مدى أوسع كثيرا ...

ويقول المستر هربرت صمويل (أول مندوب سام لانجلترا في فلسطين في ظل الانتداب) : « ولو أن ألمانيا امتلكت فلسطين قبل اندلاع نيران هذه الحرب لاستطاعت أن تثنى على مصر هجوما مريعا » (١) .

وبينا كانت الدولة العثمانية على وشك اصدار هذا الوعد للصهيونيين بصفة رسمية ، بدأت جيوش إنجلترا تحت قيادة الجنرال اللنبي بتحتاج أرض فلسطين وتستولى عليها . فقضت بذلك على أمل الألمان وحلفائهم في ضم الصهيونية العالمية الى جانبهم . كما أيقن الصهيونيون بألا فائدة ترجى من وراء اتفاقهم مع الأتراك بعد أن خرجت فلسطين من أيديهم . ولذا فقد عمروا وجوههم شطر إنجلترا وحلفائها من الأمريكيين والفرنسيين ، عليهم يستطيعون أن يحتقوا أحلامهم في انشاء وطن لهم بفلسطين .

#### عطف إنجلترا على الصهيونيين ودوافعه

حاول الصهيونيون أن يكسروا عطف إنجلترا على قضيتهم ، وذلك عن طريق الالتقاء مع اهداف السياسة الانجليزية في منطقة الشرق الأدنى . ولم يخف عليهم مدى أهمية مصر بالنسبة لانجلترا كطريق امبراطوري هام الى ممتلكاتها في الهند وجنوب شرق آسيا ، وكقاعدة حربية هامة لعملياتها العسكرية في الشرق العربي . كما أن إنجلترا كانت تفكر في إيجاد حل للمسألة المصرية بعد انتهاء الحرب يتفق مع مصالحها . ولم يكن اعلان الحماية عليها

Toynbee A., A study of history vol. VII P. 302. (١)

الإحلام مؤقتة اقتضته الظروف الحربية وأملته حاجة إنجلترا إلى تأمين سلامة قواتها العسكرية في مصر ، فأنجلترا كان يهتما الاحتفاظ بمصر ، وبألا تؤدي نتيجة الحرب إلى خلق دولة قوية على حدودها من ناحية الشرق .

فهذا الفهم الصحيح لاتجاهات السياسة الإنجليزية سهل مهمة زعماء الحركة الصهيونية وشجعهم على القيام باتصالات سياسية مع الوزير الإنجليزي السير ادوارد جراي في أواخر عام ١٩١٤ . وفي تلك المقابلات أخذ الصيونيون يوضحون للوزير الإنجليزي مدى أهمية إقامة الدولة اليهودية الجديدة في فلسطين للمصالح الإنجليزية بالمنطقة ، فهي بالإضافة إلى ما تحققه من كسب صداقة اليهود في كل أجزاء العالم وتأييدهم لقضية الحلفاء في الحرب ، تحقق كسبا آخر على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لإنجلترا ، ألا وهو إقامة دولة موالية لإنجلترا تجاور الحدود المصرية وعلى مقربة من قناة السويس ؛ ويقول المتر هيربرت صحويل (أول مندوب سام لبريطانيا في فلسطين) في حديث له مع السير ادوارد جراي وزير خارجية إنجلترا في ٩ نوفمبر سنة ١٩١٤ : واعتقدت أن التفويض الإنجليزي يجب أن يقوم بدور هام في تأسيس مثل هذه الدولة . لأن موقع فلسطين الجغرافي ، وقربها من مصر يجعل صداقتها لإنجلترا أمرا له أهمية للامبراطورية البريطانية (١) .

كذلك نجد أن اللورد كاتشر - أثناء وجوده بمصر - قام بمساع عديدة لدى حكومته يلفت فيها نظرها إلى أهمية سوريا الجنوبية من خليج عكا وحيثما على البحر الأبيض المتوسط إلى خليج العقبة على البحر الأحمر لمصر كخط دفاع لحماية قناة السويس وكطريق بري إلى الشرق (٢) .

وستزداد إنجلترا اقتناعا بأهمية هذه المنطقة للدفاع عن مصر عندما تمكنت القوات التركية من مهاجمة حدودها الشرقية في سنة ١٩١٥ ، واجتيازها صحراء سيناء ، وتهديدها قناة السويس تهديدا خطيرا . إذ أيقنت

Samuel H.: Memoir. P: (١)

Antonius G.: The Arab Awakening. P. 246 & 247. (٢)

المجتزأ في ذلك الوقت أن النظرية العسكرية القديمة التي كانت تعتبر الصحراء سدا طبيعياً منبعا أمام الغزاة قد تلاشت، وأنه يجب عليها أن تمد حدود مصر الشرقية بحيث تضم منطقة فلسطين، أو أن تخضع تلك المنطقة لسيادتها وسنطاتها، لتكون بمنأى من مهاجمة قناة السويس.

كان طبيعياً أن يجد عرض الصهيونيين إقامة دولة حليفة لاجتزأ على حدود مصر قبولا لدى السير ادوارد جراي وزير الخارجية وبعض المشيئين الانجليز. فحرص المجتزأ على تأمين وجودها في مصر كان الدافع الأساسي والجوهري - في نظري - لاصدار وعد بالفور والعمل على تنفيذه.

وهناك سبب آخر دعا اجتزأ إلى الاستجابة إلى المطالب الصهيونية، ألا وهو حاجة اجتزأ إلى تأييد اليهود المادي والأدبي لكسب الحرب خصوصاً، للموقف الحرج الذي كان يحيق بدول الحلفاء المشتركة معها في ذلك الوقت. فالرومانيون كانوا قد سحقوا، ومعنويات الجيش الروسي كانت قد أخذت في الانحلال، ولم يكن في وسع الجيش الفرنسي آنذ أن يقوم بهجوم واسع النطاق، وكان الايطاليون قد فشلوا فشلا مروعاً في موقعة كارابوريتو، كما أن الغواصات الألمانية كانت قد أغرقت ما يبلغ بمحواله ملايين الاطنان من السفن البريطانية، ولم يكن قد وصلت الفرق الأمريكية بعد إلى الخنادق. وفي تلك الحالة الحرجة ساد الاعتقاد بأن اكتساب عطف اليهود أو منوائهم قد يكون له أثره الفعال في توجيه كفة الميزان نحو قضية الحلفاء أو ضدهم. ثم أن عطف اليهود من شأنه على الأخص أن يضمن معاضدة اليهود في امريكا ويجعل من الصعب على ألمانيا تخفيف قواها العسكرية وتحسين وضعها الاقتصادي في الميدان الشرقي (١).

(١) من تقرير اللجنة الملكية لفلسطين لخبوع يثرية في شهر يولية سنة ١٩٢٧ أو الصادر بشكل كتاب أيضا رقم ٥٤٧٩ نفلا من مجلة اوثالو لرنسية في قضية فلسطين من ٨٨

كما ذكر المتمر لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية قوله « ان الرعماء الصهيونيين قطعوا لنا وعداً أكيداً مآله أنه اذا أخذ الحلفاء على عاتقهم تسهيل انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين فانهم سيعملون كل ما في وسعهم لابقاظ عاطفة اليهود في كافة أنحاء العالم وتأليبهم لمعاوضة قضية الحلفاء وقد بروا بوعدهم هذا » (١) .

لم يطالب الصهيونيون بجعل فلسطين كلها دولة يهودية مستقلة ، وذلك لأن نسبة العناصر اليهودية - في ذلك الوقت - كانت قليلة بشكل ملحوظ اذا ما قورنت بنسبة السكان العرب البالغة ٩٢٪ من عدد سكان فلسطين . ولكن كان هدفهم أن توضع فلسطين بشكل ما تحت حماية دولة أوربية ولتكن إنجلترا . فترة من الوقت - ربما يستعد الصهيونيون خلالها من حشد امكانياتهم الضخمة بمساعدة الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية لاجراج مشروعاتهم الى حيز التنفيذ .

#### معاهدة سايكس بيكو

وفي ذلك الوقت كانت تجرى بين الدول الكبرى الثلاث إنجلترا وروسيا وفرنسا مفاوضات سرية بشأن تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بينها بعد انتهاء الحرب ، وكانت تلك المفاوضات تمر بتمرة تعثر واضطراب وذلك لرغبة كل من الدول الثلاث في أن تكون أرض فلسطين من نصيبها . وقد رأيت إنجلترا بتاقب رآها الا تمسك بفلسطين حتى لا تثير عناد فرنسا وروسيا . وفي نفس الوقت ألا تسمح لاحدى هاتين الدولتين بأن تضع يدها على فلسطين ، ولهذا فقد وجدت أن أفضل الحلول للخروج من هذا المأزق هو الاتفاق مع حليفها على جعل فلسطين منطقة خاضعة للنظام دولي . وبذلك يتحقق لها ابعاد كل من فرنسا وروسيا عن أرض فلسطين ، وبالتالي عن قناة السويس . وقد تم لها ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٩١٦ .

وبمكتنا القول بأن مشروع اقامة الوطن القومي اليهودي قد أثر الى حد كبير في تقسيم المستطيل العربي الممتد من العراق شرقاً الى البحر الأبيض

(١) المصدر السابق : ص ٨٨

المتوسط غربيا ، فقدحاول المهتمون بهذا المشروع من المسؤولين الانجليز تحقيق أمرين جوهريين عند تحديد هذا الوطن القوي اليهودي :

الأول : أن يكون هذا الوطن صغير المساحة بحيث لا تسمح امكانياته بالدفاع عنه دون الاستعانة بمساعدة خارجية . وفي هذه الحالة سيشعر اليهود المقيمون فيه بحاجةهم الى محالفة انجلترا دفاعا عن كيانهم .

والثاني : ضمان سلامة الدولة اليهودية الجديدة وسهولة الدفاع عنها . وهذا يتطلب من بريطانيا أن تضع نصب عينها عند تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية بعد انتهاء الحرب أن تجاورها في فلسطين دولة أوروبية صديقة .

وتوضح تلك السياسة من الحديث الذي دار بين المستر هربرت صمويل والسير ادوارد جراهي وزير خارجية انجلترا . فيقول المستر هربرت صمويل «أن الدولة (اليهودية) يجب أن تكون محايدة من حيث أنها لا تستطيع أن تكون كبيرة بالقدر الذي يمكنها من الدفاع عن نفسها .. وقلت أيضا أنه سيكون هناك نفع عظيم اذا ضمت بقية سوريا الى فرنسا ، اذا أنه أجدى للدولة اليهودية أن تكون لها جارة أوروبية من أن تكون تلك الدولة تركيا » (١).

كان تدويل فلسطين اذن هو الخطوة الأولى في سياسة انجلترا ازاء فلسطين ستبناها خطوات أخرى في سبيل تحقيق سيطرتها عليها . وقد ازداد في ذلك الوقت ضغط زعماء الصهيونيين على انجلترا من أمثال روتشك وويزمن للاسراع في الاتفاق على نصوص التصريح الرسمي الذي ستعلنه انجلترا بشأن فلسطين . وبعد مشاورات عديدة بين هؤلاء الزعماء من ناحية والحكومتين الانجليزية والامريكية من ناحية أخرى ، اتفقت الاطراف المعنية بالأمر على مشروع معين قدم الى وزارة الخارجية الانجليزية في ١٨ يولية سنة ١٩١٧ وينص على مايلي (٢) :

(١) التوثاق الرئيسية في قضية فلسطين ص ٩٧

Weizman Dr.; Trial & Error. P. 255. (٢)

"His Majesty's Government, after considering the aims of the Zionist Organization, accepts the principle of recognizing Palestine as the National Home of the Jewish people and the right of the Jewish people to build up its national life in Palestine under a protection to be established at the conclusion of Peace following upon the successful issue of the war.

His Majesty's Government regards as essential for the realization of this principle the grant of international autonomy to the Jewish nationality in Palestine, freedom of immigration for Jews, and the establishment of a Jewish National Colonization Corporation for the resettlement and economic development of the country.

The conditions and forms of the internal autonomy and a charter for the Jewish National colonizing Corporation should, in view of His Majesty's Government, be elaborated in detail and determined with the representatives of the Zionist Organization."

« إن حكومة صاحب الجلالة ، بعد اطلاعها على أهداف المنظمة الصهيونية تقبل مبدأ الاعتراف بفلسطين وطناً قومياً للشعب اليهودي . وبمخ الشعب اليهودي في إقامة حياة قومية له في فلسطين في ظل حماية تنظم بعد احراز النصر وعقد لواء السلام . . .

« أن حكومة صاحب الجلالة ترى أن تحقيق هذا المبدأ يجعل من الضروري منح استقلال ذاتي داخلي للقومية اليهودية في فلسطين . وحرية الهجرة لليهود وإنشاء شركة يهودية قومية لاستعمار الأراضي تقوم بإسكان المهاجرين وبتسمية اقتصاديات البلاد » .

« ترى حكومة صاحب الجلالة أن شروط الاستقلال الداخلي وإشكاله ، وبراعة الشركة اليهودية القومية لاستعمار الأراضي يجب أن تهيأ بالتفصيل ويبت فيها بالاتفاق مع ممثل المنظمة الصهيونية » .

جاء هذا المشروع نتيجة سعي متصل من قبل اليهود الصهيونيين ، ولكن الحكومة الإنجليزية كانت حريصة على أن يحوز هذا المشروع موافقة عامة من قبل جميع الطوائف اليهودية صهيونية كانت أو غير صهيونية ، ومن ثم

فقد عرضت الحكومة هذا المشروع على اليهود غير الصهيونيين لمعرفة رأيهم فيه . ولكنهم رفضوه وحلوا عليه ، لأنهم لم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين اليهود الصهيونيين على وجود قومية يهودية تربط جميع اليهود في مختلف دول العالم رغم اختلاف جنسياتهم ، فهم لا يعترفون باليهودية كجنس ، ولكنهم يؤمنون بها كدين ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فقد خشي هؤلاء اليهود أن يتعرض وضعهم الخالي في الدول التي يعيشون فيها لبعض التغيرات نتيجة انشاء هذا الوطن القومي اليهودي . وابتعاد جنسية يهودية ، قد يشجع بعض الدول الراغبة في التخلص من اليهود على طردهم والزج بهم في هذا الوطن الجديد .

وأمام رفض اليهود غير الصهيونيين لنص هذا المشروع رأت الحكومة الإنجليزية ادخال بعض التعديلات عليه ليتلاءم مع رغبات الطوائف اليهودية المعارضة وذلك في ١٨ سبتمبر سنة ١٩١٧ وهذا نصه : (١)

1. "His Majesty's Government accepts the principle that Palestine should be reconstituted as the national Home of the Jewish people.

2. His Majesty's Government will use its best endeavours to secure the achievement of this object and will discuss the necessary methods and means with the Zionist Organization."

١ - « تقبل حكومة صاحب الجلالة مبدأ إعادة تحويل فلسطين الى وطن قومي للشعب اليهودي » .

٢ - أن حكومة صاحب الجلالة ستبذل أطيب مساعيها لتحقيق هذه الغاية وستتفاوض مع المنظمة الصهيونية في تحديد الطرق والوسائل الضرورية لبلوغها » .

وقد حاز هذا التعديل الجديد موافقة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأسها الرئيس ولسون ، ولكنه في نفس الوقت لم يحز قبولا لدى اليهود غير الصهيونيين وأثاروا اعتراضين جوهريين حول هذا التعديل :

(١) نجيب سدة : قضية فلسطين ص ٢٨

الأول : هو عدم موافقتهم على جعل فلسطين بأكملها وطنا قوميا لليهود ورأوا الاكتفاء بإنشاء موطن لليهود في فلسطين.

الثاني : أنهم عثروا على مراكزهم في الدول الأوربية التي يقيمون فيها فأرادوا إيجاد نص صريح يضمن للطوائف اليهودية بمختلف الدول حقوقهم وحررياتهم التي يتمتعون بها .

ولذا رأت الحكومة الإنجليزية أن تعالج الأمر بشيء من التؤدة وأن نجد نصا لهذا المشروع يتفق مع رغبات كلا الفريقين اليهوديين . وبعد مشاورات بينها وبين حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ، توصلت الحكومتان الى نص نهائي للتصريح واتفق عليه الرئيس ولسون في ١٧ أكتوبر سنة ١٩١٧ قبل اعلانه .  
وفي ٢ نوفمبر من نفس السنة بعثت الحكومة الإنجليزية على أثر (١) احتلال قواتها لميناء غزة بالنص الرسمي لهذا التصريح الى اللورد روتشلك وهذا نصه :

"His Majesty's Government view with favour the establishment in Palestine of a National Home for the Jewish people; and will use their best endeavours to facilitate the achievement of this object. it being clearly understood that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine, or the rights and political status enjoyed by Jews in any other country."

« أن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على عل أن يفهم جليا أنه لن يوثق بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية

(١) Nurman Bentwich; Palestine P. 78.

(١) الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين - المجموعة الأولى ١٩١٥ - ١٩٤٦ نشر جامعة الدول العربية .

التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحقوق  
أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى » (١) .

وقد اشتهر هذا التصريح باسم وعد بلفور Balfour Declaration نسبة  
الى وزير خارجية إنجلترا المستر بلفور .

### نقد وعد بلفور

إذا ما نظرنا الى هذا الوعد والى الظروف الدولية التي أحاطت بإصداره  
نجد أنه أولاً يعد نقضاً صريحاً للاتفاق العربي الانجليزي الذي عرف باسم  
اتفاقية (الحسين - مكماهون) في سنة ١٩١٥ . فهذا الاتفاق قد نص صراحة  
على أن فلسطين جزء من الدولة العربية الميمنة بالاتفاق ، وأن إنجلترا اذا كانت  
قد أثارت بعض التحفظات بشأن دخول ولايتي البصرة وبغداد في نطاق  
الدولة العربية المقترحة لوجود مصالح حيوية بتلك الجهات . وكذلك أثارت  
نفس الاعتراضات بخصوص ولايات دمشق وحمص وحماء وحلب لوجود  
مصالح خليفتها فرنسا فيها . فانها لم تثر أى تحفظات بشأن فلسطين (٢) . ولو أن  
المستر تشرشل في بيانه الذي أعلنه في عام ١٩٢٢ قد حاول ادخال منطقة  
فلسطين أيضاً ضمن المناطق المستثناءة فيقول : وهذا التحفظ يستثنى في جملة  
ما يستثنى من المناطق ، ذلك القسم من سورية الواقع غربي ولاية الشام .  
وقد اعتبرت حكومة جلالاته على الدوام بأن هذا التحفظ يشمل ولاية بيروت  
وسنجق القدس المستقل . وبناء عليه تكون فلسطين برمتها غربي الأردن ،  
مستثناءة من تعهد السير هنري مكماهون . « فأصرار إنجلترا على التمسك  
بهذا الوعد يعد نقضاً صريحاً لالتزام دولي سبق أن قطعتة إنجلترا على نفسها للعرب .

Certified True Copy (١)

British Embassy, Cairo.

Assistant Oriental Secretary 19-6-37.

Arabic Version of letter forme Sir Arthur Me Mahon to King Hussain dated 26-10-15  
(Dispatch No. 172 of 14-12-15).

نقلا عن مجموعة الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين وثيقة رقم ٤ ص ١٤

(٢) نجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٤٢

وكان على إنجلترا أن تختار بين أحد الأتزامين ، إما الوفاء بتعهداتها للعرب  
وتجاهل وعددها لليهود ، وإما أن تختار العكس ، لأنها لن تستطيع أن توفق بين  
التقيضين . وهذا سيتوقف بطبيعة الحال على مدى صلابة كل من الطرفين  
العربي واليهودي ، ومقدار تمسكه بما حصل عليه من حقوق وامتيازات .

وإذا نظرنا الى الموقف الدولي عقب انتهاء الحرب وفي أثناء عقد مؤتمر  
الصلح في فرساي نجد أن الجانب اليهودي قد عبأ كل قواه وحشد كل إمكانياته  
للتأثير على الدول الكبرى وحضها على حل مشكلة فلسطين بما يتفق ومصالحه  
في ضوء وعد بلفور . وكانت تعاونهم في ذلك الوقت خيرتهم بالتيارات السيامية  
واتصلهم برؤساء ووزراء الدول الأوروبية الكبرى ، بينما نجد أن الوفد العربي  
الذي ذهب لمؤتمر الصلح في فرساي برئاسة الأمير فيصل للدفاع عن مصالح  
العرب لم تكن له دراية بالموقف الدولي أو بالتيارات السياسية . كما قوبل  
معارضة شديدة من قبل فرنسا على وجه الخصوص . فكان موقفه لذلك ضعيفا ،  
واعتمد كل الاعتماد على تأييد إنجلترا وعلى مشورتها ، فلم يكن من السهل عليه  
رغم عدالة قضيته - أن يصل الى نتائج إيجابية ، وقبل في نهاية الأمر ما عرضته  
عليه إنجلترا . فضعف مركز الوفد العربي إذا ما قورن بمركز الوفد الصهيوني  
في مؤتمر الصلح كان له أكبر الأثر ، في أن تنحاز إنجلترا الى جانب اليهود  
على حساب مصلحة العرب .

(ثانيا) إن إنجلترا قد تسرعت في منح هذا الوعد لليهود قبل أن تحتل  
فلسطين وقبل أن تفرضها عصبة الأمم في حكم تلك البلاد . فوقفها هذا  
لا يجبر لها ان تغير من الوضع الراهن بفلسطين .

(ثالثاً) كان من الممكن أن يؤدي نظام الانتداب فائدة محققة اذا  
ما طبق دون ميل أو تحيز ، فاذا نظرنا الى المادة الثانية والعشرين من الميثاق  
الخاص بهذا النظام نجدها تنص على أنه في حالة الشعوب الراقية التي كانت  
تحت حكم الأتراك والتي وصل رقيها درجة تدعو الى الاعتراف مؤقتا  
باستقلالها تقتصر مسئولية الدولة المنتدبة على تقديم المشورة والمساعدة ،  
حتى تستطيع تلك الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها . كذلك

نصت الفقرة الثالثة من نفس المادة على الاعتراف « بحق الجماعات التي كانت تابعة للإمبراطورية العثمانية بكيانها كأمم مستقلة تحتاج أن تمد بالمعونة والمشورة الإدارية من قبل دولة متمدنة ويكون لرغائب هذه الجماعات الاعتبار الأول في اختيار الدولة المنتدبة » (١) .

ولكن عصبة الأمم قد استثنت فلسطين من ذلك ، فنصت المادة الثانية من صك الانتداب على أن « تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن وضع البلاد في أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تضمن انشاء الوطن القومي اليهودي » (٢) أي أن إنجلترا لم تصبح وحدها مسؤولة عن تنفيذ الوعد ، بل لقد أسهمت العصبة أيضاً في هذه المسؤولية .

(رابعاً) : إن اصدار هذا الوعد ثم العمل على تنفيذه يتناقى مع ما نادت به إنجلترا وحليفاتها خلال الحرب العالمية الأولى من حق تقرير المصير . وعندما حاولت الولايات المتحدة تطبيق مبدأ حق تقرير المصير في فلسطين وافقت كل من فرنسا وإنجلترا على ذلك مجاملة لأمريكا ، ولكنهما رفضتا تعيين أعضائهما في اللجنة التي سيوكل إليها هذا الأمر ، بحيث وجدت الولايات المتحدة نفسها مضطرة أن ايفاد مندوبيها وحدهم للقيام بعملية الاستفتاء واطلق عليهم اسم لجنة كنج . كرين . وقد أسفرت نتائج الاستفتاء عن معارضة السكان جعل فلسطين وطن قومي لليهود (٣) ولكن هذه النتيجة لم تعلق ، وظلت في طي الكتمان حتى تتمكن إنجلترا وشريكاتها من تحرق المطامع الصهيونية في هذا البلد العربي على حساب السكان الذين يمثلون أغلبية تقدر بنحو ٩٢ ٪ من عدد السكان والذين لم يحسب لرأيهم أي حساب .

(خامساً) أن اتفاقية سايكس بيكو قد نصت على إخضاع الأراضي المقلمة لنوع من الإدارة الدولية يشترك في وضعها كل من إنجلترا وفرنسا

(١) مجموعة الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين من ١٢٨ وما بعدها

(٢) المصدر السابق : ص ٣٠

(٣) Bentwich N., Palestine P. 91.

وروسيا وحلفائهم بالإضافة الى الحسين (١) بن علي . فانفراد إنجلترا بالحكم دون مشاركة الأطراف المنصوص عليها في الاتفاق اعتداء آخر على المواثيق الدولية .

وفي حقيقة الأمر فقد بدأت المنظمات الصهيونية في مختلف الحكومات الأوربية والأمريكية تنكاتف لتحقق مطلبهم في إقامة الوطن القومي اليهودي في فلسطين تحت حماية إنجلترا . وقد عارضت بعض الحكومات في أوروبا الأذعان لمطالب الصهيونية العالمية، فروسيا رفضت الموافقة على ذلك « مستندة الى أن تحويل فلسطين الى دولة عنصرية يهودية سوف يندس الأراضي المقدسة » (٢) ولم تنته تلك المعارضة الا بقيام الثورة البلشفية في روسيا وسقوط حكم آل رومانوف في ١٢ مارس سنة ١٩١٧ .

ويذكر المؤرخ الكبير توينبي في كتابه سالف الذكر بأن زوال القيصرية قد أفقد العرب الفلسطينيين حماية روسيا (٣) .

كذلك عارضت كل من فرنسا وإيطاليا في انفراد إنجلترا بالانتداب على فلسطين . فرنسا كانت تعلم بنوايا إنجلترا وتخشى أن يؤدي انفرادها ببسط سيادتها ونفوذها على فلسطين الى الاخلال بتوازن القوى بينها وبين إنجلترا في منطقة الشرق الأدنى وشرق البحر الأبيض المتوسط . كما عارضت الحكومة الإيطالية في تطبيق أي نظام آخر غير النظام الدول متأثرة بمعارضة البابوية هذا الانتداب خشية أن يؤدي الى الماس بسلامة الأراضي المقدسة بفلسطين .

وقد نجح زعماء الصهيونية في اقناع الدولتين بالعدول عن موقفهما لتصميمهم على التمسك بإنجلترا . وفي هذا يقول الدكتور حاييم وايزمن « لقد قررنا أن لا يكون هناك اشتراك دولي أو تدويل في فلسطين لما يعقب

(١) Antonius G.; The Arab Awakening, P. 260.

(٢) Toynebo A.; A Study of history. Vol VIII. P. 302.

(٣) انصدر السابق ص ٣٠٢

ذلك من تعقيدات ومناقشات وعدم كفاية .. وربما أحدث ذلك توقفا تاما في عملنا ، وأن ما يطلبه الصهيونيون هو حماية بريطانية مع حقوق كاملة « (١) .

وفي موضع آخر يستطرد قائلا : « ولا حاجة الى بحث الحقيقة الواقعة وهي أن الديمقراطية الوطنية اليهودية والمنظمة الصهيونية التي تمثل في جوهرها هذه الديمقراطية تنق دون ريب في الحكم البريطاني وتربى في الحماية البريطانية الامكانية الوحيدة للتقدم المطرد نحو جعل فلسطين اليهودية بحكومة ديمقراطية » (٢) .

ونتيجة لتلك المداعي المنتظمة من قبل المنظمات الصهيونية العالمية لدى الدول الأعضاء في عصبة الأمم ، أن نجح هؤلاء الصهيونيون في حمل عصبة الأمم على منح انجلترا صك الانتداب على فلسطين في ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢ . وبهذا تمكن كل من الطرفين الانجليزي والصهيوني الوصول الى تحقيق هدفه في ظل نظام الانتداب .

#### تحليل الوعد

اذا ما تناولنا هذا التصريح المتنضب بالبحث والتحليل ، نجد أنه يشتمل على عبارات مطاطة وضعت بعد دراسة مستصيفة اشترك فيها أساطين السياسة في كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية ، مما يدل دلالة واضحة على أساليب السياسة الانجليزية المتتوية ، وعلى براعة ومقدرة وزارة الخارجية الانجليزية في اختيار الألفاظ المرنة التي تحمل أكثر من معنى والتي يمكن تفسيرها على وجوه متعددة .

فاذا ما أمعنا النظر الى عبارة وطن قومي National Home وأردنا أن نحدد مدلولها لتعلم علينا ذلك ، فهل يقصد بها وطن سياسي بالمعنى المعروف في العصر الحديث ، أم تعني شيئا آخر غير ذلك ، واذا كانت تقصد معنى آخر فما هو الدافع وراء اختيار هذه العبارة دون غيرها ... ؟

(١) Weizman Dr.; Trial & Error. P. 230.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ وما بعدها .

لا يمكننا في حقيقة الأمر أن نفسر هذه العبارة التي لم تعرف في قاموس السياسة الدولية قبل الحرب العالمية الأولى إلا إذا استعرجنا أقوال (١) الساسة المشهورين في الحكومة الإنجليزية الذين اشتركوا في صياغة هذا التصريح . فاللورد بلفور الذي اقترن اسمه بهذا الوعد قد فسره في سنة ١٩١٧ بأن الوطن القومي معناه « شكلا ما من حماية إنجليزية أو أمريكية يعطى في ظلها لليهود كل ما من شأنه أن يسهل لهم تأسيس مركز صحيح للثقافة القومية وموطن للحياة القومية » .

ولكن زميله لويد جورج واللورد كرزون كانا أكثر صراحة في تفسيرهما لمعنى الوطن القومي. فقال الأول « إن الفكرة التي أستوحيناها والتفسير الذي اتفقنا عليه هو أن لا نقضى معاهدات الصلح بخلق دولة يهودية في الحال في فلسطين دون أن يؤخذ رأي أغلبية سكان هذه البلاد. غير أننا رأينا أن نسمح أحوال لجعل فلسطين دولة يهودية في المستقبل ، إذا عرف اليهود كيف يستفيدون من التسهيلات التي أعطيناها أيهم ، وحازوا على أغلبية عددية في فلسطين عندما يحين الوقت لنح فلسطين أنظمة سياسية تمثيلية » .

وفي هذا المعنى يقول هربرت صمويل « قد توجد الدولة (اليهودية) في المستقبل ومع مجريات الأحداث، ولكن طالما كانت الأغلبية العظمى من السكان من العرب فانشاء الدولة خارج عن الموضوع . وأن في فرض حكومة من الأقلية اليهودية نقضنا صريحا لأحد الأهداف الرئيسية التي أعلن الحلفاء أنهم يحاربون من أجلها » (٢) .

وفي حقيقة الأمر فإن عبارة (وطن قومي) قد قصد بها منذ أول الأمر (دولة سياسية) ولكن إنجلترا اختارت العبارة الأولى للتعمية ولتهدئة شكوك العرب (٣) .

(١) عجيب صدقة : قضية فلسطين ص ٣٣ و ٣٤

(٢) Samuel H.; Memoir P. 89.

(٣) Atujah E.; The Arabs P. 102-

وقال اللورد كرزون في تفسيره لهذه العبارة أن الوطن القومي معناه  
«كيان سياسي يؤلفه اليهود ، ويدبر شئونهم اليهود ويحكم وفقاً لمصالح اليهود» .

من التفسيرات السابقة لولاء الساسة يمكننا القول بأن الوطن القومي معناه  
مرحلة انتقال يعيش اليهود في ظلها تحت الانتداب الانجليزى ريثما تصبح لهم  
الأغلبية العددية وفي ذلك الوقت يمكن المصادرة بالدولة اليهودية  
الجديدة ككيان سياسي امتداداً على الكثرة العددية لليهود . أما عند اصدار  
الوعد فلم يكن عدد اليهود في فلسطين يزيد عن 8% من عدد السكان ، فكيف  
تجرؤ انجلترا وحليفاتها على المصادرة بفلسطين دولة سياسية يهودية في ذلك  
الوقت . فعبارة وطن قومي تحمل في أذهان ساسة انجلترا وزعماء الصهيونيين  
معنى واحد هو الوطن السياسي . فالوطن القومي في هذه الحالة ليس هدفاً  
في حد ذاته وإنما وسيلة لغاية أخرى مستحققة بعد حين .

أما عن تعبير الشعب اليهودى Jewish people فهو تعبير غامض لجأت  
إليه الحكومة الانجليزية لتتخلص من الخلاف الذى وقع بين اليهود  
الصهيونيين وغير الصهيونيين بشأن كلمة أمة Nation ، فالصهيونيون كانوا  
ينادون بأن يهود العالم على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم يكونون أمة واحدة  
بل عسراً واحداً race ، بينما كان اليهود غير الصهيونيين لا يعترفون بوجود  
روابط قومية بين المجتمعات اليهودية المنتشرة في جميع أنحاء  
العالم ، بل ينظرون إليها على أنها روابط دينية بحتة . ولما لم يصل الطرفان  
إلى اتفاق فيما بينهما اتخذت الحكومة الانجليزية ، موقفاً وسطاً بين الفريقين ،  
فاستعملت كلمة غامضة يصعب تعريفها تعريفاً قانونياً الا وهى كلمة شعب .

وإذا انتقلنا الى كلمة تسهيل facilitate التى وردت بالنص نجد أن  
المسؤولين الانجليز لم يحاولوا التورط في هذا الوعد ، وأن يذكروا مثلاً كلمة  
تأسيس بدلاً من كلمة تسهيل . بل أرادوا أن يلقوا بمسئولية اقامة  
الوطن القومي على عاتق اليهود أنفسهم دون أن يعهدوا بأقامته ، حتى اذا ماتعذر  
عليهم تحقيق هذا الهدف في يوم من الأيام أصبحت الحكومة الانجليزية

في حل من أمرها وليس لليهود عليها سلطان . أى أن إنجلترا لا تضمن نجاح تحويل الوطن القومي الى دولة بالمعنى السياسي المشهور . فهذه المهمة متروكة لنشاط اليهود وللظروف الخارجية ، فاذا استطاع اليهود أن يصبحوا أكثرية في فلسطين ، أصبح لهم الحق في المناهضة بدولتهم طبقاً للمبادئ الديمقراطية ، وان لم يستطيعون ذلك بقى الوطن القومي وطناً قومياً فحسب .

كما أن الحكومة الإنجليزية لن تعارض في أن يصبح اليهود أكثرية في فلسطين ولكنها لا تعهد بمجعلهم أكثرية . فهي توافق على انشاء وطن قومي لليهود بفلسطين وتساعد على انشائه ولكنها لا تعهد بمجعل فلسطين بأكلها وطناً قومياً لهم .

ورغم هذه التسهيلات التي تعهدت إنجلترا بتقديمها لليهود فان الوعد كان يتضمن تعذبات تتعلق بحقوق السكان العرب . ومع انها تحفظت مهمة وغامضة ، الا أنها كانت على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لسكان العرب اذا ما استطاعت الدول العربية التمسك بها ، ومطالبة إنجلترا بمراعاتها ، بصفها الدولة المتدبة على فلسطين من قبل عصبة الأمم . ولكننا نجد أن ظروف الدول العربية في ذلك الوقت لم تكن تسمح لها بمنح مشكلة فلسطين ما تستحقه من عناية واهتمام ، نظراً لوقوع معظمها في براثن الاستعمار الأوربي . فصر قد فرضت عليها الحماية في سنة ١٩١٤ وظلت على هذا الوضع حتى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . وحتى هذا الاستقلال الذي منحه البلاد في ظل هذا التصريح كان استقلالاً صورياً بينما احتفظت إنجلترا لنفسها بادارة شئون مصر والسودان طبقاً لأهوائها ، ووفق مصلحتها .

أما سوريا ولبنان فقد خضعا للاحتلال الفرنسي الفاشم واخذوا يقاومانه بكل ما أوتيا من قوة وجهد ، وكذلك انشأن بالنسبة للعراق الذي خضع للاحتلال الإنجليزي .

أما عن شمال أفريقيا فقد خضعت ليبيا لاحتلال إيطاليا ، كما خضعت الجزائر وتونس للاحتلال الفرنسي من قبل . فعظم الدول العربية كانت مشغولة بمقاومة الاستعمار داخل أراضيها ، وبحل مشكلاتها الداخلية ولم نجد لديها متسعاً من الوقت للاهتمام بقضية فلسطين . حتى إذا ما بدأت هذه الدول تتخلص جزئياً من مشاكلها الداخلية وتبدى اهتماماً بقضية فلسطين ، وذلك في الثلاثينات من هذا القرن ، نجد أن اقدام اليهود كانت قد توطدت في فلسطين وتدعت مصالحهم الاقتصادية بها بشكل أصبح يمثل خطراً حقيقياً على المصالح العربية بفلسطين ، فلم تستطع أن تغير من الوضع شيئاً يستحق الذكر .

وإذا ما تأملنا عبارة الطوائف غير اليهودية Non Jewish communities التي وردت بنص الوعد نجد أنها تشتمل على مغالطة كبيرة للحقائق المنموسة ، فالعبارة توهم القارئ بأن فلسطين بلد يهودي ، وأن الطوائف غير اليهودية أقلية فيه ، وهذا عكس الواقع إذ كانت نسبة السكان العرب كما سبق أن ذكرنا حوالي ٩٢٪ من عدد السكان الكلي .

أما العبارة الواردة بالنص عن ضمان إنجلترا لحقوق العرب المدنية والدينية The civil and religious rights فمهمة لا تدل دلالة واضحة على مضمونها الدقيق . وقد تمعدت الحكومة الانجليزية وضع هذه العبارة الغامضة ارضاء للعناصر الصهيونية من ناحية ، ولعدم اثاره الشعوب العربية من ناحية أخرى . وفتحت الباب أمامها في المستقبل لتفسير تلك العبارة بما يتفق مع مصالحها .

وإذا حاولنا تفسيرها في حلوها الضيقة نرى أنها تنصب على الحريات العامة والتصرفات الشخصية فحسب ، بينما لا تتسع لتشمل الحقوق السياسية كذلك . وكان يمكن لإنجلترا أن تجعل هذه العبارة أكثر وضوحاً لو أرادت ذلك ، ولو كانت نواياها فوق مستوى الشبهات . فكان في مقدورها أن تضع عبارة الحقوق السياسية بدلا من الحقوق المدنية والدينية ، ولكنها كانت

تعلم أن هذه العبارة أكثر دقة وتحديد للمعنى من سابقها ، وأن وضعها على هذا النحو سيحول بين الصهيونيين وتحقيق مطالبهم مستقبلا في جعل فلسطين دولة يهودية سياسية ، لأن هذا سيتعارض بطبيعة الحال مع ضمان إنجلترا لحقوق العرب السياسية .

وإذا كانت إنجلترا قد اغفلت تلك العبارة عن عمد فيها يتعلق بحقوق العرب ، فإنها لم تتناساها بالنسبة لحقوق اليهود المقيمين في الدول الأخرى خارج حدود فلسطين ، بل حددتها تحديداً دقيقاً لا لبث فيه ولا إبهام . فقد نصت في العبارة الخاصة باليهود بضمأن حقوقهم والوضع السياسي *the rights and political status* الذي يتمتعون به .

وقد صور لنا المؤرخ الكبير توينبي سياسة إنجلترا أزاء فلسطين أصدق تصوير حيناً قال « إن الدولة الغربية التي تتحمل نصيب الأمد في المسؤولية عن الحغبة في فترة ما بين الحربين لانتفاء الموقف في فلسطين هي بريطانيا التي كانت أولا الدولة المختلة، وبعد ذلك الدولة المتتدبة، وقد أدارت شئون الانتداب من سنة ١٩١٨ - ١٩٤٨ .

«وفي خلال هذه السنين الحرجة كان موقف الحكومة البريطانية الشامل لجميع الاحزاب والذي طبقته جميع الحكومات المتتابة ، هو التعامى المقصود الجدير بالادانة. (١)»

ويمكننا القول بأنه رغم ما بذله الصهيونيون من مساع للحصول على هذا الوعد ، فإنهم لم يكونوا بمستطيعين الوصول اليه لولا مصلحة إنجلترا في حماية مركزها بمصر ، وتأمين اتصالها البرى مع الشرق . فهذا الدافع الرئيسى وحده كان كافياً لحمل إنجلترا على اصدار هذا الوعد الذى سيمكنها من فلسطين مهما كان الدور الذى أدته العوامل الأخرى من سياسية واقتصادية ودينية .

Toynbee A.: A study of history. VIII P. 304. (١)

## مراجع البحث

### المراجع العربية :

- جامعة النوازل العربية : الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين . المجموعة الأولى ١٩١٥-١٩٤٦
- جامعة النوازل العربية : مقال خطير بقلم البروفيسور آرندل نوبين .
- دكتور أحمد عبد القادر الجمال : من مشكلات الشرق الأوسط ، القاهرة ١٩٥٥
- دكتور مصطفى صفوت : انجلترا وقتنا السويس ، اسكندرية - ١٩٥٦

### المراجع الأوربية :

- Atiyah E.; The Arabs. 1955.
- Antunius G., The Arab Awakening. London 1938.
- Bentwich N.; Palestine. London 1934.
- Hoskins H.L.; The Middle East. New York 1954.
- Samuel H.; Memoirs.
- Weitzman Dr.; Trial & Error.



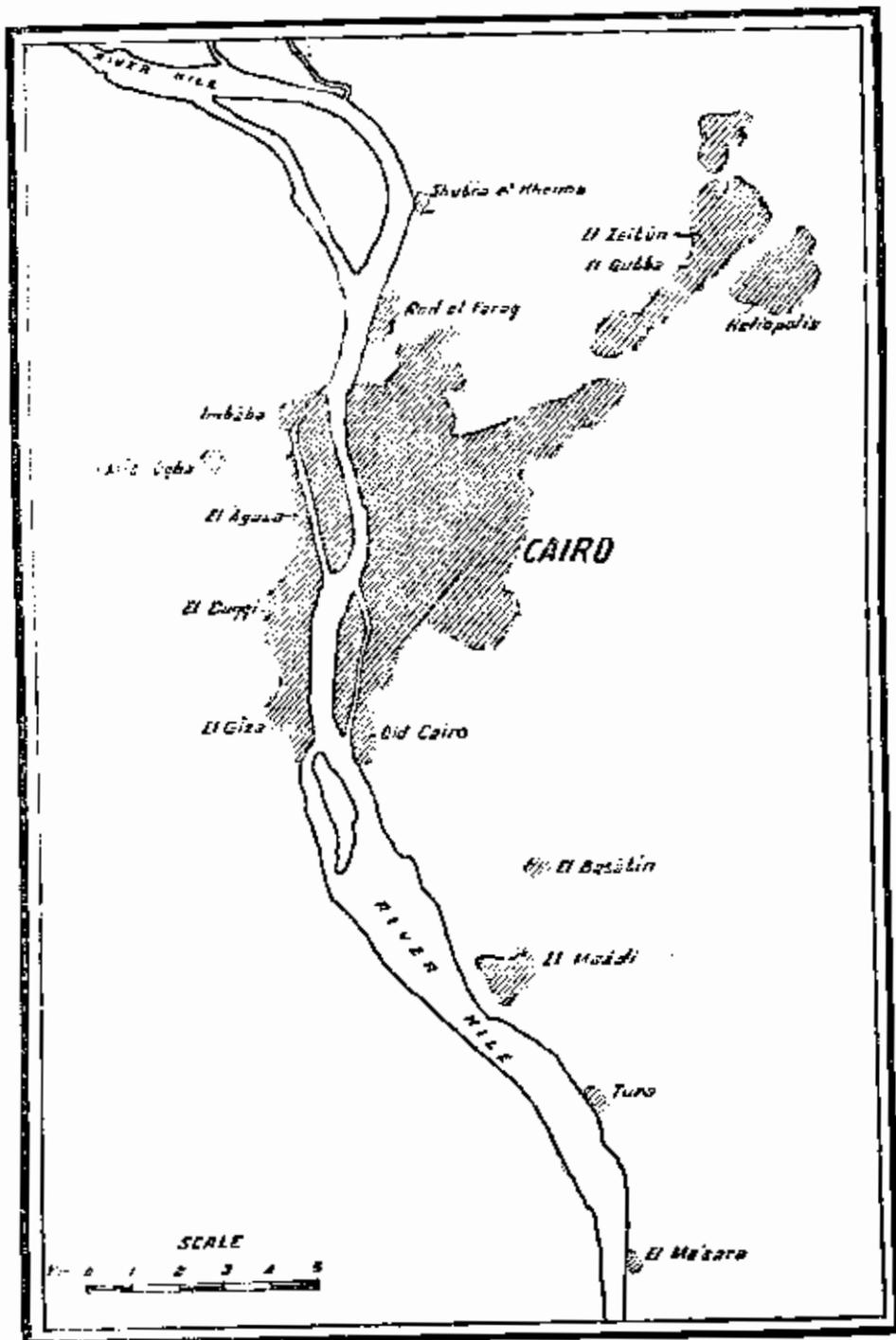
تم بحمد الله ، طبع هذه المجلة  
بمطبعة جامعة الاسكندرية ، في يوم الأحد  
٢١ من ربيع الأول سنة ١٣٩٣ الهجرى الموافق  
١١ من أغسطس سنة ١٩٧٣

**شعبان السيد عبد السلام**  
مدير المطبعة الادارى

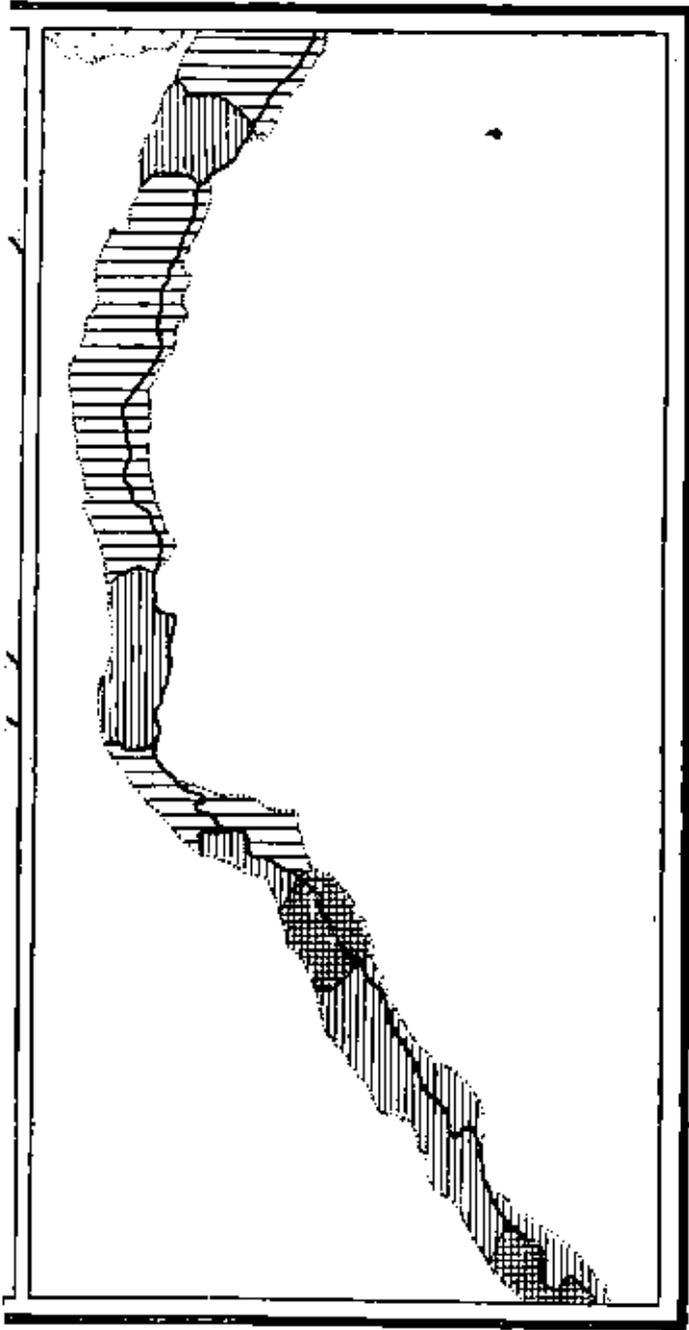














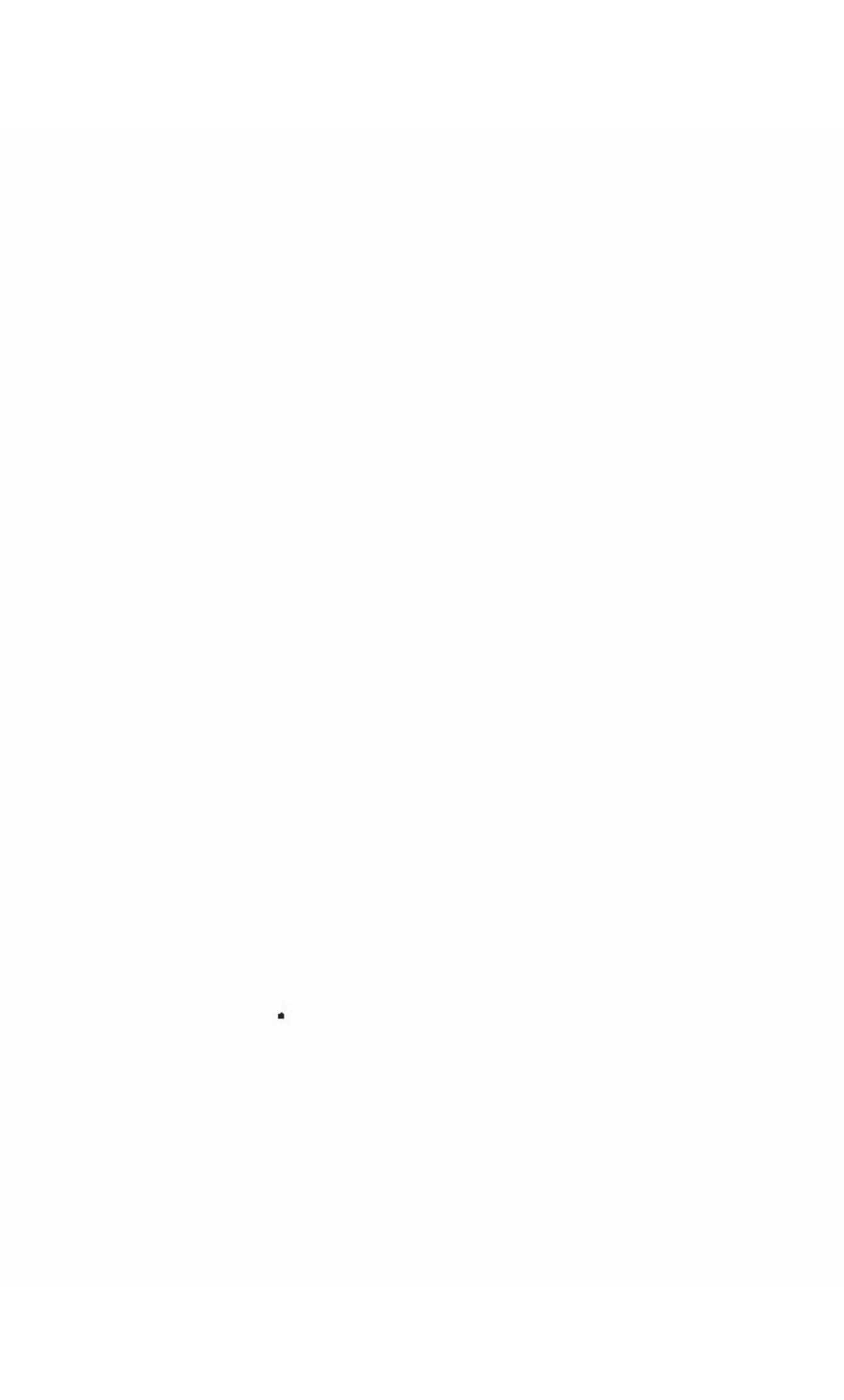
# **BULLETIN OF THE FACULTY OF ARTS**



**Vol. XVI  
1962**

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University, Shatby. Communications regarding contributions should be addressed to the Editing Board of the Bulletin.

**ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS  
1963**



## CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
1 — <i>LOTFY FAM.</i>	
Le Poète Prosateur ... ..	3
2 — <i>AZZA KARARAH</i>	
Antony Versus Brutus ... ..	23
3 — <i>HILDE ZALOSKER</i>	
A Propos des portraits de Momies dits du Fayoum ...	39
4 — <i>DAWLAT SADEK</i>	
Industries, Employment and Urban Redevelopment in Egypt... ..	49

•

## LE POÈTE PROSAIEUR

Par

LOTFY FAN.

Il est un préjugé bien établi dans l'esprit de beaucoup de gens — et surtout parmi les critiques littéraires — qu'un poète est incapable de faire de la belle prose. On prétend que l'épanouissement naturel du génie poétique ne favorise pas le développement des qualités qu'exige la prose, telles que la précision et la concision. C'est pour cela qu'on s'est toujours méfié de ceux qu'on appelait, non sans nuance péjorative, "les poètes prosateurs".

Pourtant, ce préjugé ne nous semble pas justifié et il nous paraît arbitraire de condamner un écrit en prose pour l'unique raison que que l'auteur en est poète.

Deux grands poètes par excellence, Lamartine et Victor Hugo, ont fait passer spontanément, dans leur prose, les qualités essentielles qui font le charme de leur poésie.

En nous appuyant sur l'exemple de Lamartine, nous allons voir comment la personnalité du poète, avec ses qualités et même ses défauts, se reflète dans sa prose.

### Ses écrits en Prose :

Avant le *Voyage en Orient*, Lamartine n'avait guère composé que des poèmes. A part de nombreuses lettres, on ne possède de lui que quelques écrits en prose. Il s'agit principalement d'articles de journaux : "le Journal de Saône et Loire", en particulier, publie de lui des manifestes et des remerciements aux électeurs, pour Ladvocat, libraire ruiné, parait le 11 décembre 1830, dans la série des "Cent et Un", un article : *Les Révolutions*.

Ajoutons à cela, quelques courtes publications : le 1er avril 1830, son Discours de réception à l'Académie (Paris, Didot, 1830, in-4° 28 p.), un an après, sa brochure *Sur la Politique Rationnelle* (Paris, Gosselin, 1831, in-8°, 133 p.) qui n'eut d'ailleurs pas grand succès.

En outre, le 1er mars 1832, parut "un charmant morceau", selon le mot de Sainte-Beuve<sup>1</sup>, sur les "*Devoirs civils du curé*" (8 p.) en tête du 3<sup>e</sup> fascicule du "Journal des Connaissances utiles". Pour l'Académie de Mâcon, il écrivit le 28 février 1832<sup>2</sup>, les "considérations préliminaires sur la question à proposer" par cette Académie.

Le 1er octobre 1832, Sainte-Beuve énumère la plupart de ces écrits en prose; il estime qu'ils "indiquent assez son aisance parfaite en ce genre, et avec quelle simplicité de bon sens jointe à la grâce et à l'inséparable mélodie, sa pensée se déroule, sous une forme à la fois plus libre et plus sévère."<sup>3</sup>.

#### Autocritique :

"Je ne sais pas écrire en prose faute de métier et d'habitude", déclare-t-il dans la *Préface des Recueils*<sup>4</sup>. Aussi, ne surestime-t-il pas son oeuvre en prose et il avoue modestement : "Je n'oserais pas me comparer comme écrivain en prose à M. de Chateaubriand"<sup>5</sup>. La poésie était l'expression naturelle de sa pensée : il le reconnaît lui-même : "le vers était ma langue"<sup>6</sup>. Il ajoute : "J'écrivais en vers quand je n'ai pas le temps d'écrire en prose". La poésie exige de lui moins d'effort que la prose, "langue, estime-t-il, trop réfléchie pour être employée aux usages ordinaires de la pensée"<sup>7</sup>. D'ailleurs, la pensée trouve une forme plus durable, plus digne d'elle, dans la poésie, langue "qui vibre quelques jours de plus que la langue vulgaire dans la mémoire des hommes."<sup>8</sup>.

1. Le 1er octobre 1832; dans La Revue des Deux Mondes, p. 25.

2. Il existe de ce manuscrit à Saint-Point deux textes, de la main de Lamartine, dont le second, daté du 5 mars 1832 est une mise au net. — Cet article parut dans le "Journal de Saône et Loire", le 14 mars 1832.

3. *R. D. M.*, p. 25. Cet article est reproduit textuellement dans *Portraits Contemporains*, I, 214.

4. *Préface des Recueils Poétiques*, 1er. déc. 1838, éd. Gosselin, 1839, in 8°, p. XIX.

5. *C.F.L.* T.XCVIII (1869), Ent. 165, LXXV, p. 145.

6. *A. de Lamartine par lui-même (1790-1847)*, Paris, Lemerre, 1892, in-16, II, 421 p. Livre cinquième, XXXVIII, p. 331. — cf. *V. en O.*, II : 35, où il dit de la poésie : "langage naturel de ma pensée, toutes les fois que ma pensée me domine."

7. *A. de Lamartine par lui-même*, p. 331.

8. *Jacelyn*, Avertissement, 15 Janv. 1836, éd. Hachette, 1882, p. 38.

### Le problème du "Poète Prosateur" :

La publication du *V. en O.* permit aux critiques contemporains de soulever à nouveau le problème du "poète prosateur." Selon les préjugés de l'époque, un grand poète ne pouvait être un grand prosateur. Cependant, Chateaubriand avait "révolutionné" la prose en supprimant les frontières qui la séparaient de la poésie.

Nisard<sup>1</sup> trouve que les volumes du *V. en O.* "ne décideront pas la question; ce n'est pas qu'il n'y ait de très belle prose dans ces notes, et, çà et là, des pages où le poète est grand prosateur". Mais c'est parce que Lamartine ne nous a livré que "des fragments, des ébauches, et non pas un livre de prose."

Un mois après, *Le Constitutionnel* essaie de combattre "ce préjugé contre la prose des poètes"<sup>2</sup> à propos du *V. en O.* : "Les éloges mêmes, qu'on accordait sans restriction à ses vers, étaient un droit qu'on se faisait de médire de sa prose et d'étouffer le prosateur sous les couronnes qu'on décernait au poète."

Saint-Hilaire montre, également, que le poète devenu prosateur est un "prisonnier affranchi"; "son style respire plus à l'aise", gagne en naturel, en simplicité et en charme.

Emile Deschamps, après avoir lu *Jocelyn*, confie à Lamartine le 29 février 1836, "que la prose dit mieux que [le vers] : description et sentiment"<sup>3</sup>.

Un poète spiritualiste, Charles de Pomairols, constate que les écrits en prose de Lamartine "émanent encore de l'inspiration lyrique presque aussi directement que ses poésies"<sup>4</sup>, et surtout, son *V. en O.*,

---

1. *Revue de Paris* (16<sup>e</sup> vol.) Avril 1835, p. 225-226. *Réflexions sur le "V. en O." de Lamartine* (p. 225-249).

2. *Le Constitutionnel*, Jeudi, 14 mai 1835, article sur le *V. en O.* de Lamartine, par R. Saint-Hilaire. "Même avant sa publication, écrit-il, il était bien établi dans l'esprit de beaucoup de gens, fort sensés d'ailleurs [...] que l'illustre auteur des *Méditations* ne pouvait pas savoir écrire en prose."

3. Archives de Saint-Point, publié par M. Guillemin *Le Jocelyn, de Lamartine*, p. 683.

4. Ch. de Pomairols, *Lamartine, Étude de sa Morale et d'Esthétique*, Paris, Hachette, 1889, in 16, XII-325 p. Voir p 241.

“la première œuvre importante écrite par Lamartine en langage de prose”. Pomairois souligne également l'intérêt particulier de cet ouvrage. Pour la première fois, alors, Lamartine quittait le brillant nuage dont s'enveloppaient toujours ses vers et parlait la langue de tout le monde. La curiosité publique se portait au-devant des révélations plus précises que cette forme plus familière annonçait : le poète allait être plus accessible, semblait-il, plus voisin de chacun; c'était comme si on allait faire la connaissance de sa personne. Cet empressement naturel ne fut pas trompé.”<sup>1</sup>

Après le *V. en O.*, Lamartine publia une trentaine d'ouvrages importants en prose; quelques-uns comportent huit volumes et le *Cours Familier de Littérature*, à lui seul en comprend vingt-huit. “Le développement naturel du génie lyrique, passant du vers à la prose, [...] s'opéra de façon complète et directe”<sup>2</sup>, car Lamartine adopta un genre particulier de roman que Pomairois appelle “le roman personnel”. Cela lui permit de manifester son enthousiasme pour la nature et d'exprimer ses sentiments personnels, de conserver, en un mot, la même inspiration sous une forme d'expression différente. Sa gloire s'en trouve-t-elle accrue? Certes, non. Rappelons-nous le jugement d'Amédée Pichot sur le *V. en O.* “Le prosateur n'a rien ajouté à la gloire du poète; mais, l'homme a grandi.”<sup>3</sup>.

Sa langue est le reflet de son âme :

Le propre d'une étude de langue et de style est de nous révéler “la manière” de l'écrivain.

Lamartine crée lui-même sa “manière” en mettant dans ses écrits, “le mouvement et la sonorité de son âme, toute sa musique intérieure”.<sup>4</sup>

1. Ch. de Pomairois, *Lamartine, Etude de Morale et d'Esthétique*, p. 247, 248.

2. *Ibid.*, p. 249.

3. Cité dans *La Revue de Paris*, avril 1835 p. 241, par Nisard qui trouve ce mot “judicieux et fin.” Mais comment cette gloire pouvait-elle augmenter après les *Méditations*? “Aucun nouveau rayon ne pouvait trouver place dans l'aurole du poète; les splendeurs de son midi n'ajoutaient rien aux feux de son aurore.” (Gautier, *L'Artiste*, 1er mai 1869, p. 167).

— cf. Des Essarts, *Portraits de Maîtres*, 1888 . . . p. 47.

4. Le D0, *Le Groupement Ternaire dans la Prose de V. Hugo Romancier*, thèse, Paris, Hachette, 1929, in 8; 408 p. . . Voir p. 10.

V. Hugo affirme, d'ailleurs, que : "Le poète ne doit pas écrire avec ce qui a été écrit, mais avec son âme et avec son cœur."<sup>1</sup>.

L'intensité des sentiments de Lamartine, la spontanéité de ses impulsions animent sa langue, et son style. Ils laissent ainsi transparaître sa verve et sa nature enthousiaste.

On a toujours reproché à Lamartine d'écrire d'abondance, de ne savoir contenir la profusion de ses impressions<sup>2</sup>. Mais ces prétendus défauts sont en étroite connexité avec le trop plein de son âme, avec l'énergie qui l'animaient et que les différents événements de sa vie illustrent. Il ne faut pas voir un procédé dans ce qui n'est que l'expression naturelle de son âme qu'il définit lui-même par ces mots : "un torrent qui descend des montagnes."

### I. La facilité :

Les cascades d'adjectifs, de verbes, d'expressions qui traduisent un nombre infini de nuances, les formes multiples qu'emprunte une même pensée, témoignent de sa facilité. Il déclare lui-même "Je chantais, mes amis, comme l'homme respire"<sup>3</sup>. Sainte-Beuve, en 1832, caractérise ce merveilleux don d'expression<sup>4</sup>. : "C'est une facilité dans l'abondance, une sorte de fraîcheur dans l'extase."<sup>5</sup>. En imitant, suivant son habitude, la langue et le style de l'auteur qu'il étudie, il écrit dans *Joseph Delorme* : "l'insouciance et la profusion qui donnent une allure si particulière aux périodes de notre poète, cette foule de participes présents, tour à tour quittés, et repris [...], ces énumérations sans fin qui passent flot à flot, ces *si*, ces *quand*, éternellement reproduits, qui rouvrent coup sur coup des sources imprévues, ces comparaisons

---

1. V. Hugo, *Préface des Odes et Ballades*, 1826. En 1846, il écrira : "Le style jaillit de tout l'écrivain [...] Le style est âme de sang; il provient de ce lieu profond de l'homme où l'organisme aime; le style est entrailles." (*Post-Scriptum de ma vie*, "Le Jubilé de Shakespeare.", avril 1864).

2. P. Loti voyait en Lamartine "un grand profil pompeux".

(P. Loti, *Prime Jeunesse*, Paris, s.d., in-18, 35<sup>e</sup> éd., p.19)

3. "Comme l'oiseau gémit, comme le vent soupire, Comme l'eau murmure, en coulant." (*Nouvelles Méditations : Le Poète Mourant* 1823).

4. Voir Laprade : p. 279, 280 et *La Revue Essais de Critique Idéaliste, des Deux Mondes*, 1<sup>er</sup>, avril 1940, p. 422 (par L. Bertrand)

5. dans *La Revue des Deux Mondes*, 1<sup>er</sup> Oct. 1832, p. 24; 25.

jailissantes qu'on voit à chaque instant éclore et se briser comme un rayon aux cimes des vagues; tout cela n'est-il donc rien pour caractériser une manière ?" <sup>1</sup>.

Mais cette facilité n'implique pas nécessairement un manque de fermeté dans l'expression. Lamartine sait donner à son inspiration cette puissance et cet élan qui lui permettent de soutenir une période de longue haleine.<sup>2</sup> C'est alors qu'il trouve, pour rendre sa pensée, des expressions solides que l'on peut comparer aux "coups d'aile"<sup>3</sup> d'un aigle. Son idéal n'est-il pas d'être "Bonaparte de la parole" ?<sup>4</sup>

A cette puissance, il joint une aptitude à tout dire poétiquement [...] une fascination d'image [...] qui éblouit et ravit à la fois" <sup>5</sup> — et même une certaine douceur car, pour lui, "rien n'est si doux que ce qui est fort"<sup>6</sup>.

Si l'on est séduit au début par la suavité et la grâce de cette facilité, on ne tarde pas à éprouver de l'ennui, car elle dégénère en monotonie.<sup>7</sup> Lamartine fatigue le lecteur par sa façon d'user et d'abuser de mots faciles, les premiers qui se présentent à son esprit, par l'indifférence et

---

1. Sainte-Beuve — *Pensée VIII*, Joseph Delorme p. 156. Deux pages plus loin, il ajoute : "que de charme... dans ce laisser-aller ! que de noblesse dans cet abandon et souvent à la fois quelle grâce suprême !"

2. cf. J. Lemaître : "Chanter comme on respire, cela est exquis; mais soutenir cet exercice comme il le fit, cela est fort" (*Les Contemporains*, p. 221).

cf. Gonnard, dans *La Quinzaine* du 1er juin 1903, p. 361 et l'Introduction à *Jocelyn* éd. Oxford, 1906, p. XXV où Legouis dit que Lamartine soulève le lecteur "avec cette douceur de la prise qui n'est possible qu'aux vigueurs extrêmes qu'on ne sent pas lorsqu'elles agissent."

3. Voir M. Levaillant : *Le Figaro* du 21 janv. 1926 et Ch. Alexandre *Souvenirs sur Lamartine*, p. 248.

5. dans le *Discours de l'Académie*, avril 1830.

4. A. Lacaussade, *Revue Contemporaine*, mai 1856, p. 505. A ce propos, il cite une *Pensée* de Joubert : "Quelle surprise de voir tout à coup des mots vulgaires devenus beaux, des mots usés rendus à leur fraîcheur première, des mots obscurs couverts de clartés. !"

6. *V. en O.*, I, 36. Cf. Pomairols, dans la *Revue Critique d'Histoire et de littérature*, nov. 1893, p. 386.

7. cf. Flaubert — *Correspondance III*, 361 (30 sept. 1853) : Lamartine est "ennuyeux" à cause de ses "longueurs".

le détachement avec lesquels il prodigue ces mots<sup>1</sup> d'où une impression d'indolence inévitable et qui ne tarde pas à paraître au lecteur comme inhérente à sa langue.

La critique du temps, même celle qui fut la plus favorable, n'a pas manqué de souligner ce défaut. *The Asiatic Journal* blâme cette langue gonflée, ce vocabulaire charnu et exagéré, ces circuits de mots qui surchargent la pensée et où le rameau fléchit sous l'abondance de feuillage<sup>2</sup>.

La "*Dublin Review*" de février 1840, relève dans le *V en O.* des passages, d'après elle, vides de sens, ou tout au moins manquant de clarté<sup>3</sup>. Gustave Planche estime que Lamartine "s'abuse étrangement s'il croit que le seul charme de sa parole enchaînera longtemps l'attention publique."<sup>4</sup>. C'est avec finesse et habileté que Nisard présente sa critique: "Si j'ose regretter que M. de Lamartine n'ait pas fait un livre de toutes ces notes si variées et si instructives, et un style de toutes ces parties de style, c'est surtout pour l'autorité qu'on peut tirer de son exemple en faveur d'une opinion que je crois fautive et qui a déjà fait avorter misérablement des talents que la réflexion aurait pu fortifier et amener à point : c'est à savoir que l'écrivain de notre époque est un improvisateur."<sup>5</sup>.

Léo Joubert affirme, sans détour, que le *V en O.* est une improvisation quelquefois magnifique, trop souvent verbeuse et négligée qui finit par fatiguer même un lecteur indulgent<sup>6</sup>.

---

1. Cf. ce que dit Mme de Lamartine à Montherot, en 1846, à propos des *Girandins* : "Il écrit d'abondance, abondance miraculeuse, mais qui aurait besoin d'être coordonnée. Les épithètes vont toujours au-delà de la pensée. Le public les prend au pied de la lettre." (cité par M. Guillemin, *Jacelyn*, 137).

2. *The Asiatic Journal*, août 1835, p. 170.

3. *The Dublin Review*, fév. 1840, p. 228. Parmi les exemples que donne cette Revue, citons celui-ci : "quelle que soit la religion que notre raison professe à l'âge de raison, la prière chrétienne sera toujours celle du genre humain."

4. G. Planche, *Nouveaux Portraits Littéraires*, I, p. 91.

5. Nisard, dans *La Revue de Paris*, avril 1835, p. 226. •

6. dans la *Nouvelle Biographie Générale* 1859; cf. Lacauzade, dans la *Revue Contemporaine*, mai 1856, p. 506-507.

Cf. Laprade *Op. Cit.*, p. 1291 : "Lamartine a toujours péché par surabondance (...) — ce débordement fatigue parce qu'il laisse l'âme vide tout en tenant le regard occupé, envahi, jusqu'à l'éblouissement".

Même Valentine de Lamartine avouait que "trop de fécondité nuit" à la gloire de son "grand oncle".

Les écrivains contemporains, de leur côté, lui ont reproché cette facilité avec plus ou moins d'âpreté. Chateaubriand, après sa première lecture des *Méditations*, commence sa critique par ces mots : "Trop d'abondance."<sup>2</sup>

Vigny, par ailleurs, accusera la tribune d'avoir rendu Lamartine "trop confiant dans sa trop facile improvisation".<sup>3</sup>

Quant à Musset, il trouve qu'il y a, dans Lamartine, "du génie, du talent, de la *facilité*"<sup>4</sup>.

Flaubert qui, par nature, ne pouvait pas comprendre Lamartine, donne libre cours à ses "humeurs" dans sa *Correspondance* et le charge de critiques injurieuses. Pour lui, Lamartine n'est pas une source, c' "est un robinet"<sup>5</sup>. Il va même jusqu'à prétendre qu'à cause de l'influence néfaste du "misérable langage"<sup>6</sup> de Lamartine, "tout se dissout maintenant, par le relâchement, par l'élément humide, par le bavardage, par le laitage ..." <sup>7</sup>.

1. La *Nouvelle Revue*, Janvier, 1905 : *Lamartine Inconnu*, par Valentine de Lamartine.

2. v. Marcellus, "*Chateaubriand et son temps*", p. 114, Paris, 1859, in-8°, XXII-506 p.

3. Lettre du 17 sept. 1839 au prince Maximilien-Joseph de Bavière, dans *Correspondance* d'A. de Vigny, publiée par Eva Sakellariés, p. 89.

4. "Avez-vous lu *Jocelyn*, l'abbé ? — Oui, Madame, il y a du génie, du talent, de la facilité." Musset, dans "*Il ne faut jurer de rien*". Acte I, sc. II, p. 319, 320 des *Oeuvres Complètes*, Paris, Lemerre, 1876, T. II. Ailleurs, Musset voit en lui un de

Ces pleurards, ces rêveurs à nacelles,

Ces amants de la nuit, des lacs, des cascades".

(*Un spectacle dans un fauteuil*, cité dans *Revue d'histoire littéraire de la France*, mars, 1937, p. 188).

Les auteurs de *A la manière de ..* le compareront à "une urne lacrymatoire" (P. Reboux et Ch. Muller. *A la manière de ..* Paris, 1910, in-18, p.49-55).

5. *Correspondance*, éd. Canard, 9 vol. (1926-1933) T. III, p. 343 (16 sept 1853). cf. *Corresp.* T. III, 159 — 6 avril 1853. Lamartine : "C'est un esprit cunouque .. il il n'a jamais p... que de l'eau claire."

6. *Correspondance* T. III, 333 - 2 sept. 1853.

7. *Correspondance* T. IV, 12 — 13 janv. 1854.

Aussi, met-il ses amis en garde contre la "manière" des lamartiniens<sup>1</sup> dont la poésie est une "grande source de fleurs blanches..."<sup>2</sup>, "une bavachure d'eau sucrée"<sup>3</sup>. Prenons garde de dépenser en petite monnaie nos pièces d'or."<sup>4</sup>.

Pourtant, Sainte-Beuve invite les critiques "à prendre les choses par le fond, à examiner "le moule intérieur" de la forme "au lieu de charger d'attaques cette source spontanée et généreuse : "Allez dire, écrit-il encore "à la Lamartine", à l'Eridan, roi des fleuves, qui coule par les campagnes et sous les grands horizons de Lombardie, à nappes épanchées, recevant ondées du ciel et ruisseaux tributaires, rapide et irrésistible à son milieu, comme incertain et avec des courants en tous sens vers les bords, y déposant et reprenant au hasard roseaux et branchages flottants... allez-lui dire qu'il a tort de s'épancher et de se jouer en telle licence..."<sup>5</sup>.

— Certes, l'image est belle. Mais, la production facile ne doit en rien prétendre à la gloire littéraire; celle-ci n'immortalise que le génie laborieux. Lamartine lui-même le reconnaît avec autant de modestie que de justesse : "J'ai trop écrit, trop parlé, trop agi pour avoir pu concentrer dans une seule oeuvre capitale et durable le peu de talent dont la nature m'avait peut-être doué [...]. Le temps m'a manqué pour une oeuvre parfaite parce que j'ai dilapidé le temps, ce capital du génie"<sup>6</sup>.

## 2. Le flou :

Son âme est travaillée "par des océans de choses vagues"<sup>7</sup>, selon ses propres paroles, par l'idée de l'infini<sup>8</sup>. Tout jeune, il écrit à Virieu,

---

1. Flaubert les appelle : "les couillons de l'école de Lamartine" *Corresp.* III, 174 : "... Tas de canailles sans vergogne ni entrailles." — 20 avril 1853.

2. *Correspondance*, III, 200 — 21 - 22 mai 1853.

3. *Ibid.* III, 174 — 20 avril 1853.

4. *Ibid.* éd. Conard, 1910, II, 447 — Janv. 1854.

5. Sainte-Beuve : *Joseph Delorme*, p. 156, 157 (il établit une comparaison entre Racine et Lamartine).

6. Lamartine, *Préface générale* de l'édition de ses *Oeuvres Complètes*, 1860 en 40 volumes. C'est ainsi que Vinet trouve que l'oeuvre de Lamartine "est une oeuvre manquée" *Op. cit.* T. II, p. 189.

7. Il y avait en moi des océans de choses vagues dont je ne savais ni la nature, ni le nom..." (*Souvenirs et Portraits*, 1872, T.I. p. 66).

8. Voir Zyromski, *Lamartine, poète lyrique*, thèse, Paris, A. Colin, 1896, in 8°, 340 p.— Voir p. 200.

le 30 novembre 1814, "Je ne sais quelles idées vagues et sublimes et infinies me passent au travers de la tête à chaque instant." Et nous retrouvons dans sa langue le souci de donner une expression à ces "idées vagues" et "infinies".

Aussi, ne se contente-t-il pas de voir, *il sent*, et sa sensibilité va bientôt être plus forte que son imagination.<sup>1</sup> "C'est avec l'âme, écrit Vinet, que Lamartine sent les moindres détails pittoresques, et c'est avec l'âme qu'il les exprime ou qu'il les figure."<sup>2</sup> S'il veut exprimer ce qui ne s'explique pas, c'est qu'il aspire également à toucher les coeurs car "dans la langue, dit-il, le pathétique est le sommet du génie"<sup>3</sup>. "On a dit que Lamartine, écrit Sainte-Beuve, s'adressait à l'âme encore plus qu'au coeur : cela est vrai si par âme on entend, en quelque sorte le coeur plus étendu et universalisé"<sup>4</sup>.

Il va donc tenter de saisir la substance profonde des êtres et des choses; "chaque pensée, écrit-il, a son reflet dans un objet visible qui la répète comme un écho."<sup>5</sup>

Aussi, excelle-t-il "à dégager l'idée poétique renfermée dans l'objet" et son vocabulaire subjectif, puisé dans son âme même, n'éveille pas la sensation de la chose vue, mais... fait naître le sentiment que cette chose devait exister."<sup>6</sup>

Cette tendance se manifeste surtout dans la description d'un paysage. Le regard de Lamartine et son imagination aiment à s'étendre très loin et très haut si bien que sa description semble révéler qu'il contemple

---

1. "Chateaubriand, dit Faguet, a renouvelé l'imagination française; Lamartine a renouvelé la sensibilité française" (*Le Gaulois* du Samedi 11 mai 1912.) Cf. également *Le Sémur* du 16 mars 1836, p. 82 : "On ne sait [si Lamartine] imagine avec l'âme [ou s'il] sent avec l'imagination."

2. A. Vient, *Essais sur La Littérature Française au XIX<sup>e</sup> siècle*, II, 174. cf. Lemaître, *Les Contemporains*, IV, 156.

3. cité par Pomairois, *Essai de Morale et d'Esthétique*, p. 139. D'après Ch. Alexandre, Lamartine<sup>6</sup> aurait dit, le 9 oct. 1850, qu'il était le premier à avoir introduit l'âme dans le paysage. (*Souvenirs sur Lamartine*, p. 248).

4. *Revue des Deux Mondes*, 1er. Oct. 1832, p. 17.

5. *V. en O.*, I, 34.

6. Petit de Julleville. T.VII, p. 246.

ce paysage à travers un voile ou d'après un souvenir.<sup>1</sup> Alors, son vocabulaire apparaît riche en termes exprimant l'immensité, la transparence, la grandeur.

Insensiblement, il s'incorpore lui-même à ce qu'il voit et arrive à entremêler lignes, formes, couleurs et manifestations intimes de son âme.<sup>2</sup> Il ne tarde pas à "planer" dans ces vagues régions où la pensée ne trouve plus de mots et son "langage ailé"<sup>3</sup> se dépouille de toute précision pour traduire l'inexprimable.

Dénuée de tout artifice, sa langue charme le lecteur par ce vague qui y ajoute une vibration douce et profonde<sup>4</sup>. Lamartine réussit ainsi à produire des effets d'une simplicité sublime<sup>5</sup> — et "à réaliser avec les mots les mieux appropriés cette musique intérieure dont son âme déborde."<sup>6</sup>

Ainsi, la critique de l'époque reconnaissait dans le *V. en O.*, "le langage du cœur"<sup>7</sup>. — et "le portrait le plus exact de l'âme du poète"<sup>8</sup> — Plus tard, en 1899, Petit de Julleville estimera que le *V. en O.*<sup>9</sup> "nous fait connaître Lamartine lui-même, beaucoup mieux que l'Orient."<sup>9</sup>

---

1. Voir *Revue des Cours et Conférences* du 15 fév. 1926 — article fort intéressant de J. Vianey, intitulé : "Les grands poètes de la nature", voir surtout p. 433-436. Cf. aussi la lettre de Lamartine à V. Hugo : "adoucissez votre palette, écrit Lamartine le 8 juin 1823: l'imagination, comme la lyre, doit caresser l'esprit; vous frappez trop fort..." cité par C. Daubray *V. Hugo et ses Correspondants*, p. 99, Paris, Albin Michel, 1947, in-8°, 353p.

2. Laprade, dans son étude sur "*Le sentiment de la nature...*" dit que Lamartine effleure d'un regard rêveur le monde de couleurs et de formes, dont il reproduit l'âme en particulier.

3. v. H. Gillot, *Figures Romantiques*, 1933, p. 7 et 16.

4. Vigny écrit à V. Hugo : "Lamartine a en général, dans tous ses ouvrages, une verve de cœur, une fécondité d'émotion qui la feront toujours adorer, parce qu'il est en rapport avec tous les cœurs." (cité par Biré, "*V. Hugo avant 1830*", p. 322).

5. cf. Sainte-Beuve, cité par J. Lemaitre dans *le Temps*, mardi 3 déc. 1912.

6. F. Strowski dans *Le Correspondant*, 25 août 1916, p. 610. ...

7. *La Revue Européenne*, mai 1835 par G. de la Noue.

8. *La France Catholique*, juillet 1835, par E. Falconnet.

9. Petit de Julleville, T. VII, p. 220.

Mais, on n'a pas omis de dénoncer son manque de précision dans la peinture d'un tableau; celui-ci finit par ressembler "à ces ébauches où le peintre, délibérant avec lui-même, n'ayant encore rien décidé d'une manière définitive, essaie tour à tour les lignes et les tons qui se présentent à sa pensée."<sup>1</sup> A force de planer dans des "régions éthérées", Lamartine fatigue le lecteur et "donne à l'esprit ce torticolis que l'on prend à suivre longtemps des yeux un oiseau qui planerait toujours dans le ciel."<sup>2</sup> Ce vocabulaire vague, flottant, qui prétend suggérer plutôt que décrire, ne tarde pas à ennuyer le lecteur. Dargaud écrit à Michelet, le 15 février 1834<sup>3</sup>. "Ne disent-ils pas à Chateaubriand d'être moins éblouissant, à Lamartine d'être moins monotone ?"<sup>4</sup>.

Et Si Sainte-Beuve tolère le vague dans l'expression des sentiments, il ne l'admet plus dans la peinture du paysage<sup>5</sup>. Mais, Lamartine n' était pas entièrement incapable de précision. Il pouvait être, de temps en temps, "hardi et cru", selon un goût fort à la mode à l' époque. Cet effort ne saurait durer longtemps. D'ailleurs, "quand il veut frapper très fort, il frappe souvent à côté; il multiplie les

1. Gustave Planche; sa critique du *V. en O.* a paru dans *La Revue des Deux Mondes* du 1er mai 1835 puis, en 1854, dans *Nouveaux Portraits Littéraires*. Il ajoute: "On dirait que M. de Lamartine tient à nous prouver qu'il possède une palette opulente, et ne veut pas prendre la peine de peindre". Ici, il parle de *Raphaël*.

2. Etienne Eggs, dans *l'Artiste* du 8 juin 1856, p. 219.

3. cité par J. - M. Carré dans *La Revue des Deux Mondes* du 1er sept. 1926.

4. C'est à cause de cette monotonie que L. Blanc, exaspéré, ne voit dans le *V. en O.* que "de pieux élançements après des descriptions; des descriptions après de pieux élançements; voilà tout le livre de M. de Lamartine." *La Nouvelle Minerve*, T.I, 12 avril 1835, p. 397.

*The American Quarterly Review* de déc. 1835, dénonce également "la monotonie et la lenteur de l'ouvrage. (v. p. 274).

5. "quand Lamartine, exprimant ce qu'il y a de plus rêveur et de plus inexplicable en l'âme humaine, se serait souvent passé avec bonheur d'une force précise et sévère, en pourrait-on sérieusement conclure qu'il est, à plus forte raison, inutile de s'y asservir dans l'expression de sentiments moins fugitifs, dans la peinture d'un monde moins métaphysique et d'une vie plus réelle? [...] Conclusion étrange en vérité! Disons tout le contraire: c'est précisément à mesure que la poésie se rapproche davantage de la vie réelle et des choses d'ici-bas, qu'elle doit se surveiller avec plus de rigueur [...] contre le prosaïque et le trivial." (Sainte-Beuve: *J. Delorme*, p. 159).

terme*s* impropres."<sup>2</sup> Devant un paysage qui l'enchant*e*, ses impressions affluent si abondantes, si impérieuses qu'elles accaparent sa plume. Le paysage se fond en son âme, s'y imprègne d'exaltation, de poésie, de vague. Lamartine ne s'exprime en toute objectivité que devant le paysage qui n'éveille rien en lui, ou qui ne trouve aucun écho dans son âme.<sup>2</sup>

En outre, "la science du langage lui faisait défaut dans cet effort qui ne lui était pas naturel."<sup>3</sup> Et comment "exprimer l'inexprimable" avec une connaissance insuffisante de la langue ? Il est donc amené, la plupart du temps, à soumettre la langue et surtout la syntaxe à une pensée qui se cherche elle-même. Il faut reconnaître que sa langue et son style s'en ressentent et même en souffrent parfois. C'est ainsi que Daniélo juge "vaporeux" le style de Lamartine.<sup>4</sup>

Plus tard, Jules Lemaitre lui reprochera "des phrases indéfinies, et dont les contours flottent et ondulent; pas d'arêtes, pas d'antithèses; une syntaxe molle, fluide, à peine correcte si l'on y regarde de près; la plus élémentaire juxtaposition de détails; tout au même plan; un afflux de sensations à peine ordonnées..."<sup>5</sup>

Lamartine, lui-même, avait-il conscience de ce qui manquait à son style ? Son secrétaire, Charles Alexandre, nous apprend que "Lamartine sent que sa prose a besoin d'être contenue. [...] Il le dit lui-même : *mon style n'est pas assez gravé.*"<sup>6</sup> A Legouvé, qui aurait demandé à Lamartine : "Pourquoi je sais encore les vers de la Fontaine et je ne sais plus les vôtres ?" Lamartine aurait répondu : "La Fontaine écrit avec une plume et même avec un burin, moi avec un

1. Petit de Julleville *Histoire de la Langue et de la Littérature Française*, (1899), T. VII, p. 246.

2. "La douleur, écrit-il, me crispe et me rend stérile, le bonheur me féconde et m'invite à me répandre en reconnaissance et en cantiques" (cité par Valentine de Lamartine, dans *la Nouvelle Revue*, Janvier 1905).

3. Petit de Julleville, *Histoire de la Langue et de la Littérature Française* (1899), T. VII, p. 246.

4. Daniélo, *Le Chroniqueur de la Jeunesse*, janv. 1835, p. 186.

5. Lemaitre, *Les Contemporains*, 6<sup>e</sup> série, p. 179.

6. Ch. Alexandre, *Souvenirs sur Lamartine*, p. 4 et 37.

## نثر الشعراء

هناك فكرة سائدة في أذهان الكثيرين وخاصة بين رجال النقد الأدبي في فرنسا ، أنه ليس في مقدور الشاعر الأصيل أن يكتب نثراً جميلاً . ويزعم هؤلاء النقاد أن الازدهار الطبيعي لعبقريّة الشاعر ولإلهام الشعر ، لا يوافق تفتح الصفات الرئيسية التي يتطلبها النثر ، مثل الدقة والإيجاز والتركيز . لذا فقد جرى العرف بين النقاد أن يتحفظوا إلى حد كبير من نثر تلك الفئة من الأدباء الذين يطلقون عليهم في شيء من المهكم لقب « الشعراء النثرين » !

غير أننا نرى أنه لا يوجد ما يبرر قيام هذه الفكرة ، بل يبدو لنا أنه من المغالاة أن ننكر جمال كتاب منثور لا لسبب سوى أن مؤلفه شاعر . ففي الأدب العربي مثلاً قدم لنا شوقي إلى جانب شعره الخالد مؤلفات من النثر الشعري لا تقل جمالاً عن دواوينه .

وأن كان كبار شعراء فرنسا في القرن السابع عشر ، أمثال « كورني » و« رامسين » لم يؤلفوا نثراً مطلقاً ، إلا أن بعض الشعراء اللامعين في القرن التاسع عشر ، مثل « لامارتين » و« فيكتور هوجو » قد تركوا لنا نثراً جميلاً تناسب فيه جميع الصفات الأصيلّة التي هي مصدر السحر الخالد في أشعارهم .

وإننا نحاول في هذا المقال أن نبين كيف أن شخصية شاعر مثل « لامارتين » ، بكل ماله من صفات فريدة وضعت في مقدمة شعراء العصر الرومانتيكي ، تتجلى فيها ألف من نثر وقصص ، بل أن ما يؤخذ على شعره من هنات ينعكس على نثره أيضاً .

لطفى فاسم

---

## ANTONY VERSUS BRUTUS

By

AZZA KARARAH

It is hard to break with a convention that has been generally recognized over a number of years. It is therefore, with some diffidence that I venture to present the characters of Brutus and Antony as they appear in Shakespeare's "Julius Caesar", in a different light from that hitherto accepted.

The character of Antony, in "Julius Caesar" has been misjudged by successive generations of critics, and even those who have tried to do him justice, have done so hesitatingly. Granville Barker's estimation may serve to illustrate the confused understanding of Antony's character. He calls him, "the complex Antony, impulsive and calculating, warm-hearted and callous, aristocrat, sportsman and demagogue."<sup>1</sup> To another critic<sup>2</sup> Antony is "unscrupulous in his methods and a voluptuary in his life". A third critic thinks that he has "concentrated his whole nature in one aim . . . unmitigated self-seeking."<sup>3</sup> More recently we hear the opinion that Antony's triumph is one of evil rather than good and that this is made implicit "by Antony's own immorality, his ruthless manipulation of the mob for personal revenge at the expense of Rome."<sup>4</sup>

To another group of critics, Antony appears in a more genial light. He is an "order force" and a "love force" to G. Wilson Knight,<sup>5</sup> and T.S.Dorsch states: "No more than any other of the major persons in the play has Antony a wholly attractive and sympathetic personality, but for

---

1. Harley Granville Barker, Prefaces to Shakespeare. First Series 1953 p. 75.

2. MacCallum. Shakespeare's Roman plays pp. 289-90.

3. Moulton, Shakespeare as a Dramatic Artist p. 182.

4. Irving Ribner, Patterns in Shakesperian tragedy 1960 p. 59.

5. G. Wilson Knight. The Imperial Theme, p. 66 ff.

once crowned,<sup>1</sup> this "might" change his nature and he "may" become dangerous. Caesar "may" once he "attains the utmost round" of the ladder scorn "the base degrees by which he did ascend". But all this is mere surmise for "to speak truth of Caesar" Brutus has "not known when his affections sway'd more than his reason". In that case why kill Caesar at all "since the quarrel will bear no colour for the thing he is"? At this stage of the soliloquy, with no external means to bear pressure on him, Brutus' better nature may still have won the day and his "honourable mettle" would not have been "wrought from that it is disposed".<sup>2</sup>

But Cassius, the shrewd observer, who "looks quite through the deeds of men",<sup>3</sup> knows his Brutus, he knows that he is not "so firm" and that he can easily be "seduc'd"; Brutus may be noble and honourable but he lacks strength of character<sup>4</sup> and by flattering his vanity, Cassius achieves his end. The letter that Brutus receives in the orchard is one of the "writings" in "several hands" that Cassius concocts "all tending

---

1. c. f. Coleridge's *Essays and Lectures on Shakespeare* etc. In notes on Julius Caesar, he states: "Nothing can seem more discordant with our historical pre-conception of Brutus, or more lowering to the intellect of the Stoico-Platonic tyrannicide, than the tenets here attributed to him — to him, the stern Roman republican; namely, — that he would have no objection to a king, or to Caesar, a monarch in Rome, would Caesar but be as good a monarch as he now seems disposed to be! How, too, could Brutus say that he found no personal cause — none in Caesar's past conduct as a man? Had he not passed the Rubicon? Had he not entered Rome as a conqueror? Had he not placed his Gauls in the Senate? — Shakespeare, it may be said, has not brought these things forwards — True; — and this is just the ground of my perplexity. What character did Shakespeare mean his Brutus to be?" With this question Coleridge raised a problem, is Brutus a Roman or is he an English nobleman of the reign of Elizabeth? To my mind there is no doubt at all that the characters in "Julius Caesar" are more Elizabethan than Roman, just as the atmosphere of the play is that of 16th century England.

2. I ii 306.

3. I ii 200.

4. One can note that, in Cassius' words:  
 Caesar doth bear me hard; but he loves Brutus  
 If I were Brutus now, and he were Cassius  
 He should not humour me. (I ii 310-312)

to the great opinion that Rome holds of his name."<sup>1</sup> Brutus' vanity is flattered for did not his ancestors

from the streets of Rome.

The Tarquin drive, when he was call'd a king."<sup>2</sup>

And Marcus Brutus must follow the tradition set by his ancestors. He is compelled to an action that he disapproves of in order not to appear less great than his forefathers.<sup>3</sup> As a result the State is plunged into misery and he himself forfeits his normal condition of man and is never more at rest.<sup>4</sup> Even after death he shares with Cassius and Judas the fourth and last round of the ninth circle in Dante's *Inferno*, the place reserved for those who have betrayed their benefactors and are wholly covered with ice.<sup>5</sup> I wonder if this image was in Shakespeare's mind when he made the conspirators partake wine with Caesar before the assassination, and to Caesar's remark :

And we, like friends, will straightway go together,

Brutus adds the aside,

That every like is not the same, o Caesar !

The heart of Brutus earns to think upon.<sup>6</sup>

Did Shakespeare present this scene in order to stress the Judas-like quality in Brutus and Cassius ?

It is Brutus and not Caesar who is suffering from the tragic flaw of

---

1. I ii. 315.

2. II i. 52.

3. There was a Brutus once that would have brook'd  
Th' eternal devil to Keep his state in Rome  
As easily as a king. I ii. 157-9.

4. c. f. Elizabethan World Picture for correspondence between microcosm and macrocosm.

5. "That upper spirit,  
Who hath worst punishment," so spake my guide,  
"Is Judas, he that hath his head within  
And plies the feet without. Of th' other two,  
Whose heads are under, from the murky jaw  
Who hangs, is Brutus : lo ! how he doth writhe  
And speaks not. The other, Cassius, that appears  
So large of limb".

Translated by Henry Francis Cary. Canto XXXIV, 1.56-63.

6. II ii 127-9

hubris. In order to appear as mighty as his forefathers he is faithless to his friend and disloyal to his king.<sup>1</sup>

---

1. Irving Ribner in, *Patterns in Shakespearean Tragedy* p. 54 says : "It is wrong to regard 'Julius Caesar' as a play about a king who is murdered by rebellious citizens. It is a play about a great general who aspires to be a king and who is murdered on the eve of his success." He goes on to say that there were several views that came down to the Renaissance with regard to Caesar. "One view, to be found in many Elizabethan tracts in defence of monarchy, saw him as a great hero designated by God to establish monarchy in a corrupt society, only to be struck down by rebels who brought ruin to their country and damnation to their souls. On the other hand, stemming from Plutarch and repeated by a long line of Renaissance writers, is the view of Caesar as a great hero who became so puffed up with pride and ambition that he destroyed the most noble edifice ever created by man, the Roman republic." Ribner furthermore quotes T. J. B. Spencer, *Shakespeare and the Elizabethan Romans*, *Shakespeare Survey* 10 (Cambridge 1957), pp. 37-38 to show that Caesar was a subject for wide discussion in Shakespeare's England, and that there were many conflicting views. There is no one view which we can call the typically Elizabethan one.

I suggest that although Shakespeare may have known these conflicting views yet his own conception of Caesar in the play, is that of an absolute monarch in the way that the Tudor kings were absolute kings. How could Shakespeare ever conceive the idea of "the most noble edifice ever created by man, the Roman republic" To him it could mean nothing more than just a name. But what he really could understand and feel, was the idea of the disorder created by the murder of the lawful monarch. Besides "Julius Caesar" was written after the completion of *Henry V*, the last of the tetralogy of English historical plays beginning with *Richard II*, which all dealt with the one theme of kingship. This leads us to the thought that Shakespeare, carried on this theme into his first play on Roman history.

As regards the play itself, it is obvious throughout, that to Shakespeare, Caesar held in all but name the position of absolute monarch, witness the imagery in connection with Caesar. He is a "Colossus", "immortal", a wolf, a "lion", he and danger "are two lions littered in one day" and he is as "constant as the northern star", "When beggars die", says Calphurnia "there are no comets seen; The heavens themselves blaze forth the death of princes". And that is exactly what happened before the assassination of Caesar, the earth shook "like a thing unfirm" and the heavens seemed to be undergoing a "civil strife". The night was so fearful, that it made Cassa say

When these prodigies  
Do so conjointly meet, let no man say  
These are their reasons, they are natural;  
For I believe, they are portentous things  
Unto the climate that they point upon.

And after his death, Antony's prophecy came true as is shown in Act III Scene iii, the most horrible scene in the whole play, even more horrifying in its utter=

Contrasted with this unstable, disturbing character of Brutus, it is with a sense of relief that we come to Antony. Antony in "Julius Caesar" represents the norm by which we are to judge. He is stable, consistent and a man of honour. His most characteristic trait throughout the play is "ingrafted love" for his friend and unswerving loyalty to Caesar.

Although Antony appears only very briefly in the first two acts of the play, yet what we see and hear of him is in no wise detractory to his character. That he has a "quick spirit", "revels long a nights" and "loves", plays does not necessarily mean that he is "unscrupulous and a voluptuary".<sup>1</sup> Dorrich suggests that "perhaps the 'conventional' estimate of Antony owes something to the way in which he is presented in "Antony and Cleopatra".<sup>2</sup> From the psychological point of view, this is probably correct and accounts for many qualities that are attributed to Antony and which do not actually appear in "Julius Caesar". The Antony we are dealing with has nothing to do with the Antony in "Antony and Cleopatra" and a fusion of the two should not exist.

We first meet Antony at the Lupercalia. He is one of the runners in this "holy chase" and Caesar asks him not to forget to touch Calphurnia while he is running his course. Antony answers :

When Caesar says : "Do this," it is perform'd. (II i 10)

Caesar has only got to express a wish and Antony is quick to comply. He is the perfect "limb" obeying the wishes of the "head". A further instance of the intimacy that bound Antony to Caesar can be perceived

---

<sup>1</sup> - senselessness than the murder of Caesar himself. The scene where Cinna the poet is mistaken by the mob for Cinna the conspirator and is brutally torn to pieces.

Surely this implies that Shakespeare looked on Caesar as a lawful monarch at whose death "discord follows".

Ribner states that "in no place does Shakespeare call Caesar king!" He may not have used that word, but he does call him "mighty" and "royal" (II i 127) as for his voice, it the voice of "a monarch" (III i 272)

There is no doubt about it, that to Shakespeare, Caesar stood for the lawful king. That he had not been crowned was one of those remote historical facts that did not really mean much to Shakespeare.

1. MacCallum
2. Introduction to Arden edition of "Julius Caesar" Note 3 p. 1.

in the scene when Caesar expresses his mistrust of Cassius. Antony's so called "wrong estimation" of the character of Cassius should not be taken literally. It is only natural that under the circumstances Antony should wish to pacify Caesar who had just had a fainting fit. In reply to Caesar's worried :

such men are dangerous

Antony replies :

Fear him not, Caesar, he's not dangerous

He is a noble Roman, and well given. (I ii 192-194)

Caesar of course, realizes what Antony is trying to do and assures him that he is merely telling him "what is to be fear'd" not what he himself fears "for always I am Caesar". Caesar knows that Antony is too intelligent and too shrewd a politician to speak disparagingly, in public, of one of the important members of the Senate. He therefore tells him to

Come on my right hand, for this ear is deaf

And tell me truly what thou think'st of him.<sup>1</sup>

This brief interlude, shows how close Antony was to Caesar and no wonder, for he was not merely his friend and staunch supporter<sup>2</sup>, but also his nephew, son of his sister Julia. When Calphurnia, full of foreboding at the unnatural occurrences that had happened that night, begs Caesar to remain at home, the first name that comes to her mind to carry a message to the Senate House, is that of Antony

We'll send Mark Antony to the Senate House

And he shall say you are not well to-day

And Caesar agrees

Mark Antony shall say I am not well<sup>3</sup>

1. It is surprising that editors have taken these words in their literal sense in spite of the fact that no where, not even in Plutarch is there any mention of Caesar's deafness. I suggest that here, Caesar, jokingly says "I know quite well that you think differently, this left ear has not heard this false opinion of yours. Come, tell me now in secret, what your real opinion is."

2. It was Antony who offered Caesar the crown. Plutarch also mentions several incidents demonstrating his loyalty to Caesar.

3.

And for thy humour I will stay at home!<sup>1</sup> (II ii 52-56)

But he does not stay at home, and the fears of Calphurnia are justified. The soothsayer's words prove true and the strange,unnatural disturbances of the night were not mere "predictions to the world in general" (II ii 29) for as Calphurnia remarked :

When beggars die, there are no comets seen;

The heavens themselves blaze forth the death of princes.  
(II ii 30-31).

When next we meet Antony, he is a man with but one aim which he relentlessly pursues, to avenge the murder of Caesar. I cannot see any "unmitigated self seeking" in his approaching the conspirators at the moment of their triumph with their swords still red with Caesar's blood. He knew that his life was in the balance and to save his neck, he could have escaped the city. But Antony scorns to perform such a cowardly action and chooses to face the conspirators and to work out a means of revenge. But he is not rash and impulsive and does not appear himself at first, but sends his servant with a message addressed to Brutus. He selects Brutus, because he realizes that he is different from the rest of the conspirators who "did that they did in envy of great Caesar". Brutus, because of his well known love for Caesar, would surely have mixed feelings at this hour of triumph. The rest of the conspirators may rejoice after the success of their plan but Brutus will always hear the voice of Caesar ringing in his ears : 'Et tu Brute,' and the need to justify his action and himself, will be strong in him. All that Antony desires now, is to be

resolv'd

How Caesar hath deserv'd to lie in death (III i 132)

The message he sends through his servant is simple, clear and straightforward. If Brutus can give valid reasons to justify Caesar's murder, then Antony will follow him. Brutus promises not to harm Antony and to satisfy him with regard to Caesar. Antony then appears on the scene. He has eyes for no one. His glance is immediately rivetted to the dead body at the base of Pompey's pillar. The murderers standing around do not seem to exist for him. He does not even answer Brutus' greeting, but looking down on Caesar, bids him a tender farewell. It

---

1. Among the conspirators, Brutus is the only one to be visited by Caesar's ghost.

is only then that he turns to the conspirators and in solemn tones requests to know his fate at their hands. Brutus, it is true, had promised to let him depart untouched. He had sworn that on his "honour", but how far can Antony trust that "honour" ? Antony does not mince his words in addressing Caesar's murderers, he tells them to their faces their swords are

made rich

With the most noble of all this world (III i 155)

These swords were not instruments of valour and honour, for they had been used by hands that lacked honour and valour and could only strike from behind while their masters

fawn'd like hounds,

And bow'd like bondmen, kissing Caesar's feet. (V i 41-42)

The only worth of these swords is that they are now smeared with Caesar's most precious blood. With these now "honourable" swords and by hands that still reek and smoke with Caesar's blood does Antony wish to die if to kill him is their intention. Antony knows full well the danger he is in and he knows that he needs to have all his wits about him, not only in order to save his own skin, but also to fulfil the promise he had made to himself, to avenge Caesar's death. One false move on his part, and all may be lost. He must neither appear as a coward or a flatterer and at the same time, he must try to intimidate Brutus in order to make him concede to his wishes. Antony is in a very critical and difficult situation, but the clever and at the same time honourable way he handles the situation and is master of it, deserves our greatest admiration,

His very first address to the conspirators makes Brutus cringe and all the glory of success falls from him like a worn out garment. At the hour which should have been the hour of his triumph, Brutus appears weak and apologetic, "O Antony," he says "beg not your death of us"

Though now we must appear bloody and cruel  
As by our hands and this our present act  
You see we do, yet see you hut our hands  
And this the bleeding business they have done  
Our hearts you see not; they are pitiful;  
And pity to the general wrong of Rome-  
As fire drives out fire, so pity -  
Hath done this deed on Caesar. (III i 164-172)

It is not really Brutus who has done such a heinous deed, it is Brutus' hands and Brutus' pity. In fact as he had said before, death to Caesar was a benefit for it had "abridg'd his time of fearing death".<sup>1</sup> Thus in fact his murderers are his true friends. To Antony's request that he wishes to die by the side of Caesar, Brutus answers,

To you our swords have leaden points, Mark Antony :  
Our arms in strength of malice, and our hearts  
Of brothers' temper, do receive you in  
With all kind love, good thoughts, and reverence. (III i 173-6)

And Cassius is quick to add a further temptation to lure Antony to be one of them

Your voice shall be as strong as any man's  
In the disposing of new dignities. (III i 177-178)

Had Antony been as "self-seeking" as critics have made him out to be, or had he been a mere "opportunist",<sup>2</sup> then this would surely have been his chance to take sides with Brutus and his friends, and to become one of them. But Antony has only one aim towards which he is striving with all his power, to avenge Caesar's death and to put to rout "these butchers".<sup>3</sup> If he is "meek and gentle," it is only in order to gain something important from them, the permission to speak to the people, the populares, who were Caesar's party. That, it seems to me was in Antony's mind when he begged leave to speak with the conspirators and when he shook hands with them. He shook each one of them by the hand, stressing the fact that their hands are "bloody". And so, it was not their hands that he touched but rather Caesar's precious blood.

Knowing that this action of his may be misconstrued<sup>4</sup> he hastens to re-affirm his love for Caesar

That I did love thee, Caesar, O, tis true !  
and he adds,

If then thy spirit look upon us now,  
Shall it not grieve thee dearer than thy death,

---

1. III i 103-104.

2. H. Granville Barker, Prefaces to Shakespeare p. 77.

3. III i 253

4. c.f. Granville Barker, Prefaces to Shakespeare p. 72.

To see thy Antony making his peace,  
Shaking the bloody fingers of thy foes,  
Most noble in the presence of thy corse ?  
Had I as many eyes as thou hast wounds,  
Weeping as fast as they stream forth thy blood,  
It would become me better than to close  
In terms of friendship with thine enemies  
Pardon me, Julius ! (III i 194 — 199)

Brutus, standing by, hears this and says nothing. He feels the spirit of Caesar "grieving", not because of Antony, for Antony is not really one of them, no, if the spirit of Caesar were to look down upon them, it would grieve mainly because of him, Brutus who was "Caesar's Angel".<sup>1</sup> The words that Antony will later on say may be said to be present at that moment in the mind of Brutus :

This was the most unkindest cut of all;  
For when the noble Caesar saw him stab,  
Ingratitude, more strong than traitors' arms,  
Quite vanquish'd him; then burst his mighty heart. (III ii 185-8)

Caesar's spirit, evoked by Antony will never more leave Brutus in peace.

Cassius, who unlike Brutus is not suffering from a guilty conscience, stops Antony's speech, and though not daring to blame him for praising Caesar, yet wishes to know

What compact mean you to have with us ?  
Will you be prickd in number of our friends,  
Or shall we on, and not depend on you ? (III i 215-217)

This clearly shows that to Cassius, Antony's handshake did not really express friendship. It is only the sign of a truce between them; Antony is "friends" with them all and "loves" them all but on one condition

Upon this hope, that you shall give me reasons  
Why, and wherein, Caesar was dangerous. (III i 221-222)

---

1. III ii 183.

Antony is no hypocrite, he does not dissemble and pretend to be their friend. His friendship can only be gained when he is convinced of the necessity for the murder of Caesar, and this, we can tell from reading between the lines, will never be. Brutus assures Antony that their

reasons are so full of good regard  
That were you, Antony, the son of Caesar,  
You should be satisfied. (III i 224-226)

Implying that they all realize that Antony is not one of them.<sup>1</sup> On the contrary he stands opposed to them for he wishes to appear in the market place bearing Caesar's body and speaking "in the order of his funeral"<sup>2</sup> Brutus cannot refuse him this request and in spite of Cassius' warning, grants it. From the psychological point of view, this scene is superb and the characters Shakespeare creates are in Goethe's words "like watches with dial-plates of transparent crystal; they show you the hour like others, and the inward mechanism also is visible."<sup>3</sup>

Brutus cannot refuse Antony's petition. He has to appear magnanimous in order to emphasize the justice of the claim that Caesar was murdered for the good of Rome and in order to quell his own feelings that persist in tormenting him for the treacherous and dishonourable action he has done. He had acted in a similar way before when Cassius had urged that Antony should fall with Caesar. Brutus had refused to listen to him for fear that their "course will seem too bloody"

To cut the head off and then hack the limbs,  
Like wrath in death and envy afterwards;  
For Antony is but a limb of Caesar. (II i 162-165)

He wishes to persuade himself and others, that when he killed Caesar, he was a "sacrificer". How can he therefore, refuse Antony the wish

---

1. Note Brutus' words : You shall not in your funeral speech blame us (III i 245).

2. III i 230.

3. As quoted by Carlyle in "The hero as a poet" p. 105; On Heroes and hero-worship, ed. World's Classics 1906.

to perform the necessary rites for the dead body of Caesar ! If he withhold his consent, will that not seem like "envy" after death ?

Cassius is afraid. He considers Antony their enemy and in addition he fears that he may prove a "shrewd contriver" who will do anything for the "ingrafted love he bears to Caesar."<sup>1</sup> But Brutus waves his fears aside and pompously states that he will first address the people and then allow Antony to speak. Even he, mistrusts Antony for he warns him not to blame them in his speech and to concentrate only on praising Caesar.

Antony has acted honourably throughout the scene. It is obvious all along to whom he owes allegiance. He openly shows his love for Caesar and does not act hypocritically as Brutus did when he emulated the Roman actors,<sup>2</sup> and hid his purpose behind "smiles and affability".<sup>3</sup>

After the departure of the murderers, Antony again begs Caesar to pardon him for being "meek] and and gentle with these butchers".<sup>4</sup> Cassandra-like, he prophesies war and chaos. According to Elizabethan dramatic conventions, a character always expressed his true sentiments in a soliloquy and Antony's is a revelation of all his genuine thoughts. There is nothing in his mind but loyalty to Caesar whom he calls "the noblest man that ever lived in the tide of time",<sup>5</sup> and hatred towards his murderers.

Woe to the hand that shed this costly blood ! (III i 258)

and Antony prophesies

Domestic fury and fierce civil strife (III i 263)

This must happen ere peace can be again restored to Italy. Blood must flow in order to wash away the guilt of this "foul deed".

Antony's oration has been called a "triumph of histrionics".<sup>6</sup> Surely it is more than just that. Antony is firmly convinced of the justice of his cause and his speech is therefore convincing. He uses every means at his disposal to make it so and his success is phenomenal.

1. II i 158; 184.

2. II i 226

3. II i 82.

4. III i 255.

5. III i 256-7

6. c.f. Granville Barker p. 75.

His task was very difficult as he spoke after Brutus had prejudiced the people against Caesar. All he did was to remind the people of Caesar's greatness and to give them proof of Caesar's charitable disposition. In the words of Wilson Knight "His personal and national goodness are here entwined: to Antony, Caesar is Rome's lover. Caesar hath 'wept' for the the poor of Rome, his captives' ransoms filled Rome's general coffers."<sup>1</sup> How is it possible then, that his death be for the good of Rome as Brutus claims! We know from Plutarch that Antony is a good orator, but it is not only good oratory that wins over the people of Rome, it is mainly Antony's sincerity and he certainly is sincere in his love for Caesar and in desiring to avenge his death.

I fully concur with Dorsch when he says that "there is nothing in the speech to suggest that Antony is seeking anything for himself; everything has been directed towards two ends, the extinction of Caesar's murderers, and the re-establishment of Caesar's name and fame. For himself he has only gained a long period of warfare and peril"<sup>2</sup> Antony, till the end of the play is steadfast in his aim of avenging Caesar's death and in proving that the "limb of Caesar", "Caesar's arm" can do a great deal in spite of the fact that "Caesar's head is off".<sup>3</sup> He prides himself on doing so openly and not treacherously like the "honourable" Brutus who flattered Caesar in order to strike.

In your bad strokes, Brutus, you give good words;  
Witness the hole you made in Caesar's heart,  
Crying "long live! hail, Caesar!" (V i 30 - 32)

The murder of Caesar has brought about a great change in the character of Brutus, and it is Portia, his wife who first notices that. It is Portia also, the honourable daughter of Cato, who could not bear the ignominy of her husband's action and therefore took her own life in the most horrible way possible. If Brutus' aim had been as noble as he had pretended, surely his wife would then have been convinced by his arguments and would have lived on to defend his honour against detractors.

- 
1. c.f. *The Imperial Theme* p. 67.
  2. Introduction to Arden edition 1955, p. liv.
  3. II i 163, 182-3.

That Shakespeare is able to make us sympathise with Brutus even though he acts dishonourably, is as L.C. Knights puts it, "one of the signs of a great writer that he can afford to evoke sympathy or even admiration for what, in his final judgment, is discarded or condemned".<sup>1</sup> Even Cassius who has been called an "egoist",<sup>2</sup> and whom Coleridge considered the one solitary exception among Shakespeare's characters in whom envy is portrayed,<sup>3</sup> even in him "the vice is not hateful in as much as it is counterbalanced by a number of excellent qualities and virtues".<sup>4</sup> He certainly has all our sympathy in the ridiculous quarrel he has with Brutus.<sup>5</sup> None of the characters in "Julius Caesar" appears wholly good or wholly bad. Thus Antony may not appeal to our modern sensibility in Act IV scene i. The proscription scene looks ugly to our eyes,<sup>6</sup> and we dislike the way he proposes to appropriate some of the money bequeathed in Caesar's will.<sup>7</sup> Likewise his contemptuous words about Lepidus do not please us. But Antony, we must remember, is engaged at that time in a war and war does not approve of false sentimentality. He regains our admiration though, when the war is over and he shows a praiseworthy magnanimity over the dead body of Brutus.

As I mentioned before, it is not easy to alter an established convention, but I do think that Brutus should be taken off his pedestal and that Antony should be given his due.

-----

1. *Scrutiny* Vol. XVI No. 4 1949 p. 322.
2. c.f. Granville Barker p. 77.
3. 7th Lecture, *Essays and Lectures on Shakespeare etc.* p. 434.
4. *Ibid.*
5. IV ii.
6. c.f. Dorsch p. 11 who excuses Antony's conduct by saying that it is Lepidus who starts the bargaining and Antony shows that he will not be swayed by family ties if Lepidus insists that Publius is a danger to the cause of the Triumvirs.
7. *Ibid.* "His proposal appears to have the full concurrence of his colleagues, and there is no suggestion that he is to gain personally from the affair".

## A PROPOS DES PORTRAITS DE MOMIES DITS DU FAYOUM

Par

HILDE ZALOSCFR

Des portraits de momies, peints à l'encastique, étaient connus par les premiers historiens d'art — si on peut les appeler ainsi — et déjà Winckelmann, au XVIII<sup>ème</sup> siècle, en parle. Une douzaine de ces portraits étaient en effet dispersés parmi quelques Musées européens, apportés par les voyageurs à la découverte de l'Orient. A part le fait qu'on y voyait les seuls vestiges de la peinture grecque, ils suscitèrent un intérêt assez médiocre et, faute d'autres indications, on se concentra sur l'unique problème de leur technique. La plupart des travaux publiés au cours du XIX<sup>ème</sup> siècle s'occupent en premier lieu de ce procédé, disparu en Occident: la peinture à la cire; d'autant plus qu'un texte de Pline conserve une description détaillée à la fois du procédé, de ses moyens et de son histoire<sup>1</sup>). Un texte ancien est toujours sujet à interprétation, et les archéologues — car, étrangement, ce sont surtout des archéologues et non des historiens d'art qui s'intéressèrent aux portraits de momies — avec leurs différentes manières de comprendre le texte, publièrent de longues et souvent bien futiles controverses: savoir si oui ou non la cire était étendue à chaud — oubliant que le climat en Egypte rend la cire malléable — si oui ou non une "causis" finale avait lieu, quelle était la forme des instruments dont parle Pline, le "cestrum" et le "vericulum". Ces discussions oiseuses auxquelles archéologues, botanistes et peintres prirent part, sont closes aujourd'hui: les analyses faites dans les laboratoires du Louvre y ont mis fin. La cire n'était pas chauffée au préalable; elle était étendue partiellement avec un instrument pointu qui pouvait être n'importe quoi, et partiellement avec un pinceau; et il n'y avait pas de "causis" finale<sup>2</sup>). Cette technique, à laquelle on avait consacré tant d'intérêt et qui est celle utilisée dans les portraits de momies, était très en usage dans l'Antiquité, mais a disparu en Occident où, au XV<sup>ème</sup> siècle, elle fut remplacée par la peinture à l'huile. Or, elle a persisté jusqu'à nos jours dans la peinture des icônes, et ce fait que la même technique unit portraits de momies et icônes — n'est point à négliger.

Ce n'est que la découverte en masse de portraits, à la fin du XIX<sup>ème</sup> siècle, qui réveilla de nouveau l'intérêt pour ces oeuvres. Le commerçant viennois Th. Graf, qui se trouvait en Egypte pour acheter des antiquités pour le compte des Musées allemands et autrichiens, avait acquis environ 300 peintures que des Bédouins à la recherche de "sabagh" avaient trouvé dans de vieux cimetières. Au cours des années suivantes, Graf expose ces portraits dans toutes les grandes villes d'Europe et d'Amérique -et les vend à des prix exorbitants. La plupart des portraits actuellement exposés dans les principaux musées proviennent de la collection Graf. L'effet de ces oeuvres - parmi lesquelles se trouvent des pièces remarquables - fut énorme, autant sur les archéologues que sur les amateurs d'art. En effet, de ces peintures où les couleurs s'étaient conservées avec une surprenante fraîcheur, de ces visages cubiques et sereins, figés dans une attitude hiératique, les yeux grands ouverts regardant au-delà du spectateur vers un but lointain à eux seuls visible, emanait une fascination à laquelle il était difficile de se soustraire, une qualité étrange, trouble, équivoque et mystérieuse.

La première réaction passée, les doutes commencèrent. On crût à des mystifications, même à des faux<sup>3</sup>). C'est alors que Maspéro, à cette époque directeur du Musée des Antiquités Egyptiennes au Caire, dépêcha Flinders Petrie au Fayoum, d'où provenaient les portraits de Graf. En deux saisons de fouilles, en 1889 et 1911, Flinders Petrie rapporta environ 150 de ces portraits qu'il avait trouvés in situ dans des nécropoles à Hawara<sup>4</sup>), la plupart encore fixés sur leur momie. L'authenticité des portraits de Graf une fois établie, on pouvait procéder à leur examen archéologique, aux questions de leur date, leur origine, leur provenance. Au cours des années suivantes, la chasse aux portraits du Fayoum battit son plein; des archéologues Anglais, Français, Allemands, Russes s'y mirent. Aujourd'hui, on connaît environ 600 portraits, distribués dans 77 musées sur 3 continents.

En dehors de la technique, qui hantait encore les esprits, la première question qui se posait était tout naturellement celle de savoir à quelle époque appartenaient ces oeuvres, c'est à dire non seulement leur datation, mais aussi si possible l'établissement d'une chronologie à l'intérieur de portraits mêmes.

Aucune de ces peintures ne porte d'indication directe de date, et seuls des éléments indirects s'offraient aux savants. Ces indices, pourtant, étaient assez nombreux et assez sûrs pour permettre une

datation approximative. Des monnaies de l'époque de Constantin, trouvées dans un tombeau avec des portraits, donnaient un "terminus ante quo", de même des papyrus, mais surtout les portraits de la famille de Polius Soter —trouvés à Thèbes—et qui fut Archonte à l'époque d'Hadrien. Ajoutons à cela les coiffures des femmes et leurs bijoux, sans toutefois leur attribuer l'importance que leur donne Flinders Petrie qui a essayé d'établir une chronologie rigoureuse en se basant là-dessus. La somme de ces indices permet ainsi de fixer l'époque durant laquelle les portraits de momies furent en usage. Elle va du début de notre ère jusque vers le IV<sup>ème</sup> siècle A.D. Il est probable que cet usage disparut lorsque la momification cessa à la suite de l'Edit de Théodose.

Quant à l'origine des portraits, deux facteurs indiquent l'un la Grèce, l'autre Rome. La technique encaustique, en effet, était utilisée en Grèce depuis le VI<sup>ème</sup>, peut-être le VII<sup>ème</sup> siècle avant J.-C. On l'employait non seulement pour la peinture à cheval, mais pour peindre les statues et les bateaux, et cela non seulement en vue de les orner mais pour aussi les conserver, comme le relate Pline. D'autre part, leur réalisme puissant relevait de Rome. Là le masque funéraire était moulé en cire sur la face même du cadavre en vue d'en préserver parfaitement les traits — partie la plus personnelle du mort. Cette conservation du visage — lui-même décomposé par la chaleur du climat — était importante pour les cérémonies funéraires. Car les "imagines majorum" étaient ensuite peintes, habillées, et, lors du cortège funéraire, portées par des acteurs et finalement exposées dans l'atrium — en somme, une sorte de galerie des ancêtres avant la lettre. Comme Flinders Petrie<sup>6)</sup> l'a très judicieusement prouvé, les momies avec leurs portraits étaient aussi conservées dans l'atrium. Ce fait, allié au réalisme du portrait, son usage même, permet donc de voir dans les masques romains les précurseurs de nos portraits égyptiens. D'après le savant anglais, nous aurions donc un usage romain avec une technique originellement grecque, introduit en Egypte à la suite de la domination Gréco-Romaine. D'autre part l'évolution historique s'établit d'après un principe cher aux savants: le masque égyptien schématique, en usage depuis les premières dynasties, enrichi par une tendance au réalisme d'origine occidentale, aboutira sous l'influence romaine aux portraits du Fayoum, d'un réalisme insurpassable<sup>7)</sup>.

Cette théorie, exprimée par Flinders Petrie il y a plus d'un demi siècle, a été tacitement admise, et jamais mise en doute jusqu'à ce jour. Or, il nous semble que Petrie a trop simplifié le processus évolutif, et surtout qu'il a omis de voir un phénomène essentiel. Le masque

mortuaire, tel qu'il a été en usage depuis les temps les plus reculés, tel qu'on le retrouve à Mycènes, en Etrurie, à Rome, en Egypte depuis les premières Dynasties, visait le même but : en se basant sur une des lois primordiales de la magie, celle de l'identité, le masque, réplique du corps, se substituait au corps périssable et par là assurait la survie physique de l'individu. Pour cette raison, tous les masques mortuaires — comme d'ailleurs aussi ceux de l'Extrême Orient — sont toujours des masques à trois dimensions. Ils appartiennent au même espace empirique auquel appartient l'homme dont ils sont censés assurer la survie et qui est supposé y revivre.

Le schématisme de ces masques, leur manque de naturalisme importaient peu. Le concept de la personnalité, le concept de l'individualisme, étaient inexistants, et souvent un nom, sur l'image la plus schématique suffisait pour assurer la personnalité. Mais la tridimensionalité par contre était de rigueur — ce volume qui faisait du masque le double du corps, un contrefait. Pour Petrie, le naturalisme croissant des anciens masques mène inévitablement au réalisme insurpassable des portraits du Fayoum, selon lui, ils sont la dernière étape de ce processus évolutif. Mais le savant anglais ne juge pas à sa juste valeur et ne saisit pas l'implication, la signification, du changement de dimension, du passage de la tridimensionalité de la sculpture à la bidimensionalité de la peinture. Car si, pour le spectateur moderne habitué à juger d'après des valeurs esthétiques, les portraits du Fayoum représentent en fait un réalisme plus accentué, plus poussé, que les masques sculptés, il n'en était pas ainsi pour le spectateur ancien qui jugeait d'après des valeurs autres qu'esthétiques, vivant à l'intérieur d'une société encore entièrement régie par des concepts religieux, et valorisant son jugement à partir d'un contexte religieux. Ce n'est donc pas pour des raisons d'esthétique que le masque à trois dimensions, réplique du visage tel qu'il est en réalité, se change en peinture, où la tridimensionalité du corps vivant est transposée sur une surface plane. Ce changement de dimension formelle signifie un changement de dimension spirituelle, d'autant plus qu'il s'agit d'œuvres servant à des fins rituelles, plus encore à des fins sépulcrales. Ainsi, ce changement de dimension coïncide certainement avec un nouveau concept de la mort, exprime une nouvelle attitude de l'homme devant sa propre fin.

Et la question qui se pose est de savoir pourquoi, à partir d'un certain moment, le masque mortuaire, depuis toujours à trois dimensions, plastique, est remplacé par le portrait peint du mort.

L'appartenance religieuse des morts dont les momies portent les portraits n'a pas été établie; cette question jusqu'à présent n'a même pas sérieusement été posée, et aucun lien n'a été établi entre l'usage des portraits et un culte déterminé. Mais plusieurs facteurs indiquent qu'il s'agirait de Chrétiens, ou tout au moins des premiers adeptes d'un mouvement issu de ce Judaïsme tardif qui devait historiquement aboutir au Christianisme.

Le Fayoum avait déjà très tôt possédé une des plus importantes communautés juives, logiquement suivie par une des plus grandes communautés chrétiennes<sup>8)</sup>, et à la suite des persécutions, celle-ci se vante d'avoir donné des dizaines de milliers de martyrs. Or, la plupart de nos portraits proviennent du Fayoum — fait en soi digne d'une recherche. Un suaire, au Musée Pouchkine à Moscou, nous montre la momie la tête encadrée d'un nimbe — indubitablement donc un portrait de Chrétien.<sup>9)</sup> Le calice que tient si souvent le personnage, ce calice d'or orné de cabochons, pourrait donc facilement être un calice eucharistique. Ainsi ces portraits pourraient très bien provenir de momies chrétiennes — paléochrétiennes — d'autant plus que nous savons que l'usage de la momification était répandue en Egypte aussi parmi la population chrétienne.

Or, une fois de plus, si cela était le cas, quelle serait la raison pour que le masque funéraire à trois dimensions en usage depuis des millénaires fut abandonné et remplacé par le portrait peint ? C'est dans la réponse à cette question que réside le problème même des portraits de momies est ce phénomène en apparence secondaire donne la signification précise de ses oeuvres.

Si l'usage du portrait prend fin avec l'abandon de la momification — elle-même délaissée à la suite d'une défense formelle contenue dans le Code de Théodose — peut-être que la substitution du masque plastique à trois dimensions par le portrait peint serait, elle aussi, la conséquence d'un ordre ou plutôt d'une défense ? Nous connaissons cette défense, en effet, formulée dans un contexte de loin supérieur au Code d'un Empereur, aussi formel soit-il. Elle se trouve dans le Décalogue, dans le troisième commandement : "Tu ne feras pas d'image taillée, ni de représentation quelconque des choses qui sont en bas sur la terre, etc..." (Exode, 20, 3). Ce même commandement est repris (Exode 34, 17) "Tu ne te feras point de dieux en fonte." Il ressort clairement de ces deux textes que la défense de figuration vise les images à ronde bosse,

"taillées" ou "en fonte", et non pas des images peintes. Cela se comprend, d'ailleurs, et semble tout naturel puisque la défense visait en premier lieu les idoles et que celles-ci étaient des statues, des images baignant dans l'espace humain et empirique.

Cette interdiction, qui est à la base de l'interdiction des représentations tridimensionnelles et anthropomorphes dans le Judaïsme, du Paléo-Christianisme et plus tard de l'Islam, ne vise point la peinture. Et ce n'est pas pour des raisons esthétiques, comme on a voulu l'expliquer, que l'art chrétien et ensuite l'art de Byzance ont délaissé la sculpture pour trouver dans la peinture leur plus parfaite et plus adéquate forme d'expression. D'ailleurs, le cycle de fresques trouvé dans la synagogue de Doura Europos auquel sont venus s'ajouter d'autres, prouvent que toute la question de l'interdiction de figuration anthropomorphique dans l'art juédique serait à reprendre. Elle s'applique uniquement à la statuaire.

Comme nous le disions plus haut, l'interdit du Décalogue ne portait pas sur la peinture. En effet, par sa bidimensionalité, non seulement celle-ci avait perdu son contenu idolâtre, mais au contraire, par sa transposition sur une surface plane elle avait acquis la valeur de symbole et par là une spiritualité l'apparentant à l'idéogramme et par là à l'écriture.

Le portrait de momie ne pouvait donc point de ce fait avoir le même objet qu'avait eu le masque à trois dimensions, ce but précis qui consistait à conserver la corporalité. La substitution d'une image peinte démontre clairement qu'il ne s'agit plus de conserver le corps, de vaincre en quelque sorte la décomposition physique à l'aide d'un procédé magique. Dans un nouveau concept de la mort, où ce n'est point de la survie physique qu'il s'agit mais où la mort s'ouvre sur une nouvelle promesse d'éternité spirituelle, le corps ne compte plus. Le "omne corpus fugiendum" de Porphyre s'applique à nos portraits du Fayoum; et toutes les disputes, toutes les hérésies qui déchirèrent l'Eglise Chrétienne des premiers siècles jusqu'à la plus importante, celle des Monophysites et Diophysites, ne traitaient en principe qu'une même question: celle de la substance, de la corporalité du Christ, égal ou pareil à Dieu, divine ou périssable. Toutes ces hérésies, très nombreuses surtout en Egypte, reflètent la même préoccupation de la substance divine, et du rapport entre la physis et l'anima. 10).

Un autre facteur vient appuyer notre thèse et démontre que la fonction, l'iconographie du portrait de momie n'était pas la même que celle du masque. La composition de ces portraits, quand on les examine de plus près, montre une étrange contradiction. Ce qui frappe à première vue, c'est le réalisme extraordinaire, cette fidélité envers la nature que connaît ni l'art pharaonique, ni l'art grec, et à peine celui de la Rome impériale. Cette fidélité à la nature, cette "mimésis", les apparentent plutôt à des œuvres de conception similaire de la fin du XIX<sup>e</sup> siècle

ce qui d'ailleurs expliquerait jusqu'à un certain point l'engouement que celui-ci montra pour les portraits. Le peintre n'hésite pas à rendre s'il le faut la laideur, la vieillesse et même la déformation physique; et ces portraits, indépendamment de leur valeur artistique, semblent comme une chronique vivante des hommes de cette époque. Mais toute cette galerie d'hommes, de femmes et d'enfants qui défile devant nos yeux, avec toutes leurs caractéristiques et toutes leurs particularités est le contraire d'une conception vivante : ils sont tous figés dans une même et unique attitude, toujours égale et invariable, extraspatiale et extratemporelle. Elle aussi, examinée de plus près, se révélera contradictoire. Les personnages, sans exception, se présentent de face, presque en parfaite frontalité, dans une attitude calme, immobile et hiératique—attitude d'ailleurs convenable et toujours en usage pour un sujet de contenu religieux. "Presque" en parfaite frontalité, disions-nous : car en réalité tous ces visages qui nous regardent avec leurs grands yeux ouverts, montrent une légère flexion soit vers la droite, soit vers la gauche. Au lieu de se présenter dans une frontalité parfaite, et par conséquent dans une parfaite symétrie, l'épaule tourne légèrement, tandis qu'un pan d'étoffe accentue ce mouvement de rotation vers le côté (Fig. 1-5).

Comment s'explique cette étrange composition qui d'un côté accentue le hiératisme d'une représentation cultuelle et d'un autre l'abolit par le mouvement? Et pour quelle raison le peintre avait-il abandonné la stricte frontalité? Il va sans dire que dans un objet par excellence rituel l'explication ne pourrait être d'ordre esthétique. Un suaire, actuellement au Musée Pouchkine à Moscou, nous donne la réponse<sup>11</sup>). Il montre le défunt tout entier (Fig. 6). Celui-ci est debout, habillé de blanc, devant un monument que l'on reconnaît comme son sépulchre. Deux divinités égyptiennes le flanquent : à gauche, Osiris, dieu des morts, enveloppé de bandelettes — à droite, Anubis, le psychopompe, qui pose sa main sur l'épaule du défunt lequel, légèrement tourné vers lui, semble prêt à le suivre. Ici aussi, le personnage se tient immobile et presque en

parfaite frontalité, n'était ce léger mouvement vers Anubis. L'iconographie de cette pièce est claire : le mort est sorti, transfiguré, de son caveau. Il ne s'agit pas du portrait d'un corps conservé dans sa substance physique, mais d'une épiphanie, de l'apparition de l'âme immortelle. L'attitude du mort représenté sur le lincoeur est celle que nous retrouvons sur les portraits du Fayoum. C'est cette même frontalité combinée avec ce même mouvement à peine perceptible vers le côté. Les portraits représentent, donc dans un "pars pro toto", ce que représentait le suaire : la sortie de l'âme du caveau, prête à suivre le psychopompe vers l'éternité.

La mutation de la sculpture, de la ronde bosse, de la réplique mimétique, en peinture, de même que le changement de l'attitude, du profil utilisé dans l'Ancienne Egypte en frontalité telle qu'elle apparaît pour la première fois dans les fresques à Doura Europos, voilà deux phénomènes riches en signification non seulement dans le domaine de l'art --qui compte moins dans des civilisations encore entièrement soumises, à des concepts religieux -- mais dans le domaine de la pensée religieuse et partant dans l'attitude nouvelle de l'homme envers le phénomène métaphysique. A partir de cette mutation s'explique le passage des anciennes formes aux nouvelles, par le nouveau contenu du message messianique, tant dans le Judaïsme tardif que dans le Christianisme primitif. De la grossière mimésis de la statuaire à la transposition imaginaire du symbole, c'est à dire au tableau peint (qui par la suite donnera naissance à l'image sainte, à l'icône, assimilée dans les premiers Conciles à la parole, au "Logos"), de telle, ou telle attitude à celle de la frontalité hiératique dans l'art du Paléochristianisme par laquelle se manifeste le nouveau rapport, le rapport direct entre l'homme et son dieu, tout le nouveau contenu d'un art, de l'Art Chrétien, d'une civilisation qui a abandonné le paganisme, s'élabore. Une de ces premières manifestations, exprimant en même temps la nouvelle attitude de l'homme devant la mort, sont les portraits trouvés au Fayoum. Par la nouvelle dimension formelle qu'ils apportent à l'art, se manifeste la nouvelle dimension spirituelle acquise par l'homme au début de notre ère.

## NOTES

1. *Plinius*, *Historia Naturalis*, XXXV, 153.
2. E. Coche de la Ferté, *Les Portraits Romano-Egyptiens du Louvre*, Paris, 1952, p. 12.
3. H. Heydemann, Ueber die gemalten Bildnisse aus dem Fayoum im Besitz des Herrn Th. Graf in Wien; Sitzungsbericht d. kgl. Sachs. Ges. d. Wiss. XL-1888.
4. Flinders Petrie, *Hawara, Djalmau and Arsinoe*, London, 1890.  
Flinders Petrie, *Roman Portraits and Memphis (IV)*, London, 1911.  
Flinders Petrie, *The Hawara Portfolio*, London, 1913. (Pour une plus ample bibliographie, voir H. Zaluscer, *Bildnisse aus dem Wüstensand*, Wien, 1961).
5. Deux études se sont occupées de la datation des portraits de momies ; celle de C.C. Edgar, *On the dating of the Fayoum Portraits*, *Journal of Hellenic Studies*, Vol. XXV, 1905 ; et celle de H. Drerup, *Die Datierung der Mumienportraits*, *Studien zur Geschichte und Kultur des Altertums*, XIX, Paderborn, 1933.
6. Flinders Petrie, *l.c.* p. 25
7. Flinders Petrie, *Hawara*, *l.c.*, p. 29.
8. H. Riad, *Arsinoe*, Dissertation. Paris 1955.
9. H. Zaluscer, *l.c.*, Fig. 4, pl. 29
10. Une pensée pareille est exprimée dans les *Lettres aux Corinthiens*, 15, 44, 50.
11. H. Zaluscer, *l.c.*, Fig. 3.





Fig. 1 — Portrait d'homme  
(Ny Carlsberg Glyptothek, Kopenhagen)





Fig. 2 - Portrait de femme,  
(Kunsthistorisches Museum, Vienne)

---

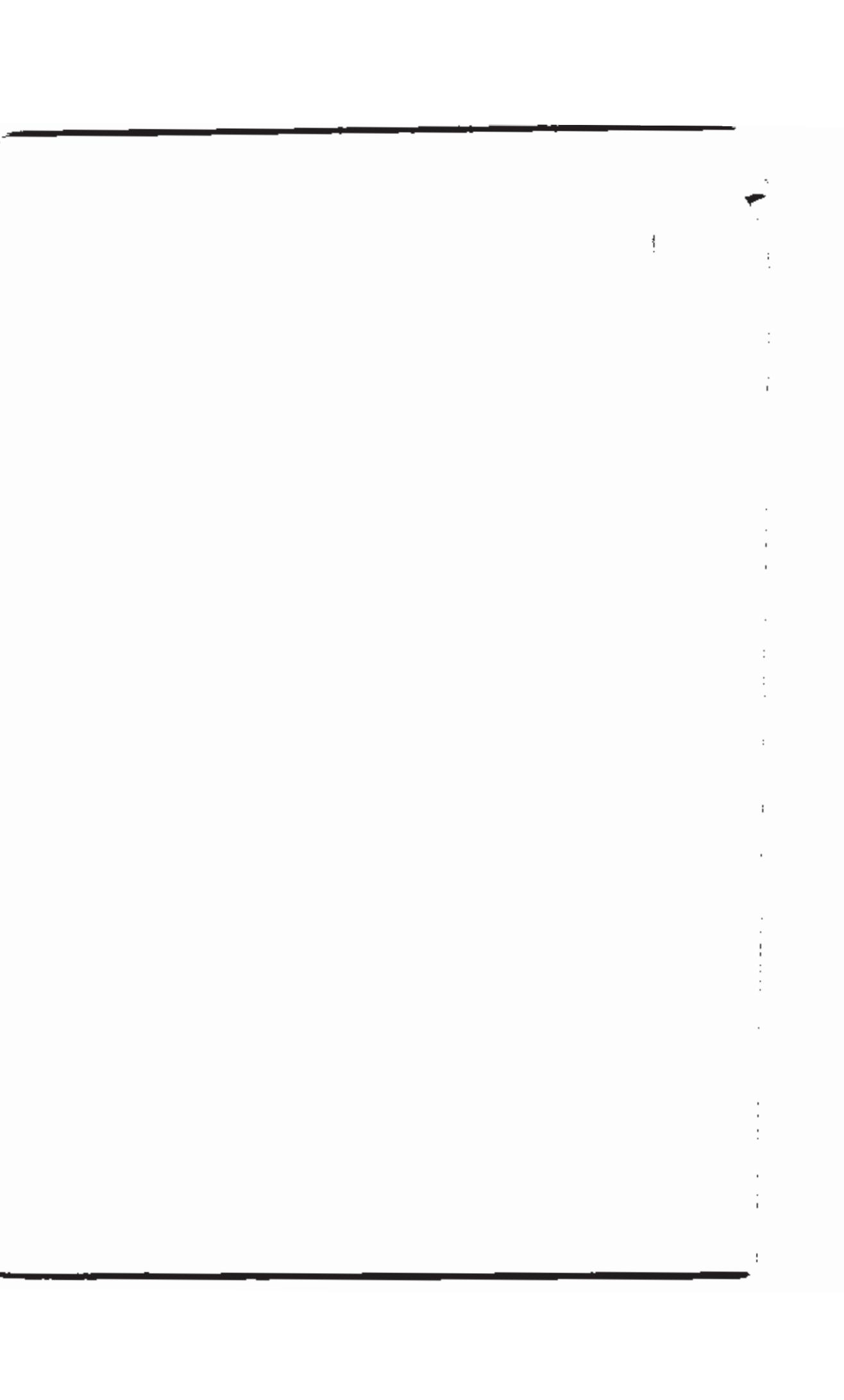




Fig. 3 - Portrait d'homme,  
(Papyrologische Sammlung, Vienne)

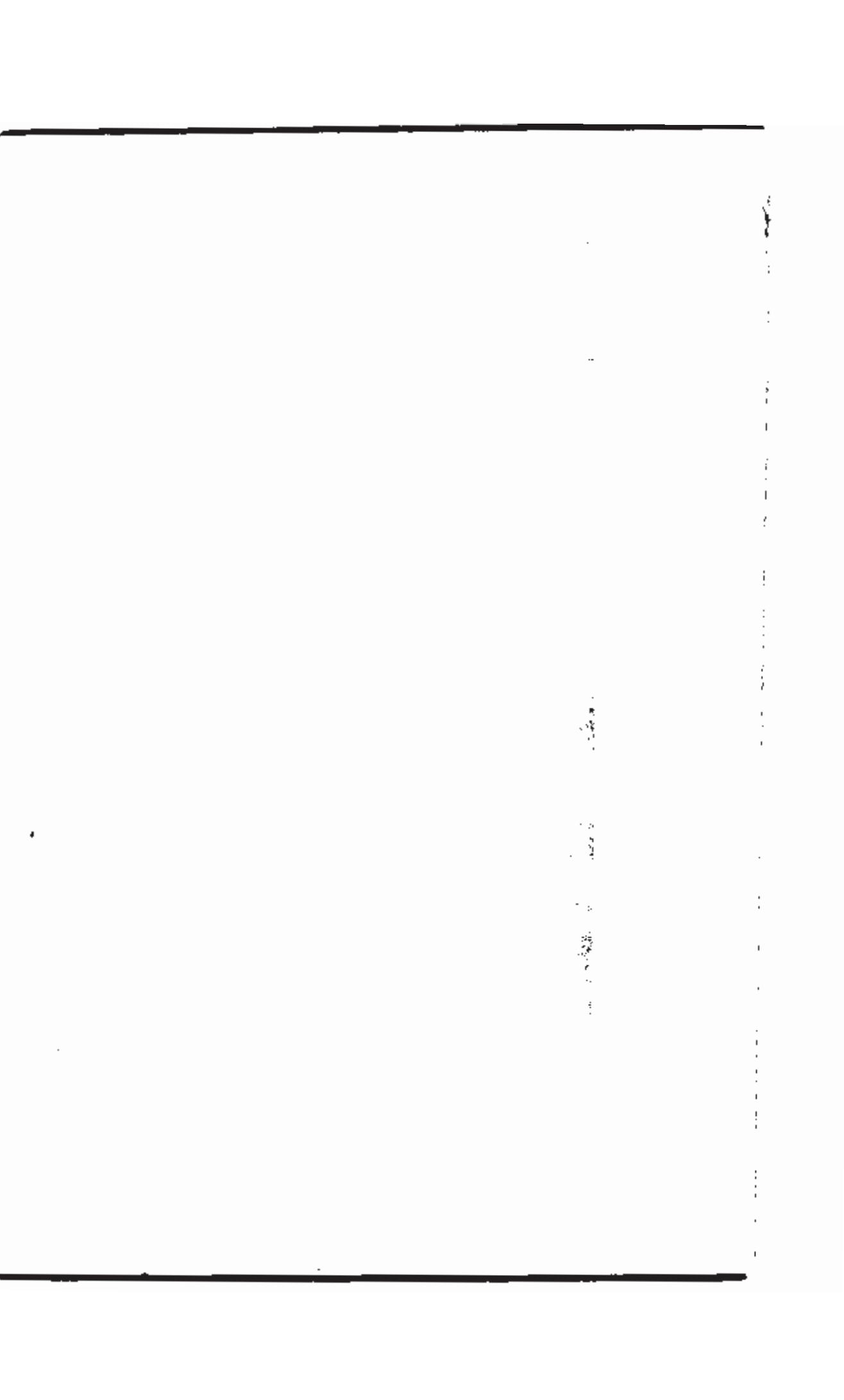




Fig. 4 Portrait d'une jeune femme.  
(British Museum, Londres)

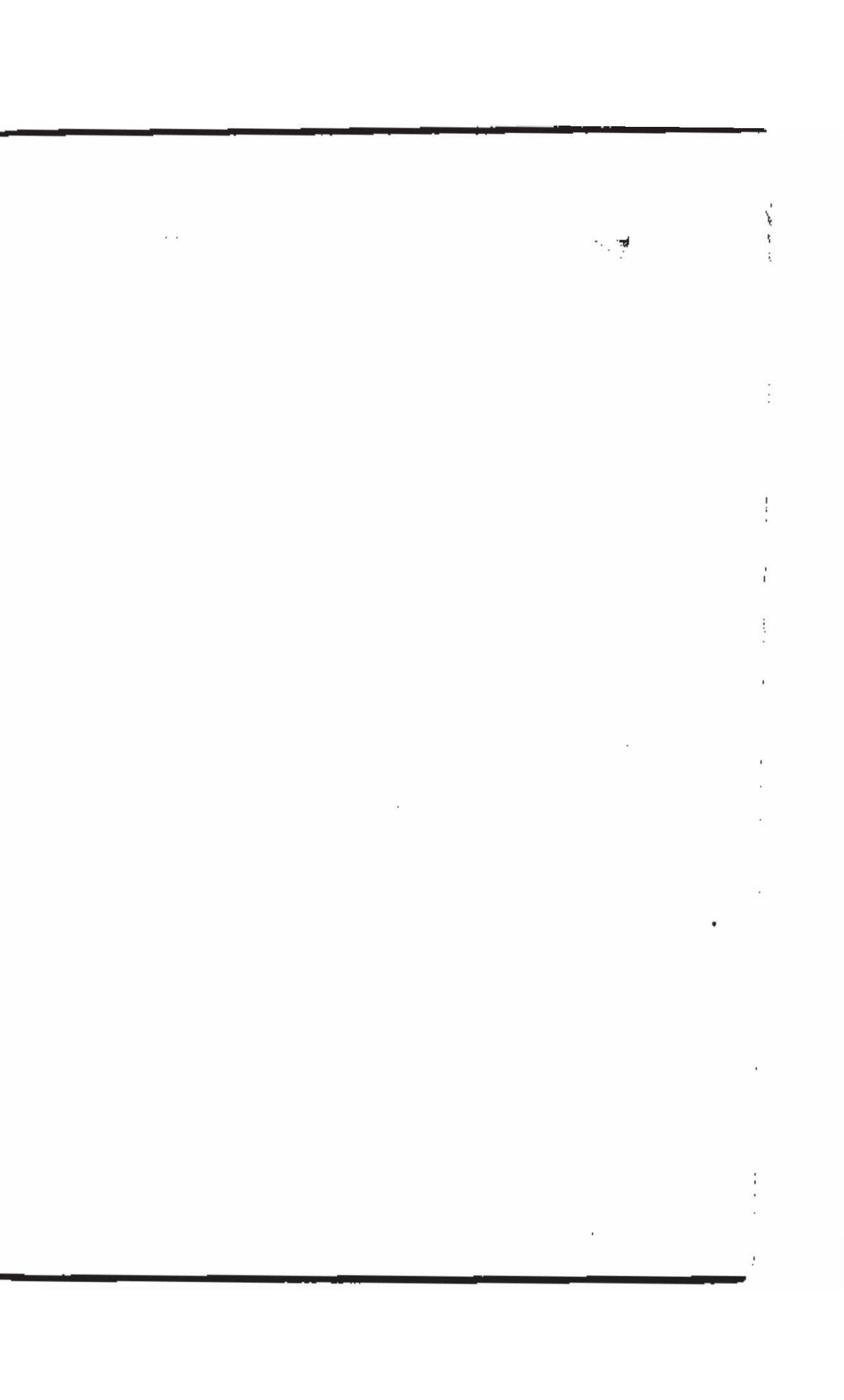




Fig. 5 La Dame du Fayum.  
(Le Louvre, Paris.)

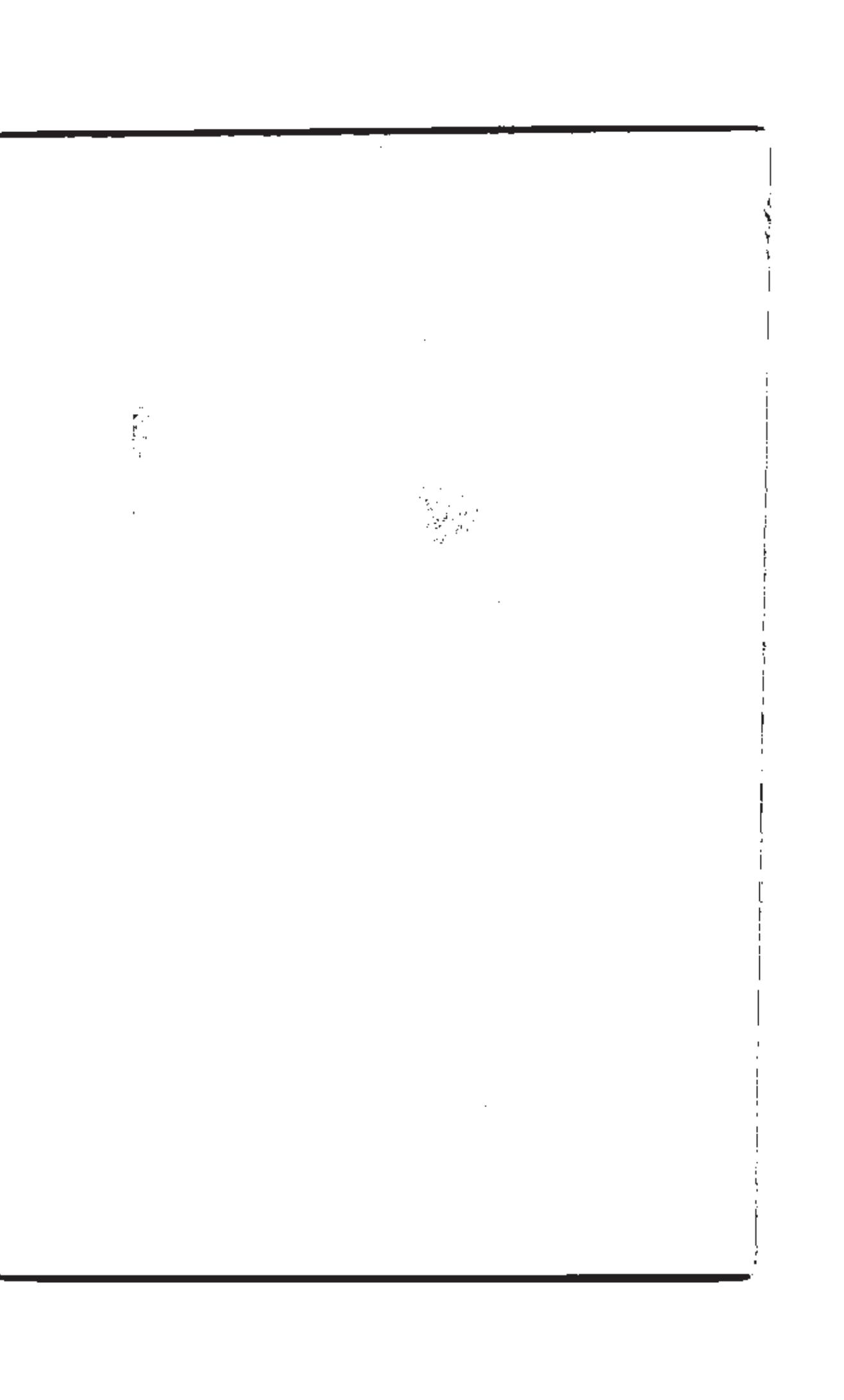
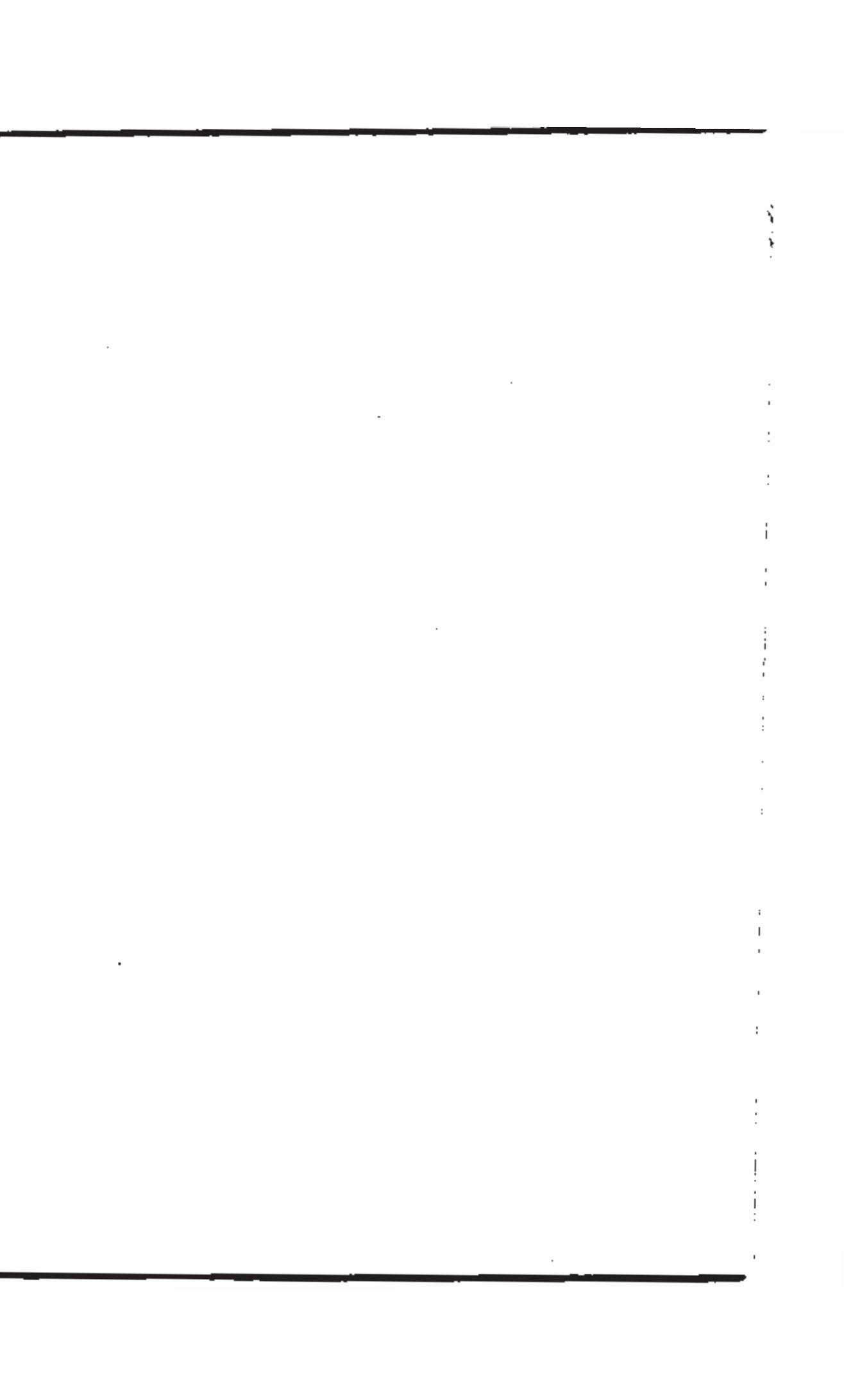




Fig. 6. Saaire, Moskou.  
Musée Pouchkine



## INDUSTRIES, EMPLOYMENT AND URBAN REDEVELOPMENT IN EGYPT

*By*  
DAWLAT SADEK

Redevelopment problems of cities and regions are intimately connected with the industries and the employment which they create. The Second Five Year Plan of Egypt accords high priority to rapid industrialisation, especially to the development of basic and heavy industries. It envisages sizeable increase in manufacturing and mining industries in the public as well as the private sectors. We may, therefore, anticipate considerable increase in employment also. These factors will have impact on the structure of cities and regions.

We live in an industrial era and hope to depend for prosperity and better standard of living on the fruits of industry. Nevertheless, administrators as well as planners have seldom shown appreciation of its real nature and varied problems. To most people the word 'Industry' means something necessary to provide an economic base to the city and to stabilise its employment potentials, but unpleasant and untidy-grim masses of disfigured buildings, smoking chimneys, noise, odour, etc. The town planners try to classify industries very superficially as 'Light', 'Medium', 'Heavy' or 'Noxious' and 'Harmless'. Without

1. Just over 300,00 persons were engaged in the manufacturing industry in Egypt in 1951. It is very important to notice that in the decennial census of Egypt of 1947 of only about ten per cent of the working population gave their occupation as some form of manufacturing, as compared with sixty per cent who registered as farmers. Moreover, more than half of the former should properly be classed as cottage-industry, handicraft workers, as shown by comparing this enumeration with that of a census taken 1952, which dealt only with "industrial establishments" as distinguished from cottage industries. It enumerated 301,476 persons, as compared with the total enumeration of 668,703 in 1947 census. Even of that a large proportion of the 19,475 establishments it covered had little to distinguish them from cottage industries. More than half of them employed less than five persons each, fully eighty per cent of them less than ten each.

- - -

detailed investigations of the nature of industries and their location pattern in our cities and regions, we make a sweeping generalisation that industries have developed wherever they could. Generally this is not true; most industries have not simply grown haphazard but have been conditioned by hard economic facts, such as the availability of raw materials, power and labour, cheapest and most convenient methods of moving people and goods, nearness to markets, etc. If in the central districts of our industrial cities we find a dismal jumble of houses, shops, factories and schools, it is not because of any historical accidents but because planning was either totally absent or quite often it came on the scene after the industry had already determined the salient features of the city structure and the urban pattern.

With the phenomenal increase in population and the rapid urbanisation, we are witnessing sporadic growth of new industries, exodus of rural population to urban centres, growth of conurbations, urban encroachment on good agricultural land, slums and appalling traffic conditions and long daily trips to work.

Industry and employment are closely related to each other. Cairo and Alexandria account for a high proportion of total industrial production, Cairo accounts for 27.41% of total industrial employment and 16.5% of total value added. The share of Cairo and Alexandria combined rises to 53.39% and 39.2% respectively according to 1957 census. We notice the great importance of Cairo which alone averages almost a third of total establishments in Egypt. Added to Alexandria their combined share would rise to as high as 71.9 in brokerage. On the average they account for more than half of producers' services. In terms of output rather than number of establishments it is probable that the share of Cairo is even higher (Table I).

There are indications that in the context of expanding economy under the five year plans, new industries and extension of existing industrial plants may alter substantially the employment pattern of Cairo and Alexandria areas and of the country generally. Therefore, one should know what these trends and tendencies are; how they vary from one type of industry to another? Are there any indications of industries moving out of the large cities to outlying areas? Can Zoning squeeze moving out of the large cities to outlying areas? Can Zoning squeeze

Table I. Geographical Distribution of Producers Services (1954).<sup>1</sup>

	Egypt		Cairo		Alexandria		Cairo and Alexandria
	No. of Establishments	% of total	No. of Estab.	% of total	No. of Estable.	% of total	% of total
Gross Trade	14386	100	5710	39.1	2947	20.2	59.3
Banking	475	100	111	23.3	100	21.5	44.8
Brokerage	2699	100	1041	38.5	902	33.4	71.9
Transport	1778	100	418	23.5	425	23.9	47.4
Warehouse	1651	100	477	28.8	391	23.6	52.4

out noxious industries from central districts of urban conglomeration? Is it possible and desirable to displace existing industries, under redevelopment schemes? How will this affect the economic base of the industrial city, the distribution of industrial population, employment potentials, retail business, public and private investments, etc.? Unless we know answers to these vital questions, urban redevelopment plans will lack definition and reality. This paper is an attempt to analyse the trends in growth of population and urbanisation in Egypt, to investigate the problems cited above, and to explore planning possibilities. (map 1)

#### *Rapid Urbanisation :-*

Problems relating to industry, employment and Urban redevelopment in Egypt will have to be viewed in the context of the following phenomena :

- a) rapid increase in population,
- b) rapid urbanisation and growth of cities,
- c) continuous exodus of landless agricultural labour from rural areas to towns and cities, in search of either seasonal or permanent employment, thereby causing over population of cities.

Three outstanding features of population growth have marked the last half-a-century in our country :

1. Source : Central Statistical Commission "Fundamental Statistics"

antages of better housing but they have committed to the expense of long daily journeys to work, which have to be made in over crowded, fatiguing and unhealthy conditions. Further, the volume of traffic in the core of the city has increased to such proportions as to cause acute traffic congestions, accidents, parking problems.

Industrial workers, who cannot afford the long and expensive trips have tried to live as near to the places of work as possible in apartments and slum-dwellings, which lack even the minimum amenities essential for civilised life. The prohibitive land values and the intensive development in the core of the city have become, indeed, the main bottlenecks to redevelopment.

#### *Industrial Zoning :—*

One of the most effective planning tools devised to promote the best use of land and building is zoning. However, zoning is by no means the panacea for all ills. Often, zoning has been misused to retard replanning and reconstruction of cities.

Most communities require a certain amount of industrial development to produce a sound economic base and to stabilise employment. Few communities can support their residential areas without offering gainful employment in industry. Trades, services, transport and other types of employment are ultimately dependent, to a large degree, on primary or productive jobs offered by industry. Industrial land use is, therefore, as legitimate and essential as any other land use established under zoning. A careful investigation of non-conforming uses in industrial cities will reveal that it is not industries alone that have invaded residential areas, but residences also have often encroached on industrial zones. The central business district in Cairo occupies a rectangle roughly delineated by Goumhoriya Street and Opera Square to the East, Ramsis Street and Tahrir Square to the West, Saha Street and Bab-el-luk Square to the South, and Alfi Street to the North. The inner industrial belt embraces such areas as Marouf, Maspero, Boulak, Kolali and Sabtia, Ghala, Daher, Azhar, and Abdino, in almost a ring around the central business district. The outer industrial belt includes Imbaba, northern Shobra and Zeitoun, Shobra el Khaima, Toura and Mausara. However, mixed land use is visible in all these areas. (Map II).

Generally best sites for industrial location are those which are easily accessible by routes of transportation by railways, highways, and waterways. Therefore industrial potentialities of areas and sites, bearing favourable relationship to transportation, should be recognised in the zoning and rezoning processes. Further, industrial zoning and highway planning should go hand in hand in our comprehensive development and redevelopment schemes. Special consideration should be given to the street layout of industrial areas, when redevelopment is taken up. It is wasteful to encourage or proceed with the construction of an intricate net work of streets in an area zoned or rezoned for industry as this may cut the potential industrial sites into individual parcels, too small for proper use by large firms.

#### *Concentration or Decentralisation :—*

Some planning enthusiasts advocate compulsory scattering of existing industry and dispersal of urban population as a solution to redevelopment of large cities. But is this possible, and desirable in Egypt under the existing conditions? Relocation of existing industry is bound to be a slow and difficult process. It is not economically sound, particularly under present exigencies, when the Egyptian economy has entered a crucial phase of development, to condemn factories which are in good working order, merely because they happen to be near a residential area. That all factories should be confined to industrial zones, insulated from residential areas by a belt of open space, is the blindest dogmatism.

Many economists and industrialists, on the other hand, advocate that industries which are concentrated, grouped together and located in one zone, offer many advantages, such as :

- a) Truck traffic is more efficient and less dangerous when industries are put together in one area.
- b) Utilities and services like water, electricity, sewerage etc. can be provided more economically for groups of factories than if they are scattered.
- c) Public transport for the workers can be more easily provided for groups of factories than if they are decentralised.

- d) Grouping is more economical in land because the demand can be averaged out between expanding, declining and static industries and between large, medium and small factories, so that the amount of reserve land needed is less.

Though these advantages are very real and there is considerable force in the above arguments, the advantages of planned decentralisation far outweigh the advantages of concentration.

What we therefore need in Egypt at present is a clear declaration of national policy of industrial location and relocation, based on a full assessment of the nature of our industries and their problems and a thorough study of the industrial structure of our cities.

Under present conditions, an effective policy of relocation and dispersal of industries necessitates a higher level public expenditure, than is within the capacity of local planning authorities. Large funds are necessary to extinguish industrial rights in congested areas and to assist suitable firms to move out to planned industrial districts. Moving a factory is a very difficult and costly process. Quite apart from the cost of land, new buildings, shifting of plant etc. there is the difficulty of recruiting new labour, training it and housing it. These difficulties are likely to prove serious obstacles to mobility of industry. It will therefore, be necessary to offer the industrialists some positive inducements providing attractive sites and buildings in the right places.

Many small manufacturing firms hang on to the obsolete premises and workshops because of their inability to cover the costs of shifting. It may be worthwhile to persuade a group of small establishments engaged in the same trade or industry to move out together, to a small town or to an organised industrial district in the city. A co-operative transfer of this sort will ease the problems of small enterprise. This, in which we notice a marked tendency for similar firms to cluster together in the core of the city.

#### *Where should Industry Go ?*

Where should the new industrial firms and those which are displaced be located ? What should be the line of policy regarding industrial location ? When we have the following alternatives ?

- a) extending the fringes of existing industrial towns,
- b) building satellite towns around the metropolitan cities.

Agricultural economists prefer the fringe extension of existing industrial towns to building of satellite towns, as they fear that the latter would probably take away more good land from agriculture and would absorb into industry existing agricultural labour over a wide radius, instead of taking the unemployed from the cities and towns. In a country like Egypt, with an economy based primarily on agriculture, this will have adverse effects on agriculture and agricultural production.

*Industry in small towns : -*

Most rural areas are losing their population due to migration to towns and cities. If some industries could be attracted to country towns, then the improvement of rural services and amenities would be easier. Further, the aimless drift of the landless labourers from villages could be arrested only by a strengthening of rural economy.

Some of the problems that unplanned urbanisation and misplaced industries tend to create may be avoided by the establishment of small centres of industrial production, all over the country.

Although there has been considerable development of large-scale industries, Egypt remains, by and long, a country of small scale production, all over the country. The location and relocation of cottage industries therefore assume great importance in urban redevelopment.

Most of the cottage industries are facing great odds on account of lack of facilities like good sites, electricity, water supply, etc. It is therefore suggested that local authorities should make provision for 'Flatted Factories', in which many small industrial firms scattered throughout a large city in blighted premises could be relocated and grouped together, with advantage.

*Regional Basis :—*

Local planning for industry and urban redevelopment cannot be successful unless it is fully backed up by an effective policy worked out at the regional level. Such a policy should be linked with the controls over the admission of new industry and relocation of existing industry in the entire metropolitan region, or resource region.

Urban redevelopment problems and policies are intimately tied up with employment potentials and economic base. No urban renewal scheme can succeed, unless there is an equivalent transfer of employment. Because, employment is the great magnet, which mainly determines

where people seek to live. If a large number of people are displaced from congested areas due to urban redevelopment, while the volume of employment remains unaltered, the effect will be that they must travel much longer journeys every day to work, which will only aggravate the problems. At the same time, it is essential that the urban area should be constantly alert to the means for maintaining, adopting and expanding its economic base. It cannot therefore ignore the need for and the claims of industry and commerce. A poor and static city can ill-afford replanning and reconstruction. How to reconcile these two conflicting forces is at the greatest dilemmas that city planners and city administrators are facing at present.

*Need for a Realistic Approach :—*

Town planners have often been accused of putting too many obstacles to development of land in the fond hope of developing and redeveloping urban areas. Geographers and Economists criticise that 'Planning for planning's sake is the planner's occupational disease.' Geographers often think that planners are too ambitious and unrealistic in their approach and purpose impracticable solution to urban redevelopment problems.

Over generalisations regarding industrial location are dangerous. Each industry, and indeed each factory, has its own individual problems, many of which cannot be foreseen by even the most informal planner. Therefore the planners have to have close contact with geographers and industrialists, so that the present barriers of mutual incomprehension and conflict of interests, which divide the two, may be removed. Interest of both industry as well as planning can be best served when the geographer and the planner work together and learn to appreciate each other's problems.

---

1. Fogarty, M.P. : *Town and Country Planning*. Hutchinson's University Library, London 1948.

Table II. Population of Cairo and Alexandria, 1882 - 1960

	Cairo			Alexandria	
	Population of Egypt (000's)	Population in thousands	% of total	Population in thousands	% of total
1882	6706	399	5.9	233	3.5
1897	9635	590	6.1	316	3.3
1901	11190	678	6	354	3.1
1917	14177	1065	7.5	573	4
1927	14177	1065	7.5	573	3.5
1937	15920	1312	8.2	686	4.3
1947	18966	2090	11	919	4.8
1960	26065	3346	12.5	1513	5.5